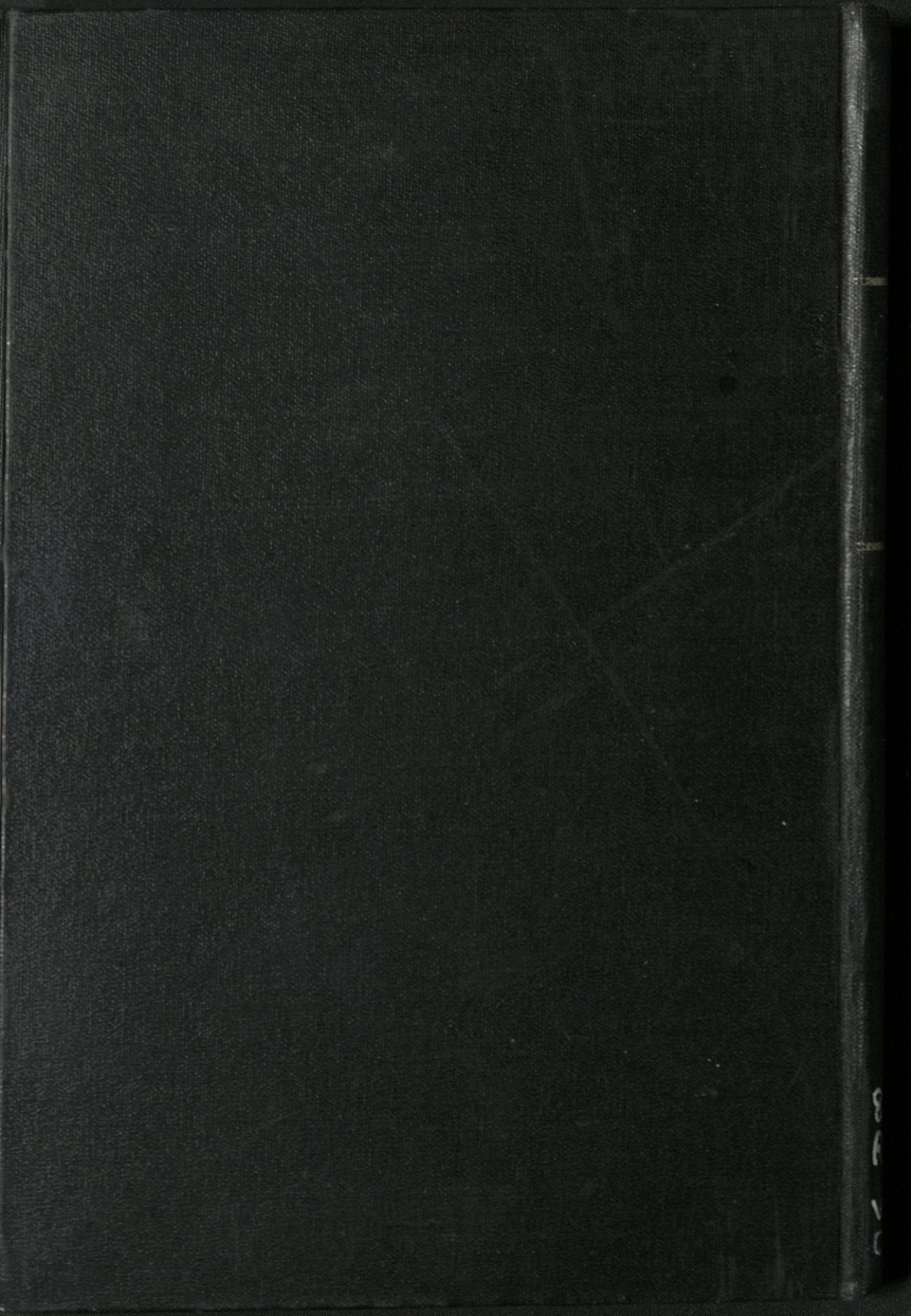
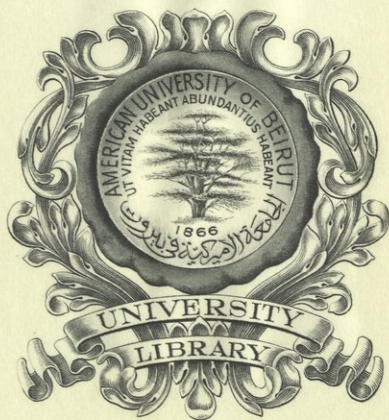
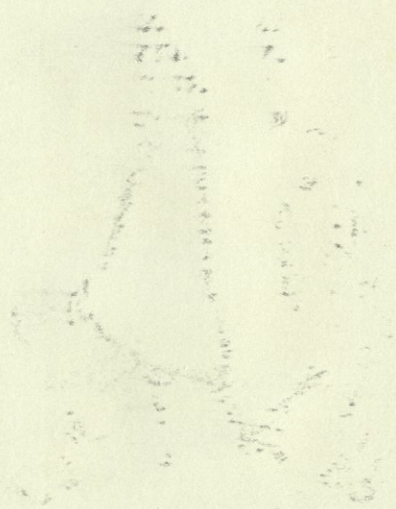
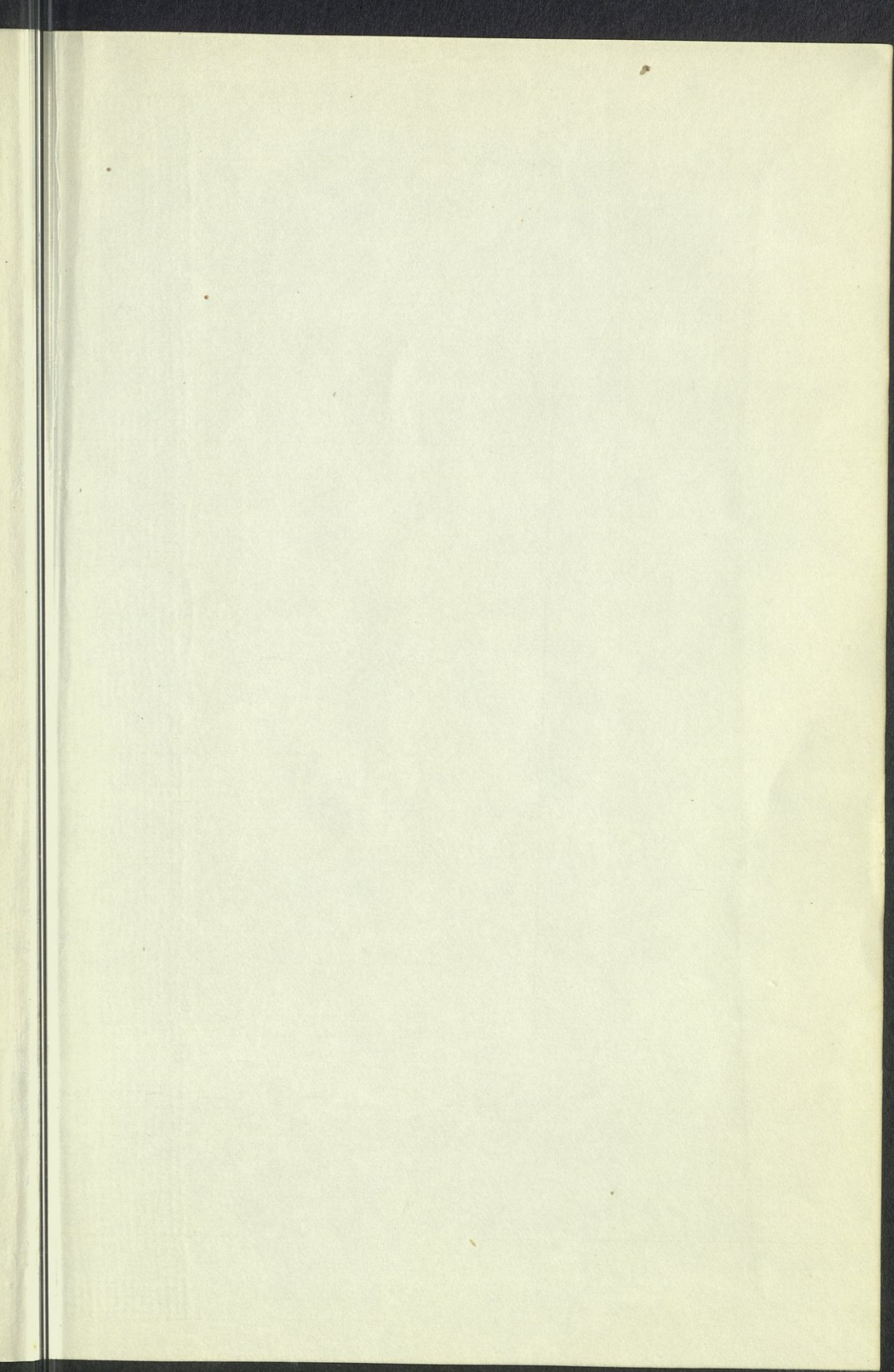




AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







فكر القلم

مفتي الديار

للمرء الاذن

المرء الاذن

المرء الاذن

المرء الاذن

المرء الاذن

المرء الاذن

4

1

1

1

1

1

Jan 1931

بجته التأليف والترجمة والنشر

لديته من
بجته التأليف والترجمة والنشر

فصحى القلم

« بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، »

« أوقبس من نور الذكركم الحكيم »

عبد الله بن عبد الله

في تقريره « إيجاز القرآن » للرافعي

كتبة

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الأول

[الطبعة الأولى]

(حقوق الطبع محفوظة)

57282

القاهرة

مطبعة بجنه التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٦ - ١٣٥٥

892.78
R138wA
V.1
C.1

عدد النسخ
٢٨

Jan. 1937

المطبوع من مؤلفات الكاتب

- تاريخ آداب العرب .
- إعجاز القرآن .
- تحت راية القرآن .
- المعركة بين القديم والجديد .
- كتاب المساكين .
- حديث القمر .
- رسائل الأحرار .
- السحاب الأحمر .
- أوراق الورد .
- ديوان الرافعي .
- ديوان النظرات .
- السفود .

تحت الطبع

الجزء الثالث من وحى القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ
فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْثِرُنَّ بِهَا بَكْفِيرِينَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ اقْتَدِهْ »

دعوة الأستاذ الامام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله

لمؤلف « وحى القلم » فى أول عهده بالأدب

ولمنا الدير الكفاضل مصطفى أفندي صادق الكرافى زاده مدد

هـ ما اثر أدبك ومنه ما نحن فى قلبك لا اننا صلت لنا، نبنا، فليس ذلك
ناتنا آباء، مع اننا نبنا، ولكن اعمدك من خلق الله ولبنا، واقدم صحتك على صفا
القرآن، واسأله ان يجعل للمؤمنين منك سببا يحضروا اهلنا، وان يفتيك
فى اننا وافر مقامه فى اننا وافر

السلام
هـ لسان



نص كتاب الأستاذ الامام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى افندي صادق الرافعي : زاده الله أدباً
لله ما أثمر أدبك ، والله ماضٍ لى قلبك ، لا أقارصك ثناءً بثناء ،
فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء ، ولكني أعذك من خلص الأولياء ،
وأقدم صفك على صف الأقرباء . وأسأل الله أن يجعل للحق من
لسانك سيفاً يمحى الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر
مقام حسان فى الأوائل . والسلام

٥ شوال سنة ١٣٢١

محمد عبده



صدر الكتاب

البيان

لا وُجُودَ للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها يُقيمها الكاتب على حدودٍ ويديرها على طريقة ، مُصَيِّباً بألفاظه مواقعَ الشعور ، مُثْبِرَآ بها مَسَاكِينَ الخيال ، آخِذاً بوزنٍ تاركاً بوزنٍ لتأخذ النفسُ كما يشاء وتترك .

ونقلُ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعها من الحياة في أسلوب وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدقَّ وأجمل ، لوضعه كل شيء في خاصٍّ معناه وكشفه حقائق الدنيا كَشْفَهُ تحت ظاهرها الملتبس .

وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة ؛ تَسْتَدْرِكُ النقصَ فَتُثَمِّمُهُ ، وتتناولُ السرَّ فتُعْلِنُهُ ، وتلمسُ المقيّدَ فتُطْلِقُهُ ، وتأخذ المطلقَ فتحُدُّهُ ، وتكشفُ الجمالَ فتُظْهِرُهُ ، وترفع الحياة درجةً في المعنى ، وتجعل الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به .

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ؛ ولكنه أداةٌ في يد القوة المصورة لهذا الوجود ، تُصَوِّرُ به شيئاً من أعمالها فنّاً من التصوير . الحكمة الغامضة تُريده على التفسير ، تفسير الحقيقة ؛ والخطأ الظاهر يُريده على التبيين ، تبين الصواب ؛ والفوضى المأجبة تسأله الإقرار . إقرار التناسب ؛ وما وراء الحياة ، يتخذ من فكره صلةً بالحياة ؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرَّحلةً نفسيةً لتعلو به أو تنزل . ومن ذلك لا يُخلَقُ المُلْهُمُ أبداً إلا وفيه أعصابه الكهر بائية ، وله في قلبه الرقيقِ مواضعٌ مُهيَّاةٌ للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية وتتساقط منها بالمعاني .

وإذا اختير الكاتبُ لرسالةٍ ما ، شعر بقوةٍ تفرض نفسها عليه ؛ منها سِنَادُ رأيه ، ومنها إقامةُ برهانه ، ومنها جمالُ ما يأتي به ، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها

جميعاً ، له بنفسه وجودٌ وله بها وجودٌ آخر ؛ ومن ثمَّ يُصبح عالماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجِّه ؛ ويُلْقَى فيه مثلُ السر الذي يُدْقَى في الشجرة لإخراج ثمرها بعملٍ طبيعيٍّ يُرى سهلاً كلّ السهل حين يتمُّ ، ولكنه صعبٌ أيُّ صعبٍ حين يبدأ .
✓ هذه القوة هي التي تجعل اللفظة المُفْرَدَةَ في ذهنه معنًى تاماً ، وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة ، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشفٍ عن حقيقة ، وهي تُخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ، وتُدْخِلُه في حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ؛ وهي هي التي تميز طريقته وأسلوبه ؛ وكما خُلِقَ الكونُ من الإشعاع تضع الإشعاع في بيانه ^(١) .
ولابد من البيان في الطبائع الملهمة ليتسَّع به التصرُّفُ ، إذ الحقائقُ أسمى وأدقُّ من أن تُعرفَ بيقين الحاسة أو تنحصرَ في إدراكها . فلو حُدَّت الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبَّسَ الملائكةُ بهذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثمَّ فكثرةُ الصور البيانية الجميلة ، للحقيقة الجميلة ، هي كل ما يمكن أو يتسَّى من طريقة تعريفها للإنسانية .

وأيُّ بيانٍ في خُضرة الربيع عند الحيوان من آكلِ العُشبِ ، إلا بيان الصورة الواحدة في معدته ؟ غير أن صُورَ الربيع في البيان الإنسانيَّ على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ، ويكاد الندى يُنْضِرُّها حُسْنًا كما ينْضِرُّه .
ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى ، كالإيمان ، والجمال ، والحب ، والخير ، والحق — ستبقى محتاجةً في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة .

✓ وفي الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم ومعانيهم فناً عقلياً غائباً ✓
✓ صحة الأداء وسلامة النَّسَقِ ، فيكونُ البيانُ في كلامهم على نَدْرَةٍ كَوْخِزِ الخُضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا . ولكن الفنَّ البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التي صنع منها الكون .

الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة .
أولئك في الكتابة كالطير له جناحٌ يجرى به ويدفُّ ولا يطير ، وهؤلاء كالطير
الآخر له جناح يطير به ويجرى . ولو كتبَ الفريقان في معنى واحدٍ لرأيتَ
المنطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا في معانٍ وألفاظ ؛ وترى الإلهام
في الأسلوب الآخر يطالعك أنه هنا في جلال وجمال وفي صور وألوان .

ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب ، تخرج
بها الألفاظ أكبر مما هي ، كأنها شبت في نفسه شاباً ؛ وأقوى مما هي ، كأنما
كسبت من روحه قوة ؛ وأدل مما هي ، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة . فالكاتب
العلمي تمر اللغة منه في ذاكرةٍ وتخرج كما دخلت عليها طابعٌ واضعها ؛ ولكنها
من الكاتب البياني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعه هو . أولئك أراحوا اللغة
عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علّوها إلى أسى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ،
ولا شيء إلا الفكر والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون
إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي .

والكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين في خلق الناس : ففي كل الوجه تركيبٌ
تامٌ تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخلق جمال الخلق ،
ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ، وهو لذلك ، وبذلك ، يرى ويؤثر ويعشق .
وربما عابوا سمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ؛ وبأنه مخالف ،
ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه مخير ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير
التكاليف ، ولكن الحرية كذلك .

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع ،
وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتبُ البيانيُّ
فلا تنتظر الأدب .

اليمامتان

جاء في تاريخ الواقدي « أن (المقوقس) عظيم القبط في مصر، زوج بنته (أرمانوسة) من (قسطنطين بن هرقل) وجهرها بأموالها وحشمها لتسير إليه، حتى يبنى عليها في مدينة قيسارية^(١)؛ فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها.. وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصاراً شديداً، وقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم من بقي إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها، وأخذ كل ما كان للقبط في بلبيس. فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرمة في جميع ما لها، (مع قيس بن أبي العاص السهمي)؛ فسرَّ بقدمها... »

هذا ما أثبتته الواقدي في روايته، ولم يكن معنيًا إلا بأخبار المغازي والفتوح، فكان يقتصر عليها في الرواية؛ أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن:

كانت لأرمانوسة وصيفة مؤلدة تسمى (مارية)، ذات جمال يوناني أتمته مصر ومسحته بسحرها، [فزاد جمالها على أن يكون مصرياً، ونقص الجمال اليوناني أن يكونه؛ فهو أجمل منهما]، ولصير طبيعة خاصة في الحسن؛ فهي قد تهمل شيئاً في جمال نساءها أو تشعث منه، وقد لا توفيه جهد محاسنها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمال ينزع إلى أصل أجنبي، أفرغت فيه سحرها إفراغا، وأبت إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها في المقابلة بينه في طابعه المصري، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنة ما كانت؛ تغار على سحرها أن يكون إلا الأعلى.

(١) بلدة بفلسطين. وبلبيس هي المدينة المعروفة بمديرية الشرقية بمصر

وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل ، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته ، وهو كان والياً وبطريركاً على مصر من قبل هرقل ؛ وكان من عجائب صنع الله أن الفتح الإسلامي جاء في عهده ، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطي ، فلم تكن أبوابهم تدافع إلا بمقدار ما تدفع ، تقاتل شيئاً من قتال غير كبير ، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تدع إلا للتخبط ، ووراءها نحو مائة ألف رومي يقاتلون المعجزة الإسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت في أربعة آلاف رجل ، ثم لم يزيدوا آخر ما زادوا على اثني عشر ألفاً . كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم — ولم تكن المدافع معروفة — ولكن روح الإسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها ، لا يقاتلون بقوة الإنسان ، بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الإسلام مادةً منفجرة تشبه الديناميت قبل أن يعرف الديناميت !

ولما نزل عمرو ببجيشه على بلبيس ، جرعت مارية جزعاً شديداً ؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قومٌ جياحٌ ينفضهم الجذب على البلاد نقض الرمال على الأعين في الريح العاصف ؛ وأنهم جرأوا إنساناً لا يغزو إلا لبطنه ؛ وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها ؛ وأن النساء عندهم كالذئاب يرتبطن على خسف ؛ وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء ، ثقلت مطامعهم وخفت أمانتهم ؛ وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جرأراً في الجاهلية ، فما تدعاه روح الجزار ولا طبيعته ؛ وقد جاء بأربعة آلاف ساحلٍ من أخلاط الناس وشذاذهم ، لا أربعة آلاف مقاتلٍ من جيشٍ له نظام الجيش !

وتوهمت مارية أوهامها ، وكانت شاعرة قد درست هي وأرمانوسة أدب يونان وفلسفتهم ، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقدٌ يشعرها كل عاطفة أكبر مما هي ، ويضاعف الأشياء في نفسها ، وينزع إلى طبيعته المؤنثة ، فيبالغ في تهويل

الحزنِ خاصّةً ، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم ...
ومن ذلك أَسْطِيرَ قلبُ مارية وأفرعتها الوسائس ، فجعلت تَنْدُبُ نفسها ،
وصنعت في ذلك شعراً هذه ترجمته :

جاءك أربعة آلاف جزّارٍ أَيْتَهَا الشاةُ المسكينة !
ستذوق كلُّ شعرةٍ منك ألمَ الذبح قبل أن تُذْبَحِي !
جاءك أربعة آلاف خاطفٍ أَيْتَهَا العذراءُ المسكينة !
ستموتين أربعة آلاف مِيتَةً قبل الموت !
قَوْنِي يا إلهي ، لأَعْمِدَ في صدري سِكِّيناً يَرُدُّ عني الجزّارين !
يا إلهي ، قَوِّ هذه العذراء ، لتزوّج الموتَ قبل أن يتزوّجها العربي ... !

وذهبت تتلو شعراً على أرمانيوسَة في صوتٍ حزينٍ يتوجّع ؛ فضحكت
هذه وقالت : أنتِ واهمةٌ يا مارية ؛ أنسيتِ أن أباي قد أهدى إلى نبيهم بنتَ
(أنصنا)^(١) ، فكانت عنده في مملكةٍ بعضُها السماء وبعضُها القلب ؛ لقد أخبرني
أبي أنه بعثَ بها لتكشفَ له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي ؛ وأنها
أنفذت إليه دَسِيساً يُعَلِّمُهُ أن هؤلاء المسلمين هم العقلُ الجديدُ الذي سيضع في
العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيهم أظهُرُ من السحابة في سماءها ، وأنهم
جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهواتها ؛ وإذا
سَلُّوا السيفَ سَلُّوه بقانون ، وإذا أَعْمَدوه أَعْمَدوه بقانون . وقالت عن النساء :
لأنَّ تخافَ المرأةُ على عفتها من أبيها أقربُ من أن تخافَ عليها من أصحاب هذا
النبي ؛ فإنهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضميرُ الإسلاميُّ

(١) هي مارية القبطية التي أهداها القوقس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانت من
(أنصنا) بالوجه القبطي

في الرجل منهم — يكون حاملاً سلاحاً يَضْرِبُ صاحبه إذا هم بمخالفته .
 وقال أبى : إنهم لا يُغَيِّرُونَ على الأمم ، ولا يحاربونها حربَ الملوك ؛ وإنما
 تلك طبيعةُ الحركة للشريعة الجديدة ، تتقدّم في الدنيا حاملةً السلاحَ والأخلاقَ ،
 قويةً في ظاهرها وباطنها ، فإن وراء أسلحتهم أخلاقهم ؛ وبذلك تكون أسلحتهم
 نفسها ذات أخلاق !

وقال أبى : إن هذا الدين سيندفعُ بأخلاقه في العالم اندفاعَ العُصاة الحية
 في الشجرة الجرداء ؛ طبيعةٌ تعملُ في طبيعة ؛ فليس يمضى غيرُ بعيدٍ حتى تخضر
 الدنيا وترمى ظلالها ؛ وهو بذلك فوق السياسات التي تُشبه في عملها الظاهر المُلَفَّق
 ما بعدُ كطلاء الشجرة الميتة الجرداء بلونٍ أخضر ... ! شَتَّانَ بين عملٍ وعمل ،
 وإن كان لونٌ يشبه لونا ...

فاستروحتَ ماريةً واطمأنت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضيرَ علينا
 إذا فتحوا البلد ، ولا يكون ما نستَضِرُّ به ؟

قالت أرمانوسة : لا ضيرَ يا مارية ، ولا يكون إلا ما نَحِبُّ لأنفسنا : فالمسلمون
 ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم ، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه ،
 والحاجة إلى حلاله وحرامه ، فهم القساة الغلاظُ المُستكَبون كالبهائم ؛ ولكنهم
 يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتمييز بين حلاله وحرامه ، فهم
 الإنسانيون الرُشَاء المتعففون

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسة ، إن هذا لعجيب ! فقد مات سقراط
 وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدّبوا
 بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها ... ! فلم يخرجوا الدنيا جماعةً تامةً
 الإنسانية ، فضلا عن أمةٍ كما وصفتِ أنتِ من أمر المسلمين ؛ فكيف استطاع
 فيهم أن يخرجَ هذه الأمةَ وهم يقولون إنه كان أميا ؟ أفتَسخرُ الحقيقةَ من

كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير؛ فتدعهم يعملون عبثاً أو كالعبث، ثم تستسلم للرجل الأمي الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم؟ قالت أرماتوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلاكها، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس؛ وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها في الحياة إيجاد الأفكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم، وقد درست المسيح وعمله وزمنه، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مُصغرة في نفسه وحوارييه، وكان عمله كالبدء في تحقيق الشيء العسير؛ حسبه أن يثبت معنى الإيمان فيه

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأمي هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها؛ وبرهانها القاطع أنها بذلك في مظهرها الإلهي. والعجيب يا مارية، أن هذا النبي قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان في ذلك كالمسيح، غير أن المسيح انتهى عند ذلك؛ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع؛ لا يرتد ولا يتغير؛ وهاجر من بلده، فكان ذلك أول خطأ الحقيقة التي أعلنت أنها ستمشي في الدنيا، وقد أخذت من يومئذ تمشي^(١). ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لهاجرت به كذلك، فهذا فرق آخر بينهما. والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هي عبادة القاب، أما هذا الدين فعلمت من أبي أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضاً: إحداها للأعضاء، والثانية للقاب، والثالثة للنفس؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط؛ وعبادة القاب طهارته وحبّه الخير؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها في سبيل الإنسانية. وعند أبي أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا؛ فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما.

(١) انظر المقالات النبوية في صدر الجزء الثاني من هذا الكتاب

قالت مارية : إن هذا والله لسِرٌّ إلهيٌّ يدلُّ على نفسه ؛ فن طبيعة الإنسان ألا تنبعثَ نفسه غيرَ مباليةٍ الحياةَ والموتَ إلا في أحوالٍ قليلة ، تكون طبيعة الإنسان فيها عُمياء : كالغضب الأعمى ، والحبُّ الأعمى ، والتكبرُ الأعمى . فإذا كانت هذه الأمةُ الإسلاميةُ كما قلتَ منبعثةً هذا الانبعاثَ ، ليس فيها إلا الشعورُ بذاتيتها العالية — فما بعد ذلك دليلٌ على أن هذا الدينَ هو شعورُ الإنسان بسموِّ ذاتيته ، وهذه هي نهايةُ النهاياتِ في الفلسفة والحكمة .

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليلٌ على أنك تهيين أن تكوني مسالمة يا مارية !

فاستضحكتا معاً وقالت مارية : إنما أقيتُ كلاماً جاريتك فيه بحسبه ، فأنا وأنتِ فكرتان لا مسلمتان .

قال الراوى : وانهزم الرومُ عن بلبس ، وارتدوا إلى المقوقس في (مَنف) ، وكان وحىُ أرمانوسة في مارية مدةَ الحصار — وهى نحو الشهر — كأنه فكرٌ سكنَ فكرًا وتمدَّد فيه ؛ فقد مرَّ ذلك الكلامُ بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة ، فصنع ما يصنع المؤلفُ بكتابٍ ينقحه ، وأنشأ لها أخيلةً تُجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح ، والمؤكد لأنه مؤكد ومن طبيعة الكلام إذا أثر في النفس ، أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة

التي تُلقَى للحفظ ؛ فكان كلامُ أرمانوسة في عقل مارية هكذا : « المسيحُ بدءٌ وللبدء تكملة ، ما من ذلك بد . لا تكون خدمةُ الإنسانية إلا بذاتٍ عالية لا تبالي غيرَ سموِّها . الأمةُ التي تبذل كلَّ شيء وتستمسك بالحياة جبنًا وحرصًا لا تأخذ شيئًا ، والتي تبذل أرواحها فقط تأخذ كلَّ شيء . »

وجعلت هذه الحقائقُ الإسلاميةُ وأمثالها تُعربُّ هذا العقلَ اليوناني ؛ فلما

في اليوم
المسيح
فكراته

فكراته

أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمَانوسةَ إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى ماريةَ قالت لها : لا يَجْمَلُ بِنَ كانت مثلكِ في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيدة ، تتَوَجَّهْ حيث يُسَارُّ بها ؛ والرأى أن تبدئي هذا القائدَ قبل أن يبدأكِ ؛ فأرسلني إليه فأعلميه أنك راجعةٌ إلى أبيك ، وأسأليه أن يُصَحِّبَكَ بعضَ رجاله ؛ فتكوني الأَمَرةَ حتى في الأسر ، وتصنعي صنَعَ بناتِ الملوك !

قالت أرمَانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانك ودَهانك ؛ فاذهي إليه من قبلي ، وسيصحِّبك الراهبُ (شطّا) ، وخُذِي معك كوكبةً من فرساننا .

قالت ماريةُ وهي تقصُّ على سيِّدتها : لقد أدَّيتُ إليه رسالتكِ فقال : كيف ظنُّها بنا ؟ قلت : ظنُّها بفعلِ رجلٍ كريمٍ يأمره اثنان : كرمه ، ودينه . فقال : أبلغها أن نبينا (صلى الله عليه وسلم) قال : « اُسْتَوْصُوا بِالْقَبِطِ خيراً فإنَّ لهم فيكم صِهرًا وذمةً . » وأعلمها أننا لسنا على غارةٍ نُغِيرُها ، بل على نفوسٍ نُغَيِّرُها .

قالت : فصِفْه لي يا مارية .

قالت : كان آتياً في جماعةٍ من فرسانه على خيولهم العراب ، كأنها شياطينُ تحمل شياطينَ من جنسٍ آخر ؛ فلما صار بحيثُ أَتَبَّيْنُهُ أَوْماً إليه التَّزْجَمَانُ — وهو (وَرْدَانُ) مولاه — فنظرتُ ، فإذا هو على فرسٍ كُمَيْتٍ أَحْمَرٍ ^(١) لم يَخْلُصَ للأسود ولا للأحمر ، طويلُ العنق مُشْرِفٍ له ذُوَابَةٌ أعلى ناصيته كطُرَّةِ المرأة ، ذِيَالٌ يتبختر بفارسه ويَحْمَحِمُ كأنه يريد أن يتكلم ، مُطَهَّمٌ ... فقطعت أرمَانوسة عليها وقالت : ما سألتكِ صفةَ جواده ...

(١) الكُمَيْتُ الأحمر : هو الأحمر الضارب للسود ، لا يخلص لأحد اللونين ، فإذا كان أحمر خالصاً قيل فيه : كُمَيْتٌ مُدْمِي (بتشديد الميم الثانية وفتحها)

قالت مارية : أما سلاحه ...

قالت : ولا سلاحه ، صفيه كيف رأيته (هو) !

قالت : رأيته قصير القامة علامة قوة وصلابة ، وافر الهامة علامة عقل

وإرادة ، أدعج العينين ...

فضحكت أرمانوسة وقالت : علامة ماذا ؟ ...

... أبلج يُشرق وجهه كأن فيه لألاء الذهب على الضوء ، أيّداً اجتمعت

فيه القوة حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً ... داهية كتبت دهاؤه على

جبهته العريضة يجعل فيها معنى يأخذ من يراه ؛ وكلما حاولت أن أفرس في وجهه

رأيت وجهه لا يُفسره إلا تكرار النظر إليه ...

وتضرّجت وجنتاها ، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عيني أرمانوسة ...

وقالت هذه : كذلك كل لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها ...

فغضت مارية من طرفها وقالت : هو والله ما وصفت ، وإني ما ملأت

عيني منه ، وقد كدت أنكر أنه إنسان لما اعتراني من هيئته ...

قالت أرمانوسة : من هيئته أم من عينيهِ الدعاوين ؟ ...

ورجعت بنت المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس) ، فلما كانوا في الطريق

وجبت الظُّهر ، فنزل قيس يُصلي بمن معه والفتاتان تنظران ؛ فلما صاحوا :

« الله أكبر ... ! » ارتعش قلب مارية ، وسألت الراهب (شطا) : ماذا

يقولون ؟ قال : إن هذه كلمة يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمن

أنهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي

من هو أكبر من الوجود ؛ فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت

وشهوات الوقت ، فذلك هو دخولهم في الصلاة ؛ كأنهم يمحون الدنيا من

النفس ساعةً أو بعض ساعة ؛ ونحوها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها ؛
أنظري ، ألا ترين هذه الكلمة قد سحرتهم سحرًا فهم لا يلتفتون في صلاتهم
إلى شيء ؛ وقد شملتهم السكينة ، ورجعوا غير من كانوا ، وخشعوا خشوع أعظم
الفلاسفة في تأملهم ؟ ^(١)

قالت مارية : ما أجمل هذه الفطرة الفلسفية ! لقد تعبت الكتب لتجعل
أهل الدنيا يستقرّون ساعةً في سكينة الله عليهم فما أفلحت ، وجاءت الكنيسة
فهوّلت على المصلين بالخراف والصور والتماثيل والألوان ، لتوجي إلى نفوسهم
ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الديني ، وهي بذلك تحتال في
نقلهم من جوهم إلى جوها ؛ فكانت كساقى الخمر ؛ إن لم يُعطك الخمر عجز عن
إعطائك النشوة . ومن ذا الذي يستطيع أن يحمل معه كنيسةً على جوادٍ
أو حمار ؟

قالت أرمأنوسة : نعم إن الكنيسة كالخديعة ؛ هي خديعة في مكانها ، وقلمها
توحي شيئاً إلا في موضعها ؛ فالكنيسة هي الجدران الأربعة ، أما هؤلاء فعبدهم
بين جهات الأرض الأربع . وما مؤلفه الرسوب همهم ؟ وما ذمهم ؟
قال الراهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتحت عليهم الدنيا وافتتوا
بها وانغمسوا فيها — فستكون هذه الصلاة بعينها ليس فيها صلاة يومئذ .

قالت مارية : وهل تُفتح عليهم الدنيا ، وهل لهم قواد كثيرون كعمرو .. ؟
قال : كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يُحاربون الأمم بل يُحاربون ما فيها
من الظلم والكفر والرذيلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة
الموج في المد المرتفع ؛ ليس في داخلها إلا أنفُسٌ مندفعةٌ إلى الخارج عنها ؛ ثم

يقاتلون بهذه الطبيعة أمّا ليس في الداخل منها إلا النفوس المستعدّة أن تهرب
إلى الداخل . . . !

قالت مارية : والله لكأنا ثلاثتنا على دين عمرو

وانفصل قيس من الصلاة ، وأقبل يترحل ، فلما حاذى مارية كان عندها
كأنا سافر ورجع ؛ وكانت ما تزال في أحلام قلبها ؛ وكانت من الحلم في عالم
أخذ يتلاشى إلا من عمرو وما يتصل بعمره . وفي هذه الحياة أحوال « ثلاث » يغيب
فيها الكون بحقائقه : فيغيب عن السكران ، والخبول ، والنائم ؛ وفيها حالة
رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقة واحدة تتمثل في إنسان محبوب .

وقالت مارية للراهب شطا : سلّه : ما أربهم من هذه الحرب ، وهل في
سياستهم أن يكون القائد الذي يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد . . . ؟

قال قيس : حسبك أن تعلمي أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً
في تحقيق كلمة الله ، أما حظ نفسه فهو في غير هذه الدنيا .

وترجم الراهب كلامه هكذا : أما الفاتح فهو في الأكثر الحاكم المقيم ، وأما
الحرب فهي عندنا الفكرة المصلحة تريد أن تضرب في الأرض وتعمل ، وليس
حظ النفس شيئاً يكون من الدنيا ؛ وبهذا تكون النفس أكبر من غرائزها ،
وتنقلب معها الدنيا برعوتها وحمقاتها وشهواتها كالطفل بين يدي رجل ،
فيهما قوة ضبطه وتصريفه . ولو كان في عقيدتنا أن ثواب أعمالنا في الدنيا ،
لانعكس الأمر .

قالت مارية : فسله : كيف يصنع (عمرو) بهذه القلة التي معه والروم
لا يحصى عددهم ؛ فإذا أخفق (عمرو) فمن عسى أن يستبدلوه منه ؟ وهل هو
أكبر قواهم ، أو فيهم أكبر منه ؟

قال الراوى : ولكن فرَسَ قيسَ تَمَطَّرَ وأسرعَ فى لِحاقِ الخيلِ على
المقدِّمة كأنه يقول : لَسْنَا فى هذا ...

وفُتحتْ مصرُ صلحاً بينَ عمرو والقبط ، وولَّى الرومُ مُصْعِدِينَ إلى
الإسكندرية ، وكانت ماريةُ فى ذلك تستقرئُ أخبارَ الفاتحِ تطوفُ منها على
أطلالِ من شخصٍ بعيدٍ ؛ وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتحٍ
لا يملكُ إلا حُبَّهُ أن يأخذها ؛ وجعلتْ تذوى وشَحَبَ لونُها وبدأتْ تنظرُ النظرةَ
التائهة : وبان عليها أثرُ الرُّوحِ الظَّمْأى ؛ وحاطها اليأسُ بجوِّه الذى يُحرقُ الدم ؛
وَبَدَتْ مجروحةَ المعانى ؛ إذ كان يتقاتلُ فى نفسها الشعوران العِدْوَان : شعورُ أنها
عاشقة ، وشعورُ أنها يائسة !

ورَقَّتْ لها أرمانوسة ، وكانت هى أيضاً تتعلّق فتى رومانياً ، فسهرتْ ليلةً
تُديران الرأى فى رسالةٍ تحملها ماريةُ من قبلها إلى عمروكى تصلَ إليه ، فإذا
وصلتْ بلغتْ بعينها رسالةً نفسها ... قلب

واستقرَّ الأمرُ أن تكونَ المسألةُ عن ماريةَ القبطيةِ وخبرها ونسلها وما
يتعلّقُ بها مما يطولُ الإخبارُ به إذا كان السؤالُ من امرأةٍ عن امرأةٍ . فلما
أصبَحَتَا وقعَ إليهما أن عمراً قد سارَ إلى الإسكندرية لقتالِ الروم ، وشاعَ الخبرُ
أنه لما أمرَ بفُسْطاطه أن يُقَوِّضَ أصابوا يمامةً قد باضتْ فى أعلاه ، فأخبروه
فقال : « قد تَحَرَّمتْ فى جوارنا ، أَقْرِؤا الفسْطاطَ حتى تطيرَ فِرَاحُها . »
فأقَرَّوه !

ولم يمضِ غيرُ طويلٍ حتى قضتْ ماريةُ نحبها ، وحَفِظتْ عنها أرمانوسةُ
هذا الشعرَ الذى أسمته : نشيدُ اليمامة :

على فسطاط الأمير يمامةً جائمةً تحضن بيضها .
تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت !
هي كأُسعدِ امرأة ؛ ترى وتلمس أحلامها .
إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض .

على فسطاط الأمير يمامةً جائمةً تحضن بيضها .
لو سُئِلَتْ عن هذا البيض ل قالت : هذا كنزى .
هي كأنها امرأة ، ملكت ملكها من الحياة ولم تفقر .
هل أكلت الوجود شيئاً كثيراً إذا كلفته رجلاً واحداً أحبه !

على فسطاط الأمير يمامةً جائمةً تحضن بيضها .
الشمس والقمر والنجوم ، كلها أصغر في عينها من هذا البيض .
هي كأرق امرأة ؛ عرفت الرقة مرتين : في الحب ، والولادة .
هل أكلت الوجود شيئاً كثيراً إذا أردت أن أكون كهذه اليمامة !

على فسطاط الأمير يمامةً جائمةً تحضن بيضها .
تقول اليمامة : إن الوجود يجب أن يرى بلونين في عين الأنثى ؛
مرةً حبيباً كبيراً في رجلها ، ومرةً حبيباً صغيراً في أولادها .
كلُّ شيء خاضع لقانونه ؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها .

أيُّها اليمامة ، لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطه !
هكذا الخط : عدلٌ مضاعفٌ في ناحية ، وظلمٌ مضاعفٌ في ناحية أخرى .

احمدى الله أيتها اليمامة ، أن ليس عندكم لغات وأديان ،
عندكم فقط : الحبُّ والطبيعةُ والحياة .

على فسطاط الأمير يمامةُ جائمةٌ تحضنُ بيضها ،
يمامةٌ سعيدةٌ ، ستكونُ في التاريخ كهُدْهُدِ سليمان ،
نُسِبَ الهددُ إلى سليمان ، وستُنسبُ اليمامةُ إلى عمرو .
واهاً لك يا عمرو ! ما ضَرَّ لو عرفتَ (اليمامةُ الأخرى) !...

اجتلاءُ العيد

جاء يوم العيد ؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحده لا يستمرُّ أكثرَ
من يوم .

زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحكٌ ، تفرُّضُهُ الأديانُ على الناس ، ليكونَ لهم بين
الحينِ والحينِ يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها .
يومُ السلام ، والبشر ، والضحك ، والوفاء ، والإخاء ، وقولِ الإنسانِ
للإنسان : وأتم بخير .

يومُ الثيابِ الجديدة على الكلِ إشعاراً لهم بأن الوجهَ الإنسانيَّ جديدٌ
في هذا اليوم .

يومُ الزينة التي لا يراد منها إلا إظهارُ أثرِها على النفس ليكونَ الناسُ جميعاً
في يوم حب .

يومُ العيد ؛ يومُ تقديم الحلوى إلى كل فم لتحلوا الكلمات فيه

يوم نَعْمُ فيه الناسَ الفاظَ الدعاءِ والتهنئةِ مرتفعةً بقوةِ إلهية فوق
منازعات الحياة .

ذلك اليومُ الذى ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة ، وإلى
أهله نظرةً تبصر الإعزاز ، وإلى داره نظرةً تدرك الجمال ، وإلى الناسِ نظرةً
ترى الصداقة .

ومن كل هذه النظرات تستوى له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياةِ والعالمِ ؛ فتبتهج
نفسه بالعالم والحياة .

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسان أن الكلَّ جماله فى الكل !

وخرجتُ أجتلى العيدَ فى مظهره الحقيقى على هؤلاء الأطفالِ السعداء .
على هذه الوجوه النَّضرةِ التى كبرتُ فيها ابتساماتُ الرِّضاعِ فصارت ضحِكَات .
وهذه العيونِ الحاملةِ التى إذا بكت بكت بدموع لا تثقلُ لها .
وهذه الأفواهِ الصغيرةِ التى تنطق بأصوات لا تزال فيها نبراتُ الحنانِ من
تقليد لغةِ الأم .
وهذه الأجسامِ الغضةِ القرييةِ العهدِ بالضماتِ واللِّماتِ فلا يزال حولها
جوُّ القلب .

على هؤلاء الأطفالِ السعداء الذين لا يعرفون قياساً للزمنِ إلا بالسُرور .
وكلُّ منهم مَلِكٌ فى مملكة ؛ وظرفُهم هو أمرُهم الملوكى .
هؤلاء المجتمعين فى ثيابهم الجديدةِ المصبغةِ اجتماعِ قوسِ قُزَح فى ألوانه .
ثيابٌ عَمِلَتْ فيها المصانعُ والقلوبُ ، فلا يتم جمالُها إلا بأن يراها الأبُ
والأمُّ على أطفالهما .

ثيابٌ جديدةٌ يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوبا جديداً على الدنيا .

هؤلاء السحرة الصغار الذين يُخرجون لأنفسهم معنى الكثر الثمين من قرشين

وَيَسْعَرُونَ العيدَ فإذا هو يومٌ صغيرٌ مثلهم جاء يدعوهم إلى اللعب
وينتهون في هذا اليوم مع الفجر ، فيبقى الفجر على قلوبهم إلى غروب الشمس .
وَيُلْقُونَ أنفسهم على العالم المنظور ، فيبنون كلَّ شيء على أحد المعنيين الثابتين في نفس الطفل : الحب الخالص ، والله الخالص .
ويتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة ، فيكون هذا بعينه هو قرَّبهم من حقيقتها السعيدة .

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقد .
والذين يَرَوْنَ العالمَ في أول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتد .
يُفْتَشُونَ الأقدارَ من ظاهرها ؛ ولا يَسْتَبْطِنُونَ كيلا يتألموا بلا طائل .
ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها ، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يُوجِدوا لها الهم .

قانونون يكتفون بالثمرة ، ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها .
ويعرفون كُنْهَ الحقيقة ، وهي أن العبرة بروح النعمة لا بمقدارها
فيجدون من الفرح في تغيير ثوب للجسم ، أكثر مما يجده القائد الفاتح في تغيير ثوب للمملكة .

هؤلاء الحكماء الذين يُشبه كلٌّ منهم آدمَ أولَ مجيئه إلى الدنيا ،
حين لم تكن بين الأرضِ والسماءِ خَلِيقَةٌ ثالثةٌ معقَّدةٌ من صُنع الإنسان المتحضَّر .
حكمتهم العليا : أن الفكرَ السامى هو جعلُ السرورِ فِكْراً وإظهاره فى العمل .
وشعرهم البديعُ : أن الجمالَ والحبَّ ليسا فى شىء إلا فى تجميل النفس
وإظهارها عاشقة للفرح .

هؤلاء الفلاسفة الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية ، وهى أن الأشياء
الكثيرة لا تكثر فى النفس المطمئنة .
وبذلك تعيش النفس هادئةً مستريحةً كأنَّ ليس فى الدنيا إلا أشتاؤها
الميسرة .

أما النفوسُ المضطربةُ بأطاعها وشهواتها فهى التى تُبتلى بهموم الكثرة
الخيالية ،

ومثلها فى الهمِّ مَثَلُ طِفْلىٍّ مغفَلٍ يحزنُ لأنه لا يأكل فى بطنين ...

وإذا لم تكثر الأشياء الكثيرة فى النفس ، كَثُرَت السعادةُ ولو من قِلَّة .
فالطفلُ يقلِّب عينيه فى نساءٍ كثيرات ، ولكن أمُّه هى أجمُهن وإن
كانت شوَّهًا .

فأمُّه وحدها هى أمُّ قلبه ، ثم لا معنى للكثرة فى هذا القلب .

هذا هو السرُّ ؛ خذوه أيها الحكماء عن الطفل الصغير !

وتأملتُ الأطفالَ وأثرُ العيدِ على نفوسهم التى وسَّعت من البشاشة فوقَ مثلها ؛
فإذا لسانُ حالهم يقولُ للكبار : أيتها البهائم ، اخلعى أرسائكِ ولو يوماً ...

أيها الناس ، انطلقوا في الدنيا انطلاقَ الأطفالِ يُوجدون حقيقتهم البريئة
الضاحكة ،

لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاقَ الوحشِ يُوجد حقيقته المفترسة .
أحرارٌ حرِّيَّةَ نشاطِ الكونِ ينبعث كالقَوْضَى ، ولكن في أدقِّ النواميس .
يُثيرون السخَطَ بالضَّجيجِ والحركة ، فيكونون مع الناس على خِلاف ،
لأنهم على وفاقٍ مع الطبيعة .

وتحتدمُ بينهم المعارك ، ولكن لا تتحطَّمُ فيها إلا اللَّعب ...
أما الكِبَارُ فيصنعون المدْفَعَ الضخْمَ من الحديد ، للجسمِ اللَّيِّنِ من العَظْمِ .
أيتها البهائمُ ، اخلعي أرسانك ولو يوماً ...

لا يفرح أطفالُ الدار كفرحهم بطفلٍ يُولد ؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى
عقولهم الصغيرة .

وَيملؤهم الشعورُ بالفرح الحقيقي الكامن في سرِّ الخَلْقِ ، لقُرْبهم من هذا السر .
وكذلك تحمل السَّنَةُ ثم تلد للأطفال يومَ العيد ؛ فيستقبلونه كأنه محتاج
إلى لهوهم الطبيعي .

وَيملؤهم الشعورُ بالفرح الحقيقي الكامن في سرِّ العالم ، لقُرْبهم من هذا السر .

فيا أَسَفًا علينا نحن الكِبَار ! ما أبعدنا عن سرِّ الخَلْقِ بآثامِ العمر !
وما أبعدنا عن سرِّ العالم ، بهذه الشهوات الكافرة التي لا تؤمن إلا بالمادة !
يا أَسَفًا علينا نحن الكِبَار ! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح !
تَكَادُ آثَامُنَا واللهِ تَحْمِلُ لَنَا فِي كُلِّ فَرَحَةٍ خَجَلَةً ...

أيتها الرياضُ المنوَّرةُ بأزهارها ،
 أيتها الطيورُ المغرَّدةُ بألحانها ،
 أيتها الأشجارُ المصفَّةُ بأغصانها ،
 أيتها النجومُ المتلألئةُ بالنور الدائم ،
 أنتِ شَتَّى ؛ ولكنكِ جميعاً في هؤلاء الأطفال يوم العيد !

المعنى السياسى فى العيد

ما أشدَّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهماً جديداً ، نتلقاها به
 ونأخذها من ناحيته ، فتجىء أياماً سعيدة عاملةً ، تنبئه فينا أوصافها القوية ،
 وتجدد نفوسنا بمعانيها ، لا كما تجىء الآن كالحةً عاطلةً ممسوحةً من المعنى ،
 أكبر عملها تجديدُ الشباب ، وتحديدُ الفراغ ، وزيادةُ ابتسامه على النفاق
 فالعيد إنما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليوم نفسه ، وكما يفهم الناسُ
 هذا المعنى يتلقون هذا اليوم ؛ وكان العيدُ فى الإسلام هو عيدُ الفكرة العابدة ،
 فأصبح عيدُ الفكرة العابثة ؛ وكانت عبادةُ الفكرة جمعها الأمة فى إرادةٍ واحدة
 على حقيقة عملية ، فأصبح عبثُ الفكرة جمعها الأمة على تقليدٍ بغير حقيقة ؛ له
 مظهرُ المنفعة وليس له معناها .

كان العيدُ إثباتَ الأمة وجودها الروحانيَّ فى أجل معانيه ، فأصبح إثباتَ
 الأمة وجودها احيوانيَّ فى أكثر معانيه ؛ وكان يومَ استرواحِ القوة من جدِّها ،
 فعاد يومَ استراحةِ الضعف من ذلِّه ؛ وكان يومَ المبدأ ، فرجع يومَ المادة !

ليس العيدُ إلا إشعارُ هذه الأمة بأن فيها قوةَ تغييرِ الأيام ، لا إشعارها بأن
الأيام تتغير ؛ وليس العيدُ للأمة إلا يوماً تُعرض فيه جمالَ نظامها الاجتماعي ،
فيكون يومَ الشعور الواحد في نفوس الجميع ، والكاملة الواحدة في أسنة الجميع ؛
يومَ الشعور بالقدرة على تغييرِ الأيام ، لا القدرة على تغييرِ الثياب كأنما
العيدُ هو استراحةُ الأسلحةِ يوماً في شعبها الحربي .

وليس العيدُ إلا تعليمُ الأمة كيف تتسع روحُ الجوار وتمتدّ ، حتى يرجعَ البلدُ
العظيمُ وكأنه لأهله دارٌ واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي ، وتظهرُ فضيلةُ
الإخلاص مُستعلنةً للجميع ، ويهدى الناسُ بعضهم إلى بعض هدايا القلوب
الخلصة المحبة ؛ وكأنما العيدُ هو إطلاقُ روحِ الأسرةِ الواحدة في الأمة كلها .
وليس العيدُ إلا إظهارُ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة ؛ ولا
ذاتية للأُم الضعيفة ؛ ولا نشاط للأُم المستعبدة . فالعيدُ صوتُ القوة يهتف بالأمة :
أخرجي يومَ أفراحك ، أخرجي يوماً كأنما النصر !

وليس العيدُ إلا إبرازُ الكتلة الاجتماعية للأمة متميزةً بطابعها الشعبي ،
مفصولةً من الأجانب ، لابسَةً من عمل أيديها ، معلنةً بعيدها استقلالين في
وجودها وصناعاتها ، ظاهرةً بقوتين في إيمانها وطبيعتها ، مبهجةً بفرحين في
دورها وأسواقها ؛ فكان العيدُ يومٌ يفرح فيه الشعبُ كله بخصائصه .

وليس العيدُ إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة
المتقدمة في طريقها ، وترك الصغار يلقون دروسهم الطبيعيّة في حماسة الفرح والبهجة ،
ويعلمون كبارهم كيف تُوضع المعاني في بعض الألفاظ التي فرغت عندهم من
معانيها ، ويُبصرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية في الجموع عملَ
الحليفِ لحليفه ، لا عملَ المنايدِ لمنايذه ؛ فالعيدُ يومٌ تساطُ العنصر الحى على
نفسية الشعب .

مقتضى

الرأي
بالهذه
الفتنة
الجميع
كتاب
هذه الفتنة
أب الرضي

وليس العيدُ إلاّ تعليمُ الأمة كيف توجّه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحدٍ كلما شاءت ؛ فقد وضع لها الدينُ هذه القاعدة لتُخرّجَ عليها الأمثلة ، فتجعلَ للوطن عيداً مالياً اقتصادياً يتسم فيه الدراهم بعضها إلى بعض ، وتخترع للصناعة عيدها ، وتوجد للعلم عيدها ، وتبتدع للفن مجآلى زينتته ؛ وبالجملة تُنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القوّاد العسكريّين في قيادة الشعب ، يقودُه كلُّ يوم منها إلى معنى من معانى النصر .

هذه المعانى السياسية القوية هى التى من أجلها فُرِضَ العيدُ ميراثاً دهرى ^{ربيع} ^{الى} ^{المنبر} فى الإسلام ، ليستخرجَ أهلُ كلِّ زمنٍ من معانى زمنهم فيضيفوا إلى المثالِ أمثلةً مما يُبدعه نشاطُ الأمة ، ويحققه خيالُها ، وتقضيه مصالحُها .
وما أحسب الجمعةَ قد فُرِضت على المسلمين عيداً أسبوعياً يُشترط فيه الخطيبُ والمنبرُ والمسجدُ الجامع — إلاّ تهيئةً لذلك المعنى وإعداداً له ؛ ففى كلِّ سبعة أيام مُسلمة يومٌ يحىء فيه شعيرُ الناس معنى القائد الحربى للشعب كله .
ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلاّ رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع ، لا رجالٌ فى أيديهم سيوف من خشب ^(١)

(١) انظر (قصة الأيدي المتوضئة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

الريـح

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيفُ تُصبحُ كالمعشوق الجميل ، لا يتقدّم لعاشقته
إلا أسبابَ حبه !

وكيف تكونُ كالحبيب ، يزيدُ في الجسم حاسةً لمس المعاني الجميلة !
وكنْتُ كالقلب المهجور الحزين ، وجد السماء والأرض ، ولم يجد فيهما
سماءه وأرضه .

ألا كم من آلافِ السنينِ وآلافِها قد مضت منذُ أخرج آدمُ من الجنة !
ومع ذلك فالتاريخُ يعيد نفسه في القلب ؛ لا يحزنُ هذا القلبُ إلا شعر
كأنه طردَ من الجنة لساعته .

يقف الشاعرُ بإزاء جمال الطبيعة ، فلا يملك إلا أن يتدفّق ويهتزّ ويضطرب .
لأن السرّ الذي انبثّق هنا في الأرض ، يريد أن ينبثقَ هناك في النفس .
والشاعرُ نبئُ هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاحُ الناسِ بالجمال
والخير .

وكلُّ حُسنٍ يلتمس النظرةَ الحيةَ التي تراه جميلاً لتُعطيهِ معناه ؛
وبهذا تقف الطبيعةُ مُحْتَفِلَةً أمام الشاعرِ ، كوقوف المرأةِ الحسناءِ أمامَ
المصوّر .

لاحت لي الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقةٌ مُعشاةٌ باستعاراتٍ ومجازات .
والنسيم حولها كثوب الحسناء على الحسناء ، فيه تعبيرٌ من لابسته .

وكُلُّ زهرةٍ كابتسامة ، تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معاني القلب المعقّدة .
أهي لغة الضوء الملوّن من الشمس ذات الألوان السبعة ؟
أم لغة الضوء الملوّن من الخلد ؛ والشفة ؛ والصدر ؛ والنحر ؛ والديباج والحلي ؟

وماذا يفهم العشاق من رموز الطبيعة في هذه الأزهار الجميلة ؟
أتشير لهم بالزهر إلى أن عمر اللذة قصير ، كأنها تقول : على مقدار هذا ؟
أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل ، كالفرق بين اللون واللون ، وبين
الرائحة والرائحة ؟

(أتناجيهم بأن أيام الحب صوّر أيام لا حقائق أيام ؟
أم تقول الطبيعة : إن كل هذا لأنك أيتها الحشرات لا تتخذعين إلا
بكل هذا (١) ... ؟

في الربيع تظهر ألوان الأرض على الأرض ، وتظهر ألوان النفس على النفس .
ويصنع المساء صنّعه في الطبيعة فتخرج تهاويل النبات ، ويصنع الدم صنّعه
فيخرج تهاويل الأحلام ،

ويكون الهواء كأنه من شفاه متحابّة يتنفّس بعضها على بعض ،
ويعود كل شيء يلتصق لأن الحياة كلّها ينبض فيها عرق النور ،
ويرجع كل شيء يغنى لأن الحب يريد أن يرفع صوته .

(وفي الربيع لا يضيء النور في الأعين وحدها ، ولكن في القلوب أيضاً .

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما في ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كي تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة .

ولا ينفذُ الهواءُ إلى الصدور فقط ، ولكن إلى عواطفها كذلك .
 ويكون للشمس حرارتان إحداها في الدم .
 ويطغى فيضانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تجرّبةٌ منظرٌ من مناظر الجنة
 في الأرض .
والحيوانُ الأعجمُ نفسه تكونُ له لفتاتٌ عقليةٌ فيها إدراكُ فلسفةِ السرور
والمرح .

وكانت الشمسُ في الشتاء كأنها صورةٌ معلّقةٌ في السحاب .
 وكان النهارُ كأنه يضيء بالقمر لا بالشمس .
 وكان الهواءُ مع المطر كأنه مطرٌ غيرُ سائل .
 وكانت الحياةُ تضع في أشياء كثيرةٍ معنى عبوسِ الجوِّ .
 فلما جاء الربيعُ كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعتُ
 أُمهم من السفر .

وينظر الشبابُ فتظهرُ له الأرضُ شابّةً .
 ويشعر أنه موجودٌ في معاني الذات أكثر مما هو موجودٌ في معاني
 العالم .

وتتملى له الدنيا بالأزهار ، ومعاني الأزهار ، ووحى الأزهار .
 وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر .
 ولا تنسى الحياةُ عجائزها ، فربيعهم ضوءُ الشمس ...

ما أعجب سرَّ الحياة ! كلُّ شجرة في الربيع جمالٌ هندسيٌّ مستقل .

ومهما قطعتَ منها وغيّرتَ من شكلها أبرزتها الحياةُ في جمال هندسٍ جديدٍ
كأنك أصلحتها .

ولو لم يبقَ منها إلا جذرٌ حيٌّ أسرعَت الحياةُ فجعلتَ له شكلاً من غصون
وأوراق .

الحياةُ الحياةُ . إذا أنت لم تُفسدها جاءتك دائماً هداياها .
وإذا آمنتَ لم تُعدْ بمقدار نفسك ، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن .

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتها . »
وانظر كيف يخلُق في الطبيعة هذه المعاني التي تُهيج كلَّ حيٍّ ، بالطريقة
التي يفهمها كلُّ حي .

وانظر كيف يجعلُ في الأرض معنى السرور ، وفي الجو معنى السعادة .

وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التي تملؤها وتطمئن ؟

انظر انظر ! أليس كل ذلك ردّاً على اليأس بكلمة : لا . . . ؟

عرش الورد

كانت جَلْوَةُ العُروس كأنها تصنيفٌ من حُلُم ، توافَتْ عليه أُخيلةُ السعادة فأبدعت إبداعها فيه ، حتى إذا اتَّسَقَ وتمَّ ، نقلته السعادةُ إلى الحياة في يوم من أيامها الفَرْدَةِ التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العددُ القليل ، لمُتَحَقِّقٍ للحَيِّ وجودَ حياته بسحرها وجمالها ، وتعطيهِ فيما يُنسى مالا يُنسى .

خرج الحُلُمُ السعيدُ من تحت النوم إلى اليقظة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثَّلَ قسيدهً بارعةً جعلت كل مافي المكان يحيا حياةَ الشعر ؛ فالأنوارُ نساء ، والنساء أنوار ، والأزهار أنوار ونساء ، والموسيقى بين ذلك تتمُّ من كل شيء معناه ، والمكان وما فيه ، وزُنْ في وزن ، ونعم في نعم ، وسحرٌ في سحر .

ورأيتُ كأنما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماء الليل ، فيها دارةُ القمر ، وفيها نثرةٌ من النجوم الزُّهر ، فنزلتُ فُلَّتْ في الدار ، يتوضَّعن ويأتلقن من الجمال والشعاع ، وفي حسن كل منهن مادةٌ فجرٍ طالع ، فكان نساءُ الجلوة وعروسها .

ورأيتُ كأنما سُحِرَ الربيع ، فاجتمع في عرشٍ أخضر ، قد رُصَّع بالورد الأحمر ، وأقيم في صدر البَهْوِ ليكون منَصَّةً للعُروس ، وقد نُسِقت الأزهارُ في سمائه وحواشيه على نظامين : منهما مُفَصَّلٌ ترى فيه بين الزَّهْرَتَيْنِ من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما ؛ ومنها مُكَدَّسٌ بعضُه فوق بعض ، من لونٍ متشابهٍ أو متقارب ، فبدا كأنه عُشُّ طائرٍ ملكيٍّ من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجارٍ سقى الكَوثرُ أغصانها .

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين ، رَبَوَتان من أفانين الزهر

الْمُخْتَلِفَةِ أَلْوَانُهُ ، يَحْمِلُهُمَا حَمْلُهُ مِنْ نَاعِمِ النَّسِيجِ الْأَخْضَرِ عَلَى غُصُونِهِ الدُّنَى تَهَافَّتْ مِنْ رَقَّتْهَا وَنُعُومَتِهَا .

وَعُقِدَ فَوْقَ هَذَا الْعَرْشِ تَاجٌ كَبِيرٌ مِنَ الْوَرْدِ النَّادِرِ ، كَأَنَّمَا نُرٌّ عَنِ مَفْرَقِ مَلِكِ الزَّمَنِ الرَّبِيعِيِّ ؛ وَتَنْظَرُ إِلَيْهِ يَسْطَعُ فِي النُّورِ بِجَمَالِهِ السَّاحِرِ ، سَطُوعًا يُخَيِّلُ إِلَيْكَ أَنَّ أَشْعَةً مِنَ الشَّمْسِ الَّتِي رَبَّتْ هَذَا الْوَرْدَ لَا تَزَالُ عَالِقَةً بِهِ ؛ وَتَرَاهُ يَزْدَهِي جَلَالًا ، كَأَنَّمَا أَدْرَكَ أَنَّهُ فِي مَوْضِعِهِ رَمْزُ مَمْلَكَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ، تَأَلَّفَتْ مِنْ عَرُوسِينَ كَرِيمِينَ . وَلَا حَاجَ لِي مَرَارًا أَنَّ هَذَا التَّاجَ يَضْحَكُ وَيَسْتَحْيِي وَيَتَدَلَّلُ ، كَأَنَّمَا عَرَفَ أَنَّهُ وَحْدَهُ بَيْنَ هَذِهِ الْوُجُوهِ الْحَسَنَةِ يُمَثِّلُ وَجْهَ الْوَرْدِ .

وَنُصَّ عَلَى الْعَرْشِ كُرْسِيَانِ يَتَوَهَّجُ لَوْنُ الذَّهَبِ فَوْقَهُمَا ، وَيَكْسُوهُمَا طِرَازٌ أَخْضَرٌ تَلْمَعُ نَضَارَتُهُ بَشْرًا ، حَتَّى لَتَحَسِبَ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا قَدْ نَالَتهُ مِنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْفَرِحَةِ لِمَسَّةٍ مِنْ فَرَحِهَا الْحَيِّ .

وَتَدَلَّتْ عَلَى الْعَرْشِ قَلَانِدُ الْمَصَابِيحِ ، كَأَنَّهَا لَوْلُو تَخَافُ فِي السَّمَاءِ لَا فِي الْبَحْرِ ، خِجَاءً مِنَ النُّورِ لَا مِنَ الدَّرِّ ؛ وَجَاءَ نُورًا مِنْ خَاصَّتِهِ أَنَّهُ مَتَى اسْتَضَاءَ فِي جَوْاءِ الْعُرُوسِ أَضَاءَ الْجَوْاءِ وَالْقُلُوبِ جَمِيعًا .

وَأَتَى الْعُرُوسَاتُ إِلَى عَرْشِ الْوَرْدِ ، فَجَلَسَا جُلُوسَةً كَوَكَبَيْنِ حَدُودُهَا النُّورُ وَالصَّفَاءُ ؛ وَأَقْبَلَتِ الْعَذَارَى يَتَخَطَّرْنَ فِي الْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ كَأَنَّهُ مِنْ نُورِ الصَّبَحِ ، ثُمَّ وَقَفْنَ حَافَاتِ حَوْلِ الْعَرْشِ ، حَامِلَاتٍ فِي أَيْدِيهِنَّ طَاقَاتٍ مِنَ الزَّنبَقِ ، تَرَاهَا عِطْرَةٌ بَيَاضٌ نَاضِرَةٌ حَيَّةٌ ، كَأَنَّهَا عَذَارَى مَعَ عَذَارَى ، وَكَأَنَّمَا يَحْمَانُ فِي أَيْدِيهِنَّ مِنْ هَذَا الزَّنبَقِ الْغَضُّ مَعَانِي قُلُوبِهِنَّ الطَّاهِرَةِ ؛ هَذِهِ الْقُلُوبُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ الْمَصَابِيحِ مَصَابِيحَ أُخْرَى فِيهَا نُورُهَا الضَّاحِكُ .

وَأَقْتَعَدَتْ دَرَجَ الْعَرْشِ تَحْتَ رَبَوْتِي الزَّهْرُ وَدُونَ أَقْدَامِ الْعُرُوسِينَ — طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ كَالزَّهْرَةِ الْبَيَاضَةِ تَحْمِلُ طِفْلُوتَهَا ، فَكَانَتْ مِنَ الْعَرْشِ كُلِّهِ كَالْمَاسَةِ الْمَدْلَاةِ

من واسطة العِقد ، وجعلت بوجهها للزهر كله تماماً وجمالاً ، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبانٌ مُنزَوٍ لا يريد أن يُرى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطفولة جعل المكان بمن فيه كأن له روحَ طفلٍ بَعَثَتْهُ مَسَرَّةٌ جديدة .

وكانت جالسةً جِلْسَةً شِعْرِ تُمَثِّلُ الحياةَ الهنيئةَ المبتكرةَ لساعاتها ليس لها ماضٍ في دنيانا .

ولو أن مُبَدِعاً افْتَنَّ في صُنْعِ تُمَثِّالِ للنية الطاهرة ، وجرى به في مكانها ، وأَخَذَتْ هِيَ في مكانه لتشابهها وتشاكل الأمر .

وكان وجودُها على العرش دعوةً للملائكة أن تَحْضُرَ الزفافَ وتباركه .

وكانت بِصِغَرِها الظريف الجميل تعطى لكل شيء تماماً ، فيُرى أكبر مما هو ، وأكثر مما هو في حقيقته . كانت النقطة التي استعانت في مركز الدائرة ، ظهورُها على صِغَرِها هو ظهورُ الأحكام والوزن والانسجام في المحيط كله .

لا يكون السرورُ دائماً إلا جديداً على النفس ، ولا سرورٌ للنفس إلا من جديدٍ على حالة من أحوالها ؛ فلو لم يكن في كل دينارٍ قوةٌ جديدةٌ غيرُ التي في مثله لما سُرَّ بالمال أحد ، ولا كان له الخطر الذي هو له ؛ ولو لم يكن لكل طعام جوعٌ يُورِدهُ جديداً على المعدة لما هَنَأَ ولا مَرَأ ؛ ولو لم يكن الليلُ بعدَ نهار ، والنهارُ بعدَ ليل ، والفصول كلها تقيضاً على تقيضه ، وشيئاً مختلفاً على شيء مختلف — لما كان في السماء والأرض جمال ، ولا منظرٌ جمال ، ولا إحساسٌ بهما ؛ والطبيعة التي لا تُفْلِحُ في جعلك معها طفلاً تكون جديداً على نفسك — لن تُفْلِحُ في جعلك مسروراً بها لتكون هي جديدةً عليك .

وعرشُ الورد كان جديداً عند نفسي على نفسي ، وفي عاطفتي على عاطفتي ،

ومن أيامى على أيامى ؛ نزل صباحُ يومه في قلبى بروح الشمس ، وجاء مساءً ليلته لقلبي بروح القمر ؛ وكنتُ عنده كالسماء أتلألأ بأفكارى كما تتلألأ بنجومها ؛ وقد جعلتنى أمتدُّ بسرورى فى هذه الطبيعة كلها ، إذ قدّرتُ على أن أعيشَ يوماً فى نفسى ؛ ورأيتُ وأنا فى نفسى أن الفرحَ هو سرُّ الطبيعة كلها ، وأن كلَّ ما خلق الله جمالاً فى جمال ، فإنه تعالى نورُ السموات والأرض ، وما ينجىء الظلام مع نوره ، ولا ينجىء الشرُّ مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنسانى خَلَقَ أوهامه فى الحياة ، وإخراجِه النفسَ من طبائعها ، حتى أصبح الإنسانُ كأنما يعيش بنفسٍ يحاول أن يصنعها صناعة ، فلا يصنع إلا أن يزيغَ بالنفس التى فطرها الله .

يا عجبا ! ينفِرُ الإنسانُ من كلمات الاستعباد ، والضَّعة ، والدَّلة ، والبؤس ، والهم ، وأمثالها ، وينكرها ويردُّها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه فى الحياة إلا عن معانيها .

إن يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة ، بل من أربعة وعشرين فرحاً ؛ لأنه من الأيام التى تجعل الوقتَ يتقدم فى القلب لا فى الزمن ، ويكونُ بالعواطف لا بالساعات ، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها . كان الشبابُ فى موكبِ نصره ، وكانت الحياةُ فى ساعةٍ صلحٍ مع القلوب ، حتى اللغةُ نفسها لم تكن تُلقى كلماتها إلا ممتلئةً بالطرب والضحك والسعادة ، آتيةً من هذه المعانى دون غيرها ، مُصَوِّرةً على الوجوه إحساسها ونوازعها ، وكلُّ ذلك سِحْرُ عرش الورد ، تلك الحديقة الساهرة المسحورة ، التى كانت النسماتُ تأتى من الجو ترفرفُ حولها متحيرةً كأنما تتساءل : أهذه حديقةٌ خلقت بطيور إنسانية ؛ أم هى شجرةٌ ورد هبطت من الجنة بمن يتفَيَّانَ ظلها ويتنسَّمنَ

شَذَاها من الحُور ؛ أم ذاك منبعٌ وردى عطرى نُورانىّ لحياة هذه المَلِكَة الجالِسة
على العرش ؟

يا نَسَمَاتِ اللَّيْلِ الصّافِيَةِ صَفَاءِ الْخَيْر ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ تَنْبِيعَ هَذِهِ الْحَيَاةُ الْمُقْبِلَةُ فِي
جَمَاهِلِهَا وَأَثَرِهَا وَبَرَكَتِهَا مِنْ مِثْلِ الْوَرْدِ الْمُبْهِجِ ، وَالْعَطْرِ الْمَنْعَشِ ، وَالضَّوْءِ الْمُخَيِّ ؛
فَإِنْ هَذِهِ الْعُرُوسُ الْمُعْتَلِيَةُ عَرْشَ الْوَرْدِ :

هِيَ ابْنَتِي ...

(١) أَيُّهَا الْبَحْرُ !

إِذَا احْتَدَمَ الصَّيْفُ ، جَعَلْتَ أَنْتِ أَيُّهَا الْبَحْرُ لِلزَّمَنِ فَصْلاً جَدِيداً يُسَمَّى
« الرَّبِيعَ الْمَائِي » .

وَتَنْتَقِلُ إِلَى أَيَّامِكَ أَرْوَاحُ الْحَدَائِقِ ، فَتَنْبِتُ فِي الزَّمَنِ بَعْضَ السَّاعَاتِ الشَّهِيَّةِ ،
كَأَنَّهَا الثَّمَرُ الْحُلُوُّ النَّاضِجُ عَلَى شَجَرِهِ .

وَيُوحِي لَوْنُكَ الْأَزْرَقُ إِلَى النُّفُوسِ مَا كَانَ يُوحِيهِ لَوْنُ الرَّبِيعِ الْأَخْضَرِ ، إِلَّا
أَنَّهُ أَرْقُ وَأَلْطَفُ .

وَيَرَى الشَّعْرَاءُ فِي سَاحِلِكَ مِثْلَ مَا يَرَوْنَ فِي أَرْضِ الرَّبِيعِ ، أَنْوَةً ظَاهِرَةً ،
غَيْرَ أَنَّهَا تَلِدُ الْمَعَانِيَ لَا الْنبَاتَ .

وَيُحْسِنُ الْعِشَاقُ عِنْدَكَ مَا يُحْسِنُونَهُ فِي الرَّبِيعِ : أَنَّ الْهَوَاءَ يَتَأَوَّهُ ...

(١) كَتَبْنَا فِي (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر .

في الربيع ، يتحرك في الدم البشري سرُّ هذه الأرض ؛ وعند « الربيع المائي » يتحرك في الدم سرُّ هذه السُّحُب .

نوعان من الخمر في هواء الربيع وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطَّرب .

وبالربيعين الأخضر والأزرق يفتح بابان للعالم السحريِّ العجيب : عالم الجمال الأرضي الذي تدخله الروح الإنسانية كما يدخل القلب الحبُّ في شعاع ابتسامةٍ ومعناها .

في « الربيع المائي » ، يجلسُ المرءُ ، وكأنه جالسٌ في سحابةٍ لا في الأرض . ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماش ؛ ويجدُ الهواء قد تنزَّه عن أن يكون هواء التراب .

وتخفُّ على نفسه الأشياءُ ، كأن بعضَ المعاني الأرضية انتزعت من المادة . وهنا يدركُ الحقيقة : أن السرورَ إن هو إلا تنبُّهُ معاني الطبيعة في القلب .

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك في « دنيا الرزق » .

تشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكانما تطلعُ وتغربُ على الأعمال التي يعملُ الجسمُ فيها .

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة .

تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنَّ الناسَ — وأسفاه — يكونون في ساعاتهم المظلمة ...

الشمسُ هنا جديدة ، تثبتُ أن الجديدَ في الطبيعة هو الجديدُ في كيفية شعور النفس به .

والقمرُ زاهٍ رَفَّافٌ من الحُسْن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر .
أو كأنه ليس قمرًا ، بل هو فجرٌ طَلَعَ في أوائل الليل ؛ فحصرته السماءُ في مكانه ليستغمرَ الليل .

فجرٌ لا يُوقظُ العيونَ من أحلامها ، ولكنه يُوقظُ الأرواحَ لأحلامها .
ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُستبهِمةً كأنها أحلامٌ معلقة .

للقمر هنا طريقةٌ في إيهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبله أول مرة .

و « للربيع المائي » طيورُهُ المغرّدة وفراشه المتنقل :
أما الطيورُ فنساءٌ يتضاحكن ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون .
نساءٌ إذا انغمسنَ في البحر ، خيّلَ إليّ أن الأمواجَ تتشاحنُ وتتخاصمُ على بعضهن ...

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرملِ جلسةَ حواءَ قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا إلهي ! قد انتقل معنى الغرقِ إلى الشاطئ ...
إن الغريقَ من غرقَ في موجةِ الرملِ هذه ...

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا ...
وخيّلَ إليّ أنهم ألقوا البحرَ كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماك

التراب ... ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاءَ فَوَكَزَ البحرَ برجله ! فضحك البحر

وقال : انظروا يا بني آدم !!

أَعْلَى اللهُ أَنْ يَعْْبَأَ بالمَغْرُورِ مِنْكُمْ إِذَا كَفَرَ بِهِ ؟ أَعْلَى أَنْ أَعْبَأَ بهذا الطفل
كيلا يقولَ إنه ركلني برجله ... ؟

أيها البحر ، قد ملأتك قوةُ الله لثُبُتِ فراغِ الأرضِ لأهل الأرض .
ليس فيك ممالكٌ ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الإنسانِ المغرور .
وتجيش بالناس وبالسفنِ العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قسماً
ترمى به .

[والاختراعُ الإنسانيُّ مهما عَظُمَ لا يُغْنِي الإنسانَ فيك عن إيمانه .]
وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظمة والهول ، ردّاً على عظمة الإنسان
وهوله في الربع الباقي ؛ ما أعظمَ الإنسانَ وأصغره !

ينزلُ الناسُ في مائك فيتساوون حتى لا يختلفَ ظاهرٌ عن ظاهر .
ويركبون ظهورك في السفنِ فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلفَ باطنٌ
عن باطن .

تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكُرّةِ الأرضيةِ ومن أحكامِها الباطلة .
وتنقُرهم إلى الحب والصدقة فقرّاً يُريهم النجومَ نفسها كأنها أصدقاء ، إذ
عرفوها في الأرض .

يا سحرَ الخوف ، أنت أنت في اللجّة كما أنت أنت في جهنم .

وإذا ركبك المَلُحِدُ أيها البحر ، فَرَجَعْتَ من تحته ، وَهَدَرْتَ عليه وَثُرْتَ

به ، وأريته رأى العين كأنه بين سماءين ستنطبق إحداها على الأخرى فتَقْلان عليه — تركته يتطأطأ ويتواضع ، كأنك تهزّه وتهزّ أفكاره معاً ، وتدخرجه وتدخرجها .

وأطرت كلّ ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل .

وكشفت له عن الحقيقة : أن نسيان الله ليس عملاً العقل ، ولكنه عمل الغفلة والأمن وطول السلامة .

ألا ما أشبه الإنسان في أخياة بالسفينة في أمواج هذا البحر !
إن ارتفعت السفينة ، أو انخفضت ، أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها .

ولن تستطيع هذه السفينة أن تملك من قانون ما حولها شيئاً ، ولكن قانونها هي الثبات ، والتوازن ، والاهتداء إلى قصدها ، ونجاتها في قانونها .
فلا يعتبن الإنسان على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه .

(١) في الربيع الأزرق

خواطر مرسله

ما أجمَل الأرضَ على حاشيةِ الأزرقينِ البحرِ والسماءِ ؛ يكادُ الجالسُ هنا
يظنُّ نفسه مرسوماً في صورةِ إلهية .

نظرتُ إلى هذا البحرِ العظيمِ بعيني طفلٍ يتخيلُ أن البحرَ قد مُلئَ بالأمس ،
وأن السماءَ كانت إناءً له ، فانكفاً الإناءُ فاندققَ البحرُ ، وتسرحَتْ مع هذا
الخيالِ الطفليِّ الصغيرِ فكأنما نالني رشاشٌ من الإناءِ
إننا لن ندركَ روعةَ الجمالِ في الطبيعةِ إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من
طفولتها ، ومرحِ الطفولةِ ، ولعبها ، وهذيانها .

تبدو لك السماءُ على البحرِ أعظمَ مما هي ، كما لو كنتَ تنظرُ إليها من سماءٍ
أخرى لا من الأرضِ .

إذا أنا سافرتُ فجنّتُ إلى البحرِ ، أو نزلتُ بالصحراءِ ، أو حلتُ بالجبلِ ،
شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشةِ السرورِ بما كنتُ أشعرُ بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراءَ
أو البحرَ قد سافرتُ هي وجاءتْ إليّ .

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر ، وقد شاع استعمالها بعد نشر

هذه المقالة .

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلاً ، إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها ،
فتقلب الدارُ الصغيرةُ قصرًا لأنها في سعة النفس لافي مساحتها هي ، وتعرفُ
لنور النهار عذوبةً كعذوبة الماء على الظأ ، ويظهر الليلُ كأنه معرضُ جواهرٍ
أقيم للجُور العين في السماوات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنةٌ
سابحةٌ في الهواء .

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة ؛ وى كأن الله
أمرَ العالمَ ألا يعبسَ للقلب المبتسم .

أيامُ المصيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الإنسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الإنسان ؛
فيرتدُّ إلى دهره الأول ، دهرِ الغابات والبحار والجبال .
إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى .

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ ، ولكنها في التعب والكدح والمشقة
حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ .

لا تتمُّ فائدة الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ إلا إذا انتقلت النفسُ من شعور إلى
شعور ؛ فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبحر .

الحياةُ في المصيف تُثبت للإنسان أنها إنما تكون حيث لا يُحفلُ بها كثيراً .

يشعر المرءُ في المدين أنه بين آثار الإنسان وأعماله ، فهو هناك في رُوح العناء

والكَدْح والنزاع ؛ أما في الطبيعة فيُحَسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية ، فهو هنا في رُوح اللذة والسرور والجلال .

إذا كنتَ في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفرَّغهُ للنَّبَتِ والشجر ، والحجرِ والدَّر ، والطيرِ والحيوان ، والزهرِ والعُشْب ، والماء والسماء ، ونورِ النهار ، وظلامِ الليل ، حينئذ يفتحُ لك العالمُ بابه ويقول : ادخل . . .

لطفُ الجمال صورةٌ أخرى من عَظَمَةِ الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلععُ في غصن ، فخيَّلُ إلىَّ أن لها عَظَمَةَ البحر لو صغرُ فُعَلَّق على ورقة .

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية حين يفورُ شعْرُ الجمالِ في الدم ، أَطَلْتُ النظرَ إلى وردةٍ في غصنها زاهيةٍ عَطرَةٍ ، متأنقةٍ ، متأنثةٍ ؛ فكدت أقول لها : أنتِ أيتها المرأة ، أنتِ يا فلانة

أليس عجيباً أن كلَّ إنسان يرى في الأرض بعضَ الأمكنة كأنها أمكنةٌ للروح خاصة ؛ فهل يدركُ هذا على شيء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدم وحواء ، لا يزال يعملُ في النفس الإنسانية ؟

الحياةُ في المدينة كَشُرْبِ الماء في كُوبٍ من الخَزَفِ ؛ والحياةُ في الطبيعة كَشُرْبِ الماء في كُوبٍ من البَلُورِ الساطع ؛ ذاك يحتوي الماء وهذا يحتويه ويُبدى جماله للعين .

وأسفاه ، هذه هي الحقيقة : إن دقة الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها
كدقة الفهم للحب ، وإن العقل الصغير في فهمه للحب والحياة ، هو العقل
الكامل في التذاذبه بهما . وأسفاه ، هذه هي الحقيقة !

في هذه الأيام الطبيعية التي يجعلها المصيف أيام سرور ونسيان ، يشعر كل
إنسان أنه يستطيع أن يقول للعالم كلمة هزل ودعابة ...

من لم يُرزق الفكر العاشق لم يرَ أشياء الطبيعة إلا في أسئمتها وشيائتها ،
دون حقائقها ومعانيها ، كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلهن سواءً ، فإذا عشق
رأى فيهن نساءً غير من عرف ، وأصبحن عنده أدلة على صفات الجمال
الذي في قلبه .

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة ، أما دنيا المصيف فقائمة بما تلذّه
الحياة ، وهذا هو الذي يغيّر الطبيعة ويجعل الجو نفسه هناك جو مائدة ظرفاء
وظريقات ...

تعمل أيام المصيف بعيد انتضائها عملاً كبيراً ، هو إدخال بعض الشعر في
حقائق الحياة .

هذه السماء فوقنا في كل مكان ، غير أن العجيب أن أكثر الناس يرحلون
إلى المصايف ليروا أشياء منها السماء ...

إذا استقبلتَ العالمَ بالنفسِ الواسعةِ رأيتَ حقائقَ السرورِ تزيد وتوسع ،
وحقائقَ المومِ تصغرُ وتضيقُ ، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقتْ فأنت
الضيقُ لاهى .

فى الساعةِ التاسعةِ أذهبُ إلى عملى ، وفى العاشرةِ أعملُ كيئتْ ، وفى الحاديةِ
عشرةِ أعملُ كيئتْ وكيتْ ؛ وهنأ فى المصيفِ تفقدُ التاسعةُ وأخواتها معانيها
الزمنيةَ التى كانت تضعها الأيامُ فيها ، وتستبدلُ منها المعانى التى تضعها فيها
النفسُ الحرة .

هذه هى الطريقة التى تُصنعُ بها السعادةُ أحياناً ، وهى طريقةٌ لا يقدر عليها
أحدٌ فى الدنيا كصغار الأطفال .

إذا تلاقىَ الناسُ فى مكانٍ على حالةٍ متشابهةٍ من السرورِ وتَوْهَّجِهِ والفكرةِ
فيه ، وكان هذا المكانُ مُعدّاً بطبيعتهِ الجميلةِ لنسيانِ الحياةِ ومكارِهاها — فتملكَ
هى الروايةُ ومثلوها ومسرحُها^(١) ، أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسانِ المدنيةِ
ومدنيةِ الإنسانِ .

ما أصدق ما قالوه : إن المرئى فى الرأى . مرضتُ مدةً فى المصيفِ ، فاقبلتُ
الطبيعةُ العروسُ التى كانت تزينُ كل يومٍ إلى طبيعةٍ عجوز تذهب كل يومٍ
إلى الطبيبِ ...

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير
صحيح . وأن صوابها المزرح ولكن الصأحب بن عباد استعملها فى قريب من معنى دار التمثيل
وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم .

حديث قطين

جاء في امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤) في موضوع الإنشاء ما يأتي :

« تقابل قِطَان : أحدهما سَمِينٌ تبدو عليه آثارُ النعمة ، والآخرُ نحيفٌ يدل منظرُهُ على سُوءِ حاله ؛ فإِذَا يَقُولَانِ إِذَا حَدَّثَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ مَعِيشَتِهِ ؟ »
وقد حار التلاميذ الصغارُ فيما يَضَعُونَ على لسان القِطَيْنِ ، ولم يعرفوا كيف يوجِّهون الكلامَ بينهما ، وإلى أَى غاية ينصرفُ القولُ في مُحاورتهما ؛ وضاقوا جميعاً وهم أطفال — أن تكونَ في رءوسهم عقولُ السَّنَانِيرِ ؛ وأعيامهم أن تنزلَ غرائزُهُم الطَّيْبَةُ في هذه المنزلةِ مِنَ الْبَهِيمَةِ وَمِنْ عَيْشِهَا خَاصَّةً ، فيكْتَتِهوا تَدْيِيرَ هذه القِطَاطِ لِحَيَاتِهَا ، وَيَنْفُذُوا إِلَى طِبَائِعِهَا ، وَيَنْدَجِّجُوا فِي جُلُودِهَا ، وَيَأْكُلُوا بَأَنْيَابِهَا ، وَيَمِزُّوا بِمَخَالِبِهَا .

قال بعضهم : وَسَخِطْنَا عَلَى أَسَاتِذَتِنَا أَشَدَّ السَّخَطِ ، وَعَبْنَاهُمْ بِأَقْبِحِ الْعَيْبِ ؛ كيف لم يعلِّمونا من قبل — أن نكونَ حَمِيرًا ، وَخَيْلًا ، وَبَعَالًا ، وَثِيْرَانًا ، وَقِرَدَةً ، وَخَنَازِيرَ ، وَفَرَانًا ، وَقِطَاطَةً ، وَمَا هَبَّ وَدَبَّ ، وَمَا طَارَ وَدَرَجَ ، وَمَا مَشَى وَانْسَاحَ ؛ وكيف — ويجهم — لم يلقِّنونا مع العربية والإنجليزية لغاتِ التَّهْنِيقِ ، وَالصَّهِيلِ ، وَالشَّحِيحِ ، وَالْخُورِ ، وَضَحِكِ الْقِرْدِ ، وَقُبَاعِ الْخَنَزِيرِ ، وكيف نَصِيءُ وَنَمُوءُ ، وَنَلْغَطُ لَغَطَ الطَّيْرِ ، وَنَفْخُ فَخِيجَ الْأَفْعَى ، وَنَكْشُ كَشِيشَ الدَّبَّابَاتِ ^(١) ، إلى ما يَتِمُّ بِهِ هَذَا الْعِلْمُ الْلُغَوِيُّ الْجَلِيلُ ، الَّذِي تَقُومُ بِهِ بِلَاغَةُ الْبِهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ وَالْهَمَجِ أَشْبَاهِهَا . . . ؟

(١) هذه أصوات هذه الأجناس في اللغة .

وقال تلميذ خبيث لأستاذه : أما أنا فأوجزتُ وأعجزتُ . قال أستاذه :
أجدتَ وأحسنْتَ ، والله أنت ! والله لقد أصبت ! فماذا كتبت ؟ قال :
كتبت هكذا :

يقول السمين : ناو ، ناو ، ناو ... فيقول النحيف : نو ، ناو نو ...
فيردُّ عليه السمين : نو ، ناو ، ناو ... فيغضبُ النحيف ، ويكثرُ عن أسنانه ،
ويحرك ذيله ويصيح : نو ، نو ، نو ... فيلطمه السمين فيخدشه ويصرخ :
ناو ... فيثبُّ عليه النحيف ويضطرَّ عان ، وتختلط « النونوة » لا يمتاز صوتُ
من صوت ، ولا يبينُ معنى من معنى ، ولا يمكنُ الفهمُ عنهما في هذه الحالة إلا
بتعب شديد ، بعد مراجعة قاموس القِطاط ... !

قال الأستاذ : يا بني ، بارك الله عليك ! لقد أبدعتَ الفنَّ إبداعاً ، فصنعتَ
ما يصنع أكبرُ النوابغ ، يُظهرُ فنه بإظهار الطبيعة وإخفاء نفسه ، وما ينطق القِطُّ
بلغتنا إلا مُعجزةً لنبيٍّ ، ولا نبيٌّ بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فلا سبيلَ إلا
ما حكيتَ ووصفتَ ، وهو مذهبُ الواقع ، والواقعُ هو الجديدُ في الأدب ؛
ولقد أراذك تلميذاً هزواً ، فكنتَ في إجابتك هزواً أستاذاً ، ووافقتَ السنانيرَ
وخالفتَ الناسَ ، وحققتَ للممتحنين أرقى نظريات الفنِّ العالي ، فإن هذا الفنَّ
إنما هو في طريقة الموضوع الفنية ، لا في تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا
وهناك ، ولو حفظوا حرمة الأدب ورعوا عهدَ الفنِّ لأدركوا أن أسطرك القليلة
كلاماً طويلاً بارعاً في النادرة والتهمك ، وغرابة العبقرية ، وجمالها وصدقها ،
وحسنِ تناولها ، وإحكامِ تأديتها لما تؤدِّي^(١) ؛ ولكن ما الفرق يا بني بين
« ناو » بالمد ، و « نو » بغير مد .. ؟ قال التلميذ : هذا عند السنانير كالإشارات
التغرافية : شُرطة ونقطة وهكذا .

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر .

قال : يا بنى ، ولكن وزارة المعارف لا تُقرُّ هذا ولا تعرفه ، وإنما يكون المصححُ أستاذًا لا هِرًّا . . . والامتحان كتابي لا شفوي .

قال الخبيث : وأنا لم أكن هِرًّا بل كنت إنسانًا ، ولكن الموضوع حديث قِطَيْن ، والحكم في مثل هذا لأهله القائمين به ، لا المتكلفين له ، المتطفلين عليه ؛ فإن هم خالفوني قلتُ لهم : امألوا القِطاط ؛ أو لا فليأتوا بالقِطَيْن : السمين والضعيف ، فليجمعوا بينهما ، وليحرِّشوها ، ثم ليُحضِّروا الرُقْبَاءَ هذا الامتحان ، وليكتبوا عنهما ما يسمعون ، وليصفوا منهما ما يرونه ، فوالذى خَلَقَ السمانيِرَ والتلاميذَ والمُتَحَنِّينَ والمُصَحِّحِينَ جميعاً — ما يزيدُ الهرَّانَ على « نوَّ ، وناوُ » ، ولا يكونُ القولُ بينهما إلا من هذا ، ولا يقعُ إلا ما وصفتُ ، وما بُدِّ من المهارشةِ والموائبةِ بما في طبيعةِ القوى والضعيف ، ثم فرارِ الضعيف مهزوماً ، وينتهى الامتحان !

إن مثلَ هذا الموضوع يشبهه تكليف الطالب الصغير خالقَ هِرَّتَيْن لا الحديثَ عنهما ؛ فإن إجادة الإنشاء في مثل هذا الباب ألوهيةٌ عقليةٌ تَخْلُقُ خلقها السَّوِيُّ الجميل نابضاً حيّاً ، كأنما وضعتُ في الكلام قلبَ هِرٍّ ، أو جاءت بالهر له قلبٌ من الكلام . وأين هذا من الأطفال في الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولهما ؛ وكيف لهم في هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود ، ويدخلوا أسرارَ الخليفة ، ويُصِّبِحُوا مع كل شيء رَهْنًا بَعْلِهِ ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها ؟ وقد قيل لهم من قبل في السنوات الخالية : « كن زهرةً وصِف . واجعلْ نفسك حبة قمح وقُل . » وإنما هذا ونحوه غايةٌ من أبعد غايات النبوة أو الحكمة ؛ إذ النبىُّ تعبيرٌ إلهيٌّ تتخذُه الحقيقةُ الكاملةُ لَتُنطَقَ به كلماتُها التى تسمى الشريعة ، والحكيم وجهٌ آخرٌ من التعبير ، تتخذُه تلك الحقيقةُ لَتُلْقَى منه الكلمةُ التى تسمى الفن .

وقد كان في القديم امتحانٌ مثل هذا ، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من
آلاف كثيرة ؛ وكان الممتحن هو الله جلَّ جلاله ؛ والموضوعُ حديثُ النملة مع
النمل ؛ والناجحُ سليمان عليه السلام .

« قالت نملةٌ : يأيها النملُ ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكمُ سليمانُ
وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها . »

إن السكونَ كله مستقرٌ بمعانيه الرمزية في النفس الكاملة ؛ إذ كانت الروح
في ذاتها نوراً ، وكان سرُّ كل شيء هو من النور ، والشعاعُ يجري في الشعاع
كما يجري الماء في الماء ، وفي امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوبُ
روحانيٌّ هو بذاته تعبيرٌ في البصيرة وإدراكٌ في الذهن ، وهو أساسُ الفن على
اختلاف أنواعه : في الكلمة والصورة ، والمثالِ والنعمة ؛ أي الكتابة والشعرِ
والتصوير والخفر والموسيقى .

ومن ذلك لا يكون البيانُ العالی أتمَّ إشراقاً إلا بتام النفس البليغة في
فضيلتها أو رذيلتها على السواء ؛ فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن
يكونَ تمامُ الرذيلة في أثره على العمل الفني ، هو الوجهةُ الآخرَ تمامُ الفضيلة
في أثره على هذا العمل ؛ والنقطةُ التي ينتهي فيها العلوُّ من مُحيط الدائرة هي بعينها
التي يبدأ منها الانحدارُ إلى السُّفْل ؛ ومن ثمَّ كانت الفنونُ لا تُعتبرُ بالأخلاق ،
حتى قال علماءنا : إن الدين عن الشعرِ بمعزِل . فالأصلُ هناك سموُّ التعبيرِ وجماله ،
و بلاغةُ الأداء وروعتها ؛ ولا يكون السؤالُ الفني ما هي قيمةُ هذه النفس ، ولكن
ما طريقتها الفنية ؟ وأى عجيب في ذلك ؟ أليس لجهنمِ حقٌّ في كبار أهل الفن ،
كما للجنة حقٌّ في نوابغها ؟ وإذا قالت الجنة : هذه فضائلُ البليغة . أفلا تقول
الجهنمُ : وهذه بلاغةُ رذائلِ ؟ وكيف لعمري يستطيع إبليسُ أن يؤدي
عمله الفني ويصورَ بلاغته العالِيَّة إلا في ساقطين من أهل الفكر

الجميل ، وساقطاتٍ من أهل الجسم الجميل . . ؟

لقد بعدنا عن القطين ، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما .
كان القطُّ الهزيلُ مرابطاً في زُقاق ، وقد طارد فأرةً فأنجَحَرَتْ في شِقِّ ،
فوقف المسكينُ يترَبَّصُ بها أن تخرج ، ويؤامر نفسه كيف يُعالجها فيَبَرِّئُها ،
وما عقلُ الحيوانِ إلا من حِرْفَةِ عَيْشِهِ لا من غيرها . وكان القطُّ السمينُ قد
خرج من دار أصحابه يريد أن يفرِّجَ عن نفسه بأن يكونَ ساعةً أو بعض ساعة
كالقِطْطَةِ بعضِها مع بعض ، لا كأطفالِ الناس مع أهلهم وذوى عنايتهم ،
وأبصر الهزيلُ من بعيد فأقبل يمشى نحوه ، ورآه الهزيلُ وجعل يتأمله وهو
يتخَلَّلُ تخلُّعَ الأسدِ في مِشْيَتِهِ ، وقد ملأَ جِلْدَتَهُ من كل أقطارها ونواحيها ، وبَسَطَتِهِ
النِّعْمَةُ من أطرافه ، وانقلبت في لحمه غِلْظاً ، وفي عَصَبِهِ شِدَّةً ، وفي شعره بَرِيئاً ،
وهو يَمُوجُ في بدنه من قُوَّةٍ وعافية ، ويكاد إهابُهُ ينشَقُ سِتْماً وكِدْنةً .
فانكسرت نفسُ الهزيلِ ، ودخلته الحسرة ، وتَضَعَّضَ لمرأى هذه النعمة مَرِحَةً
مختالة . وأقبل السمينُ حتى وقف عليه ، وأدركته الرحمة له ، إذ رآه نحيفاً
مَتَقَبِّضاً ، طاوَى البطن ، بارزَ الأضلاع ، كأنما هَمَّتْ عِظَامُهُ أن تترك مسكنها من
جلده لتجدَ لها مأوئى آخر .

فقال له : ماذا بك ، ومالى أراك مُتَيْبِّساً كالميت في قبره غير أنك لم تمت ،
ومالك أعطيت الحياةَ غير أنك لم تحيَ ، أوليس المرءُ منا صورةً مختزلةً من
الأسد ، فمالك — ويحك — رجعت صورةً مختزلةً من المرء ؛ أفلا يسقونك
اللبن ، ويُطعمونك الشَّحْمَةَ واللحمة ، ويأتونك بالسَّمَكِ ، ويقطعون لك من
الجبين أبيضَ وأصفرَ ، وَيَقْتُونُ لك الخبزَ في المَرَقِ ، وَيُؤْثِرُكَ الطفلُ ببعض
طعامه ، وتذلُّك الفتاةُ على صدرها ، وتَمْسَحُكَ المرأةُ بيديها ، ويتناولك الرجلُ

كما يتناول ابنه ...؟ وما لجلدك هذا مُغْبَرًّا كأنك لا تَلْطَعُهُ بأُعباك ، ولا تتمهده بتنظيف ، وكأنك لم ترق قط فتى أو فتاة يجرى الدهانُ برِيقًا في شعره أو شعرها ، فتحاول أن تصنعَ بلعابك لشعرك صنيعهما ؛ وأراك متزايلاً الأعضاء متفككاً حتى ضَعُفَتْ وَجِهَتَ ، كأنه لا يركبك من حُب النوم على قدرٍ من كسلك وراحتك ، ولا يركبك من حب الكسل على قدرٍ من نعيمك ورفاهتك ، وكأن جنبيك لم يعرفا طِنْفَسَةً ولا حَشِيَّةً ولا وِسَادَةً ولا بِسَاطًا ولا طِرَازًا ، وما أشبهك بأسدٍ أهلكه ألا يجد إلا العُشْبَ الأخضرَ والمشيَمَ اليابس ، فما له لحمٌ يجىء من لحم ، ولا دمٌ يكون من دم ، وانحطَّ فيه جسمُ الأسد ، وسكنت فيه روحُ الحمار !

قال الهزِيل : وإن لك لَحْمَةً وشَحْمَةً ، ولَبَنًا وسَمَكًا ، وَجُبْنًا وفُتَاتًا ، وإنك لتَقْضِي يومَكَ تَلْطَعُ جِلْدَكَ مَاسِحًا وغَاسِلًا ، أو تَتَطَرَّحُ على الوسائدِ والطنافسِ نائمًا ومتمددًا ؟ أما والله لقد جاءتك النعمةُ والبلادةُ معًا ، وصلحت لك الحياةُ وفسدت منك الغريزةُ ، وأحكمتَ طبعًا ونَقَضْتَ طِبَاعًا ، وَرَبِحْتَ شَبَعًا وخَسِرْتَ لَذَةً ، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطفَ على نفسك ، وحملوك وأعجزوك أن تستقلَّ ، وقد صرتَ معهم كالدَّجاجةِ تُسَمِّنُ لثُدْبَح ، غير أنهم يذبحونك دلالًا وملا لا .

إنك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك ، وتنظرُ إليهم يأكلون ، وتطمع في مَوَاكِلِهِمْ ، فتشبع بالعين والبطنِ والرغبةِ ثم لا شيءَ غيرُ هذا ، وكأنك مُرتَبِطٌ بجبالٍ من اللحمِ تأكل منها وتحتبسُ فيها .

إن كان أولُ ما في الحياة أن تأكل فأهونُ ما في الحياة أن تأكل ، وما يقتلك شيءٌ كاستواءِ الحال ، ولا يُحييك شيءٌ كتفاوتِها ؛ والبطنُ لا يتجاوز البطنَ ، ولذتهُ لذتهُ وحدها ، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك ، وعن

العِلْكِ الباطنة التي تحرّكنا إلى لذاتِ أعضائنا ، ومتاعِ أرواحنا ، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر ، وتجعلنا نعيشُ من قِبَلِ الجسمِ كله ، لا من قِبَلِ المعدة وحدها ؟

قال السمين : تالله لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياةً ، وأراني بإزائك معدوماً بزوال أسلافى منى ، وأراك بإزائى موجوداً بوجود أسلافك فيك . ناشدتك الله إلا ما وصفت لى هذه اللذات التي تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشَّبع ، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى ؟

فقال الهزيل : إنك ضخم ولكنك أبله ، أما علمت — ويحك — أن المِحنةَ في العيش هي فكرة وقوة ، وأن الفكرة والقوة هما لذةٌ ومنفعة ، وأن لهفة الحرمان هي التي تضع في الكسب لذة الكسب ، وسُعَارَ الجوع هو الذي يجعل في الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح ، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوّضك منه الشَّحمة واللحمة ، فإن رغباتنا لا بد لها أن تجوع وتغذى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا ، ليوجد كلُّ منهما حياته في الحياة ؛ والأمور المطمئنة كهذه التي أنت فيها هي للحياة أمراضٌ مطمئنة ، فإن لم تنقص من لذتها فهي لن تزيد في لذتها ، ولكن مكابدة الحياة زيادةً في الحياة نفسها .

وسرّ السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التي تجعل الأحسن أحسن مما يكون ، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو ، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قارئاً محصوراً من الدنيا بين الأيدي والأرجل ؟ إنك كالأسد في القفص ، صغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه ، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة في جلد ؛ أما أنا فأسدٌ على نخالي ووراء أنيابي ، وغيفتي أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً ، وإن الحرية لتجعلني أنشئم من الهواء لذةً مثل لذة الطعام ، وأستروح من التراب لذةً كلذة اللحم ، وما الشقاء إلا خلتان من

خلال النفس : أما واحدةٌ فأن يكونَ في شَرِّهِك ما يجعلُ الكثيرَ قليلاً ، وهذه ليست مثلى ما دمتُ على حدِّ الكَفَافِ من العيش ؛ وأما الثانيةُ فأن يكونَ في طمعك ما يجعلُ القليلَ غيرَ قليلٍ ، وهذه ليس لها مثلى ما دمتُ على ذلك الحدِّ من الكَفَافِ . والسعادةُ والشقاءُ كالخق والباطل ، كلُّها من قبيلِ الذات ، لا من قبيلِ الأسبابِ والعللِ ، فمن جاراها سَعِدَ بها ، ومن عكسها عن مجراها فيها يشقى .

ولقد كنتُ الساعةَ آخِثِلُ فَاَرَةً انْجَحَرْتُ في هذا الشَّقِّ ، فَطَعِمْتُ مِنْهَا لَذَةً وإن لم أَطعمَ لِحْمًا ، وبالأَمْسِ رَمَانِي طفْلَ خَبِيثٍ بِحَجَرٍ يَرِيدُ عَقْرِي فَأَحْدَثَ لِي وَجَعًا ، وَلَكِنِ الْوَجْعَ أَحْدَثَ لِي الْإِحْتِرَاسَ ، وَسَأَعِشِي الْآنَ هَذِهِ الدَّارَ الَّتِي بَازَانَا ، فَأَيَّةُ لَذَةٍ فِي السَّلَةِ وَالْخُطْفَةِ وَالْإِسْتِرَاقِ وَالْإِتِهَابِ ثُمَّ الْوُثْبِ شَدًّا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ هَلْ ذُقْتَ أَنْتِ بَرُوحَكَ لَذَةً الْفُرْصَةِ وَالنَّهْرَةِ ، أَوْ وَجَدْتَ فِي قَلْبِكَ رَاحَةَ الْخَالِصَةِ وَاسْتِرَاقِ الْغَفْلَةِ مِنْ فَاَرَةٍ أَوْ جُرْذٍ ، أَوْ أَدْرَكَتِ يَوْمًا فَرَحَةَ النِّجَاةِ بَعْدَ الرَّوْغَانِ مِنْ عَابِثٍ أَوْ بَاغٍ أَوْ ظَالِمٍ ؟ وَهَلِ نَالَتْكَ لَذَةُ الظَّفَرِ حِينَ هَوَّلَكَ طِفْلٌ بِالضَّرْبِ ، فَهَوَّلَتْهُ أَنْتِ بِالْعَضِّ وَالْعَقْرِ ، فَقَرَّ عَنْكَ مِنْهَزِمًا لَا يَلْوِي ؟

قال السمين : وفي الدنيا هذه اللذاتُ كُلُّهَا وَأَنَا لَا أَدْرِي ؟ هَلْ أَتَوْحَشُ مَعَكَ ، لِيَكُونَ لِي مِثْلُ نُكْرِكَ وَدَهَائِكَ وَاحْتِمَالِكَ ، فَيَكُونَ لِي مِثْلُ رَاحَتِكَ الْمَكْدُودَةِ ، وَلَذَتِكَ الْمَتَعَبَةِ ، وَعُمْرِكَ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ مِنْكَ وَحَدِّكَ . وَسَأَتَصَدَّى مَعَكَ لِلرِّزْقِ أَطَارِدُهُ وَأَوَاتِبُهُ ، وَأَغَادِيهِ وَأَرَاوِحُهُ . . . فَقَطَّعَ عَلَيْهِ الْهَزِيلَ وَقَالَ : يَا صَاحِبِي ، إِنْ عَلِمْتَ مِنْ لَحْمِكَ وَنَعْمَتِكَ عِلَامَةَ أَسْرِكَ ، فَلَا يَلْقَانَا أَوَّلُ طِفْلٍ إِلَّا أَهْوَى لَكَ فَأَخَذَكَ أُسِيرًا ، وَأَهْوَى عَلَيَّ بِالضَّرْبِ لِأَنْتَاطِ حُرًّا ، فَأَنْتِ عَلَى نَفْسِكَ بِلَاءٌ ، وَأَنْتِ بِنَفْسِكَ بِلَاءٌ عَلَيَّ .

وكانتِ الفَاَرَةُ الَّتِي انْجَحَرْتُ قَدْ رَأَتْ مَا وَقَعَ بَيْنَهُمَا ، فَسَرَّهَا اسْتِغْفَالُ الشَّرِّ

بالشر... وطالت مراقبتها لهما حتى ظنت الفرصة ممكنةً ، فوثبت وثبةً من ينجو بحياته ، ودخلت في باب مفتوح ، ولحها الهزِيلُ . كما تلمح العينُ برقاً أومض وانطفأ ، فقال للسّمين : اذهب راشداً ، فحسبك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة ، أن الوقوفَ معك ساعةً هو ضياعُ رزق ، وكذلك أمثالك في الدنيا ، هم بالفاظهم في الأعلى وبمعانيهم في الأسفل ...

بين خروفين

« اجتمع ليلة الأضحى خروفان من أضحى العيد ، فتكلّما ؛ فماذا يقولان ؟ »
 هذا هو الموضوع الذي استخرجه لي أصغرُ أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن ، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة ، وهو أصغر قرائها سنّاً ، ترفُّ عليه النّسمةُ الثالثة عشرة من ربيع حياته — بارك الله له فيها حاضرةً ومقبلة .
 ولأستاذنا هذا كلمةً هى شعاره الخاصُّ به فى الحياة ، يحفظها لتحفظه ، فلا يميلُ عن مدرّجتها ، ولا يخرجُ من معناها ؛ وهى هذه الكلمةُ العربية :
 « كالفَرَسِ الكريمِ فى مَيِّعةٍ حُضِرِه ^(١) » ، كلما ذهب منه شَوْطُ جاء شَوْطُ .
 فهو يعلم من هذا أن كرم الأصل فى كرم الفعل ، ولا يُغْنِي شَيْءٌ منهما عن شَيْءٍ ؛ وأن الدمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضَاعَفَ القوّةِ بطبيعته ، عظيمَ الأملِ بهذه القوة المضاعفة ، نزاعاً إلى السبق بمقدار أمله العظيم ، مترفعاً عن الضعف والهوى ينادى بهذا النزوع ، متميزاً فى نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصالِ فيه على أتمّها وأحسنها . فمن ثمَّ لا يرمى الحرُّ الكريمَ إلا أن يبلغَ الأمدَ الأبعدَ فى كلِّ

(١) هذا كما يقال بالعامية : فى عزّ جريه .

ما يحاوله ، فلا يألوان يبذل جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة ، مستمداً قوةً بعد قوة ، محققاً السحرَ القادرَ الذي في نفسه ، متلقياً منه وسائلَ الإعجاز في أعماله ، مُرسِلاً في نبوغه من توهج دمه أضواء كأضواء النجم ، تُثبت لكل ذي عينين أنه النجمُ لا شيءٌ آخر .

ولما قدّم إلى (الأستاذ) موضوعه في هذا الوزن المدرسي — وأظنه قد نزعتَه حاجةٌ مدرسيةٌ إليه — قالتُ : حُباً وكرامة . وهانذا أكتبه منبعثاً فيه « كالفرس الكريم في ميعه خُضره » . . . ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يُثورُ فيه علاماتٌ كثيرةٌ بقلمه الأحمر . . . !

اجتمع ليلة الأضحى خروfan من الأضاحي في دارنا : أما أحدها فكبشٌ أقرنٌ ، يحملُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين ، وقد انتهى سِمْنُه حتى ضاق جلده بلحمه ، وسَحَّ بدنه بالشحم سَحّاً ، فإذا تحرك خلته سحابةٌ يضطربُ بعضها في بعض ، ويهترُ شيءٌ منها في شيء ؛ وله وافرٌ^(١) يجرُّها خلفه جرّاً ، فإذا رأيتها من بعيد حسبتها حملاً يتبع أباه ؛ وهو أضوفٌ ، قد سَبَغَ صُوفُه واستكثفَ وتراكم عليه ؛ فإذا مشى تبخترَ فيه تبخترُ الغانية في حُلَّتِها ، كأنما يشعر مثل شعورها أنه يلبسُ مَسَرَّاتِ جسمه لا ثوبَ جسمه ؛ وهو من اجتماع قوته وجبروته أشبه بالقلعة ، يعلوها من هامته كالبرج الحربي فيه مدفعان بارزان . وتراه أبداً مُصعَّراً خذّه كأنه أمير من الأبطال ، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ في أمره ونهيه ، لا يخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره .

وأما الآخر فهو جذعٌ في رأس الحَوْلِ الأول من مولده ، لم يدرك بعد أن يُصَحَّى ، ولكن جيء به للقرم إلى لحمه الغض ؛ فالأول أضحيةٌ وهذا أكلةٌ ؛

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان إذا كان عظيم الألية .

وذاك يُتَصَدَّقُ بلحمه كله على الفقراء ، وهذا يُتَصَدَّقُ بثنييه ويبقى الثلث طعاماً لأهل الدار .

وكان في لينة وترجرجه وظرف تكوينه ومرح طبعه ، كأنما يُصوِّر لك المرأة آنسة رقيقة مُتَوَدِّدة . أما ذاك الضخم العاتى المتجبر الشامخ ، فهو صورة الرجل الوحشيَّ أخرجته الغابة التي تخرج الأسد والحية وجذوع الدوحة الضخمة ، وجعلت فيه من كل شيء منها شيئاً يُخَفُّ ويُنَقِّي .

وكان الجذع يُغَوِّ لا يقطع ثغأوه ، فقد أخذ من قطيعه انتزاعاً فأحس الوحشة ، وتنهبت فيه غيرة الخوف من الذئب ، فزادته إلى الوحشة قلقاً واضطراباً ؛ وكان لا يستطيع أن ينفلت ، فهو كأنما يهرب في الصوت ويعدو فيه عدواً .

أما الكباشُ فيرى مثل هذا مسببةً لقرنيه العظيمين ، وهو إذا كان في القطيع كان كبشه وحاميته والمقدم فيه ، فيكون القطيع معه وفي كنفه ولا يكون هو عند نفسه مع القطيع ؛ فإذا فقد جماعته لم يكن في منزلة المنتظر أن يلحق بغيره ليحتمي به فيقلق ويضطرب ، ولكنه في منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طلباً لحمايته وذِمَّاره ، فهو ساكن رابط الجأش مضطرب النفس ، كأنما يتصدق بالانتظار . . .

فلما أدبر النهار وأقبل الليل ، جرى للخروفين بالسكلا من هذا البرسيم يعتلفانه ، فأحس الكباش أن في السكلا شيئاً لم يدرك ما هو ، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل ، وعزته كآبة من روحه ، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض ، فانسكس وظهر على وجهه معنى الذليج قبل أن يذبح ، وعاف أن يطعم ، ورجع كأول فطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل ، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناول من كونه أكلها أو أكل من

وكانما جثم الظلام على شحمه ولحمه ؛ فإنه متى ثقل الهم على نفس من
الأنفس ، ثقل على ساعتها التي تكون فيها ، فتطول كآبئها ويطول وقتها جميعاً .
فأراد الكباش أن يتفرج مما به ، ويُنفّس عن صدره شيئاً ، وكان الصغير قد
أنس إلى المكان والظلمة ، وأقبل يعتلف ويخضم السكّال ، فقال له الكباش :
أراك فارهاً يا ابن أخي ، كأنك لا تجد ما أجد ؛ إني والله أعلم علماً لا تعلمه ،
وإني لأحس أن القدر طريقه علينا في هذه الليلة ، فهو مُصْبِحُنَا ما من ذلك بُدّ .
قال الصغير : أتعني الذئب ؟

قال : ليمته هو ، فأنالك به لو أنه الذئب ؛ إن صوفي هذا درع من أظافره ،
وهو كالشبكة ينشب فيها الظفر ولا يتخلص ، ومن قرنيّ هذين ترس ورُمح ،
فأنا واثق من إحراز نفسي في قتله ، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه ،
فإن لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة ، وذاك عند الأبطال فن من القتل . وهذا القرن
الملتف الأعقد المذرب كالسنان ، لا يكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمة
عظامه ، فيحدث له من الفرع ما تنحل به قوته ، فما يؤايبني إلا متخاذلاً ،
ولا يُقدم على إلتوهم الذبّية للخرؤوقية ، فإن أساس القوة والضعف كليهما في
الشوس والطبيعة ، غير أنه لا يعلم أني خرجت من الخروفيه إلى الجاموسية ... !
فما يعلمه ذلك إلا بقر بطنه أو التطويح به من فوق هذا القرن ، أقذفه قذفة
عالية تلقيه من حالق ، فتدق عظامه وتحطم قوائمه !

قال الصغير : فماذا تخشى بعد الذئب ؟ إن كانت العصا فهي إنما تضرب
منك الصوف لا الظهر .

قال الكباش : ويحك ! وأي خروف يخشى العصا ؟ وهي إنما تكون عصا
من يعلمه ويرعاه ، فهي تنزل عليه كما تنزل على ابن آدم أقدار ربه ، لا حطماً
ولكن تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً ؛ ومن قبلها النعمة ، وتكون معها النعمة ،

وتجئء بعدها النعمة ؛ أفبلغ الكفرُ منا ما يبلغ كفرُ الإنسانِ بنعمة ربه : إذا
أنعم عليه أعرضَ ونأى بجانبه ، وإذا مسَّه الشر انطلق ذا صُراخٍ عريض ؟
وكيف ترانى (ويحك) أخشى الذئب أو العصا ، وأنا من سلالة الكباش
الأسدى ؟

قال الصغير : وما الكباشُ الأسدى ، وكيف علمتَ أنك من نَجَلِه ، ولا
علم لى أنا إلا هذا الكلاءُ والعلفُ والماءُ ، والمَراحُ والمُعْدَى ؟
قال الكباش : لقد أدركتُ أمى وهى نعمةٌ قَحْمَةٌ كبيرة ، وأدركتُ معها
جدتى وقد أفرطَ عليها الكبرُ حتى ذهبَ فُهمُها ، وأدركتُ معهما جدى وهو كباش
هَرِمٌ مُتَقَدِّدٌ أعجفُ كأنه عظامُ مَغْطاة ، فعن هؤلاء أخذتُ ورَوَيْتُ وحفظتُ :
حدثتنى أمى ، عن أبيها ، عن أبيه ، قالت : إن فخرَ جنسنا من الغنم يرجع
إلى كبشِ الفداء الذى فدَى اللهُ به إسماعيلَ بنَ إبراهيمَ عليهما السلام ، وكان
كباشاً أبيضاً أَقْرَنَ أعينَ ، اسمه حرير .

(قال) : واعلم يا ابن أخى أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يُدركه غيرى ،
أن جدنا هذا كان مكسوّاً بالحرير لا بالصوف ، فذلك سُمى حريراً ...
(قالت أمى) : والمحفوظُ عند علمائنا أن ذاك هو الكباشُ الذى قَرَبَه هابيلُ
حين قَتَلَ أخاه ، لتتمَّ البليةُ على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوان معاً .
(قالوا) : فَتَقَبَّلَ منه وأرسل الكباشُ إلى الجنة فبقى يرعى فيها حتى كان
اليوم الذى هم فيه إبراهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوة ، وطاعة لما ابتلى به من
ذلك الامتحان ، ولِيُثَبَّتَ أن المؤمن بالله إذا قَوَّى إيمانه لم يجزع من أمر الله
ولو جرَّ السكَّين على عُنق ابنه ، وهو إنما يجرها على ابنه وعلى قلبه !
(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كله .

أما فخرُ سُلالتى أنا ، فذاك ما حدثتنى به جدتى ، ترويه عن أبيها ، عن جدها ،

وذلك حين تَوَسَّمتُ في مَخَالِلِ البُطولة ، وَرَجَتُ أَنْ أَحْفَظَ التاريخ . قالت : إن أَصلنا من دِمَشق ، وإنه كان في هذه المدينة رجل سَبَّاع ، قد اتخذ شِبْلَ أُسْدٍ فربَّاه وراضه حتى كبر ، وصار يطلب الخيل ، وتأذى به الناس ، فقليل للأمير ^(١) : هذا السَّبَّعُ قد آذى الناس ، والخيلُ تنفر منه وتجدُّ من ريحه ريح الموت ، وهو ما يزال رابضاً ليلَه ونهارَه على سُدَّةٍ بالقرب من دارك . فأمر فجاء به السَّبَّاعُ وأدخله إلى القصر ، ثم أمر بخروف مما اتخذ في مطبخه للذبح ، وأدخله إلى قاعة ، وجاء السَّبَّاعُ فأطلق الأسدَ عليه ، واجتمعوا يرون كيف يَسْطُو به ويفترسه .

قالت جدتي : فحدثني أبي ، قال : حدثني جدك : أن السَّبَّاعَ أطلق الأسدَ من سَاجُورِه ^(٢) وأرسله ، فكانت المعجزةُ التي لم يَفْزُ بها خروف ولم تؤثر قط إلا عن جدنا ، فإنه حسب الأسدَ خروفاً أَجَمَّ لا قُرون له ، ورأى دِقَّةَ خصره ، وضُمُورَ جنبه ، ورأى له ذيلًا كالألية المُفْرِغَةِ المَيْتَةِ ، فظنه من مَهَازيل الغم التي قتلها الجَدب ، وكان هو شَبَّعانَ رِيَّان ، فما كَذَّبَ أن يحمل على الأسد ونطحه ، فانهزم السَّبَّعُ مما أذهله من هذه المفاجأة ، وحسب جدنا سُبَّعاً قد زاده الله أساجةً من قرنيه ، فاعتراه الخوفُ وأدبر لا يُلَوِي . وطمع جدنا فيه فاتبعه ، وما زال يُطارِدُه وينطحه ، والأسدُ يَفْرُ من وجهه ويدور حول البركة ، والقومُ قد غلبهم الضحك ، والأمير ما يملك نفسه إعجاباً وفحراً بجدنا . فقال : هذا سُبَّعٌ لثيم ، خذوه فأخرجوه ، ثم اذبحوه ، ثم اسلخواه . فأخذ الأسدُ وذبح ، وأُعتِقَ جدنا من الذبح ، وكان لنا في تاريخ الدنيا : إنسانها وحيوانها أثران عظيمان ؛ فجدنا

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ هـ للهجرة ، وقصها في كتابه (الاعتبار) ؛ والأمير المذكور في القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود . وقد تصرفنا في عبارة القصة .

(٢) الساجور : سلسلة الأسد والكلب ونحوها .

الأول كان فداء لابن نبي ، وجدنا الثاني كان الأسد فداءه !

قال الصغير للكبش : قلت : الذبح ، والفداء من الذبح ؛ فما الذبح ؟
قال الكبش : هذه السنّة الجارية بعد جدنا الأعظم ، وهي الباقية آخر الدهر ؛ فينبغي لكل منا أن يكون فداء لابن آدم !

قال الصغير : ابن آدم هذا الذي يخدمنا ويحترق لنا الكلاء ، ويقدم لنا العلف ، ويمشى وراءنا فنسحبّه إلى هنا وههنا ... ؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت ، أو لا ، فأنت يا أخا جدّي ... قد كبرت وخرقت !

قال الكبش : ويحك يا أبله ! متى تتحلّل هذه العقدة التي في عقلك ؛ إنك لو علمت ما أعلم لما اطأنت بك الأرض ، ولرجعت من التلق والاضطراب كحبة القمح في غربال يهتر ويثقب !

قال الصغير : أتعنى ذلك الغربال وذلك القمح وما كان في القرية ، إذ تناولت ربة الدار غربالها تنفض به قمحها ، فعاقلتها ونطحت الغربال فانقلب عن يدها وانتثر الحب ، فأسرعت فيه التقاطاً حتى ملأت في قبل أن تزيجني المرأة عنه ؟

فهز الكبش رأسه فعلم من يريد الابتسام ولا يستطيعه ، وقال : أرايت حانوت القصّاب ، ونحن نمرّ اليوم في السوق ؟

قال : وما حانوت القصّاب ؟

قال : أرايت ذلك السليخ من الغنم البيض المعلقة في تلك المعاليق ، لا جلد عليها ولا صوف ، وليس لها أروؤس ولا قوائم ؟

قال الصغير : وما ذاك السليخ ؟ إنه إن صح ما حدثتني به عن أمك ، فهذه

غَمَّ الْجَنَّةَ ، تَبَيْتَ تَرَعَى هُنَاكَ ثُمَّ تَجِبْ إِلَى الْأَرْضِ مَعَ الصُّبْحِ ، وَإِنِّي لَمُتَرَقِبٌ شَمْسَ الْغَدِ ، لِأَذْهَبَ فَأَرَاهَا وَأَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهَا .

قال : اسمع أيها الأبله ! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لامن فوقك ... !
لقد رأيتُ أخى مذ كنتُ جَذَعًا مِثْلَكَ ؛ ورأيتُ صاحبنا الذى كان يعاقبه ويُسَمِّنُهُ
قد أخذه ، فأضجَعَهُ ، فَجَثَمَ عَلَى صدره شرًّا من الذئب ، وجاء بِشَفْرَةٍ بِيضَاءَ
لَامِعَةٍ ، فَجَرَّهَا عَلَى حلقه ، فَإِذَا دَمُهُ يَشْخَبُ وَيَتَفَجَّرُ ، وجعل المسكينُ ينتفض
وَيَدْحَسُ بِرِجْلِهِ ، ثُمَّ سَكَنَ وَبَرَدَ ؛ فقام الرجل ففَصَلَ عُنُقَهُ ، ثُمَّ نَخَسَ فِي
جلده ونفخه حتى تَطَبَّلَ ورجع كالقربة التى رأيتها فى القرية مملوءة ماء فحسبتها
أَمَكًا ؛ ثُمَّ شَقَّ فِيهِ شِقًّا طَوِيلًا . ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ بَيْنَ الْحِلْدِ وَالصِّقَاقِ ، ثُمَّ كَشَطَهُ
وَسَحَفَ الشَّحْمَ عَنْ جَنْبَيْهِ ، فَعَادَ الْمُسْكِينُ أَبْيَضَ لَا جِلْدَ لَهُ وَلَا صُوفَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ
بَقَرَ بَطْنَهُ وَأَخْرَجَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ حَطَمَ قَوَائِمَهُ ، ثُمَّ شَدَّهُ فَعَلَّقَهُ فَصَارَ سَاكِئًا كَنُفْمِ
الْجَنَّةِ الَّتِي زَعَمْتَ ! وَهَذَا — أَيُّهَا الْأَبْلَه — هُوَ الذَّبْحُ وَالسَّائِخُ !

قال الصغير : وما الذى أحدث هذا كله ؟

قال : الشَّفْرَةُ الْبِيضَاءُ الَّتِي يَسْمُونَهَا السَّكِينُ !

قال الصغير : فقد كانت الشفرة عند حلقه حيالَ فيه ؛ فلماذا لم يَنْتَزِعْهَا
فِيهَا كُلَّهَا ؟

قال الكلبش : أيها الأبله الذى لا يعلم شيئًا ولا يحفظ شيئًا ، لو كانت
خَضْرَاءَ لَا كُلَّهَا !

قال : وما خَطْبُ أَنْ تَجِبْ الشَّفْرَةَ عَلَى الْعُنُقِ ، أَفَلَمْ يَكُنِ الْحَبْلُ فِي عُنُقِكَ
أَنْتَ فَعَلْتَ تَجَاذِبُ فِيهِ الرَّجُلَ حَتَّى أَعْيَيْتَهُ ، وَلَوْلَا أَنَّى مَشَيْتُ أَمَامَكَ لَمَا
انْقَدْتُ لَهُ ؟

قال الكلبش : مَا أَدْرِى وَاللَّهِ كَيْفَ أَفْهَمُكَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ سَيَجْرَى عَلَيْكَ ،

فسترى أموراً تُنكرها ، فتعرف ما الذبح والسلخ ، ثم تصير أشلاءً في القُدور
تُضرم عليها النار ، فيأكلك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلاً... !

قال الصغير : وماذا على أن يأكلني ابن آدم ، ألا تراني آكلُ العُشب ،

فهل سمعتَ عُوداً منه يقول : الرجلُ والسكين ، والذبح والسلخ ... ؟

قال الكبش في نفسه : لعمري إن قوة الشباب في الشباب أقوى من حكمة

الشيخوخة في الشيخوخة ، وما نفع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يُمضيه ،

كرأى الشيخ الفاني ؛ يرى بعقله الصواب حين يكون جسمه هو الخطأ مركباً

في ضعفه غلطةً على غلطة لا عُضواً على عضو... ؟ وهل الرأي الصحيحُ للعالم

الذي نعيش فيه إلا بالجسم الذي نعيش به ؛ وما جدوى أن يعرف الكبيرُ

حكمة الموت ، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهين ، فضلاً عن

المرض المُعْضِل ، فضلاً عن المرض المُزْمِن ، فضلاً عن الموتِ نفسه ؛ وما خطرُ

أن يجهل الشبابُ تلك الحكمة ، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالي الموت ، فضلاً

عن المرض ؟

لو أُذِنَ الشابُّ من الفتيان بيوم انتطاع أجله ، وعلم أنه مُصْبِحُهُ أو مُمْسِيهِ ،

لأمدته نفسه بأرواح السنين الطويلة ، حتى ليرى أن صبح الغد كما يأتي من

وراء ثلاثين أو أربعين سنة ؛ فما يتبَيَّنُهُ إلا كالفكر المنسى مضي عليه ثلاثون

سنةً أو أربعين . ولو أُذِنَ الشيخُ بيوم مَصْرَعِهِ ، وأيقن أن له مهلةً إلى تمام

الحول ، لطار به الذعرُ واستفرغَ الوَجَلُ من ساعته ؛ ورأى يومه البعيد أقربَ

إليه من الصبح ، وابتلته طبيعته جسمه المختل بالوساوس الكثيرة ، تجتالها له كما

تجتلب الرياحُ صُدُوعَ المنزل الخرب . فذاك بالشباب يقبض على الزمن ؛ فيعيش

في اليوم القصير مثل العام رَخِيّاً ممدوداً ؛ فهو رابطٌ جلدٌ ؛ وهذا بالكبير يقبض

الزمن عليه فيعيش في العام الطويل مثل اليوم متلاحقاً آخره بأوله ، فهو قلقٌ

طائر . ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشعور به ، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفس في الأيام .

ثم إن الكباش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستثقل نوماً ، فقال : هنيئاً لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة . إن هذا السرُّ هو كسر النبات الأخضر ، لا يقطع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخراً هازئاً ، قائلاً على المصائب : هأنذا

فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودة له ، والذبح بعد ساعات قليلة ؛ كأنما هو في زمنين ؛ أحدهما من نفسه ، فبه ينام ، وبه يلهو ، وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه .

إن الألم هو فهم الألم لا غير . فما أقبح علم العقل إذا لم يكن معه جهل النفس به وإنكارها إياه . حسب العلم والعلماء في السخرية بهم وبه هذه الحقيقة من النفس . أنا لو ناطحت كبشاً من قروم الكباش ، ووقفت أفكر وأدبر وأتأمل ، وأعتبر شيئاً بشيء — ذهب فكري بقوتي ، واسترخى عصبي ، وتحال غضبي كله ، وكان العلم وبالأعلى ؛ فإن حاجتي حينئذ إلى الروح وقواها وأسبابها أضعاف حاجتي إلى العلم . والروح لا تعرف شيئاً اسمه الموت ، ولا شيئاً اسمه الوجع ؛ وإنما تعرف حظها من اليقين ، وهدوءها بهذا الحظ ، واستقرارها مؤمنة ما دامت هادئة مستيقنة .

وقد والله صدق هذا الجذع الصغير ؛ فما على أحدنا أن يأكله الإنسان ؟ وهل أكلنا نحن هذا العشب ، وأكل الإنسان إيانا ، وأكل الموت للإنسان — هل كل ذلك إلا وضع للخاتمة في شكل من أشكالها ؟ يُشبهه والله إن أنا احتججت على الذبح واغتممت له ، أن أكون كحروف

أحقّ لا عقل له ، فظنّ إطعام الإنسان إياه من باب إطعامه ابنه وابنته وامرأته
ومن تجب عليه نفقته ! وهل أوجب نفقته على الإنسان إلا لحمي ؟ فإذا استحقّ
له فلعمرى ما ينبغي لى أن أزعّم أنه ظلمنى اللحم إلا إذا أقررتُ على نفسى بديّة
أنى أنا ظلمته العلف وسرقته منه .

كلُّ حىٍّ فإنما هو شىء للحياة أُعطيها على شرطها ، وشرطها أن تنتهى .
فسعادته فى أن يعرفَ هذا ويقرّر نفسه عليه حتى يستيقنه ، كما يستيقن أن المطر
أول فصل السكّال الأخصر . فإذا فعل ذلك وأيقن واطمأن ، جاءت النهاية متممة
له لا ناقصة إياه ، وجرت مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعدّها . أمّا
إذا حسب الحىُّ أنه شىء فى الحياة ، وقد أُعطيها على شرطه هو ، من تَوْهّم الطمع
فى البقاء والنعيم ، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك ، وفى عمله على هذا الوهم ؛ إذ
لا تكون النهاية حينئذ فى مجيئها إلا كالعقوبة أنزلت بالمركله ، وتجيء هادمة
منغصة ، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامها ؛ فتؤلم قبل أن تجيىء ، شرّاً
مما تؤلم حين تجيىء !

لقد كان جدّى والله حكيماً يوم قال لى : إن الذى يعيش مترقباً النهاية
يعيش مُعدّاً لها ؛ فإن كان مُعدّاً لها عاش راضياً بها ، فإن عاش راضياً بها كان
عمره فى حاضر مستمرّ ، كأنه فى ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها ،
فلا يستطيع الزمن أن ينغصّ عليه مادام ينقاد معه وينسجم فيه ، غير محاولٍ فى
الليل أن يُبعدَ الصبح ، ولا فى الصبح أن يُبعدَ الليل . قال لى جدّى :
والإنسان وحده هو التّمسّ الذى يحاولُ طردَ نهايته ، فيشقى شقاء الكلبش
الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل ، فيبيت ينطح الظّالة المتدجّية على الأرض ،
وهو لحمة يظن أنه ينطح الليل بقرنيه ويزحرّحه . . . !
وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعظنى : إن الحيوان منا إذا جمع على

نفسه همًّا واحدًا ، صار بهذا الهم إنسانًا تَعَسًا شَقِيًّا ، يُعْطَى الحِياةَ فيَقْلِبُها بنفسه على نفسه شيئًا كالموت ، أو موتًا بلا شيء . . . !

وتحرك الصغير من نومه ، فقال له الكبش : إنه ليقع في قبلى أنك الساعة كنت في شأنٍ عظيمٍ ، فما بالك متفخًا وأنت ههنا في المنعَر لا في المرعى !
قال الصغير : يا أخا جدى . . . لقد تحققتُ أنك هَرِمْتَ وَخَرَفْتَ ، وأصبحتَ تَمَجُّ الألعابَ والرأى . . . !
قال الكبش : فما ذاك ويلك ؟

قال : إنك قلتَ : إن هذا الإنسان غادر علينا بالشِّفرة البيضاء ، ووصفتَ الذبجَ والسايخَ والأكل ؛ وأنا الساعة قد نمتُ فَرَأَيْتُ فيما أرى ، أتنى نظمتُ ذلك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا ، وَهَجَّتْ به حتى صرعتُهُ ، ثم إنى أخذتُ الشفرةَ بأسناني ، فقلمتُهُ في نحره حتى ذبحته ، ثم افْتَلَذْتُ منه مُضْغَةً فَلَكَمْتُها في فمى ؛ فما عرفتُ والله فيما عرفتُ لَحْنًا وَلَا عَمَنَّا في السَّكَلَاءِ هو أَقْبَحُ مذاقًا منه !
إن الإنسانَ يَسْتَطِيبُ لَحْمَنَا ، وَيَتَعَذَّى بِنَا ، وَيَعِيشُ عَلَيْنَا ؛ فما أَسْعَدَنَا أن نكونَ لغيرنا فائدةً وحياةً ، وإذا كان الفناءُ سعادةً نُعْطِيها من أنفسنا ، فهذا الفناءُ هو سعادةٌ نَأْخُذُها لأنفسنا . وما هلاكُ الحَيِّ لقاءَ منفعةٍ له أو منفعةٍ منه إلا انطلاقُ الحقيقةِ التى جعلته حَيًّا ، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أَفْضَلَ أعمالها .
قال الكبير : لقد صدقتَ والله ، ونحن بهذا أعقلُ وأشرفُ من الإنسان ؛ فإنه يقضى العمرَ آخذًا لنفسه ، متكالبًا على حظها ، ولا يُعْطَى منها إلا بالقَهَرِ والغَلَبَةِ والخوفِ . تعالَ أيها الذابح ، تعالَ خذ هذا اللحمَ وهذا الشحمَ ؛ تعالَ أيها الإنسانُ لنعطيك ؛ تعالَ أيها الشحاذ . . . !

الطفولتان

(عصمت) ابنُ فلانَ باشا طفلٌ مُتَرْفٌ يَكَادُ يَنْعَصِرُ لِينًا ، وَتَرَاهُ يَرِفُ رَفِيفًا مِمَّا نَشَأُ فِي ظِلَالِ الْعِزِّ ، كَأَن لُّرُوحَهُ مِنَ الرِّقَّةِ مِثْلَ ظِلِّ الشَّجَرَةِ حَوْلَ الشَّجَرَةِ . وَهُوَ بَيْنَ لِدَاتِهِ مِنَ الصَّبِيَّانِ كَالشُّوْكَةِ الْخَضِرَاءِ فِي أُمْلُوْدِهَا الرِّبَّانِ ، لَهَا مِنْظَرُ الشُّوْكَةِ ؛ عَلَى مَجَسَّةٍ لَيِّنَةٍ نَاعِمَةٍ تُكَذِّبُ أَنَّهَا شُوْكَةٌ إِلَّا أَنَّ تَيَبَسَ وَتَتَوَقَّعَ .

وَأَبُوهُ « فَلان » مَدِيرٌ لِمَدِيرِيَّةٍ كَذَا ، إِذَا سُئِلَ عَنْهُ ابْنُهُ قَالَ : إِنَّهُ مَدِيرُ الْمَدِيرِيَّةِ . لَا يَكَادُ يَعْدُو هَذَا التَّرْكِيْبَ ، كَأَنَّهُ مِنْ غُرُورِ النِّعْمَةِ يَا بِي إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ أَبَاهُ مَدِيرًا مَرَّتَيْنِ وَكَثِيرًا مَا تَسْكُونُ النِّعْمَةُ بِذِيئَةٍ وَقَاحًا سَيِّئَةِ الْأَدَبِ فِي أَوْلَادِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ الْغِنَى فِي أَهْلِهِ غِنًى مِنَ السَّيِّئَاتِ لَا غَيْرَ !

وَفِي رَأْيِ (عَصْمَت) أَنَّ أَبَاهُ مِنْ عُلُوِّ الْمَنْزَلَةِ كَأَنَّهُ عَلَى جَنَاحِ النَّسْرِ الطَّائِرِ فِي مَسْبَحِهِ إِلَى النِّجْمِ ، أَمَّا آبَاءُ الْأَطْفَالِ مِنَ النَّاسِ فَهُمْ عِنْدَهُ مِنْ سُقُوطِ الْمَنْزَلَةِ عَلَى أَجْنَحَةِ الذَّبَابِ وَالْبَعُوضِ !

وَلَا يَغْدُو ابْنُ الْمَدِيرِ إِلَى مَدْرَسَتِهِ وَلَا يَتَرَوَّحُ مِنْهَا إِلَّا وَرَاءَهُ جُنْدِيٌّ يَمْشِي عَلَى أُنْزِهِ فِي الْغَدُوِّ وَالرَّوْحَةِ إِذَا كَانَ ابْنُ الْمَدِيرِ ، أَيْ ابْنُ الْقُوَّةِ الْحَاكِمَةِ ، فَيَكُونُ هَذَا الْجُنْدِيُّ وَرَاءَ هَذَا الطِّفْلِ كَالْمَنْبِهَةِ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ ، تُفْصِحُ شَارْتَهُ الْعَسْكَرِيَّةُ بِلُغَاتِ السَّابِلَةِ جَمْعَاءُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ الْمَدِيرِ . فَإِذَا رَأَاهُ الْعَرَبِيُّ أَوْ الْيُونَانِيُّ ، أَوْ الطَّلِيَانِيُّ أَوْ الْفَرَنْسِيُّ ، أَوْ الْإِنْجِلِيزِيُّ أَوْ كَأَنُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَلْسِنَةِ الْمُتَنَافِرَةِ الَّتِي لَا يَفْهَمُ لِسَانُ مِنْهَا عَنْ لِسَانٍ — فَهَمُّوا جَمِيعًا مِنْ لُغَةٍ

هذه الشارة أن هذا هو ابن المدير ؛ وأنه من الجندي الذي يتبعه كالمادة من القانون وراءها الشرح !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرف الصبياني . لو أنه يوم وُلِدَ لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس ، بل وُلِدَ ابنَ عشر سنينَ كاملةً لتشهد له الطبيعة أنه كبيرٌ قد انصدعت به مُعْجَزة ! وإلا فكيف يمشي الجندي من جنود الدولة وراء طفل فيتبعه ويخدمه وينصاع لأمره ؛ وهذا الجندي لو كان طَرِدَ هزيمة قد فرَّ في معركةٍ من معارك الوطن ، وأُرِيدَ تخليده في هزيمته وتخليدها عليه بالتصوير — لما صُوِّرَ إلا جندياً في شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم ؛ في صورة يُكْتَبَ تحتها : « نَفَايَةُ عَسْكَرِيَّة ! » .

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويلٌ واحد : هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني ، وإن صَغُرَتْ تلك وجَّات هذه ؛ ومن هنا يكذب الرجل ذو المنصب ، فيرفع شخصه فوق الفضائل كلها ؛ فيكبر عن أن يكذب فيكون كَذِبُهُ هو الصدق ، فلا يُسَكَّر عليه كَذِبُهُ أَيْ صِدْقُهُ . . . ! ويخرج من ذلك أن يتقرر في الأمة أن كَذِبَ القوَّةِ صِدْقٌ بالقوَّة !

وعلى هذه القاعدة يُقاسُ غيرها من كل ما يُخْذَل فيه الحق . ومتى كانت الشخصيات فوق المعاني السامية طَفَقَتْ هذه المعاني تَمُوجُ مَوْجَها محاولةً أن تَعْلُو ، مُكْرَهَةً على أن تَنْزِلَ ؛ فلا تستقيم على جهةٍ ولا تنظم على طريقة ؛ وتقبلُ بالشئ على موضعه ، ثم تَكْزُرُ كَرْها فتُدِيرُ به إلى غير موضعه ، فتضل كل طبقةٍ من الأمة بكبرائها ، ولا تكون الأمة على هذه الحالة في كل طبقاتها إلا صِغاراً فوقهم كبارهم ؛ وتلك هي تهينة الأمة للاستعباد متى ابتليتُ بالذي هو أكبرُ من كبارها ؛ ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعةُ النفاق يحتمى به الصَّغَرُ من

الكبير ، وتنظم به ألفة الحياة بين الدلة والصولة !

وتخلف الجندی ذات يوم عن موعد الرّواح من المدرسة ، فخرج (عصمت) فلم يجده ، فبداه أن يتسكّع في بعض طرق المدينة لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير ، وحنّ حنينه إلى المغامرة في الطبيعة ، ولبست الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوّشون ويتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتى وكأنهم أبناء بيت واحد مسّت بكلّ من كلّ رحم ، إذ لا ينتسبون في اللهو إلا إلى الطفولة وحدها .

وانساق (عصمت) وراء خياله ، وهرّب على وجهه من تلك الصورة التي يمشى فيها الجندی وراء ابن المدير ، وتغلّغل في الأزقة لا يبالي ما يعرفه منها وما لا يعرفه ، إذ كان يسير في طرق جديدة على عينه كأنما يحلم بها في مدينة من مدن النوم .

وانتهى إلى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصباني ، فانتبذ ناحية ووقف يصنئ إليهم متهيباً أن يُقدّم ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمّع فإذا خبيث منهم يعلم الآخر كيف يضرب إذا اعتدى أو اعتدى عليه ، فيقول له : اضرب أينما ضربت ، من رأسه ، من وجهه ، من الحلقوم ، من عراقي البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تقل إني أنا علمتك ... !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أما قلت لك : إنه تعلم السرقة من رؤيته اللصوص في السّيا ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين في السّيا كن لصاً واعمل مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ! تعالوا وقولوا لي :

« يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . » فقال الأولاد في صوت واحد : « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » فردّ عليهم (سعادته) : اشترُوا الأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات .

فنظر إليه خبيث منهم وقال : يا سعادة المدير : وأنت فلماذا لم يشتري لك أبوك حذاء . . . ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك يا سعادة المدير ، فأرسلني إلى المدرسة وقت الظهر فقط . . . !

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترفُّ بإحساسها ، كالورقة الخضراء عليها طلُّ الندى ، وأخذ قلبه يتفتّح في شعاع الكلام كالزهرة في الشمس ؛ وسكّر بما يسكّر به الأطفال حين تقدّم لهم الطبيعة مكانَ اللهو مُعدّاً مهيباً ، كالخانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة ، وتماهى لذتها أن الزمن فيها منسى ، وأن العقل فيها مهمل . . .

وأحسن ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيّتهم وسجيّتها — إنما هي المدرسة التي لا جدران لها ، وهي تربية الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه فتبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتقرّغه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد . وبذلك تكسبه نموّ نشاطه ، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهديه إلى أن يُبدع بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له ، وتجعلُ خطاه دائماً وراء أشياء جديدة ، فتسدّد من هذا كله إلى سرّ الإبداع والابتكار ، وتلقّيه العلم الأعظم في هذه الحياة ، علّم نعمة نفسه

وسرورها ومرحها ، وتطبعه على المزاج المتطلق المتهاطل المتفائل ، وتندفق به على دنياه كالفيضات في النهر ، تفور الحياة فيه وتفور به ، لا كأطفال المدارس الخاملين ، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولا عالمه ، فيكون المسكين في الحياة ولا يجدها ، ثم تراه طفلاً صغيراً ، وقد جمعوا له هموم رجل كامل ! ودبت روح الأرض ديبها في (عصمت) ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغنياء من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداء بظفولتهم ، وأنه هو وأمثاله هم الفقراء والمساكين في الطفولة ؛ وأن ذلك الجندي الذي يمشي وراءه لتعظيمه إنما هو سجن ؛ وأن الألعاب خيرة من العلوم ، إذ كانت هي طفلية الطفل في وقتها ، أما العلوم فرجولة مزرقة به قبل وقتها توقره وتحوله عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساس الرجولة ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه ، ويكون في الأول طفلاً رجلاً ، ثم يكون في الآخر رجلاً طفلاً .

وأحسن مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هي بيته الواسع الذي لا يتحرج أن يصرخ فيه ضراخه الطبيعي ، ويتحرك حركته الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة ، ولا حاملو العصي من الضباط ؛ بل حق البيت الواسع أن تكون فيه الأبوة الواسعة ، والأخوة التي تنفسح للمئات ؛ فيمر الطفل المتعلم في نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل ، على تدرج في التوسع شيئاً فشيئاً ، من البيت ، إلى المدرسة ، إلى العالم .

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولته تشب وتسترجل ، ورخاوته تشتد وتتمسك ؛ وكانت حركات الأطفال كأنها تحرّك من داخله ، فهو منهم كالطفل في السيام حين يشهد المتلاكين والمتصارعين ، يستطيرم

الفرح ، ويتوثب فيه الطفل الطبيعي بمرجه وعنفوانه ، وتتقاص عضلاته ، ويتكشف جلده ، وتجتمع قوته ؛ حتى كأنه سيظهر أحد الخصمين ويذكر الآخر فيكوره ويصرعه ، ويقض معركة الضرب الحديدى بضرته اللينة الحريفة . . . !

فما لبث صاحبنا الغريز الناعم أن تخشّن ، وما كذب أن اقتحم ، وكأنما أقبل على روحه الشارع والأطفال ولهوهم وعشهم ، إقبال الجوّ على الطير الحبس المعاق في مسمار إذا انفرج عنه القفص ؛ وإقبال الغابة على الوحش القنص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها ؛ وإقبال الفلاة على الظبي الأسير إذا ناوص فأفالت من الحباله .

وتقدم فادغم في الجماعة وقال لهم : أنا ابن المدير . فنظروا إليه جميعاً ، ثم نظر بعضهم إلى بعض ، وسفرت أفكارهم الصغيرة بين أعينهم ، وقال منهم قائل : إن حذاه وثيابه وطر بوشه كلها تقول إن أباه المدير .

فقال آخر : ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير

فقال الثالث : لست كأملك يا بغيطي ولا كأأم جعاص !^(١)

قال الرابع : يا ويالك لو سمع جعاص ، فإن لكلماته حينئذ لا تترك أملك

تعرف وجهك من القفا !

قال الخامس : ومن جعاص هذا ؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه ، فاجتذبه ، فأعصره بين يدي ، فأعقل رجله برجلي ، فأدفعه ، فيتخاذل ، فأعركه ، فيختر على وجهه ؛ فأسمره في الأرض بمسمار !

فقال السادس : هاها ! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جعاص لو

تناولك في يده . . . !

(١) للعامه أسماء ونسب غريبة منها هذه .

فصاح السابع : ويلكم ! هاهو ذا . جُعِلص ، جُعِلص ، جُعِلص !
فتطأيرَ الباكونَ يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر ضربته الريح
العاصف . وقهقه الصبي من ورائهم ، فتابوا إلى أنفسهم وتراجعوا . وقال المُستطيل
منهم : أما إني كنت أريد أن يعدو جعِلص ورأى ، فأستطردُ إليه قليلاً أُطِمْعُه
في نفسى ، ثم أرتدُّ عليه فأخذه كما فعل « ماشيست الجبار »^(١) في ذلك المنظر
الذى شاهدناه .

وقهقه الصبيان جميعاً . . . ! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشاق بمعشوقة
جميلة ، يحاول كلٌّ منهم أن يكون المقرَّب الخصوصَ بالخطوة ، لا من أجل أنه
ابنُ المدير فحسبُ ، ولكن من أجل أن ابنَ المدير تكون معه القروش . . . فلو
وُجدت هذه القروش مع ابن زبال لما منعه نسبُه أن يكون أميرَ الساعة بينهم
إلى أن تنفدَ قروشُه فيعود ابن زبال . . . !

(وتنافسوا في (عصمت) وملاعبته والاختصاص به ، فلو جاء المديرُ نفسه
يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه ، وهم بين نجار وحداد ، وبناء وحمال ،
وحوذى وطباخ ؛ وأمثالهم من ذوى المهنة والمكسبة الضئيلة — لكانت مطامع
هؤلاء الأطفال في ابن المدير ، أكبر من مطامع الآباء في المدير .)

وجرت المنافسة بينهم مجراها ، فانقلبت إلى مُلاحاة ، ورجعت هذه الملاحاة
إلى مشاحنة ، وعاد ابنُ المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأما يعتدون عليه ،
إذ لا يقصد أحدٌ منهم أحداً بالغيظ إلا تعمدَ غيظَ حبيبه ، ليكون أنكأً له
وأشدَّ عليه !

وتظاهروا بعضهم على بعض ، ونشأت بينهم الطوائف ، وأفسد هم هذا الغنى

(١) بحار إيطاليا كالسارد ؛ عرض الألواح ، وثيق التركيب ، يعجب الأطفال به أشد
الإعجاب ، وإذا شهدوه في السياكاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة في ساعة واحدة

المتمثلُ بينهم . ويا ما أعجب إدراكَ الطفولة وإلهامها ! فقد اجتمعت نفوسهم على رأى واحد ، فتحولوا جميعاً إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير ، فخاطره أحدُهم فى اللعب فقمرة ، فأبى إلا أن يعلو ظهره ويركبه ؛ وأبى عليه ابنُ المدير ودافعه ، يرى ذلك ثلماً فى شرفه ونسبه وسطوة أبيه ؛ فلم يكد يعتلُ بهذه العلة ، يذكر أباه ليعرفهم آباءهم حتى هاجت كبرياؤهم ، وثارت دفتنهم ، ورقصت شياطينُ رؤوسهم ؛ وبذلك وضع الغبى حقدَ الفقر بإزاء سُخرية الغنى ؛ فالتقى بينهم مسألة المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرحها للحل !

وتنفَّسوا للصولة عليه ، فسخرَ منه أحدُهم ، ثم هزأ به الآخر ، وأخرج الثالثُ لسانه ؛ وصدمه الرابع بمنكبه ؛ وأفحش عليه الخامس ؛ ولاكزه السادس ؛ وحثا السابعُ فى وجهه التراب !

وجهد المسكين أن يفرّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران فبطل إقدامه وإحجامه ، ووقف بينهم كما كتب الله ... ! ثم أخذته أيديهم فأنجدل على الأرض ، فتجاذبوه يمرغونه فى التراب !

وهم كذلك إذ انقلب كبيرُهم على وجهه ، وانكفاً الذى يليه ، وأزيح الثالث ، ولطم الرابع ، فنظروا ، فصاحوا جميعاً : « جُعَلْص ، جُعَلْص ! » وتواتبوا يشتدون هرباً . وقام (عصمت) يَنْتَحِلُ التراب من ثيابه وهو يبكي بدمعه ، وثيابه تبكي بترابها ... ! ووقف ينظر هذا الذى كشفهم عنه وشردتهم صولته ، فإذا جُعَلْص وعليه رَجَفَانٌ من الغضب ، وقد تيرطمت شفتاه ، وتقبَّض وجهه ، كما يكون « ماشيست » فى معاركه حين يدفع عن الضعفاء .

وهو طفل فى العاشرة من لِدَات (عصمت) ، غير أنه مُحْتَنِكٌ فى سنِّ رجلٍ صغير ؛ غليظٌ عَبلٌ شديدُ الجبلةِ متراكبٌ بعضُه على بعض ^(١) ، كأنه جنى

(١) أى شديد قتل العضل مكتنز اللحم

مُتْقَاصِرُهُمْ أَنْ يَطُولَ مِنْهُ الْمَارِدُ ، فَأَنْسَ بِهِ (عصمت) ، واطَّأَنَّ إِلَى قُوَّتِهِ ،
وَأَقْبَلَ يَشْكُو لَهُ وَيُبْكِي !

قال جعلاص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير ... !

قال جعلاص : لَا تَبْكُ يَا ابْنَ الْمَدِيرِ . تَعَلَّمْ أَنْ تَكُونَ جَلَدًا ، فَإِنْ الضَّرْبُ لَيْسَ
بَذَلٍّ وَلَا عَارٍ ، وَلَكِنَّ الدَّمْعَ هِيَ تَجْعَلُهُ ذَلًّا وَعَارًا ؛ إِنْ الدَّمْعَ لَتَجْعَلُ الرَّجُلَ
أَثْنَى . نَحْنُ يَا ابْنَ الْمَدِيرِ نَعِيشُ طَوِيلَ حَيَاتِنَا إِمَّا فِي ضَرْبِ الْفَقْرِ أَوْ ضَرْبِ النَّاسِ ،
هَذَا مِنْ هَذَا ؛ وَلَكِنَّكَ غَنَى يَا ابْنَ الْمَدِيرِ ، فَأَنْتَ كَالرَّغِيفِ (الْفِينُو) ضَخْمٌ
مُنْتَفَخٌ ، وَلَكِنَّهُ يَنْكَسِرُ بِلَمْسَةٍ ، وَحَشْوُهُ مِثْلُ الْقَطَنِ !

ماذا تتعلم في المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً
يَأْكُلُ مَنْ يَرِيدُ أَكَلَهُ ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر
يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحاليتين في خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معي العسكري !

قال جعلاص : ويحك ؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت : آه لو كان معي العسكري !

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جعلاص : من أُنِي أَعْتَمَلُ بِيَدَيَّ فَأَنَا أَشْتَدُّ ، وَإِذَا جَعْتُ أَكَلْتُ طَعَامِي ؛
أَمَا أَنْتَ فَتَسْتَرَحِي ، فَإِذَا جَعْتَ أَكَلْتَ طَعَامُكَ ؛ ثُمَّ مِنْ أُنِي لَيْسَ لِي عَسْكَرِي ... !

قال عصمت : بل القوة من أنك لست مثلاً في المدرسة ؟

قال جعلاص : نعم ، فأنت يا ابن المدرسة كأَنَّكَ طِفْلٌ مِنْ وَرَقٍ وَكَرَّاسَاتٍ
لَا مِنْ لَحْمٍ ، وَكَأَنَّ عِظَامَكَ مِنْ طَبَاشِيرٍ ! أَنْتَ يَا ابْنَ الْمَدْرَسَةِ هُوَ أَنْتَ الَّذِي
سَيَكُونُ بَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً ، وَلَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ كَيْفَ يَكُونُ ؛ وَأَمَّا أَنَا ابْنُ الْحَيَاةِ ،

فأنا من الآن ، وعلى أن أكون « أنا » من الآن !
أنت ...

وهنا أدركهما العسكريُّ المسخر لابن المدير ، وكان كالجنون يطير على وجهه
في الطرق يبحث عن (عصمت) ، لا حباً فيه ، ولكن خوفاً من أبيه ؛ فما كاد
يرى هذا العفرَ على أثوابه حتى رنت صفعته على وجه المسكين جُعِلَص .
فصعر هذا خده ، ورشق عصمت بنظره ، وانطلق يعدو عدو الظلم !
يا للعدالة ! كانت الصفعةُ على وجه ابن الفقير ، وكان الباكي منها ابن
الغنى ... !

وأتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة ؛ فليس غنى بطل الحرب في المال والنعيم ،
ولكن بالجراح والمشقات في جسمه وتاريخه ما

أحلام في الشارع^(١)

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفتريشان الرخام البارد ، ويلتحفان
جوارخاً رميًّا في برده وصلابته على جسميهما .

الطفل مُتَكَبِّبٌ في ثوبه كأنه جسمٌ قُطِعَ ورُكِّمَتْ أعضاؤه بعضها على
بعض ، وسُجِّيتْ بثوب ، ورُمِيَ الرأسُ من فوقها فمال على خده .

والفتاة كأنها من الهزال رَسَمٌ مَخْطَطٌ لامرأة ، بدأها المصورُ ثم أغفلها إذ
لم تُعْجبه . كتب الفقرُ عليها للأعين ما يكتبُ الذُّبولُ على الزهرة : أنها صارت
قشاً

نائمةٌ في صورةٍ ميّنة ، أو كميّنة في صورةٍ نائمة ؛ وقد انسكب ضوء القمر
على وجهها ، وبقي وجهُ أخيها في الظل ؛ كأن في السماء ملكاً وجّه المصباح إليها
وحدها ، إذ عرف أن الطفل ليس في وجهه علامةٌ همّ ، وأن في وجهها هي كلّ
همها وهمَّ أخيها .

من أجل أنها أنثى قد خلقت لتلد — خلق لها قلبٌ يحمل الهموم ويلدها
ويربّيها .

من أجل أنها أُعِدَّتْ للأمومة ، تتألم دائماً في الحياة آلاماً فيها معنى
انفجار الدم .

من أجل أنها هي التي تزيد الوجود ، يزيد هذا الوجود دائماً في أحزانها .
وإذا كانت بطبيعتها تُقاسى الألم لا يُطاق حين تلد فرحها ، فكيف بها
في الحزن . . . !

(١) منظر طفل متمرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك) .

وكان رأسُ الطفلِ إلى صدرِ أخته ، وقد نام مطمئناً إلى هذا الوجود النَّسْوِيّ ،
الذي لا بدّ منه لكل طفل مثله ، ما دام الطفلُ إذا خرج من بطن أمه خرج إلى
الدنيا وإلى صدرها معاً .

ونامت هي ويدها مُرْسَلَةٌ على أخيها كيَدِ الأم على طفلها . يا إلهي ! نامت
ويدها مستيقظة !

أما طفلان ؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التي شقيتُ بالسعداء فعوضها الله من
رحمته ألاّ تجدَ شقياً مثلاً إلاّ تضاعفت سعادتها به ؟

تمثالان يصوران كيف يسرى قلبُ أحد الحبيبين في الجسم الآخر ، فيجعلُ
له وجوداً فوق الدنيا ، لا تصلُ الدنيا إليه بفقرها وغناها ، ولا سعادتها وشقاها ،
لأنه وجودُ الحب لا وجودُ العمر ؛ وجودٌ سحريٌّ ليس فيه معنى للكلمات ، فلا فرقَ
بين المال والتراب ، والأمير والصُّعْلوك ؛ إذ اللغةُ هناك إحساسُ الدم ، وإذ المعنى
ليس في أشياء المادة ولكن في أشياء الإرادة .

وهل تحيا الألفاظُ مع الموت ، فيكون بعده للمال معنى وللتراب معنى ... ؟
هي كذلك في الحب الذي يفعل شبيهاً بما يفعله الموتُ في نقله الحياةَ إلى عالم
آخر ، بيدَ أن أحدَ العالمين وراء الدنيا ، والآخر وراء النفس .

تحت يد الأخت المدودة ينام الطفلُ المسكين ، ومن شعوره بهذه اليد ،
خفَّ ثقلُ الدنيا على قلبه .

لم يبال أن نبذَه العالمُ كُلُّهُ ، ما دام يجد في أخته عالمَ قلبه الصغير . وكأنه
فرخٌ من فراخ الطير في عُشِّه المعلق ، وقد جمَعَ لحمه الغَضَّ الأحمرَ تحت جناح
أمه ، فأحسَّ هنا السعادة حين ضَيَّقَ في نفسه الكونَ العظيم ، وجعله وجوداً
من الريش .

وكذلك يسعد كلُّ من يملك قوَّةَ تغيير الحقائق وتبديلها ، وفي هذا تفعلُ
الطفولةُ في نشأةِ عمرها ما لا تفعلُ بعضُه معجزاتُ الفلسفةِ العليا في جملةِ أعمارِ
الفلاسفةِ .

وما صنع الذين جُنُّوا بالذهب ، ولا الذين فُتِنوا بالسلطة ، ولا الذين هلكوا
بالحب ، ولا الذين تحطَّموا بالشهوات — إلا أنهم حاولوا عبثاً أن يرشوا رحمةَ
الله لتعطيتهم في الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نوَّلتَه هذا الطفلُ المسكينُ
النائمُ في أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب رُوحه الأرضي .

ألا إن أعظمَ الملوك لن يستطيعَ بكلِّ ملكه أن يشتري الطريقةَ الهنيئةَ
التي يَنبِضُ بها الساعةُ قلبُ هذا الطفلِ .

وقفتُ أشهد الطفلين وأنا مستيقنٌ أن حولهما ملائكةٌ تصعد وملائكةٌ
تنزل ؛ وقلت هذا موضعٌ من مواضع الرحمة ، فإن الله مع المنكسرةِ قلوبهم ،
ولعلِّي أن أعرضَ لنفحةٍ من نَفحاتها ، ولعلَّ ملكاً كريماً يقول : وهذا بأسنُّ
آخر ، فيُرْفئني بجناحه رَفَّةً ما أحوج نفسي إليها ، تجِدُ بها في الأرض لمسةً من
ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر .

وظهر لي بناءُ (البنك) في ظلمة الليل من مرأى الغلامين — أسود كالحا ،
كأنه سجنٌ أقفل على شيطانٍ يُمسكه إلى الصبح ، ثم يُفَتِّح له لينطلق مُعَمَّراً ،
أى مخرَّباً أو هو جسمٌ جبارٍ كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه
وحظوظِ نفسه فمسخه الله بناءً ، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعاني آثامه
وكفره . . .

يا عجباً ! بطنان جائعان في أطوارٍ بالية يبيتان على الطَّوى والهَم ، ثم لا يكون
وسادها إلا عتبة البنك ! تَرى مِنَ الذی لَعَنَ (البنك) بهذه اللعنة الحية ؟ ومن

الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنكُ
خزانَ حديديةٍ يملؤها الذهب ، ولكنه خزانٌ قلبيةٌ يملؤها الحب . . ؟

وقفتُ أرى الطفلين رؤيةَ فكرٍ ورؤيةَ شعرٍ معاً ، فإذا الفكرُ والشعرُ
يمتدَّانِ بيني وبين أحلامهما ، ودخلتُ في نفسي مضمَّهما الهمُّ واشتدَّ عليهما الفقرُ ،
وما من شيءٍ في الحياة إلا كادَّها وعاسَرُها ؛ ونمتُ نومتي الشعرية . . .

قال الطفل لأخته : هلمِّي فلنذهب من هنا فنقفَ على باب (السيما) نتفرَّجُ
مما بنا ، فنرى أولادَ الأغنياء الذين لهم أبٌ وأم .

انظري هاهم أولاءُ يَرى عليهم أثرُ الغنى ، وتُعرفُ فيهم رُوحُ النعمة ؛ وقد
شَبِعوا . . . إنهم يلبسون لحماً على عظامهم ؛ أما نحن فنلبسُ على عظامنا جليداً
كجلد الخدأ ؛ إنهم أولادُ أهليهم ؛ أما نحن فأولادُ الأرض ؛ هم أطفال ، ونحن
حَطَبُ إنسانٍ يابسٍ ؛ يعيشون في الحياة ثم يموتون ؛ أما نحن فعيشنا هو سكرات
الموت ، إلى أن نموت ؛ لهم عيشٌ وموتٌ ، ولنا الموتُ مكرراً .

وَيَلِي على ذلك الطفل الأبيض السمين ، الحَسَنُ البَرَّة ، الأنيقُ الشارة ،
ذاك الذى يأكل الحلوى أكلَ لصٍّ قد سرق طعاماً فأسرعَ يَحْدِرُ في جوفه
ما سرق ؛ هو الغنى الذى جعله يبتلعُ بهذه الشراهة ، كأنما يشربُ ما يأكل ،
أولاه خلقٌ غيرُ الخلق ؛ ونحن — إذا أكلنا — نغصُ بالخبز لا أَدُمَ معه ، وإذا
ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجدُ إلا البَشيعَ من الطعام ، وأصبناه عِفْناً أو فاسداً
لا يَسُوغُ في الحلق ، فإذا انخفضنا فليس إلا ما نَتَقَمُّ من قُشور الأرض ومن
خُتَاتِ الخبز كالذباب والكلاب ؛ وإن لم نجدْ ومَسَّنَا العُدْمُ وقفنا نَتَحَيَّنُ طعامَ
قومٍ في دارٍ أو نُزُلٍ ، فتراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا ، ولا نطمع أن
نستطعمهم وإلا أطعمونا ضرباً فنكون قد جئناهم بألمٍ واحد فرُدُّونا بألمين ، ونفقد

بالضرب ما كان يُمسك رَمَقًا من الاحتمال والصبر .

هؤلاء الأطفال يتضورون شهوةً كما أكلوا ، ليعودوا فيأكلوا ؛ ونحن نتصور
جوعاً ولا نأكل ، لنعود فنجوع ولا نأكل ؛ وهم بين سمع أهلهم وبصرهم ؛
ما من أنةٍ إلا وقعت في قلب ، وما من كلمةٍ إلا وجدت إجابة ؛ ونحن بين سمع
الشوارع وبصرها ، أنين ضائع ، ودموعٌ غير مرحومة !

آه لو كبرتُ فصرتُ رجلاً طويلاً عريضاً ؟ أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— إننى أخنق بيدي كل هؤلاء الأطفال !

— سَوْأَةٌ لك يا أحمد ، كلُّ طفلٍ من هؤلاء له أُمٌّ مثلُ أُمنا التى ماتت ،
وله أختٌ مثلى ؛ فما عسى ينزل بي لو شِكلتُك إذا خنقتُك رجلٌ طويل عريض ؟
— لا ، لا أخنقهم ؛ بل سأرضيهم من نفسى ؛ أنا أريد أن أصير رجلاً
مثل (المدير) الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حالٍ من السطوة تعلن أنه المدير ...
أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أَرَأَيْتِ عَرَبَةَ الإسعاف التى جاءت عند الظهر فانقلبت نعشاً للرجل
الهرم المحطَّم الذى أُنمى عليه فى الطريق . ؟ سمعتهُم يقولون : إن المدير هو الذى
أمر باتخاذ هذه العربة ، ولكنه رجل غفُلٌ لم يتعلم من الحياة مثلاً ، ولم تُحكِّمه
تجاربُ الدنيا ؛ فالذى يموت بالنُجاة أو غيرها لا يُحييه المدير ولا غير المدير ،
والذى يقع فى الطريق يجدُّ من الناس من يتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب
إنسانية رحيمة ، لا بقلبٍ سَوَّاق عربةٍ ينتظر المصيبة على أنها رزقٌ وعيش .
إن عَرَبَاتِ الإسعاف هذه يجب أن يكونَ فيها أكلٌ ... ويجب أن تحملَ

المنفعة
الاعتماد

الرفق
للمدير

أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس ؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتصنع له أم .

كلُّ شيء أراه لا أراه إلا على الغلط ، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة إدارها ، وما قط رأيتُ الأمور في بلادنا جارية على تجاريها ؛ فهؤلاء الحكام لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء ، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة ، لا بقانون الغنى والقسوة ، وليتقحموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس ، وخلق ودين ورحمة ؛ فإنه لا ينهزم فى معركة الحوادث إلا روحُ النعمة فى أهل النعمة ، وأخلاقُ اللين فى أهل اللين ؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية .

إن للحكم لحماً ودماً هو لحم الحاكم ودمه ؛ فإن كان صلباً خشناً فيه روح الأرض وروح السماء فذاك ، وإلا قتل اللين والترف الحكم والحاكم جميعاً . وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لا يكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم ، إذ السلطة درجة فوق الغنى ، ومن نال هذه استشرف لتلك ، فإذا جمعوها كان منهما الخلق الظالم الذى يصور لهم الاعتداء قوةً وسطوةً وعلوًّا ، من حيث عدموا الخلق الرحيم الذى يصور لهم هذه القوة ضعفاً وجبنًا ونذالة . إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب ، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة ، أو فى الأصل الأدبى للإنسانية . ويحرصون على ما به تمامهم ، أى على السلطة ، أى على الحكم ؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه ، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه ؛ من المداواة والمصانعة والمهاونة ، نازلاً فنزلاً إلى درك بعيد ، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ما داموا هم القوة .

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد ؟ —

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة ، ليجدوا عملاً

شريعاً يُصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آبائهم ، فإنه والله لولا العمى الاجتماعي لما كان فرق بين ابن أمير مُتبطل في أملاك أبيه من القصور والضياع ، وابن فقير متبطل في أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع .

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح الشوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة ، وتفقه وكرمه ، فيتعلم سواد الناس منه الأمانة والصدق ، إذ هو لا يكذب ولا يسرق ما دام فوق الاضطرار ، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً ، فتكون حرفته التجارة وهى السرقة ، أو الصناعة وهى الغش ، ويكون فى الناس أكثر عمره مادة كذب وإثم ولصوصية .

آه لو صرتُ مديراً ! أتدرين ماذا أصنع ؟

— ماذا تصنع يا أحمد ؟

— أعمدُ إلى الأغنياء فأرُدُّهم بالقوة إلى الإنسانية ، وأحملهم عليها حملاً ، وأصلح فيهم صفاتها التى أفسدها الترف واللين والنعمة ، ثم أصلح ما أخل به الفقر من صفات الإنسانية بالفقراء ، وأحملهم على ذلك حملاً ، فيستوى هؤلاء وهؤلاء ، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلد آباؤهم ولده القانون .

ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الإنسانية فى أفرادها ، فتقطع ما بينهم ، فهم أعداء فى وطنهم ، وإن كان اسمهم أهل وطنهم . ومتى أحكمت الصفات الإنسانية فى الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً — صار قانون كل فرد كلمتين ، لا كلمة واحدة كما هو الآن . القانون الآن (حق) ونحن نريد أن يكون (حق وواجب) وما أهلك الفقراء بالأغنياء ، ولا الأغنياء بالفقراء ، ولا المحكومين بالحكام — إلا قانون الكلمة الواحدة .

أنا أحمد المدير . . . لستُ المديرَ بما في نفس أحمد ، ولا بمعدته وبطنه ، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده . . . كلا ، أنا عملٌ اجتماعيٌّ منظمٌ يحكم أعمال الناس بالعدل ، أنا خلُقْتُ ثابت يوجِّه أخلاقهم بالقوة ، أنا الحياةُ الأمُّ مع الحياة الأطفالِ الإخوة في هذا البيت الذي يسمى الوطن ، أنا الرحمةُ ، عندي الجنة ولكن عندي جهنم أيضاً مادام في الناس من يعصى ، أنا بكل ذلك لست أحمد ، لكنني الإصلاح .

هأنذا قد صرتُ مديراً أعسُ في الطريق بالليل وأتفقّد الناسَ ونوابئهم . من أرى ؟ هذا طفلٌ وأخته نائمان على عتبة البنك في حياة كاهدامهما المرقعة ، في دُنْيا تمرقت عليهما ، قم يا بني ، لا ترعُ إنما أنا كأبيك ، تقول : اسمك أحمد ، واسم اختك أمينة ؟

تقول : إنك ما نمتَ من الجوع ، ولكن مَضَمَضْتَ عينَكَ بشعاع النوم ؟ يا ولديَّ المسكينين . بأيّ ذنبٍ من ذنوبكما دَفَقْتُكما الأيامُ دَقاً وطحمتكما طحناً ، وبأيّ فضيلة من الفضائل يكون ابنُ فلانِ باشا ، و بنتُ فلانِ باشا في هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنّقان فيه ، ما الذي ضرَّ الوطنَ منكما فتموتا ، وما الذي نفع الوطنَ منهما فيعيشا ؟

إن كنتَ يا بني لا تملك لنفسك الانتصارَ من هذه الظَّليمة فأنا أملكها لك ، وإنما أنا المظلومُ إلى أن تنتصر ، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن آخذَ لك الحق . إلى يا ابنَ فلانِ باشا و بنتَ فلانِ باشا .

يا هذا عليك أخاك أحمد ولتكن به حَقِيّاً ، يا هذه ، عليكِ أختكِ الأنسة أمينة

أتأبَّيان ، أنقرّة من الإنسانية ، وتمرّداً على الفضيلة ، أحقّاً بلا واجب ، دائماً قانون الكلمة الواحدة ! ؟ خلقتما أبيضين سخرية من القدر وأتما في

النفس من أُحْبُوشَةِ الزَّجَجِ وَمَنَا كَيْدِ الْعَبِيدِ .

ورفع أحمد يده

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع ، وإليه حِرَاسَةُ البنك ، قد
تَوَسَّسَهُمَا^(١) ودخلته الرِّيْمة ، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة ، وقبل أن تنزل يدُ
سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا و بنتِ الباشا كان هذا الشرطى قد ركَّله
برجله ، فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عَدُوَ الخيل من ألْهُوبِ السَّوْطِ .

وتمجَّدت الفضيلة كعادتِها . . ! . . أن مسكيناً حَلِمَ بها

أحلامٌ فى قصر

كان فلانُ بنُ الأميرِ فلان يتنَبَّلُ فى نفسه بأنه مُشْتَقٌّ من يضع القوانين
لا ممن يخضع لها ، فكان تِيَّاهَا صَليفاً يَشْمَخُ على قومه بأنه ابنُ أمير ، ويختالُ
فى الناس بأن له جَدًّا من الأمراء ، ويرى من تَجَبَّرَ أن ثيابه على أعطافه
تحدد المملكة على المملكة لأن له أصلاً فى الملوك .

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلِدوا فى دمهم شعاعُ السيف ، وبريقُ التاج ،
ونخوةُ الظفر ، وعِرُّ القَهَر والغلبة ؛ ولكنَّ زمنه ضربَ الحِصارِ عليه ، وأفضت
الدولةُ إلى غيره ، فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء
الأرض ، ومن تشييد الإمارات إلى تشييد العِارات ، ومن إدارة معركة الأبطال

(١) توسسهما : اتأنا نأعين .

إلى إدارة معركة المال ؛ وَغَبَرَ دَهْرَهُ يَمْلِكُ وَيَجْمَعُ حَتَّى أَصْبَحَتْ دِفَاتِرُهُ حَسَابَهُ
كَأَنَّهَا (خَرِيطَةٌ) مَمْلُوكَةٌ صَغِيرَةٌ .

وَبَعْضُ أَوْلَادِ الْأُمَرَاءِ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ أَوْلَادُ أُمَرَاءَ ، فَيَكُونُونَ مِنَ التَّكَبُّرِ
وَالْعُرُورِ كَأَنَّمَا رَضُوا مِنَ اللَّهِ أَنَّ يَرْسُلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَكِنْ بِشُرُوطٍ ...

وَانْتَقَلَ الْأَمِيرُ الْبَخِيلُ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَتَرَكَ الْمَالَ وَأَخَذَ مَعَهُ الْأَرْقَامَ وَحَدَّهَا
يُحَاسِبُ عَنْهَا ، فَوَرِثَهُ ابْنُهُ وَأَمَرَ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَالِ يَبْعَثُهُ ؛ وَكَانَتْ الْأَقْدَارُ قَدْ
كَتَبَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ : غَيْرَ قَابِلٍ لِلْإِحْسَانِ . فَمَحَتْهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ ، وَكَتَبَتْ
فِي مَكَانِهَا هَذِهِ الْكَلِمَةَ : جُمْعٌ لِلشَّيْطَانِ .

أَمَّا الشَّيْطَانُ فَكَانَ لَهُ عَمَلٌ خَاصٌّ فِي خِدْمَةِ هَذَا الشَّابِّ ، كَعَمَلِ خَازِنِ
الثِّيَابِ لِسَيِّدِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَلْبِسُهُ ثِيَابًا بَلْ أَفْكَارًا وَآرَاءَ وَأَخْيَلَةً . وَكَانَ يَجْهَدُ
أَنْ يُدْخِلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا إِلَى أَعْصَابِهِ لِيُخْرِجَ مِنْهَا دُنْيَا جَدِيدَةً مَصْنُوعَةً لِهَذِهِ
الْأَعْصَابِ خَاصَّةً ، وَهِيَ أَعْصَابُ مَرِيضَةٍ ثَائِرَةٍ مُتَلَهِّبَةٍ لَا يَكْفِيهَا مَا يَكْفِي غَيْرَهَا فَلَا
تَبْرَحُ تَسْأَلُ الشَّيْطَانَ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ : أَلَا تُوجَدُ لَذَّةٌ جَدِيدَةٌ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ ؟
أَلَا يَسْتَطِيعُ إِبْلِيسُ الْقَرْنَ الْعَشْرِينَ أَنْ يَخْتَرِعَ لَذَّةً مَبْتَكَّرَةً ؟ أَلَا تَكُونُ الْحَيَاةُ
إِلَّا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ مِنْ صُبْحِهَا لَهْجُوحِهَا ؟

كَانَ الشَّابُّ كَالَّذِي يَرِيدُ مِنْ إِبْلِيسَ أَنْ يَخْتَرِعَ لَهُ كَأْسًا تَسْعُ نَهْرًا مِنْ
الْخَمْرِ ، أَوْ يَجِدَ لَهُ امْرَأَةً وَاحِدَةً وَفِيهَا كُلُّ فَنُونِ النِّسَاءِ وَاخْتِلَافِهِنَّ . وَكَانَ يَرِيدُ
مِنَ الشَّيْطَانِ أَنْ يُعِينَهُ فِي اللَّذَّةِ عَلَى الْاسْتِغْرَاقِ الرُّوحَانِيِّ وَيَغْمُرَهُ بِمِثْلِ التَّجَلِّيَّاتِ
الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي تَنْتَهِي إِلَيْهَا النَّفْسُ مِنْ حِدَّةِ الطَّرَبِ وَحِدَّةِ الشَّوْقِ ؛ وَذَلِكَ فَوْقَ
طَاقَةِ إِبْلِيسَ ، وَمَنْ تَمَّ كَانَ مَعَهُ فِي جُهْدٍ عَظِيمٍ حَتَّى ضَجِرَ مِنْهُ ذَاتَ مَرَّةٍ فَهَمَّ أَنْ
يَرْفَعَ يَدَهُ عَنْهُ وَيَدَعَهُ يَدْخُلُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُصَلِّيَ مَعَ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ الصَّالِحِينَ ...

وهؤلاء الفسّاقُ الكثيرو المال إنما يعيشون بالاستطراف من هدم الدنيا ؛
فهذهم دائماً الألدّ والأجلّ والأغلى ؛ ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد
عاطفتهم من اللذات الجديدة ما يُسعدّها ، ضاقت بهم فظهرت مظهر الذي يُحاول
أن ينتحر ، وذلك هو الملل الذي يُبتلون به . والفسّاقُ الغنيّ حين يملُّ من لذاته
يُصبح شأنه مع نفسه كالذي يكون في نفقٍ تحت الأرض ويريد هناك سماءً
وجوّاً يطير فيهما بالطيارة ...

قالوا : واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذٌ مريضٌ قد أسنَّ وعجز يتحمّل
بعضه على بعض ، فسأله أن يُحسن إليه وذَكَرَ عَوَزَهُ واختلاله ، وجعل يبثّه من
دُموعه وألغظه . وكان إبليسُ في تلك الساعة قد صرّف خواطرَ الشاب إلى
إحدى الغانيات الممتنعات عليه ، وقد ابتاع لها حليّةً ثمينة اشتطّ بائعها في الثمن
حتى بلغ به عشرة آلاف دينار ، فهو يريد أن يُهديها إليها كأنها قدَرٌ من
قادر ... وقطع عليه الشحاذُ المسكين أفكاره المضيئة في الشخص المضيء ،
فكان إهانةً لخاليه السامى ... ووجد في نفسه غصاصةً من رؤية وجهه ، واشمأزَّ
في عُروقه دُمُ الإمارة ، وتحركت الوراثة الحربية في هذا الدم ...

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءً عليه ، فإذا هو يرى صاحبَ الوجه القَدِرِ كأنما
يتهمك به يقول له : أنت أميرٌ يبحث الناسُ عن الأمير الذي فيه فلا يجدون إلا
الشيطانَ الذي فيه . وليس فيك من الإمارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ في
الموضع الأثرى الخَرِب . ولن تكون أميراً بشهادة عشرة آلاف دينار عند
مُومس ، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير . أنت أمير ، فهل
تثنتُ الحياةُ أنك أمير ، أو هذا معنّى في كلمة من اللغة ؟ إن كانت الحياةُ فأين
أعمالك ، وإن اللغةُ فهذه لفظةٌ بائدة تدلُّ في عصور الانحطاط على قسْطٍ حاملها

التمل

من الاستبداد والظغيان والجبروت ، كأن الاستبداد بالشعب غنيمةٌ يتناهبها عطاؤه ، فقسّم منها في الحاكم ، وقسم في شبه الحاكم يُترجم عنه في اللغة بقلب أمير .
ألا قلّ للناس أيها الأمير : إن لقي هذا إنما هو تعبيرُ الزمن عما كان لأجدادى من الحق في قتل الناس وامتهانهم . . .

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير في حالة بخصوصها من أحوال النفس ، فلا جرّم أهيّن الشحاذ وطُرد ومضى يدعو بما يدعو .
ونام ابن الأمير تلك الليلة فكانت خيالاته ^(١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ :
فراى فيما يرى النائم أن ملكاً من الملائكة يهتف به :

ويلك ! لقد طردت المسكين تخشى أن تنالك منه جرائم تمرض بها ، وما علمت أن في كل سائل فقير جرائم أخرى تمرض بها النعمة ؛ فإن أكرمه بقيت فيه ، وإن أهنته نفّضها عليك . لقد هلكت اليوم نعمتك أيها الأمير ، واستردّ العارية صاحبها ، وأكلت الحوادث مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تهياً لك إلا بجهد وعمل ومشقة ؛ فاذهب فاكّدح لعيشك في هذه الدنيا ، فما لأبيك حقّ على الله أن تكون عند الله أميراً .

قالوا : وينظر ابن الأمير فإذا كل ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال ، وإذا الإمارة كانت وهماً فرضه على الناس قانون العادة ، وإذا التعاطم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مكرراً من المكر لإثبات هذا الظاهر والتعزّز به . وينظر ابن الأمير ، فإذا هو بعد ذلك صعلوكٌ أبترٌ معدّم رث الهيئة كذلك الشحاذ ، فيصيح مغتاضاً : كيف أهملتني الأقدار وأنا ابن الأمير ؟
قالوا : ويهتف به ذلك الملك : ويحك إن الأقدار لا تدلّ أحداً ، لا ملكاً

(١) الخيالة : ما يترأى للنائم من الأشباح في نومه

ولا ابن ملك ، ولا سُوقِيًّا ولا ابن سُوقٍ ، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس
في التراب عظمٌ يقول لعظم آخر : أيها الأمير

قالوا : وفكّر الشاب المسكين في صواحيبه من النساء ، وعندهن شبابه
وإسرافه ، ونفقاته الواسعة ، فقال في نفسه : أذهب لإحداهن ؛ وأخذ سَمْتَهُ
إليها ، فما كادت تعرفه عيناها في أسماله وبذذاته وبقره حتى أمرت به فجرّ بيديه
ودُفِع في قفاه . ولكن دم الإمارة نزا في وجهه غضباً ، وتحركت فيه الوراثة
الحريرية ، فصاح وأجْلَب واجتمع الناسُ عليه واضطربوا ، وماج بعضهم في بعض .
فبينما هو في شأنه حانت منه التفاتة فابصر غلاماً قد دخل في عُمارِ الناس ،
فدَسَّ يده في جيب أحدهم فنشَل كيسه ومضى .

قالوا : وجرى في وهم ابن الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسة الشرطي
ويتنزع منه الكيس ويتنفع بما فيه ، فسلَّ من الزحام وتبع الصبي حتى أدركه
ثم كبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز ، فإذا ليس فيه إلا خاتم وحجاب
وبعض خرزات مما يتبرك العامة بحمله ، ومفتاح صغير . . .

فامتلاً غيظاً وفار دمُ الإمارة وتحركت الوراثة الحربية التي فيه . وألم الصبي
بما في نفسه ، وحَدَسَ على أنه رجل أَفَّاقٌ مُتَبَطِّلٌ ، لا نَفَاذَ له في صناعة يرتزق
منها ، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها .
وقال : إن لنا مدرسةً ، فإذا دخلت القسم الإعداديَّ منها تعلمت كيف تحمل
المِكَتَل^(١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخِرْقَ البالية من الدُّور حتى إذا سَنَحَتْ
لك غَفلة انسلت إلى دارٍ منها ، فسرقت ما تناله يدك من ثوب أو متاعٍ ، ولا

(١) هو كالتفة يعمل من الخوص .

تزال في هذا الباب من الصنعة حتى تُحْكِمَهُ ، ومتى حذقتَهُ ومَهَرْتَ فيه انتقلت
إلى القسم الثانوى ...

فصاح ابن الأمير: أَعْرُبُ عني ، عليك وعليك ، أخراك الله ! ولعن الله
الإعدادي والثانوي معاً .

ثم إنه رعى الكيس في وجه الغلام وانطلق ، فبينما هو يعيش وقد توزَّعَتْ
الهموم ، أنشأ يفكر فيما كان يراه من المُكَدِّين ، وتلك العلل التي ينتحلونها
للكدية كالذي يتعاضى والذي يتعارج والذي يُحَدِّث في جسمه الآفة ؛ ولكن
دم الإمارة اشْمَاز في عروقه وتحركت فيه الوراثة الحريية ! وبَصُرَ بشاب من
أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعزَّض لمعروفه ، وأفضى إليه بهمه ، وشكا
ما نزل به ثم قال : وإني قد أُمْتُكَ وظنَّ بك أن تصطفينى لمنادمتك أو تلحقينى
بخدمتك ، وما أريد إلا الكفافَ من العيش ، فإن لم تبلغ بى ، فالقليل الذى
يعيش به المُقِلُّ . وصعد فيه الشاب وصوبَ ثم قال له : أحسن أن تلطف فى
حاجتى قال : سأبلغ فى حاجتك ما تحب . قال الشاب : ألك سابقةٌ فى هذا ؟
أكنت قوَّادًا ؟ أتعرف كثيرات منهن ؟

فانتفض غضباً وهم أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة ، فاستخذى ومضى لوجهه ، وكان قد بلغ سوقاً فأمل أن يجد عملاً في بعض الحوانيت ، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرةً ويطردونه مرةً ، إذ وقعت به ظنة التلصص ، وكادوا يُسلمونه إلى الشرطي فضى هارباً ؛ وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وإمارته وبؤسه جميعاً .

قالوا : ومضى طريقه إلى مَصْرَعِه بامرأة تباع الفُجْل والبصل والكُرَات ،
وهي بادنة وَضِيئة ممتلئة الأعلى والأسفل ، وعلى وجهها مَسْحَةٌ إغراء ، فذكر
غزله وفنته واستغواؤه للنساء ، ونازعته النفس ، وحسب المرأة تكون له معاشاً

ولهوا ، وظنها لا تُعجزه ولا تفوته وهو في هذا الباب خراجٌ ولّاجٌ منذ نشأ ...
غير أنه ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطمةٌ أظلم لها الجوُّ في عينيه ، ثم هَرَّتْ
في وجهه هَريراً منكراً واستعدت عليه السابلة فأطافوا به وأخذ الصفعُ بما قدّم
وما حدث ، وما زالوا يتعاونونه ضرباً حتى وقع معشياً عليه .

ورأى في غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب ، فضرب وخُسّ وأبلى
بالجنون وأُرسل إلى المارستان ، وساح في مصائب العالم ، وطاف على نكبات
الأمراء والشُّوق بما يعي وما لا يعي ، ثم رأى أنه قد أفاق من الإغماء فإذا هو
قد استيقظ من نومه على فراشه الوثير .

ويا ليت من يدرى بعد هذا ! أغدا ابنُ الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء
يُحسن إليهم ، أم غدا على صاحبه التي امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة
آلاف دينار؟

يا ليت من يدرى ! فإن الكتاب الذي نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا
شيئاً بل قطع الخبرَ عند ما انقطع الصفع

بنت الباشا . . .

كانت هذه المرأة وضّاحة الوجه ، زهراء اللون كالقمر الطالع ، تحسبها لجمالها
غدتّها الملائكة بنور النهار ، وروّتها من ضوء الكواكب .

وكانت بضّة مُقسّمة أبَدَ التقسيم ، يلتفّ جسّمها شيئاً على شيء انتفاً
هندسيّاً بديعاً ، يرتفع عن أجسام الغيد الحسان ؛ أفرغَ فيها الجمالُ بقدر ما يمكن
— إلى أجسام الدّهي العبقريّة التي أفرغَ فيها الجمالُ والفنُّ بقدر ما يستحيل .

وكانت باسمه أبداً كأول ما يتلأل الفجر ، حتى كأن دمها العزّيّ الشاعر
يصنّع لشعرها ابتسامتها ، كما يصنّع لخدّيها حمرتهما .

مالها جلست الآن تحت الليل مُطرقة كاسفة ذابلة ، تأخذها العينُ فما
تشكُّ أن هذا الوجه قد كان فيه منبع نورٍ وغاض ! وأن هذا الجسمَ الظمانَ
المعروق هو بُقعة من الحياة أُقيمَ فيها مأتم !

ما لهذه العين الكحيلية تُدري الدمع وتسترسلُ في البكاء وتلجّ فيه ،
كأن الغادة المسكينة تبصر بين الدموع طريقاً تُفضي منه نفسها إلى الحبيب
الذي لم يعد في الدنيا ؛ إلى وحيدها الذي أصبحت تراه ولا تلمسه ، وتكلمه ولا
يردُّ عليها ؛ إلى طفلها الناعم الظريف الذي انتقل إلى القبر وإن يرجع ، وتمثله
أبداً يريد أن يحى إليها ولا يستطيع ، وتنخيله أبداً يصيح في القبر يناديهما :
« يا أمي ، يا أمي ... »

قلبها الحزين يُقطّع فيها ويمزّق في كل لحظة ؛ لأنه في كل لحظة يُريد منها
أن تضمّ الطفل إلى صدرها ، ليستشعره القلبُ فيفرح ويتهنّأ إذ يمسُّ الحياة

الصغيرة الخارجة منه . ولكن أين الطفل ؟ أين حياة القلب الخارجة من القلب ؟
لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبها إلى ما يطلب ، ولا طاقة لقلبها أن يهدأ
عما يطلب ؛ فهو من الغيظ والقهر يحاول أن يُفجّر صدرها ، ويريد أن يدق
ضلعها ، ليخرج فيمبّحث بنفسه عن حبيبها !

مسكينة تترنّح وتلوى تحت ضربات مهلكة من قلبها ، وضربات أخرى
من خيالها ، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللحظة التي تكون فيها
الذبيحة تحت السكين . ولكنها لحظة امتدت إلى يوم ، ويوم امتد إلى شهر .
يا ويلها من طول حياة لم تعد في آلامها وأوجاعها إلا طول مدة الذبح المذبوح .
ولو كان للموت قطار يقف على محطة في الدنيا ، ليحمل الأحياء إلى
الأحباب ، ويسافر من وجود إلى وجود ، وكانت هذه الأم جالسة في تلك
الحطة منتظرة تتربّص ، وقد ذهبت عن كل شيء ، وتجردت من كل معاني
الحياة ، وجدت جمود الانتقال إلى الموت — لما كانت إلا بهذه الهيئة في
مجلسها الآن في شرفتها من قصرها ؛ تطلّ على الليل المظلم وعلى أحزانها ... !

هي فلانة بنت فلان باشا وزوجته فلان بك . ترادفت النعم على أبيها فيما
يطلب ومالا يطلب ، وكأنما فرغ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال
والجاه ، فلم يُعجب الزمان ذلك ، فأخذ يقترح له ويصنع ما يقترح ، ويزيده على
رغمه نعماً تتوالى !

وكان قد تقدم إلى خطبة ابنته شاب مهذب ، يملك من نفسه الشباب والهمة
والعلم ، ومن أسلافه العنصر الكريم والشرف الموروث ؛ ومن أخلاقه وشماله
ما يُكاثِرُ به الرجال ويفخر . بيد أنه لا يملك من عيشه إلا الكفاف والقلة ،
وأماً بعيداً كالنجم وراء ليل لا بد من مُصابرته إلى حين ينبثق النور .

وتقدم صاحبنا إلى الباشا فجاه كالنجم عاريا ؛ أى فى أزهى نورانيته وأضوأها .
وكان قد علق الفتاة وعُلّقته ، فظنّ عند نفسه أن الحبّ هو مالُ الحب ، وأن
الرجولة هى مالُ الأنوثة ، وأن القلوب تتعامل بالمسرّات لا بالأموال ، ونسى أنه
يتقدم إلى رجلٍ مالى جعلته حقارة الاجتماع رتبة ، أو إلى رتبةٍ ماليةٍ جعلتها
حقارة الاجتماع رجلا . . . وأنّ كلمة « باشا » وأمثالها ، إنما تخلّفت عن ذلك
المذهب القديم : مذهب الألوهية الكاذبة التى انتحلها فرعون وأمثاله ، ليمتعدّوا
الناس منها بألفاظٍ قلوبهم المؤمنة ؛ فإذا قيل « إله » كان جواب القلب :
« عزّ وجلّ » ، « سبحانه »

ولما ارتقى الناسُ عن عبادة الناس ، تطلّفت تلك الألوهية ونزلت إلى
درجاتٍ إنسانية ، لتتعبّد الناسُ بألفاظٍ عقولهم الساذجة ؛ فإن قيل « باشا » كان
جوابُ العقل الصغير : « سعادتلو أفندم ^(١) » !

نسى الشاب أنه « أفندى » سيتقدم إلى « باشا » وأعماه الحبُّ عن فرّقٍ
بينهما ؛ وكان سامى النفس ، فلم يُدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لا بد لها أن
تنتحل السموّ انتحالا ، وأن الشعب الذى لا يجد أعمالاً كبيرة يتجّد بها ، هو
الذى تخترع له الألفاظ الكبيرة ليمتلهى بها ؛ وأنه متى ضعف إدراك الأمة ، لم
يكن التفاوت بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها ، بل بموضع الرجولة من تلك
الألفاظ ؛ فإن قيل « باشا » ، فهذه الكلمة هى الاختراع الاجتماعى العظيم فى أمم
الألفاظ ، ومعناها العلمى : قوة ألف فدان أو أكثر أو أقل ؛ ويقابلها مثلاً فى
أمم الأعمال الكبيرة لفظُ « الآلة البخارية » ، ومعناها العلمى قوة كذا وكذا
حصاناً أو أقلّ أو أكثر ^(٢) !

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة . فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة .
وقد أرادت بها رفع الأعلى ، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل .

(٢) انظر مقالة (البك والباشا) فى الجزء الثانى

المعنى

نسى هذا الشاب أن «أم الأكل والشرب» في هذا الشرق المسكين ،
لا تتم عظمتها إلا بأن تَضَع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هي في الواقع أوصاف
اجتماعية للمعدة التي تأكل الأكثر والأطيب والألذ ، وتملك أسباب القدرة ^{الصل}
على الألذ والأطيب والأكثر .

وتقدم (الأفندى) يتودد إلى (الباشا) ما استطاع ، ويتواضع وينكش ،
ولا يألوه تمجيداً وتعظيماً ؛ ولكن أين هو من الحقيقة ؟ إنه لم يكن عند الباشا
إلا أحق ؛ إذ لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك العظيم كان أول معانيه أن كلمة
« أفندى » تناولت إلى كلمة « باشا » بالسبّ علناً ... !

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد ؛ ثم
جاء (البك) يخطب الفتاة .

و « بك » منبهةً للاسم الخاطب ، وشرفٌ وقدرٌ وثناء اجتماعي ، وذِكْرٌ
شهير ، وإرغامٌ على التعظيم بقوة الكلمة ، ودليلٌ على الحرّيات اللازمة للاسم
لزوم السواد للعين ، ولو لم يكن تحت (بك) رجلٌ ، فإن تحتها على كل حال
(بك) ... ! وأنعم له الباشا ، ووصل يده بيد ابنته فألبسها وألبسته ، وأعلمها
أبوها أنه قد فحّصَ عن البك فإذا هو (بك) قوة مائتي فدان ... ! أما الأفندى
فظهر من الفحص الهندسي الاجتماعي أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنياً في
الشهر ... !

وحسّ الأفندى وتراجع ^{مُنْخَزِلًا} ، وقد علم أن (الباشا) إنما زوّج لقبه
قبل أن يزوج ابنته ، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدّل
أسباب التاريخ الاجتماعي في الأمم الضعيفة ، فينقل إلى العقل أو النفس ما جعلته
« أم الأكل والشرب » من حق المعدة ، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقيٌّ مُفلس

قمر

أو أديبٌ عظيمٌ فقيرٌ ، أو من جرى هذا الجرى في سمو المعنى لافي سمو المال .
وقدّمت مائتاً الفدان مَهْرَها « الطيّنى » العظيم بما تعبيرُهُ في اللغة الطينية :
ثمانُ عشرين ثوراً ، ومثلها جاموساً ، ومثلها بغالاً وأحجرة ، وفوقها مائة قنطارٍ
قطناً ، ومائة أردب قمحاً ؛ ثم ذرةً ، ثم شعيراً . والجموع الطينى لذلك ألفُ
جنيه ، وعزّى الباشا أنه مستطيعٌ أن يقول للناس : إنها خمسة آلاف ، اختزلتها
الأزمة قبَحَها الله . . . !

ثم زُفّت « بنت الباشا » زفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً ، كان تعبيرُهُ : أنه
أنفق عليه ثمنُ ألفِ قنطارٍ بصلاً ، ومائة غرارةٍ من السِّمَادِ السِّكَاوَى ، كأنما
فُرِشَ بها الطريق . . . !

ووظفَ الباشا يفاخرُ ويتدَّخُ ، ويتَبَدَّخُ على الأفندى وأمثالِ الأفندى بالطين
ومعاني الطين ؛ فردّت الأقدارُ كلامه عليه ، وجعلت مَرَجِعَهُ في قلبه ، وهَيَّأتُ
لبنت الباشا معيشَةً « طينية » بمعنى غير ذلك المعنى . . .

ومات الطفل ؛ فردّت هذه النكبة بنتَ الباشا إلى معاني انفرادها بنفسها
قبل الزواج ، وزادتها على انفرادها الحزنَ والألم ؛ وألقت الأقدارُ بذلك في أيامها
وليالها الترابَ والطين .

ولجَّ الحزنُ بينت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبرَ ، ولا تتنى إلا القبرَ ، تلاحق
فيه بولدها ؛ فوضعت الأقدارُ من ذلك في رُوحها معنى الطين والتراب .
وأسقمَ لهم بنتَ الباشا وأذابها ؛ فنقلت الأقدارُ إلى لَحْمِها عَمَلَ الطين ، في
تحليله الأجسامَ وإذابتها تحت البلى .

وكان وراء قصرها حِوَاءٌ^(١) يأوى إليه قوم من « طين الناس » بنسأهم
(١) الحوَاء : جماعة من البيوت كهذه العشش التي يسكنها الصعايدة في بعض الأحياء .

وعياهم ، وفيهم رجلٌ « زَبَّالٌ » له ثلاثة أولاد ، يراهم أعظمَ مَفَاخِرِهِ وأَجْمَلَ آثارِهِ ، ولا يزال يرفع صوتهَ مُتَمَدِّحًا بِهِمْ ، ويختَرع لذلك أسبابًا كثيرة لكي يَسْمَعَهُ جيرانُهُ كل ليلة مُفَاخِرًا ، مرة بأحمد ، ومرة بِحَسَن ، ومرة بِعَلَى ، وأَعْجَبُ أمرِهِ أَنَّهُ يرى أولادَهُ هؤلاء مُتَمِّمين في الطبيعة لأولاد « الباشوات » . . . وهو يحبُّهم حبَّ الحيوان المُفْتَرِسِ لصغاره ؛ يرى الأسدُ أشبالَهُ هم صنعة قُوَّتِهِ ، فلا يزال يَحُوطُهُمْ ويتَمَمُّهم ويرعاهم ، حتى إنه ليقَاتِلُ الوجودَ من أجلهم ؛ إذ يشعر بالفطرة الصادقة أَنَّهُ هو وجودُهُمْ ، وأن الطبيعة وهبتْ له منهم مَسَرَّاتٍ قلبِهِ ، ذلك القلب الذي انحصرت مَسَرَّاتُهُ في النسل وحده ، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبَّ إلى نهاية الحب . وكذلك الزَبَّالُ الأسدُ ^(١) .

ومن سخرية القدر أن زَبَّالنا هذا لم يسكن الحِواءَ إلا في تلك الليلة التي جلست فيها بنت الباشا على ما وصفنا ، وفي ضلوعها قلبٌ يُفْتَتُّ من كبدها ، ويُمزَّق من أحشائها .

وبينا تُناجِي نفسها وتَعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا والبك ، وتَسْتَحْمِقُ أباهُا فيما أقدم عليه من نبذ كُفَّيْهَا لعجزه عن مهرِ باشا ، وإيثار هذا المهر الطيني ، وتَبَاهِيهِ به أمام الناس ، وأنْدِرَائِهِ بالطَّعْنِ على من ليس له لقبٌ من ألقاب الطين — بيئنا هي كذلك إذا بالزبال ؛ كَانِسِ التراب والطين يهتَفُ في جوف الليل ويتغنَّى :

يا لَيْلُ ، يا لَيْلُ ، يا لَيْلُ ما تَنْجِلِي يا لَيْلُ

القلب ^(٢) أَهْوَ راضِي لَكَ حَمْدِي يَارَبِّي

(٢١) هذا الزبال شخصية حقيقة ، لو قلنا مذهب الرجعة لكان « أرسطو » رجع زبالا ليتم فلسفته . والكايت يعرف الرجل ويبره أحياناً وكان (حضرته) قد طلب إلينا أن نصنع له (موالا) يتغنَّى به في (أوقات الصفاء) فوضعا له الأغنية التي يراها القارئ بعد وهو يصدح بها في لياليه . وسنفرد لزبالنا هذا مقالا خاصا إن شاء الله .

مِنْ المَـمُومِ فَاضِى إِفْرَحْ لى يَا قَلْبى

يَا دُوبُ كِدا يَا دُوبُ زَىّ الحَمَامِ عَابِشْ
ما يَمْتَلِكُ غَيْرُ تُوبُ طُولُ عَمْرُهُ فِيهِ نَافِشْ ...
يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ما تَنْجِلِى يَا لَيْلُ

إِنِ قَلتْ أَنَا فَرَحَانُ دَا مِينُ يَكْدَبْنِى
وَأَكْتَرُ مِنَ السُّلْطَانِ فَرَحَانُ أَنَا بَابُنِى

بَيْنَ السِّیُوفِ يَا نَاسُ لَمْ أَنْكَسِرْ سِیْفِى
وَأَبْنِ الْغِنَى مُحْتَسِرُ وَاَنَا عَلَى كِیْفِى ...
يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ما تَنْجِلِى يَا لَيْلُ

وَأَبْنِ الْغِنَى فِ هُمُومِ وَالْخَالِى خَالِى الْمَالِ
وَالْفَقْرُ ما بِيَدُومِ وَتَدُومُ هُمُومِ الْمَالِ

يَا طَیْرُ يَا طَیْرُ ، يَا طَیْرُ الْحُرِّ فَوْقِ اللُّومِ
وَالْخَیْرِ ، جَمِيعِ الْخَیْرِ لُقْمَهُ ، وَغَافِيَهُ ، وَنُومِ
يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ، يَا لَيْلُ ما تَنْجِلِى يَا لَيْلُ

ولم تختَرِ الأَقْدَارُ إِلَّا زَبَالًا تُرْسِلُ فى لِسَانِهِ سَخَرِيَّتَهَا بِذَلِكَ الْبَاشَا وَبَنَتْ

ذلك الْبَاشَا ... !

وَكَسَرُ قَلْبٍ بِكَسْرِ قَلْبٍ وَحَطْمُ نَفْسٍ بِحَطْمِ نَفْسٍ
وَرُبَّ عِزٍّ تَرَاهُ أَمْسَى كُنَاسَةً هَيَّئَتْ لِكُنْسٍ !..

ورقة ورد

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) في نوع من الترسل لم يكن منه شيء في الأدب العربي على الطريقة التي كتبناه بها ، في المعاني التي أفردناه لها ؛ وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه في مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) وهي رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبه ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب ، فرأينا ألا تنفرد بها . وهي هذه : »

... كانت لها نفس شاعرة ، من هذه النفوس العجيبة التي تأخذ الضدين بمعنى واحد أحياناً ؛ فيسرُّها مرةً أن تُحزِنَها وتستدعي غضبها ، ويحزِنُها مرةً أن تسرُّها وتبلغ رضاها ، كأن ليس في السرور ولا في الحزن معانٍ من الأشياء ولكن من نفسها ومشيتها .

وكان خيالها مشبوحاً ، يُلقي في كلِّ شيءٍ لمعانَ النور وانطفاءه ؛ فالدنيا في خيالها كالسماء التي ألبسها الليل ، مُلئت بأشياءها مبعثرة مضيفة خافتة كالنجوم .

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلها أحياناً من بلاغة حسِّها وإرهافه كأن فيها أكثر ✓ من عقلها ؛ ويجعلها في بعض الأحيان من دقة هذا الحسِّ واهتياجه كأنها بغير عقل

وهي ترى أسمى الفكر في بعض أحوالها ألا يكون لها فكر ؛ فتترك من أمورها أشياء المصادفة ، كأنها واثقة أن الحظَّ بعضُ عشاقها . على أن لها ثلاثة

أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحها وجسمها : فالذكاء فى عقلها فهم ، وفى روحها فتنة ، وفى جسمها ... خلاعة .

وكنت أراها مَرَحَةً مستطارة مما تَطَرَّبُ وتنفال ، حتى لأحسبها تودُّ أن يخرج الكون من قوانينه ويطيش ... ؛ ثم أراها بعد مُتَصَوِّرةً مهمومةً تحزن وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكون همًّا ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة — جميلةً ظريفةً ، قد تَمَّتْ لها الصورة التى تخلق الحب ، والأسرار التى تبعثُ الفتنة ؛ والسحر الذى يُميِّزُ روحها بشخصيتها الفاتنة كما تميِّزُها بوجهها الفاتن .

وكان حبي إياها حريقاً من الحب . فمثل لعينيك جسمًا تنأول جِلْدَهُ مَسًّا من لَهَبٍ ، فتسلَّعَ هذا الجلدُ ^(١) هنا وهناك من سَلَخِ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لَهَبٌ يابسٌ أحمرُّ كأنه عُرووقٌ من الجمر انتشرت فى هذا الجسم . إنك إن تَمَثَّلْتَ هذا الوصفَ ثم نَقَلْتَهُ من الجلد إلى الدم — كان هو حريقَ ذلك الحبِّ فى دمي !

والحُبُّ — إن كان حبًّا — لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حالُّ منه فى عذابه ، إلا وهى دليلٌ على شىء منها فى جَبَروتها .

ولقد أيقنتُ أن الغرام إنما هو جنونٌ شخصية الحب بشخصية محبوبه ، فيسقطُ العالمُ وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين ؛ وينتفى الواقع الذى يجرى الناسُ عليه ، وتعودُ الحقائقُ لا تأتى من شىء فى هذه الدنيا إلا بعد أن تمرَّ على الحبوب لتجىء منه ، ويصبح هذا الكون العظيم كأنه إطارٌ فى عين مجنونٍ

(١) أى تشقق وتسلخ .

لا يحمل شيئاً إلا الصورة التى جُنَّ بها !
 وتالله لكانَّ قانونَ الطبيعة يقضى ألاَّ تحبَّ المرأةُ رجلاً يسمى رجلاً ،
 وألاَّ تكونَ جديرةً بمُحبِّها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه
 كأنها مأخوذةٌ فى الحرب تلك الأهوالُ يُمثِّلها الحيوانُ المتوحَّشُ عملاً
 جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثم تَرِقُّ فى الإنسانِ المتحضرِ فيمثِّلها عملاً قلوبياً
 بالحبِّ . . .

السريخة

السريخة

والدخ

أحبَّيتها جُهدَ الهوى حتى لا مزيدَ فيه ولا مطمعَ فى مزيدٍ ، ولكن أسرارَ
 فتنها استمرَّت تتعدَّد فتدفعُنِي أن يكون حبي أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف
 يمكنُ فى الحبِّ أشدَّ من هذا ؟

ولقد كنتُ فى استغائتى بها من الحب كالذى رأى نفسه فى طريق السَّيل
 ففرَّ إلى رُبُوَّةٍ عالية فى رأسها عقلٌ لهذا السَّيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركانُ
 بجنونه وغلظتِه فهرب فى رقةِ الماء وحِلْمه ؛ ولا سَيلَ ولا بركانَ إلا حُرقتى
 بالهوى وارتماضى من الحبِّ .

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولكن هى الطبيعة ، هى الطبيعةُ
 فى العاشق .

هى الطبيعةُ ، بجبروتها ، وعسفِها ، وتعنُّتها . إذا استراحَ الناسُ جميعاً قالت
 للعاشقُ : إلا أنت . . . !

إذا عقلَ الناسُ جميعاً قالت فى العاشقُ : إلا هذا . . . !

إذا برأتُ جراحُ الحياة كُلَّها قالت : إلا جرحَ الحبِّ . . . !

إذا تشابهتِ الممومُ كالدمعة والدمعة ، قالت : إلا همَّ العشق . . . !

إذا تغيَّرَ الناسُ فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : إلا هو . . . !

إذا انكشف سرُّ كلِّ شيء ، قالت : إلا المعشوق ؛ إلا هذا المحجَّب
بأسرار القلب ... !

ولما رأيتها أوَّلَ مرةٍ ، ولمَسْنِي الحبُّ لَمْسَةً ساحرَ ، جلستُ إليها أَنَا مُلْهُمًا
وَأَحْتَسَى من جمالها ذلك الضياءَ المُسَكَّرَ ، الذي تُزِيدُ له الروحُ عَرَبِدَةً كُلَّهَا ^{الضياء}
وقارُّ ظاهرٍ ... فرأيتُني يومئذٍ في حالةٍ كَعَشْمَةِ الوحى ، فوقها الأدميةُ ساكنةٌ ،
وتحتها نيارٌ للملائكةِ يُعْبُ ويَجْرَى .

✓ وكنتُ أُلْقِي خواطرَ كثيرةٍ ، جَعَلْتُ كلَّ شَيْءٍ منها ومما حولها يتكلمُ في
نفسى ، كأن الحياةَ قد فاضَتْ وازدحمتُ في ذلك الموضعِ الذى تجلسُ فيه ، فما
شَيْءٌ يَمُرُّ به إِلَّا مَسَّتْهُ فجعلته حياً يرتعشُ ، حتى الكلماتُ .

✓ وشعرتُ أوَّلَ ما شعرتُ أن الهواءَ الذى تتنفسُ فيه يرقُّ رِقَّةً نَسِيمِ السَّحَرِ ،
كأنما انخدع فيها فَحَسِبَ وجهها نورَ الفجرِ !

وأحسستُ فى المكانِ قوَّةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب ، جعلتني مُبْعَثَرًا
حولَ هذه الفتاة ، كأنها محدودةٌ بى من كلِّ جهةٍ .

وخَيَّلَ إلىَّ أن النواميسَ الطبيعيةَ قد اختلَّتْ فى جسمى إما بزيادةٍ وإما
بنقص ؛ فأنا لذلك أعظمُ أمامها مرةً ، وأصغرُ مرةً .

وظننتُ أن هذه الجميلةَ إنْ هى إِلَّا صورةٌ من الوجودِ النسائى الشاذِّ ، وقع
فيها تنقيحٌ إلهيٌّ لَتُظْهِرَ للدنيا كيف كان جمالُ حواءَ فى الجنةِ .

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشْعِرُنِي بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ؛ وأنه
فوق الجمالِ والنضرةِ والمرحِ ، لأن الله وضعه فى هذا السرورِ الحىِّ الخلقِ امرأةً .
والتمتستُ فى محاسنها عيباً ، فبعد الجهدِ قلتُ مع الشاعرِ :

« إِذَا عِبَتْهَا شَبَّهْتُهَا الْبَدْرَ طَالَعَا ... ! »

ورأيتها تضحك الضحك المُستَحْي ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعر أنه تجراً على قانون

وتبسّم ابتساماتٍ تقول كلُّ منها للجالسين : انظروها ! انظروها ! ... !
ويغمزها ضحك العين والوجه والفم وضحك الجسم أيضاً باهتزازه وترّجُرْجِه
في حركاتٍ كأنما يبتسم بعضها ويقهقه بعضها

وتلقى نظراتٍ جعل الله معها ذلك الإغضاء وذلك الحياء ليضع شيئاً من
الوقاية في هذه القوّة النسويّة ، قوّة تدمير القلب .

وهي على ذلك متسامية في جلالها حتى لا يتكلم جسمها في وساوس النفس
كلام اللحم والدم ، وكأنه جسمٌ ملائكيّ ليس له إلا الجلال طوعاً أو كرهاً ؛
جسمٌ كالمعبّد ، لا يعرف من جاءه أنه جاءه إلا ليتهمّل ويخشع ؛
وتطالعك من حيث تأملت فكرة الحياة المنسجمة على هذا الجسم ، تطالب
منك الفهم وهي لا تفهم أبداً ؛ أي تريد الفهم الذي لا ينتهي ؛ أي تطالب الحبّ
الذي لا ينقطع .

وهي أبداً في زينة حسنها كأنها عروسٌ في معرض جلوتها ؛ غير أن
للعروس ساعة ، ولها هي كلُّ ساعة .

أما ظرّفها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائفٌ ، أنا خائف !
ووجهها تتغالب عليه الرّزانة والخيف ، لتقرأ فيه العين عقلاً وقلباً .
وهي مثل الشعر ، تطرب القلب بالألم الذي يوجد في بعض السرور ،
وبالسرور الذي يحس في بعض الألم .

وهي مثلُ الحجر ، تحسبُ الشيطانَ مُتَرَفِّقاً فيها بكلِ إغرائه !
وكما تناولتُ أُمَامِي شَيْئاً أو صَنَعْتُ شَيْئاً خَلَقْتُ معه شَيْئاً ؛ أَشْيَاوْهَا لَا تَزِيدُ
بِهَا الطَّبِيعَةَ ، وَلَكِنْ تَزِيدُ بِهَا النَفْسَ .
فِيَا كَيْدًا طَارَتْ صُدُوعاً مِنَ الْأَسَى !...

وَرَأَيْتُنِي يَوْمَئِذٍ فِي حَالَةٍ كَغَشِيَةِ الْوَحْيِ ، فَوْقَهَا الْآدَمِيَّةُ سَاكِنَةٌ ، وَتَحْتَهَا
تِيَّارُ الْمَلَائِكَةِ يَعْْبُ وَيَجْرِي .

يَا سِحْرَ الْحُبِّ ! تَرَكْتَنِي أَرَى وَجْهَهَا مِنْ بَعْدُ هُوَ الْوَجْهَ الَّذِي تَضْحَكُ بِهِ
الدُّنْيَا ، وَتَعْبَسُ وَتَتَغَيِّظُ وَتَتَحَامَقُ أَيْضاً
وَجَعَلْتَنِي أَرَى تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةَ الْجَمِيلَةَ هِيَ أَقْوَى حُكُومَةٍ فِي الْأَرْضِ !
وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ الْحُبِّ ؛ وَجَعَلْتَنِي يَا سِحْرَ الْحُبِّ مَجْنُونًا !...

لا تتركني
أبداً

الوفاة
في الحب

سمو الحب

عن الإمام

صاح المنادى في موسم الحج : « لا يفتى الناس إلا عطاء ابن أبي رباح »^(١) وكذلك كان يفعل خلفاء بني أمية ؛ يأمرهم صائحيهم في الموسم ، أن يدلّ الناس على مفتى مكة وإمامها وعالمها ، ليكتفوه بمسائلهم في الدين ، ثم ليُمسك غيره عن الفتوى ، إذ هو الحجة القاطعة لا ينبغي أن يكون معها غيره مما يختلف عليها أو يعارضها ، وليس للحجج إلا أن تظاهروا وتترادف على معناها .

وجلس عطاء يتحنّن الصلاة في المسجد الحرام ، فوقف عليه رجلٌ وقال : يا أبا محمد ، أنت أفتيت كما قال الشاعر :

سَلِ الْمُفْتَى الْمَكِّيَّ : هل في تزاورٍ وَصَمَّةٌ مُشْتاقِ الفؤادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهِبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بَهَنَ جِرَاحُ !

فرفع الشيخ رأسه وقال : والله ما قلت شيئاً من هذا ، ولكن الشاعر هو نحّاني هذا الرأي الذي نفّسه الشيطان على لسانه ، وإني لأخاف أن تشيع القالة في الناس ، فإذا كان غدّ وجلست في حلقتي فاغدّ عليّ ، فإني قائلٌ شيئاً

وذهب الخبر يؤجّج كما توجّج النار ، وتعالّم الناس أن عطاء سيتكلم في الحبّ ، وعجبوا كيف يدرى الحبّ أو يُحسّن أن يقول فيه من غبرّ عشرين سنة فراشه المسجد ، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين ، وأبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس بحر العلم !

وقال جماعة منهم : هذا رجلٌ صامتٌ أكثر وقته ، وما تكلم إلا خيّل

(١) ولد هذا الإمام سنة ٢٧ هـ وتوفي سنة ١١٥ قالوا : ومات يوم مات وهو عند الناس أرضى أهل الدنيا .

إلى الناس أنه يُؤَيَّدَ بِمَثَلِ الْوَحْيِ ، فَكَأَنَّمَا هُوَ نَجِيٌّ مَلَأْنِكَةُ يَسْمَعُ وَيَقُولُ ، فَعَلَلَ
السَّمَاءَ مُوحِيَةً إِلَى الْأَرْضِ بِلِسَانِهِ وَحِيًّا فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ الَّتِي عَمَّتْ النَّاسَ وَفَتَنَتْهُمْ
بِالنِّسَاءِ وَالْغِنَاءِ .

وَلَمَّا كَانَ غَدٌ جَاءَ النَّاسُ أَرْسَالًا إِلَى الْمَسْجِدِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْهُمْ الْجَمْعُ
الكَثِيرُ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي عَمَّارٍ : وَكُنْتُ رَجُلًا شَابًا مِنْ فِتْيَانِ
الْمَدِينَةِ ، وَفِي نَفْسِي مِنَ الدُّنْيَا وَمِنْ هَوَى الشَّبَابِ ، فَغَدَوْتُ مَعَ النَّاسِ ، وَجِئْتُ
وَقَدْ تَكَلَّمْتُ أَبُو مُحَمَّدٍ وَأَفَاضَ ، وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ فِي
مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُ غَرَابُ أَسْوَدَ ، إِذْ كَانَ ابْنُ أُمِّهِ سَوْدَاءَ تَسْمَى « بَرَكَهَ » وَرَأَيْتُهُ
مَعَ سَوَادِهِ أَعْوَرَ أَفْطَسَ أَشْلَّ أَعْرَجَ مُقْلَقَ الشَّعْرِ ، لَا يَتَأَمَّلُ الْمَرْءُ مِنْهُ طَائِلًا ،
وَلَكِنْ تَسْمَعُهُ يَتَكَلَّمُ فَتُظَنُّ مِنْهُ وَمِنْ سَوَادِهِ — وَاللَّهِ — أَنَّ هَذِهِ قِطْعَةُ لَيْلٍ
تَسْطَعُ فِيهَا النُّجُومُ ، وَتَصْعَدُ مِنْ حَوْلِهَا الْمَلَائِكَةُ وَتَنْزِلُ .

قَالَ : وَكَانَ مَجْلِسُهُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَوَاقِفَتُهُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ فِي
تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ »
وَقَالَتْ : هَيْتَ لَكَ . قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ : إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ
الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ تَهَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ؛ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ
عَنْ الشَّوْءِ وَالْفَحْشَاءِ »

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : فَسَمِعْتُ كَلَامًا قُدْسِيًّا تَضَعُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنَاحَهَا مِنْ
رُضًى وَإِعْجَابٍ بِفَقِيهِ الْحِجَازِ . حَفِظْتُ مِنْهُ قَوْلَهُ :

عَجَبًا لِلْحَبِّ ! هَذِهِ مَلِكَةٌ تَعِشُ فِتَاهَا الَّذِي ابْتَاعَهُ زَوْجُهَا بَتْنِ بَخْسٍ ؛
وَلَكِنْ أَيْنَ مُلْكُهَا وَسَطْوَةُ مُلْكِهَا فِي تَصْوِيرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ؟ لَمْ تَزِدْ الْآيَةَ
عَلَى أَنْ قَالَتْ : « وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي » وَ « الَّتِي » هَذِهِ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ
كَائِنَةً مَنْ كَانَتْ ؛ فَلَمْ يَبْقَ عَلَى الْحَبِّ مُلْكٌ وَلَا مَنْزِلَةٌ ؛ وَزَالَتْ الْمَلِكَةُ مِنَ الْأَنْثَى !

وأعجب من هذا كلمة « رَاوَدَتْهُ » وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلتْ تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لَوْنٍ بعد لون ؛ ذاهبة إلى فنٍّ ، راجعة من فنٍّ ؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَ أن الإبل في مشيتها ؛ تذهب وتجيء في رَفْقٍ . وهذا يُصَوِّرُ حَيَرَةَ المرأة العاشقة ؛ واضطرابها في حبها ؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها ؛ كما يصوِّرُ كبرياء الأنثى ، إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعيِّ كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها ؛ فهما تتهاك على مَنْ تحبَّ وَجَبَ أن يكون لهذا « الشيء الآخر » مظهر امتناعٍ أو مظهر تحيُّرٍ ، أو مظهر اضطراب ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعَةٌ ماضية مصممة .

ثم قال : « عن نفسه » ليدلَّ على أنها لا تطمع فيه ، ولكن في طبيعته البشرية ، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها ، وكأن الآية مصرحة في أدبٍ سامٍ كلَّ السمو ، منزّه غاية التنزيه بما معناه : « إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغوائه وتصبيته ، مقبلة عليه ومتدلة ومتبدلة ومنصبة من كل جهة ، بما في جسمها وجهالها على طبيعته البشرية ، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت — أوّل ما خلعت — أمام عينيه ثوب الملك » .

ثم قال : « وغلقت الأبواب » ولم يقل « أغلقت » وهذا يشعر أنها لما يئست ، ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت في ثورة نفسها محتاجة تتخيّل القفل الواحد أقفالا عدّة ، وتجري من بابٍ إلى باب ، وتضطرب يدها في الأغلاق ، كأنما تحاول سدّ الأبواب لا إغلاقها فقط .

« وقالت هيئت لك » ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده ، فاتته إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد

لا ملكة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانية صرفة ، متكشفة معرّحة ، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض ، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها . فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيع أو تعرضه بدأت من ثمَّ عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها ، فقال يوسف : « معاذ الله » ثم قال : « إنه ربي أحسن مثواي » ثم قال : « إنه لا يفلح الظالمون » . وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة ، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله ، ومعرفة الجليل ، وكرهة الظلم . ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها ، ولم يفتأ تلك الحدة ، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن في مكان في رجل ، فهي فكرة محتبسة كأن الأبواب مغلقة عليها أيضاً ؛ ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها . وهنا يعود الأدب الإلهي السامى إلى تعبيره المعجز فيقول : « ولقد هممت به » كأنما يؤمى بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه ، وتعلقت به ، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة ، وهى لئس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم !

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان الذى يقذف به في آخر محاولته . وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هو برهان شيطانها . فلو لا برهان ربه لكان هم بها ، ولكان رجلاً من البشر في ضعفه الطبيعى .

قال أبو محمد : وههنا ههنا المعجزة الكبرى ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتى لا يُظنَّ به ، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبان منهم ، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة

عاشقةٌ مُحْتَلِيَةٌ مُتَعَرِّضَةٌ مُتَكَشِّفَةٌ مُتَهَالِكَةٌ . هنا لا ينبغي أن يئأس الرجل ، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئاً من هذا — هي أن يرى برهانَ رَبِّهِ .

وهذا البرهانُ يُؤَوِّلهُ كُلُّ إنسانٍ بما شاء ، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيُفَضُّها كلها ؛ فإذا مثل الرجلُ لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما ، وأن أمانى القلب التي تهجس فيه ويظنها خافيةً ، إنما هي صوتٌ عالٍ يسمعه الله ؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويُقْبَرُ ، وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا ، أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقتترفه الآن سيكون مَرَجُهُ عليه في أخته أو بنته — إذا فكر في هذا ونحوه رأى برهانَ رَبِّهِ يُطالعه فجأة ، كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرى برهانَ عَيْنِهِ ؛ أترؤنه يتردى في الهاوية حينئذٍ ، أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام ، وأكثر الموعظة ، وأكثر التربية ، والتي هي كالذرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشیطان ، كلمة « رأى برهانَ رَبِّهِ » .

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبه سُهَيْلِ بن عبد الرحمن : وَلَزِمْتُ الإمامَ بعد ذلك ، وأَجَمَعْتُ أن أُشَبِّهَ به ، وأَسْلُكَ في طريقه من الزهد والمعرفة ؛ ثم رجعتُ إلى المدينة وقد حفظتُ الرجلَ في نفسي كما أحفظ الكلام ، وجعلتُ شعاري في كل نَزْعَةٍ من نَزَعَاتِ النفس هذه الكلمة العظيمة : « رأى برهانَ رَبِّهِ » ، فما أَلَمْتُ بِإِثْمٍ قَطُّ ، ولا دَانَيْتُ مَعْصِيَةً ، ولا رَهَقَنِي مَطْلَبٌ من مطالب النفس إلى يوم الناس هذا ، وأرجو أن يَعِصِمَنِي اللهُ فيما بقي ، فإن هذه الكلمة ليست كلمة ، وإنما هي كَأَمْرِ من السماء تحمله ، تمرُّ به آمناً على كل معاصي الأرض ، فما يَعْتَرِضُكَ شَيْءٌ منها ، كأن معك خاتمَ الملك تجوزُ به .

قال سُهيل : فلهذا لَقَبَكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ « بِالْقَسِّ » لعبادتك وزهدك وعزوفك
عن النساء ، وقليل لك — والله — يا أبا عبد الله ، فلو قالوا : ما هذا بَشَرًا إِنْ
هذا إِلَّا مَلَكٌ ، لصدقوا .

قالت سَلَامَةُ جَارِيَةُ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُغَنِّيَّةِ ، الْحَاذِقَةُ الظَّرِيفَةُ ، الْجَمِيلَةُ
الْفَاتِنَةُ ، الشَّاعِرَةُ الْقَارِئَةُ ، الْمُؤَرِّخَةُ الْمُتَحَدِّثَةُ ، الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ فِي امْرَأَةٍ مِثْلُهَا حُسْنُ
وَجْهِهَا ، وَحُسْنُ غِنَائِهَا ، وَحُسْنُ شَعْرِهَا — قالت : واشتراني أمير المؤمنين يزيدُ
ابن عبد الملك بعشرين ألفَ دينار « عشرة آلاف جنيه » وكان يقول : ما يُقَرَّرُ
عِني ما أُوتِيتُ من الخلافة حتى أشتري سَلَامَةَ ؛ ثم قال حين ملكني : ما شاء
بعدُ من أمر الدنيا فَلْيَقُتْنِي ! قالت : فلما عُرِضْتُ عليه أمرني أَنْ أُغْنِيَهُ ، وكنت
كالخُبُولَةِ من حبِّ عبد الرحمن القسِّ ، حُبًّا أَرَاهُ فَالِقًا كَبِدِي ، آتِيًّا عَلَيَّ خُشَاشَتِي ؛
فذهب عني والله كلُّ ما أحفظه من أصوات الغناء ، كما يُمَسِّحُ الْاَوْحُ مَا كُتِبَ
فيه ، وَأُنْسِيْتُ الْخَلِيفَةَ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ أَرَ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَمَجْلِسَهُ مِنْ يَوْمٍ
سَأَلَنِي أَنْ أُغْنِيَهُ بِشَعْرِهِ فِيَّ ، وَقَوْلِي لَهُ يَوْمَئِذٍ : حُبًّا وَكَرَامَةً وَعَزَازَةً لَوَجْهِكَ
الْجَمِيلِ . وتناولتُ الْعُودَ وجسسته بقلبي قبل يدي ، وضربتُ عليه كأني أضرب
لعبد الرحمن ، بيدٍ أرى فيها عقلًا يَحْتَالُ حِيلَةَ امْرَأَةٍ عَاشِقَةٍ . ثم اندفعتُ أغني
بشعر حبيبي :

إِنْ الَّتِي طَرَقَتْكَ بَيْنَ رِكَائِبٍ تَمْشِي بِمِزْهَرِهَا وَأَنْتَ حَرَامُ
لِتَصِيدَ قَلْبَكَ ، أَوْ جِزَاءَ مُودَّةٍ ابْنُ الرَفِيقِ لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامُ
بَاتَتْ تُعَلِّكُنَا وَتَحْسِبُ أَنَّنَا فِي ذَاكَ أَيقَاضُ ، وَنَحْنُ نِيَامُ
وَعُغْنِيتهُ وَاللَّهُ غِنَاءٌ وَالهَيَّةُ ذَاهِبَةُ الْعَقْلِ كَالسَّفَةِ الْبَالِ ، وَرَدَّدَتْهُ كَمَا رَدَّدَتْهُ
لعبد الرحمن ، وَأَنَا إِذْ ذَاكَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْمُورِدَةِ أَوَّلَ مَا تَتَفَتَّحُ . وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ

وأتبين لصوتي في مسمعيه صوتاً آخر . . . وقطعته ذلك التقطيع ، ومددته ذلك التمديد ، وصحت فيه صيحة قلبي ونفسي وجوارحي كلها كما غنيت عبد الرحمن لکيا أودى إلى قلبه المعنى الذى فى اللفظ والمعنى الذى فى النفس جميعاً ، ولکيا أسكره — وهو الزاهد العابد — سكر الخمر بشيء غير الخمر !

وما أفقت من هذه الغشية إلا حين قطعت الصوت ، فإذا الخليفة كأنما يسمع من قلبى لا من فمى وقد زلزلته الطرب ، وما خفى على أنه رجل قد ألم بشأن امرأة ، وخشيت أن أكون قد افتضحت عنده ؛ ولكن غلبته شهوته ، وكان جسداً بما فيه يريد جسداً لما فيه ، فمن ثم لم ينكر ولم يتغير .
واشترانى وصرت إليه ، فلما خلونا سألنى أن أغنى ، فلم أشعر إلا وأنا أغنيه
بشعر عبد الرحمن :

ألا قل لهذا القلب : هل أنت مبصر وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها يطير إليها قلبه حين تنظر
وأديته على ما كان يستحسنه عبد الرحمن ويطرب له ، إذ يسمع فيه همساً من بكائي ، ولهفة مما أجده ، وحسرة على أنه ينسكب فى قلبى وهو يصد عنى ويتحامانى ، وما غنيت : « وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر » إلا فى صوت تنوح به سلامة على نفسها وتندب وتنفجع !
فقال لى يزيد وقد فضحت نفسى عنده فضيحة مكشوفة : يا حبيبتى من قائل هذا الشعر ؟

قلت : أحدثك بالقصة يا أمير المؤمنين ؟

قال : حدثينى .

قلت : هو عبد الرحمن بن أبى عمّار الذى يلقبونه بالقس لعبادته ونسكه ، وهو فى المدينة يشبهه عطاء بن أبى رباح ، وكان صديقاً لمولاي سهيل ، فمر

بدارنا يوماً وأنا أغنى فوقف يسمع ، ودخل علينا «الأحوص» ^(١) ، فقال :
 ويحكمكم ؟ لكان الملائكة والله تتلو من أميرها بحلق سلامة ، فهذا عبد الرحمن
 القس قد شغل بما يسمع منها ، وهو واقف خارج الدار ، فتسارع مولاي فخرج
 إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمع مني ، فأبى ! فقال له : أما علمت أن عبد الله
 ابن جعفر ، وهو من هو في محله وبيته وعلمه قد مشى إلى جميلة أستاذة سلامة
 حين علم أنها آلت إليه ألا تغنى أحداً إلا في منزلها ؛ فجاءها فسمع منها ، وقد
 هيأت له مجلسها ، وجعلت على رءوس جواربها شعوراً مسدلة كالعناقيد ،
 وألبستهن أنواع الثياب المصبغة ، ووضعت فوق الشعور التيجان ، وزينت
 بأنواع الحلي ، وقامت هي على رأسه ، وقام الجوارى صقن بين يديه ، حتى أقسم
 عليها فجلست غير بعيد ، وأمرت الجوارى فجلسن ، ومع كل جارية عودها ؛ ثم
 ضربن جميعاً وغنت عليهن ، وغنى الجوارى على غنائها ، فقال عبد الله : ما ظننت
 أن مثل هذا يكون !

وأنا أقعدك في مكان تسمع من سلامة ولا تراها ، إن كنت عند نفسك
 بالمنزلة التي لم يبلغها عبد الله بن جعفر !

قالت سلامة : وكانت هذه والله يا أمير المؤمنين — رقيقة من رقي إبليس ؛
 فقال عبد الرحمن : أما هذا فنعم . ودخل الدار وجلس حيث يسمع ، ثم أمرني
 مولاي فخرجت إليه خروج القمر مشبواً من سحابة كانت تغطيه ؛ فأما هو
 فما رآني حتى علق بقلبه ، وسبح طويلاً طويلاً ؛ وأما أنا فما رأيته حتى
 رأيت الجنة والملائكة ، ومُت عن الدنيا وانتقلت إليه وحده . . .

قالت سلامة : وافتضحت مرة أخرى ، فتتحنح يزيد . . . فضحك

(١) هو الأحوال الشاعر المعروف .

وقلت : يا أمير المؤمنين ، أحدثك أم حسبك ؟ قال : حدثني ويحك ! فوالله لو كنت في الجنة كما أنت لأعدت قصة آدم مع واحدٍ واحدٍ من أهلها حتى يُطردوا جميعاً من حُسنها إلى حسنها ! فما فعل القس ويحك ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه يدعى القس قبل أن يهوانى .

فقال يزيد : وهل عجبٌ وقد فتنته أن يطرده « البطريق » ؟

قلت : بل العجبُ وقد فتنته أن يصير هو البطريق ... !

فضحك يزيد وقال : إيه ، ما أحسبُ الرجلَ إلا قد دُهِى منك بداهية ! فحدثني فقد رفعتُ الغيرة ؛ إني والله ما أرى هذا الرجلَ في أمره وأمرِك إلا كالفحل من الإبل ، قد ترك من الركوب والعمل ، ونعمَ وُسْنٌ للفحلة ، فندَّ يوماً ، فذهب على وجهه ، فأقحم في مفازة ، وأصاب مرتعاً فتوحش واستأسد ، وتبين عليه أثرُ وحشيته ، وأقبل إقبالَ الجنِّ من قوة ونشاطٍ وبأسٍ شديد ؛ فلما طال انفراده وتأبده عرّضت له في البرِّ ناقةٌ كانت قد نذت من عطنها ، وكانت فارهةً جسيمةً قد انتهت سمنًا ، وغطاها الشحمُ واللحم ، فراها البازلُ الصَّئولُ ، فهاجَ وصالَ وهدرَ ، يخبِطُ بيده ورجله ، ويسمعُ أجوفه دوىً من الغليان ، وإذا هي قد أَلقتُ نفسها بين يديه !

أما والله لو جعلَ الشيطانُ في يمينه رجلاً خلاً قوياً جميلاً ، وفي شماله امرأةً جميلةً عاشقةً تهواه ؛ ثم تَطَّيَ متدافعاً ومدَّ ذراعيه فابتعدا ؛ ثم تراجعَ متداعلاً وضمَّ ذراعيه فالتقيا ؛ لكان هذا شأنَ ما بينك وبين القس !

قلت : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ ما كان صاحبي في الرجال خلاً ولا خمرًا ، وما كان الفحلُ إلا الناقةُ ... ! وما أحسبُ الشيطانَ يعترف هذا الرجل ، وهل كان للشيطان عمل مع رجلٍ يقول : إني أعرف دائماً فكرتى ، وهى دائماً فكرتى لا تتغير . ذاك رجلُ أساسه كما يقول : « برهانُ ربِّه » ولقد تصنَّعتُ له

مرة يا أمير المؤمنين ، وتشكّلت وتخلّيت وتبرّجت ، وحدثتُ نفسي منه بكثير ،
وقلت إنه رجلٌ قد غبرَ شبابه في وجودٍ فارغٍ من المرأة ، ثم وجد المرأة في
وحدى . وغنّيته يا أمير المؤمنين غناء جوارحي كلّها ، وكنت له كأني حريرٌ
ناعم يتَرَجَرَجُ ويُنْشَرُ أمامه ويُطَوَى وجلستُ كالنائمة في فراشها وقد
خلا المجلسُ ، وكنتُ من كل ذلك بين يديه كالفاكهة الناضجة الحلوّة تقول لمن
يراها : « كلّني . . . ! »

قال يزيد : ويحك ويحك ! وبعد هذا ؟

قلت : بعد هذا يا أمير المؤمنين ، وهو يهواني الهوى البرّح ، ويعشّقي
العشق المضني — لم ير في جمالي وفتنتي واستسلامي إلا أن الشيطان قد جاء
يرشوه بالذهب . . . بالذهب الذي يتعامل به !

فضحك يزيد وقال : لا والله ، لقد عرّضَ الشيطانُ منك ذهبه ولؤلؤَه
وجواهره كلّها ، فكيف لعمري لم يُفلح ؛ وهو لو رشاني من هذا كلّه ب درهم
لوجد أمير المؤمنين شاهدَ زور . . . !

قلت : ولكني لم أياس يا أمير المؤمنين ، وقد أردتُ أن أظهرَ امرأة فلم
أفلح ، وعلمتُ أن أظهرَ شيطانةً فأنخذلتُ ، وجهدتُ أن يرى طبيعتي فلم يرني
إلا بغير طبيعة ، وكلما حاولتُ أن أنزل به عن سَكِينَتِهِ ووَقَارِهِ رأيتُ في عينيهِ
ما لا يتغير كنور النجم ، وكانت بعضُ نظراته والله كأنها عصا المؤدّب ، وكأنه
يرى في جمالي حقيقةً من العبادة ، ويرى في جسمي خرافة الصنم ، فهو مُقبل
على جميلة ، ولكنه مُنصرفٌ عن امرأة .

لم أياس على كل ذلك يا أمير المؤمنين ، فإن أوّلَ الحب يطلبُ آخرَه أبداً
إلى أن يموت . وكان يُكثِرُ من زيارتي ، بل كانت إلى الغدوة والروحة ، من
حبّه إياي وتعلقه بي ؛ فواعدته يوماً أن يجيء متى وارى الليلُ أهله لأغنيه :

«ألا قل لهذا القلب . . .» وكنتُ لِحَنَّتُهُ ولم يسمعه بعدُ . ولبثتُ نهارى كله
أَسْتَرُوحُ في الهواءِ رَاحِمةَ هذا الرجلِ مما أَتَلَهَفُ عليه ، وأَتَمَثَّلُ ظلامَ الليلِ كالطريقِ
الممتدِّ إلى شَيْءٍ مَحْبُوءٍ أَعْلَلَّ النَّفْسَ به . وبلغتُ ما أَقْدَرُ عليه في زينةِ نفسى
وإصلاحِ شأنى ، وتشكَّلتُ في صُوفٍ من الزهر ، وقلتُ لِأَجْمَلِهِنَّ وهى الوردَةُ
التي وضعتها بين نَهْدَيْ : يا أختى ، أَجْذِبِي عَيْنَهُ إِلَيْكَ ، حتى إذا وَقَفَ نظْرُهُ
عليكِ فانزلى به قليلاً أو اصعدى به قليلاً . . .

قال يزيد وهو كالحُموم : ثُمَّ ثُمَّ ثُمَّ ؟

قلت : يا أمير المؤمنين ، ثم جاء مع الليل ، وإنَّ المجلسَ خَالَ ما فيه غيرى
وغيره ، بما أَكْبَدُ منه وما يُعَانِي منى . فغَنَيْتُهُ أَحرَّ غناءً وأشجاءً ، وكان العاشقُ
فيه يَطْرَبُ لصوتى ، ثم يَطْرَبُ الزاهدُ فيه من أنه استطاع أن يَطْرَبَ ، كما
يَطِيشُ الطفلُ ساعةً يَمُطِّقُ من حبسِ المؤدَّبِ .

وما كان يسوءنى إلا أنه يُمارِسَ في الزهدِ مُمارَسَةً ، كأنما أنا صُعُوبَةٌ
إنسانيةٌ فهو يريد أن يغلبها ، وهو يُجَرِّبُ قُوَى نَفْسِهِ وطبيعته عليها ؛ أو كأنه
يرانى خيالَ امرأةٍ في مرآة ، لا امرأةً ماثلةً له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها ،
أو أنا عنده كالحورية من حُورِ الجنةِ في خيالٍ من هى ثوابه ، تكون معه ، وإنَّ
بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة ؛ فأَجْعَتُ أن أحطمَ المرآةَ ليرانى أنا
نفسى لا خيالى ، واستنجدتُ كلَّ فتنتى أن تجعله يفرُّ إلى كلما حاول أن
يفرَّ منى .

فلما ظننتنى ملأتُ عَيْنِيهِ وأذنيه ونَفْسَهُ وانصببتُ إليه من كل جوارحه ،
وهجَّتُ التَّيَّارَ الذى فى دمه ودفعته دُفْعًا — قلتُ له : «أنت يا خليلي شَيْءٌ
لا يُعرَفُ ، أنت شَيْءٌ مُتَلَفِّفٌ بِإنسان ، ومن انتى تعشق ثوبَ رجلٍ ليس فيه
لأبسه ؟ »

ورأيتَه والله يطوفُ عند ذلك بفكره ، كما أطوفُ أنا بفكري حول المعنى الذى أردتُه . فملتُ إليه وقلتُ ^(١) : « أنا والله أحبك ! »

فقال : « وأنا والله الذى لا إله إلا هو . . . »

قلت : « وأشتهى أن أعانقك وأقبلك ! »

قال : « وأنا والله ! »

قلت : « فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخالٍ ! »

قال : « يمنعنى قولُ الله عزَّ وجلَّ : « الأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » فأكره أن تحُولَ مودَّتى لكِ عداوةً يومَ القيامة » .

إنى أرى « برهانَ ربِّى » يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتكِ وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أحبيتُ الأنثى لوجدتُكِ فى كل أنثى ، ولكنى أحب ما فىكِ أنتِ بِخَاصَّتِكَ ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنتِ تعرفينه ، هو معنَاكِ يا سلامة لا شخصُكِ .

ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ، ما عاد بعد ذلك ، وترك لى ندامتى وكلامَ دموعه ! وليتنى لم أفعل ، ليتنى لم أفعل ، فقد رأى أن المرأة — فى بعض حالاتها — تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تلق حجابها بل أَلْقَتْ ثيابها

عمر الحفاني

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغاني — إلى قوله : (يوم القيامة) ؛ وهو كل الفصة فى كتابه .

قصة زواج

وفلسفة المهر

قال رسولُ عبد الملك : ويحك (يا أبا محمد) لَكُنْ دَمَكَ والله من عدوك ؛ فهو يفور بك لتلجَّ في العناد فتقتل ، وكأني بك والله بين سبعين قد فغرا عليك ؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك ، ما تقرُّ من حَتَفٍ إلا إلى حتف ، ولا ترحمك الأنيابُ إلا بمخاليها .

ههنا هشامُ بنُ اسماعيل عاملُ أمير المؤمنين ، إنْ دَخَلَتْهُ الرحمةُ لك استوثق منك في الحديد ، ورَمَى بك إلى دِمَشق ، وهناك أمير المؤمنين ، وما هو والله إلا أن يُطعمَ لحمَكَ السيفَ يَعْضُ بك عضَّ الحية في أنيابها السم ؛ وكأني بهذا الجنبِ مصروعاً المضجعه ، وبهذا الوجه مُضَرَّجاً بدمائه ، وبهذه اللحية مُعَفَّرَةً بترابها ، وبهذا الرأسُ مُحْتَرَّاً في يد (أبي الزُّعَيْرَةِ) جَلَّادِ أمير المؤمنين ، يلقى من سيفه رَمَى الغصن بالثمرة قد ثقلت عليه .

وأنت (ياسعيد) فقيهُ أهل المدينة وعالمها وزاهدُها ، وقد عَلِمَ أميرُ المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه : « لو رأى هذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لَسَرَّهُ » فإن لم تَكْرُمْ عليك نفسك فليَكْرُمْ على نفسك المساهون ؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفقه في جميع الأمصار إلى الموالى ؛ ففقيهُ مكةَ عطاء ، وفقيهه الين طاووس ، وفقيهه اليمامة يحيى بن أبي كثير ، وفقيهُ البصرة الحسن ، وفقيهه الكوفة إبراهيمُ النَّخَعِيُّ ، وفقيهُ الشام مكحول ، وفقيهه خراسان عطاء الخراساني . وإنما يتحدث الناسُ أن المدينة من دون الأمصارِ قد حرسها الله بفقيهها القرشيَّ

العربيّ (أبي محمد بن المُسيّب) كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد علم أهلُ الأرض أنك حَجَجْتَ تَيْفًا وثلاثين حَجَّةً ، وما فاتتكَ التكبيرَةُ الأولى في المسجد منذ أربعين سنة ، وما قمتَ إلا في موضعك من الصفِّ الأول ، فلم تنظر قطُّ إلى قفارجلٍ في الصلاة ؛ ولا وجد الشيطانُ ما يعرضُ لك من قبَلِه في صلاتك ولا قفَّارِجُل ؛ فاللهُ الله يا أبا محمد ، إني والله ما أغشك في النصيحة ؛ ولا أخدعك عن الرأى ، ولا أنظر لك إلا خيرَ ما أنظر لنفسى ؛ وإن عبد الملك ابنَ مروانَ مَنْ عَلِمْتَ ؛ رجلٌ قد عمَّ الناسَ ترغيبه وترهيبه ، فهو آخذك على ما تكره إن لم تأخذه أنت على ما يُحِبُّ ؛ وإنه والله يا أبا محمد ، ما طَلَبَ إليك أميرُ المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى ، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك ، رعايةً لمنزلتك عنده ، وإكباراً لحَقِّك عليه ؛ وما أرسلني أخطبُ إليك ابنتك لوليِّ عهده إلا وهو يبتذلُ نفسه إليك ابتداءً ليصلَ بك رَحْمَةً ، ويوثقَ أصْرَتَهُ ؛ وإن يكن الله قد أغناكَ أن تنتفع به وبمُلْكِهِ وَرِعاً وزهادة ، فما أحوجَ أهلَ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتفعوا بك عنده ، وأن يكونوا أَصْهارَ (الوليد) فيَسْتَدْفِعُوا شَرَّ ما به عنهم غيٌّ ، ويَجْتَلِبُوا خيراً ما بهم غيٌّ عنه ، ولستَ تدري ما يكون من مَصَادِرِ الأمور ومواردها . وإنك والله إن لَجَجْتَ في عنادك وأصْرَرْتَ أن تردّني إليه خائباً ، لَتَهَيِّجَنَّ قَرَمَ سيوفِ الشام إلى هذه اللحوم ولَحْمُكَ يومئذ من أطيبها ، ولأُميرِ المؤمنين تارتان : ابنٌ وشدة ؛ وأنا إليك رسولُ الأولى ، فلا تجعلني رسولَ الثانية ...

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكان الكلام لا يَخْلُصُ إلى نفسه إلا بعد أن تتساقطَ معانيه في الأرض ، هَيْبَةً منه وفرقاً من إقْدامها عليه ؛ وقد لان رسولُ عبد الملك في دَهائِهِ حتى ظن عند نفسه أنه سَاغَ من الرجل مَسَاغَ الماء

العذب في الخلق الظالمى ، واشتدَّ في وعيده حتى ما يشكُّ أنه قد سقاه ماءً حمياً فقطع أمعاءه ؛ والرجلُ في كل ذلك من فوقه كالسماء فوق الأرض ، لو تحوَّل الناس جميعاً كنَّاسين يُثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجعُ الغبار إلا عليهم ، وبقيت السماء ضاحكةً صافيةً تتلألُ .

وقلَّب الرسولُ نظره في وجه الشيخ ، فإذا هو ذو ليس فيه مَنى رغبة ولا رهبة ، كأن لم يجعل له الأرض ذهباً تحت قدميه في حالة ، ولم يملأ الجوَّ سيوفاً على رأسه في الحالة الأخرى ؛ وأيقن أنه من الشيخ العظيم كالصبي الغرَّ قد رأى الطائرَ في أعلى الشجرة فطمعَ فيه ، فجاء من تحتيها يناديه : أنِ انزلْ إلى حتى آخذَكَ وألعبَ بك . . .

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال :

يا هذا ، أمّا أنا فقد سمعتُ ، وأمّا أنت فقد رأيتَ ، وقد روينَا أن هذه الدنيا لا تعدِّل عند الله جناحَ بعوضة ، فانظر ما جئتني أنت به ، وقسه إلى هذه الدنيا كلها ، فكم — رحمك الله — تكون قد قسَّمت لي من جناح البعوضة .. ؟ ولقد دُعيتُ من قبلُ إلى تيفٍ وثلاثين ألفاً لآخذها ، فقلت : لا حاجة لي فيها ولا في بنى مروان ، حتى ألقى الله فيحكم بيني وبينهم . وهأنذا اليوم أدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها ؛ أفأقبضُ يدي عن حجرة ثم أمدها لأملأها جمرًا ؟ لا والله ما رغب عبدُ الملك لابنه في ابنتي ، ولكنه رجلٌ من سياسته إصاقلُ الحاجة بالناس ليجعلها مقاداةً لهم فيُصرفهمُ بها ؛ وقد أعجزه أن أبايعه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وما عبدُ الملك عندنا إلا باطل كابن الزبير ، ولا ابن الزبير إلا باطل كعبد الملك ، فانظر فإنك ما جئت لابنتي وابنه ، ولكن جئت تخطيني أنا لبيعته . . .

قال الرسول : أيها الشيخ ، دع عنك البيعة وحديثها ، ولكن مَنْ عسى

أن تجد لكريمتك خيراً من هذا الذي ساقه الله إليك ؟ إنك لراعٍ وإنها لرعيةٌ
وستُسأل عنها ، وما كان الظنُّ بك أن تُسَيءَ رِعِيَّتَهَا وتَبْخَسَ حَقَّهَا ، وأن تَعْضِلَهَا
وقد خطبها فارسُ بنُ مروان ، وإن لم يكن فارسهم فهو وليُّ عهد المسلمين ، وإن
لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليدُ بنُ أمير المؤمنين ؛ وأدنى الثلاثِ أرفعُ الشرفِ
فكيف بهنَّ جميعاً ، وهنَّ جميعاً في الوليد ؟

قال الشيخ : أمّا إني مسؤل عن ابنتي ، فما رغبتُ عن صاحبك إلا لأني
مسؤل عن ابنتي . وقد علمتَ أنت أن الله يسألني عنها في يومٍ لعلَّ أمير المؤمنين
وابنَ أمير المؤمنين وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراءَ عبيدِها وأوْباشِها ودُعَارِها
وفجَّارها ^(١) . يخرجون من حساب الفَجْرَةِ إلى حساب القَتَلَةِ ، ومن حساب
هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغصب ، إلى حساب أهل البغى ، إلى حساب
التفريط في حقوق المسلمين . ويخفُّ يومئذ عبيدُها وأوْباشُها ودُعَارُها وفجَّارُها
في زحام الحشر ، ويمشي أمير المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين ومن اتصل بهما ،
وعليهم أمثالُ الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد .

فهذا ما نظرتُ في حسن الرعاية لابنتي ، لو لم أضِنَّ بها على أمير المؤمنين
وابنِ أمير المؤمنين لأؤبقتُ نفسي . لا والله ما بيني وبينكم عمل ، وقد فرغتُ
مما على الأرض فلا يمرُّ السيفُ مني في اللحمِ حيَّ .

ولما كان غداةُ غدٍ جلس الشيخ في حلقته في مسجد رسول الله صلى الله عليه
عليه وسلم للحديث والتأويل ، فسأل رجلٌ من عُرْض المجلس ، فقال : يا أبا محمد ،
إن رجلاً يُلاحِظني في صداق ابنته ويكافئني مالا أطيق . فما أكثرُ ما بلغ إليه
صداقُ أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداقُ بناته ؟

(١) الضمير راجع إلى الدنيا

قال الشيخ: رَوَيْنَا أَنَّ عُمَرَ (رضي الله عنه) كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول: « ما تزوّج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا زوّج بناته بأكثر من أربعمائة درهم^(١) » ، ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمةً لسبق إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ورَوَيْنَا عَنْهُ (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: « خيرُ النساء أحسنهنَّ وجوهاً وأرخصهنَّ مهوراً . »

فصاح السائل: يرحمك الله يا أبا محمد ، كيف يأتي أن تكون المرأة الحسنة رخيصة المهر ، وحسنها هو يُغليها على الناس ؛ تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها ؟

قال الشيخ: انظر كيف قلت . أ هم يساومون في بهيمة لا تعقل ، وليس لها من أمرها شيء إلا أنها بضاعة من مطاعم صاحبها يُغليها على مطاعم الناس ؟ إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير النساء من كانت على جمال وجهها ، في أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالاً ثالثاً ؛ فهذه إن أصابت الرجل الكُفء ، يَسَّرَتْ عليه ، ثم يَسَّرَتْ ، ثم يَسَّرَتْ ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً يريد إنساناً ، لا متاعاً يطلب شارباً ، وهذه لا يكون رخص القيمة في مهرها ، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها ؛ أما الحقاء فجالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها ، أي لحُمقها ؟ وهي بهذا المعنى من شرار النساء ، وليست من خيارهن .

ولقد تزوج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعض نساؤه على عشرة دراهم وأثاث بيت ، وكان الأثاث: رحي يد ، وجرة ماء ، ووسادة من آدم حشوها ليف . وأولم على بعض نساؤه بمدّين من شعير ، وعلى أخرى بمدّين من تمر ومدّين من سويق . وما كان به (صلى الله عليه وسلم) الفقر ، ولكنه يشرع

(١) الدرهم : خمسة قروش .

بَسْتِهِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ مِنْ عَمَلِهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ لِلرَّجُلِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ ، لَا مَتَاعٌ لِشَارِيهِ ؛
وَالْمَتَاعُ يُقَوِّمُ بِمَا بُذِلَ فِيهِ إِنْ غَالِيًا وَإِنْ رَخِيصًا ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ يُقَوِّمُ عِنْدَ الْمَرْأَةِ بِمَا
يَكُونُ مِنْهُ ؛ فَهَرَهَا الصَّحِيحُ لَيْسَ هَذَا الَّذِي تَأْخُذُهُ قَبْلَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى دَارِهِ ، وَلَكِنَّهُ
الَّذِي تَجِدُهُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى دَارِهِ ؛ مَهْرُهَا مَعَامِلَتُهَا ، تَأْخُذُ مِنْهُ يَوْمًا فَيَوْمًا ،
فَلَا تَرَالُ بِذَلِكَ عَرُوسًا عَلَى نَفْسِ رَجُلِهَا مَا دَامَتْ فِي مَعَاشِرَتِهِ . أَمَّا ذَلِكَ الصَّدَاقُ
مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، فَهُوَ صَدَاقُ الْعُرُوسِ الدَّاخِلَةِ عَلَى الْجِسْمِ لَا عَلَى النَّفْسِ ؛ أَفَلَا
تَرَاهُ كَالْجِسْمِ يَهْلِكُ وَيَبْلَى ، أَفَلَا تَرَى هَذِهِ الْغَالِيَةَ — إِنْ لَمْ تَجِدِ النَّفْسَ فِي
رَجُلِهَا — قَدْ تَكُونُ عُرُوسَ الْيَوْمِ وَمُطَلَّقَةً الْغَدِ ؟ !

وَمَا الصَّدَاقُ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، إِلَّا كَالْإِيْمَاءِ إِلَى الرَّجُولَةِ وَقَدَرِهَا ، فَهُوَ إِيْمَاءٌ ،
وَلَكِنَّ الرَّجُلَ قَبْلُ . إِنْ كُلُّ امْرَأَةٍ يُسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ سَيْفًا ، وَالسَّيْفُ إِيْمَاءٌ إِلَى
الْقُوَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ذَوِي السَّيْفِ سَوَاءً ، وَقَدْ يَحْمِلُ الْجَبَانُ فِي كُلِّ يَدٍ سَيْفًا ،
وَيَمْلِكُ فِي دَارِهِ مِائَةَ سَيْفٍ ؛ فَهُوَ إِيْمَاءٌ ، وَلَكِنَّ الْبَطْلَ قَبْلُ ، وَلَكِنَّ الْبَطْلَ قَبْلُ .
مِائَةُ سَيْفٍ يَمُورُ بِهَا الْجَبَانُ قُوَّتَهُ الْخَائِبَةِ ، لَا تَغْنِي قُوَّتَهُ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهَا
كَالتَّنْدَلِيسِ عَلَى مَنْ كَانَ جَبَانًا مِثْلَهُ . وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْرُ الْغَالِي كَالْتَّنْدَلِيسِ
عَلَى النَّاسِ وَعَلَى الْمَرْأَةِ ، كَيْ لَا تَعْلَمَ وَلَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ ثَمَنُ خِيَّتِهَا ؛ فَلَوْ عَقَلَتْ
الْمَرْأَةُ لِبَاهَتِ النِّسَاءَ بِمُسَرِّ مَهْرِهَا ، فَإِنَّهَا بِذَلِكَ تَكُونُ قَدْ تَرَكْتَ عَقْلَهَا يَعْمَلُ عَمَلَهُ ،
وَكَفَّتْ حِمَاقَتَهَا أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْهِ .

فَصَاحَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، أَفَى هَذَا مِنْ دَلِيلٍ أَوْ أَثَرٍ ؟
قَالَ الشَّيْخُ : نَعَمْ ؛ أَمَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . » فَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تَجِدُهُ هُوَ لَا حِينَ تَجِدُ مَالَهُ ؛
وَهِيَ زَوْجُهُ حِينَ تُتَمِّمُهُ لَا حِينَ تَنْقُصُهُ ، وَحِينَ تَلَامُهُ لَا حِينَ تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ ؛ فَصَلَحَةُ
الْمَرْأَةِ زَوْجَةً مَا يَجْعَلُهَا مِنْ زَوْجِهَا ، فَيَكُونَانِ مَعًا كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ ، عَلَى مَا تَرَى

للعضو من جسمه ؛ يريد من جسمه الحياة لا غيرها .
 وأما من كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد روينا : « إذ أتاكم من
 ترَضُونَ دينَه وأمانته فزوَّجوه ؛ إلَّا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وفساد كبير . »
 فقد اشترط الدين ، على أن يكون مَرْضِيًّا لا أَىِّ الدين كان ؛ ثم اشترط
 الأمانة ، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته ؛ وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة
 أمينًا ، وعلى حقوقها أمينًا ، وفى معاملتها أمينًا ؛ فلا يبخسها ولا يعنتها ، ولا يسئ
 إليها ؛ لأن كل ذلك ثَلَمٌ فى أمانته ؛ فإن رَدَّتْ المرأة مَنْ هذه حاله وصفته من
 أجل المهر — تقدَّم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته ، ف وقعت الفتنة ،
 وفسدت المرأة بالرجل ، وفسد هوَ بهما ، وفسد النسلُ بهما جميعًا ، وأُهمِلَ من
 لا يملك ، وتعنَّست من لا تجد ، ويرجع المهرُ الذى هو سببُ الزواج سببًا فى
 منعه ، ويتقاربُ النساءُ والرجالُ على رغمِ المهرِ والدينِ والأمانة ؛ فيقع معنى
 الزواج ، ويبقى المعطلُ منه هو اللفظ والشرع .

هل علمت المرأة أنها لا تدخل بيتَ رجلها إلَّا لتجاهدَ فيه جهادها ، وتبلاوَ
 فيه بلاءها ؟ وهل يقوم مالُ الدنيا بحَقِّها فيما تعملُ وما تجاهد ، وهى أم الحياة
 ومُنشِئَتُها وحافظُها ؟ فأين يكون موضعُ المالِ ومكانُ التَّفَرُّقَةِ فى كثيره وقليله ،
 والمالُ كلُّه دون حقِّها ؟ .

ولن يتفاوتَ الناسُ بالمالِ تحتلف درجاتهم به ، وتكون مراتبهم على مقداره ،
 تكثُر به مرة وتقلُّ مرة — إلَّا إذا فسد الزمان ، وبطلت قضيةُ العقل ، وتعطلَّ
 مُوجبُ الشرع ، وأصبحت السَّجَايا تتحوَّل ، يملكها من يملكُ المال ، ويخسرُها
 من يخسرُه ؛ فيكون الدينُ على النفوس كاللَّخيلِ المزاحمِ لموضعه ، والمتدَلَّى فى
 غير حقه ؛ وبهذا يرجع باطلُ الغنى دينًا يتعاملُ الناسُ عليه ، ودينُ الفقير بهرَجًا
 لا يروجُ عند أحد ؛ وليس هذا من ديننا ، دينِ النفسِ والخلق ، وإنَّ أَلْفَ بعيرٍ

يَقْنُوها الرجلُ خالصةً عليه ، ثابتةً له ، لا تزيد في منزلة دينه قدر نملة ولا ما دونها .
والحجران : الذهبُ والفضة — قد يكون شعاعُهما في هذه الدنيا أضواءً من شمسها
وقمرها ، ولكنهما في نور النفس المؤمنة كخصاتين يأخذهما الرجلُ من تحت قدميه ،
ويذهب يزعم لك أنهما في قدرِ الشمس والقمر .

وهلاكُ الناس إنما يُقْضَى بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعبوبهم وذنوبهم ؛
فهذا هو الإنسانُ المذيرُ عن الله وعن نفسه وعن جنسه ؛ لا يكون أبوه أباً في
عطفه ، ولا أمه أمّاً في محبتها ، ولا ابنه ابناً في بره ، ولا زوجته زوجةً في وفائها ؛
وإنما يكونون له مَهَالِكٌ ، كما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي
على الناس زمانٌ يكون هلاكُ الرجل على يد زوجته وأبويه وولده ؛ يعيرونه
بالفقر ، ويكلفونه ما لا يطيق ؛ فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك . »

وصاح المؤذن ، فقطع الشيخُ مجلسه وقام إلى الصلاة ، ثم خرج إلى داره ،
فثلثته ابنته وعلى وجهها مثلُ نوره ، قالت : يا أبت ، كنت أتلو الساعة قوله تعالى :
« رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً . » فما حَسَنَةُ الدنيا ؟ قال : يا بُنَيَّةُ ،
هي التي تصلح أن تُذكرَ مع حَسَنَةِ الْآخِرَةِ ، وما أراها للرجل إلا الزوجةَ
الصالحةَ ، ولا للمرأة

وطُرق الباب ، فذهب الشيخ يفتح ، فإذا الطارق (عبد الله بن أبي وداعة) ؛
وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقته ، ولكنه فقد أهياًماً ؛ فدخل فجلس . قال
الشيخ : « أين كنت ؟ »

قال : « تَوَفَّيْتُ أَهْلِي فَاسْتَعْتَبْتُ بِهَا . »

قال الشيخ : « هالاً أخبرتنا فشهدناها . » ثم أخذ يُفَيِّضُ في الكلام عن
الدنيا والآخرة ؛ وشعر بن أبي وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس

الشيخ ، فأراد أن يقوم ؛ فقال (سعيد) :

« هل استحدثت امرأةً غيرها ؟ »

قال : « يرحمك الله ، أين نحن من الدنيا اليوم ، ومن يزوّجني وما أملك

إلا درهمين أو ثلاثة ؟ »

قال الشيخ : « أنا »

أنا ، أنا ، أنا ... دوى الجوّ بهذه الكلمة في أذن طالب العلم الفقير ، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً في تسبيح الله يطنُّ لحنه : « أنا ، أنا ، أنا ... »
وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين في وقت واحد ، وكأنها كلمة زوّجته إحدى الحور العين .

فلما أفاق من غشيّة أذنه ... قال : « وَتَفَعَّلَ ؟ »

قال (سعيد) : « نعم » وفسر (نعم) بأحسن تفسيرها وأبلغه ؛ فقال : قم فادعُ لى نفرّاً من الأنصار . فلما جاءوا حمد الله وصلى على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً) .

ثلاثة دراهم مهرُ الزوجة التي أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهباً لو شاءت .

وغشى الفرح هذه المرة عيني الرجل وأذنيه ، فإذا هو يسمعُ نشيدَ الملائكة يطنُّ لحنه : « أنا ، أنا ، أنا ... »

ولم يشعر أنه على الأرض ، فقام يطير ، وليس يدرى من فرحه ما يصنع ، وكأنه في يومٍ جاءه من غير هذه الدنيا يتعرّفُ إليها بهذا الصوت الذي لا يزال يطنُّ في أذنيه : « أنا ، أنا ، أنا ... »

وصار إلى منزله وجعل يفكر : مَن يأخذ ، مَن يستدين ؟ فظهرت له الأرضُ

خَلاءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ الَّذِي يَضْطَرِبُ صَوْتُهُ فِي أُذُنِيهِ :
« أَنَا ، أَنَا ، أَنَا ... »

وَصَلَّى الْمَغْرِبَ وَكَانَ صَائِماً ، ثُمَّ قَامَ فَأَسْرَجَ ، فَإِذَا سِرَاجُهُ انْخَفَتْ الضُّمَيْلُ
يَسْطَعُ لَعِينِيهِ سَطْوَعُ الْقَمَرِ ، وَكَأَنَّ فِي نُورِهِ وَجْهَ عُرُوسٍ تَقُولُ لَهُ : « أَنَا ، أَنَا ،
أَنَا ... »

وَقَدَّمَ عَشَاءَهُ لِيُفْطِرَ ، وَكَانَ خَبْزاً وَزَيْتاً ، فَإِذَا الْبَابُ يَقْرَعُ ؛ قَالَ : مَنْ هَذَا ؟
قَالَ الطَّارِقُ : سَعِيدٌ ...

سَعِيدٌ ؟ سَعِيدٌ ! مَنْ سَعِيدٌ ؟ أَهْوَ أَبُو عَثْمَانَ ؛ أَبُو عَلِيٍّ ؛ أَبُو الْحَسَنِ ؟ فَكَّرَ
الرَّجُلُ فِي كُلِّ مَنْ اسْمُهُ سَعِيدٌ إِلَّا سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ ؛ إِلَّا الَّذِي قَالَ لَهُ : « أَنَا ... »
لَمْ يَخَالِجْهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الطَّارِقُ ، فَإِنْ هَذَا الْإِمَامُ لَمْ يَطْرُقْ بَابَ أَحَدٍ قَطًّا ،
وَلَمْ يَرْ مِنْذَ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا بَيْنَ دَارِهِ وَالْمَسْجِدِ .

ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا بِهِ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، فَلَمْ تَأْخُذْهُ عَيْنُهُ حَتَّى رَجَعَ الْقَبْرِ
فَهَبَطَ حُجَّةَ بَظْلَامِهِ وَأَمْوَاتِهِ فِي قَلْبِ الْمَسْكِينِ ، وَظَنَّ أَنَّ الشَّيْخَ قَدْ بَدَأَ لَهُ ، فَندَمَ ،
فَجَاءَ لِلطَّلَاقِ قَبْلَ أَنْ يَشْمَعَ الْخَبَرَ ، وَيتَعَذَّرَ إِصْلَاحُ الْغَلْطَةِ ! فَقَالَ : « يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ،
لَوْ ... لَوْ ... لَوْ — لَوْ أُرْسِلْتَ إِلَى لَا تَبَيْتُكَ ! »

قَالَ الشَّيْخُ : « لَأَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تُؤْتَى . »

فَمَا صَكَّتِ السَّكْمَةُ سَمْعَ الْمَسْكِينِ حَتَّى أَبْلَسَ الْوُجُودُ فِي نَفْسِهِ ، وَغَشِيَ الدُّنْيَا
صَمْتٌ كَصَمْتِ الْمَوْتِ ، وَأَحْسَنَ كَأَنَّ الْقَبْرَ يَتَمَدَّدُ فِي قَلْبِهِ بِعُرُوقِ الْأَرْضِ كُلِّهَا !
ثُمَّ فَاءَ لِنَفْسِهِ ، وَقَدَّرَ أَنْ لَيْسَ مَحَلُّ شَيْخِهِ إِلَّا أَنْ يَأْمُرَ ، وَلَيْسَ مَحَلُّهُ هُوَ إِلَّا أَنْ يُطِيعَ ،
وَأَنَّ مِنَ الرَّجُولَةِ إِلَّا يَكُونَ مَعْرَةً عَلَى الرَّجُولَةِ ، ثُمَّ نَكَسَ وَتَنَكَّسَ ، وَقَالَ بِذِلَّةٍ
وَمُسْكَنَةٍ : « مَا تَأْمُرُنِي ؟ »

تَفْتَحَتِ السَّمَاءُ مَرَّةً ثَالِثَةً ، وَقَالَ الشَّيْخُ : « إِنَّكَ كُنْتَ رَجُلًا عِزْبًا ،

فنزوّجت ، فكرهتُ أن تبیت الليلةَ وحدك ؛ وهذه امرأتك !
 وانحرفَ شيئاً ، فإذا العروسُ قائمةٌ خلفه مستترّةً به ، ودفعها إلى الباب
 وسلمَ وانصرف .
 وانبعث الوجود فجأةً ، وطنٌ لحنُ الملائكة في أذن أبي وداعة : « أنا ،
 أنا ، أنا ... »

دخلت العروس البابَ وسقطت من الحياء ، فتركها الرجل مكانها ، واستوثق
 من بابه ، ثم خطا إلى القصعة التي فيها الخبزُ والزيت ، فوضعها في ظل السراج
 كي لا تراها ؛ وأغمض السراجَ عينه ونشر الظلّ ...
 ثم صعد إلى السطح ورمى الجيرانَ بِمُحْصِيَّاتٍ ؛ ليعلموا أن له شأنًا اعتراه ،
 وأن قد وجَبَ حقُّ الجارِ على الجار (وكانت هذه الحصيات يومئذ كأجراس
 التلفون اليوم) فجاءوه على سطوحهم وقالوا : « ما شأنك ؟ . »
 قال : « وَيَحْكُمُ ! زَوَّجَنِي سَعِيدُ بنِ المَسِيَّبِ ابنته اليوم ؛ وقد جاء بها الليلة
 على غفلة » .

قالوا : « وسعيد زوّجَكَ ! أهو سعيد الذي زوّجَكَ ! أزوّجَكَ سعيد ؟ »
 قال : « نعم »

قالوا : « وهي في الدار ؟ أتقول إنها في الدار ؟ . »
 قال : « نعم »

فأنشال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار . وغشيت الرجل
 غشيةٌ أخرى ، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان ، وكأأنما يسمعهما
 تقول : « أنا ، أنا ، أنا ... »

قال عبد الله بن أبي وداعة : « ثم دخلتُ بها ، فإذا هي من أجل الناس

وَأَحْفَظَهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَعْلَمَهُمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَأَعَرَفَهُمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ . لَقَدْ كَانَتْ الْمِسْئَلَةُ الْمَعْضِلَةَ تُعْيِي الْفُقَهَاءَ فَأَسْأَلُهَا عَنْهَا فَأَجِدُ
عِنْدَهَا مِنْهَا عِلْمًا . »

قال : « ومكثت شهرًا لا يأتيني سعيد ولا آتية ، فلما كان بعد الشهر أتيته
وهو في حلقة فسلمتُ ، فردَّ عليَّ السلام ، ولم يكلمني حتى تفرَّق الناس من المجلس
وخلا وجهه ، فنظر إليَّ وقال :
« ما حالُ ذلك الإنسان ؟ . »

أما ذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر وليِّ العهد ابن أمير المؤمنين ،
وبين حجرة ابن أبي وداعة التي تُسمَّى دارًا . . . ! إلا أن هناك مضاعفةً لهم ،
وهنا مضاعفة الحب .

وما بين (هناك) إلى القبر مدة الحياة — ستخفُّ الروحُ من نورٍ بعد نورٍ ،
إلى أن تنطفئ في السماء من فضائلها .

وما بين (هنا) إلى القبر مدة الحياة — تسطع الروح بنور على نور ، إلى
أن تشتعل في السماء بفضائلها .

وما عند أمير المؤمنين لا يبق ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

ولم يزل عبد الملك يَحْتال (لسعيد) وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حتى وقعت به المِحْنةُ ،
فضر به عامله على المدينة خمسين سوطًا في يوم بارد ، وصبَّ عليه جرَّة ماء ،
وعرضه على السيف ، وظاف به الأسواق عاريًا في تَبَّانٍ ^(١) من الشعر ، ومنع
الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه . وبهذه الوقاحة ، وبهذه الرذيلة ، وبهذه المخزاة ،
قال عبد الملك بن مروان : « أنا ؟ »

(١) التبان : ما يسمى اليوم (المايو) أو لباس البحر . ذكره الجاحظ وقال : هو
سراويل قصير يلبسه الملاحون .

ذيل القصة

وفلسفة المال

ذهب الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيّب وتزويجه ابنته من طالب علم فقير ، بعد إذ ضنّ بها أن تكون زوجاً لولى عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريّات المتعلّقات تصيح وتُؤلّولُ وحديثنا أديبٌ ظريفٌ أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان !

أفترّاها ستكتبُ إليه أنها تقبل الزواج من ولى عهده ؟

على أن للقصة ذيلًا ، فإن الطبيعةَ الآدميةَ لا عصر لها ، بل هى طبيعةٌ كل عصر ؛ والفضيلةُ الإنسانيةُ يبدأ تاريخُها من الجنة ، فهى هى لا تتجدد ولا تزالُ تلوح وتختفى ؛ أما الرذيلةُ فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسها ، فهى هى لا تتغير ولا تزالُ تظهر وتستسر .

لما زوج الإمام ابنته من ابن أبى وداعة ، وأخذها بنفسه إليه فى يوم زوّجها منه ، ومشى بها فى طريقٍ حصاه عنده أفضلُ من الدرّ ، وترأبه أكرمُ من الذهب — طارت الحادثةُ فى الناس ، واستفّاضَ لهم قولُ كثير ؛ « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . » وقد قال جماعةٌ منهم : تالله لئن انقطع الوحيُ ، إن فى معانيه بقيّة ما تزال تنزلُ على بعض القلوب التى تشبه فى عظمتها قلوبَ الأنبياء ؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا فى معنى سُورةٍ من السُور قد

انْشَقَّتْ لَهَا السَّمَاءُ ، وَنَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ يُحَقِّقُ عَلَى أَفْعَدَةِ الْمُؤْمِنِينَ خَفَقَةَ إِيْمَانٍ .
 « وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ . » وَقَالَ أَنَسٌ
 مِنْهُمْ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ تَهَيَّأَ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ لَهَا يَسْرِقُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ ابْنُ أَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ، لَرَكِبَ رَأْسَهُ فِي ذَلِكَ ، مَا يَرُدُّهُ عَنِ السَّرِقَةِ شَيْءٌ ؛ فَكَيْفَ بَيْنَ تَهَيُّأِ لَهُ
 الصَّهْرُ وَالْحَسَبُ ، وَجَاءَهُ الْغِنَى يَطْرُقُ بَابَهُ — مَا بِالْهِ يَرُدُّ كُلَّ ذَلِكَ وَيُخْزِي
 ابْنَتَهُ بِرَجُلٍ فَقِيرٍ تَعِيشُ فِي دَارِهِ بِأَسْوَأِ حَالٍ ؛ وَكَيْفَ تَثْقُلُ هِمَّتُهُ وَتَبْطُؤُ وَتَمُوتُ ،
 إِذَا كَانَ الدَّرُّ وَالْجَوْهَرُ وَالذَّهَبُ وَالْخِلَافَةُ ؛ ثُمَّ يَنْبَعَثُ وَيَمُضِي لَا يَتْلَسَّكَ عِزُّهُ ،
 إِذَا كَانَ الْعِلْمُ وَالْفَقْرُ وَالِدِينَ وَالتَّقْوَى ؟

وَاتَّهَى كَلَامُ النَّاسِ إِلَى الْإِمَامِ الْعَظِيمِ ، فَلَمْ يَجْهَرْهُ إِلَّا مِنَ الظَّنِّ خَفِيًّا خَفِيًّا ،
 كَأَنَّمَا هِيَ أَقْوَالٌ حَسِبَهَا تَقَالُ عَنْهُ بَعْدَ خَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ وَأَلْفِ سَنَةٍ (فِي زَمَنِنَا هَذَا)
 حِينَ يَكُونُ هُوَ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ ، وَيَكُونُ الْقَائِلُونَ فِي مَعَانِي التُّرَابِ النَّجَسِ الَّذِي
 نَفَضَتْهُ عَلَى الشَّرْقِ نَعَالُ الْأَوْرَبِيِّينَ !...

قَالَ الرَّاوِي : وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُوَاجِهَ الْإِمَامَ بِشَفَافَةٍ أَوْ بِنَتْ
 شَفَةِ ، لَا مُضَيِّقًا عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِهِ وَلَا مُوسِعًا ، حَتَّى كَانَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ ، وَقَدْ
 مَالَ النَّاسُ بَعْدَ الصَّلَاةِ إِلَى حُلُقَةِ الشَّيْخِ ، وَتَقَصَّفُوا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَغَصَّ بِهِمْ
 الْمَسْجِدُ ، وَكَانَ إِمَامُنَا يَفْسِّرُ قَوْلَهُ تَعَالَى : « وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ
 هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا . وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . »
 قَالَ الرَّاوِي : فَكَانَ فِيمَا قَالَهُ الشَّيْخُ :

إِذَا هُدِيَ الْمَرْءُ سَبِيلَهُ كَانَتْ السُّبُلُ الْأُخْرَى فِي الْحَيَاةِ إِمَامًا عِدَاءً لَهُ ، وَإِمَا
 مَعَارَضَةً ، وَإِمَارِدًا ؛ فَهُوَ مِنْهَا فِي الْأَذَى ، أَوْ فِي مَعْنَى الْأَذَى ، أَوْ عُرْضَةً
 لِلْأَذَى . لَقَدْ وَجَدَ الطَّرِيقَ وَلَكِنَّهُ أَصَابَ الْعُقَبَاتِ أَيْضًا ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَا يَمُضِي
 فِيهَا الْمَوْقِفُ إِلَى غَايَتِهِ ، إِلَّا إِذَا أَعَانَهُ اللَّهُ بِطَبِيعَتَيْنِ : أُولَاهُمَا الْعِزُّ الثَّابِتُ ، وَهَذَا هُوَ

التوكلُ على الله ؛ والأخرى اليقينُ المستبصر ، وهذا هو الصبرُ على الأذى .
ومتى عزم الإنسانُ ذلك العزمَ ، وأيقن ذلك اليقينَ — تحولتِ العقباتُ
التي تصدّه عن غايته ، فآل معناها أن تكون زيادةً في عزمه و يقينه ، بعد أن
وُضِعَ لِيَكُنَّ نقصاً منهما ؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تُعين على
الغاية . وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحَه على الطريق ، فما بُدُّ أن يَغْلِبَ على الطريق
وما فيها . ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً — على سَعَتِها وتَنَاقُضِها —
إلا سبيلَه وما حَوْلَ سبيلِه ، فهو ماضٍ قَدْماً لا يترأدُّ ولا يفتُرُّ ولا يكلُّ ، وهذه
حقيقةُ العزم وحقيقةُ الصبر جميعاً .

ومن ثَمَّ لا تكون الحياةُ لهذا المؤمن مهما تقلّبت واختلفت — إلا نَفَاقاً
من طريق واحدة دون التَّخَبُّطِ في الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمرُ مهما
طال إلا مَدَّةَ صبرٍ في رأى المؤمن .

وعزيمةُ النفاذِ وعزيمةُ الصبر ، هما الضوء الروحاني القوي ، الذي يكتسح
ظلماتِ النفس ، مما يسميه الناس خولاً ودَعَةً وتهاوناً وغفلةً وضجراً ونحوها .

قال : ولكن كيف يُعَانِ المؤمنُ على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين
إِعْجَازُ الآيةِ الكريمة ؛ فقد ذُكِرَ فيها التوكلُ ثلاث مرات ، وافتُتِحَتْ به
وُحِّمَتْ ؛ والتوكلُ هو العزمُ الثابت كما أوضحنا . وذُكِرَتْ في الآية بين ذلك
هدايةُ المرءِ سبيلَه ؛ وهذه الإضافة (سُبُلَنَا) تُعَيِّنُ أنها هدايةُ الإنسانِ إلى سبيلِ
نفسه ؛ أي سبيلِه الباطني الذي هو مَنَاطُ سعادته في الشعور بالسعادة^(١) . ثم
ذُكِرَ الصبرُ على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا في حيوانية الإنسان ، ولا
يؤثر إلا فيها . فكان الآية مُصَرِّحةً أن نجاح المؤمن ونَفَاقَه في الحياة لا يكونان
أولَ الأشياءِ وآخرها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم

(١) سيأتى في كلام الإمام بسط لهذا المعنى .

الثابت . وأن الصبر ليس شيئاً يُذكر ، أو شيئاً يُجدي ، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية في أفزع وحشيتها ؛ فالروح لا تؤذي الروح ، ولكن الحيوان يؤذي الحيوان . وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداءً من غيرك ، ويسمى أذى لك ، هو شيء ينبغي أن يجعله العزم فخرًا لقوة الاحتمال فيك ، كما جعله البطش فخرًا للقدرة عند المعتدى .

وبهذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيواني ، وَوَهَبَكَ حَقِيقَةَ الشعور ، وَصَحَّ بِمَعَانِي رُوحِيَّتِكَ مَعَانِي حَيَوَانِيَّتِكَ ؛ وَحِينَئِذٍ تَرَى السَّعَادَةَ حَقَّ السَّعَادَةِ مَا كَانَ هِدَايَةً لِنَفْسِكَ أَوْ هِدَايَةً بِهَا ، وَلَوْ انْقَلَبَ فِي الشَّخْصِ الْحَيَوَانِيِّ مِنْكَ أَذًى وَأَلَمًا . ذَلِكَ صَبْرٌ أَوَّلَى الْعَزْمِ مِنَ الرِّسْلِ .

قال الراوى : وعند ذلك صاح رجل كان في المجلس دَسَّه عاملُ الخليفة ، لِيَسْأَلَ الشَّيْخَ سُؤْلاً عَلَى مَلَأِ النَّاسِ ، يَكُونُ كَالْتَشْنِيعِ عَلَيْهِ وَالتَّشْهِيرِ بِهِ ؛ وَقَدْ مَكَرَ الْعَامِلُ فَاخْتَارَهُ شَيْخًا كَبِيرًا أَعْقَفَ ، لِيَرْحَمَ النَّاسُ رِقَّةَ عَظْمِهِ وَكِبَرِ سَنِّهِ فَلَا يَعْضُونَ لَهُ بِأَذًى ، ثُمَّ لِيَكُونَ صَوْتُهُ كَأَنَّهُ صَوْتُ الدَّهْرِ مِنْ بَعِيدٍ . قَالَ الصَّائِحُ : ذَلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ صَبْرٌ أَوَّلَى الْعَزْمِ مِنَ الرِّسْلِ ، أَوْ صَبْرٌ ابْتِكَ عَلَى مَكَارِهِ الْعَيْشِ مَعَ ابْنِ أَبِي وَدَاعَةَ ، لَا يَجِدُ إِلَّا رُمَقَةً يُمْسِكُ بِهَا الرَّمَقَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ كَانَتْ النِّعْمَةُ لَهَا مُعْرِضَةٌ ، فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهِ — زَعَمَتْ — لَتَمْلِكَ بِهِ شَخْصَهَا الْحَيَوَانِيَّةَ ، وَتَوَكَّلْتَ عَلَى اللَّهِ وَأَلْقَيْتَ ابْتِكَ فِي الْيَمِّ ... ؟

فَتَرَبَّدَ وَجْهُ الشَّيْخِ وَأَطْرَقَ هُنَيَّاتٌ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيْنَ الْمُتَكَلِّمُ آتِفًا ؟ فَارْتَفَعَ الصَّوْتُ : هَآنَذَا . قَالَ : اذْنُ مِنِّي . فَتَقَاعَسَ الرَّجُلُ كَأَنَّمَا تَهَيَّبَ مَا فَرَطَ مِنْهُ . فَاسْتَدْنَاهُ الثَّانِيَّةَ ؛ فَقَامَ يَتَخَطَّى النَّاسَ حَتَّى وَقَفَ بِإِزَائِهِ ثُمَّ جَلَسَ ؛ فَقَرَأَ الشَّيْخُ قَوْلَهُ تَعَالَى . « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا

لَكُمْ تَبَعًا ، فهل أتمُّ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قالوا : لو هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ ، سواءَ عَلَيْنَا أَجْزَعُنَا أَمْ صَبَرْنَا ، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ! »

ثم قال : أيها الرجل ، لا تَسْمَعْنِي بِأُذُنِكَ وَحدها . أَرَأَيْتَكَ ^(١) لو سَمِعْتَ خَبْرًا لَيْسَ فِي نَفْسِكَ أَصْلٌ مِنْ مَعْنَاهُ ، أَوْ وَرَدَ عَلَيْكَ الْخَبْرُ وَنَفْسُكَ عَنْهُ فِي شُغْلٍ قَدْ أَهْمَهَا ؛ أَفَكُنْتَ تَنْشِطُ لَهُ نَشَاطَكَ لِلْخَبَرِ احْتَفَلْتَ لَهُ نَفْسُكَ أَوْ أَصَابَ هَوًى مِنْكَ أَوْ رَأَيْتَهُ مَوْضِعَ اعْتِبَارٍ ؟
قال : لا .

قال الشيخ : فَإِذَا سَمِعْتَ بِأُذُنِكَ وَحدها فَإِنَّمَا سَمِعْتَ كَلَامًا يَمُرُّ بِأُذُنِكَ مَرًّا ، وَإِذَا أُرِدْتَ الْكَلَامَ لِنَفْسِكَ سَمِعْتَ بِأُذُنِكَ وَنَفْسِكَ مَعًا ؟
قال : نعم .

قال الشيخ : فَكُلُّ مَا لَا تَنْفَرِدُ بِهِ حَاسَةً وَاحِدَةً ، بَلْ تَشَارِكُ فِيهِ الْحَوَاسُ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا — لَا يَكُونُ إِلَّا مَوْضِعَ اهْتِمَامٍ لِلنَفْسِ ؟
قال : نعم .

قال الشيخ : فَمِنْ هُنَا يَكْثُرُ الْفَرْحُ وَالْحُزْنُ كَلَامًا إِذَا شَارَكَتَ فِيهِمَا الْحَوَاسُ ، فَيَأْتِي كُلُّ مِنْهُمَا كَثِيرًا مَهْمًا قَلًّا ، وَتَزِيدُ كُلُّ حَاسَّةٍ فِي اللَّذَّةِ لَذَّةً وَفِي الْأَلَمِ أَلَمًا ، فَتَعْمَلُ النَّفْسُ فِي ذَلِكَ أَعْمَالًا تَسْجُرُ بِهَا ، فَيَكُونُ الشَّيْءُ لِصَاحِبِهِ غَيْرَ مَا هُوَ لِلنَّاسِ ، كَالصَّوْتِ الْبَاكِي أَوْ الضَّاحِكِ فِي لِسَانِ طِفْلِكَ ، تَسْمَعُهُ أَنْتَ مِنْهُ بِكُلِّ حَوَاسِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ سَمِعْتَ الصَّوْتَ عَيْنُهُ مِنْ لِسَانِ رَجُلٍ فِي النَّاسِ رَأَيْتَهُ غَيْرَ ذَلِكَ . أَكْذَلِكَ هُوَ ؟
قال : نعم .

(١) أَرَأَيْتَكَ : بِمَعْنَى أَخْبَرْنِي ، تَبْقَى تَأْوُهُ عَلَى حَالِهَا فِي الْأَفْرَادِ وَالتَّنْثِيَةِ وَالْجَمْعِ وَيَسْلُطُ التَّغْيِيرُ عَلَى الْكَافِ : أَرَأَيْتَكَ أَرَأَيْتَكُمَا ، أَرَأَيْتُمْ الْخ .

قال الشيخ : أفيكون السرور بالغاً عجباً أكثر ما هو بالغ ، حين يجد المال والغنى في الإنسان ، أم حين يجد القوة النفسية وطبيعة المرح والرضى ؟
قال : بل حين يجد في النفس . . .

قال الشيخ : أرأيت الإنسان يكون سعيداً بما يتوهم الناس أنه به غنى سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بعد فيما لا يتوهم الناس فيه الغنى والسعادة ؟
قال : بل بشعوره .

قال الشيخ : أفلا توجد في الدنيا أشياء من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع ؛ كالطفل عند أمه ، كل ما تعلق به من شيء وُزن به هو لا بغيره ، وكان الاعتبار عليه لا على سواه ، أتعرف أمّا ترضى أن يُذبح ابنها في حجرها لقاء أن يُملأ حجرها ذهباً وإن كانت فقيرة مُعْدِمة ؟
قال : لا .

قال الشيخ : فإذا كانت النفس تشعر أكثر مما ترى ؛ أفيزهد ما تراه فيما تشعر به ، ويكون شعورها هو وحده الذي يلبس ما حولها ويصوره ويصرفه ؟
قال : نعم .

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفس قوة من هذا العالم الذي نعيش فيه عالماً آخر هو عالم أفكارها ، وإحساسها ، وفيه وحده لذات إحساسها وأفكارها ؟
قال : نعم .

قال الشيخ : أفأريت المرأة إذا صحّ حبها أو فرحها أو عزمها ، أرأيتها تكون إلا في عالم أفكارها ؟ أرأيت كل ما يتصل برغبتها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا ؟ أرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط ؟
قال : نعم هو ذاك .

قال الشيخ : أرأيت إذا كان الإيمان قد وُلِدَ ونشأ وترعرعَ في قلب المرأة ،
ألا يكون هو طفلَ قلبها ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الخمرُ عند مُدْمِنِها شيئاً عظيماً ، وكانت ضرورةً
من ضرورات وجوده الضعيفِ المختلِّ ، فلا يستقيم وجوده ولا سَفَهَ وجوده
إلاَّ بها ؛ أفيلزمُ من ذلك أن تكون الخمرُ من ضرورات صاحبِ الوجود
القوى المنتظم ؟

قال : لا .

قال الشيخ : أفموقنٌ أنت أن لا بدَّ من آخرٍ لأيام الإنسان ولياليه في هذه
الدنيا فينقطعُ به العيش ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : أفَيُورَّخُ الإنسانُ يومئذ بتاريخ معدته وما حولها ، أم بتاريخ
نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه .

قال الشيخ : فإذا كنتَ صاحبَ حَرْبٍ ، وكنتَ بطلاً من الأبطال ،
ومُسْعِراً من المساعير ، وأيقنتَ الموتَ في المعركة ؛ أليكونُ الحقيقُ عندك في
هذه الساعة هو الموتُ أم الحياة ؟

قال : بل الحياةُ عندئذ وهمٌّ وباطل .

قال الشيخ : فتَفَرِّقْ في تلك الساعة إلى الحياة ولذاتها في خيالك ، أم تفرِّقْ
منها ومن لذاتها ؟

قال : بل الفراقُ منها ، فإن خيالها يكون خَبالاً .

قال الشيخ : ففي تلك الساعة التي هي عُمرُ نفسك ، وعَمَلُ نفسك ، ورجاءُ

نفسك ؛ تستشعر اللذة في موتك بطلاً مذكوراً ، أم تحسّ الكربَ والمُتَّ من ذلك ؟

قال : بل أستشعرُ اللذة .

قال الشيخ : إذن فهي كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أيّ أشكالها ولو في الذهب .

قال : هي تلك .

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا ، أو الأشياء الكثيرة من الدنيا .

قال : نعم .

قال الإمام : يرحمك الله ؛ كذلك مُحَيَّ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحَيَّ المالُ والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة ؛ ومن رحمة الله أن كلَّ مَنْ هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمة ، استطاع أن يصنَعَ بنفسه لنفسه سعادتها في الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لُقيمَات ؛ فإن السَّعةُ سعةُ الخلق لا المال ، وإن الفقرَ فقرُ الخلق لا العيش .

قال الراوى : ثم إن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال : أما إني — عَلمَ الله — ما زوّجتُ ابنتي رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً ، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة ، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة . وقد أيقنتُ حين زوّجتها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلة نفسه ، فيتجاسسُ الطبعُ والطبع ؛ ولا مَهناً لرجل وامرأة إلا أن يُجاسِسَ طبعُهُ طبعَهَا ، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه الجانسة ، وأنها لا تكون إلا هدية قلب لقلب ياتلفان ويتحابَّان .

ثم قال الإمام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ^(١) ورأيتُهن في دُورهن يُقاسين الحياة ، ويُعانين من الرزق ما شَحَّ دَرُّهُ فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة ، وهنَّ على ذلك ، ما واحدةٌ منهن إلا هي مِلْكَةٌ من مِلِكات الأدمية كلها ، وما قَرُهنَّ والله إلا كبرياء الجنة نظرتُ إلى الأرض فقالت : لا . . . ! ^(٢)

يجاهدنَّ مجاهدةً كل شريفٍ عظيم النفس ، هُمَّه أن يكونَ الشرفُ أو لا يكونَ شيء ؛ ويرى الغافلُ أن مثلهن هالكاتٌ في تعب الجهاد ، ويعلمنَّ من أنفسهن غيرَ ما يرى ذلك المسكين — يعلمنَّ أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها .

كانت أنوثتهنَّ أبداً صاعدةً مُتَساميةً فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ، ولا تزال متساميةً صاعدةً ، على حين تنزل المطامعُ بأنوثه المرأة دون موضعها ، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيت المرأة تطمع ؛ ورُبَّ ملكةٍ جعلتها مطامعُ الحياة في الدَرَك الأسفل ، وهي باسمها في الوهم الأعلى . . . !

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطَّلَعْتُ في الجنة فإذا أقلُّ أهلها النساء ، فقلت أين النساء ؟ قال : شَغَلْنَّ الأحمران : الذهب والزعفران ^(٣) » أي الطمعُ في الغنى والعملُ له ، والميلُ إلى التبرج والحرصُ عليه .

(١) توفي سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقي جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل ، وعنه أكثر روايته .

(٢) انظر مقالة : (درس من النبوة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

(٣) هذان هما فتنة النساء في كل دهر ، وهذا الحديث من المعجزات ، فالذهب كناية عن المال والحلى وما كان من باههما ، أما الزعفران ففيها المعجزة ، لأنها كناية مطلقة فهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة ، وفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء ، من المساحيق والعمُور ، إلى (المودة) التي هي أصباغ معنوية لأشكال الثياب . وقد كان العرب يقولون : غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها . ويقولون من ذلك : امرأة مغمرة ، وتغمرت ، أي فعلت ذلك . (فالزعفران) كما ترى ، كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة ، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية . . .

ونفسُ الأنثى ليست أنثى ، ولكن شغلها بذلك التبرجِ وذلك الحرصِ
وذلك الطمعِ — هو يُخصِّصها بخصائص الجسد ، ويُعطيها من حكمه ، ويُنزِّلها
على إرادته ؛ وهذه هي المزلَّة ، قهبط المرأة أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما
تقوى ، وتفسد أكثر مما تصلح . إن نفسَ الأنثى أنثى لرجل واحد ،
لزوجها وحده .

رأيتُ أزواجَ النبي (صلى الله عليه وسلم) فقيراتٍ مَقْتُوراً عليهن الرِّزْق ، غير
أن كلاًّ منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمنِ القوي ، في دار صغيرة فرشتها الأرض ...
ولكنها من معاني ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران .
إنهن لم يتبعدن عن الغنى إلا ليمعذن عن حماة الدنيا التي لا تكون إلا في الغنى .

أفٍّ أفٍّ ! أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيها الله على
يديّ ، وأدفعها إلى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كلَّ أقدار النفس ودَسِ
الأيام والليالي ؛ أُوَزَّوجها رجلاً تعرفُ من فضيلة نفسها سقوطَ نفسه ، فتكونُ
زوجةً جسمه ومطلقةً روحه في وقتٍ معاً ؟

ألا كم من قصر هو في معناه مقبرةٌ ، ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهم
ونسائهم إلا جيفٌ يُبلى بعضها بعضاً !

قال الراوي : وضجَّ الناس لحمامةٍ صغيرة قد جَنَحَتْ من الهواء ، فوقعت في
حِجر الشيخ لائنةً به من تخافة ، وجعلت تدفُّ بجناحيها وتضطرب من الفزع ،
ومرَّ الصقرُ على أثرها وقد أهوى لها ، غير أنه تَمَطَّرَ ومَرَّقَ في الهواء إذ رأى
الناس ...

وتناولها الإمامُ في يده وهي في رجفتها من زلزلة الهواء ، وكانت كالعروس

مُسْرُوْلَةً قَدْ غَابَتْ سَاقَاهَا فِي الرِّيشِ ، وَعَلَى جَسْمِهَا مِنَ الْأَلْوَانِ نَمْمَةٌ وَتَحْمِيرٌ ،
وَلَهَا رُوحُ الْعُرُوسِ الشَّابَةِ يَهْدُونَهَا إِلَى مَنْ تَسْكُرُهُ ، وَيَزْفُونَهَا عَلَى قَاتِلِهَا الَّذِي
يُسَمَّى زَوْجَهَا .

وَأَدْنَاهَا الشَّيْخُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَمَسَحَ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَنَظَرَ فِي الْهَوَاءِ نَظْرَةً ...
وَهُوَ يَقُولُ : نَجَوْتُ نَجَوْتُ يَا مَسْكِينَةَ !

زوجة إمام

جَلَسَ جَمَاعَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ ، يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ شَيْخِهِمُ
الْإِمَامِ « أَبِي مُحَمَّدٍ سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ » ^(١) لِيَسْمَعُوا مِنْهُ الْحَدِيثَ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ؛
فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ : هَلُمُّوا نَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّيْخِ فَنَكُونُ مَعَهُ وَلَيْسَ مَعَنَا ، فَقَالَ
أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ : إِلَى أَنْ يَكُونَ مَعَنَا وَلَسْنَا مَعَهُ . ! فَخْطَرَتْ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً
تَهْتَرِجُ عَلَى أَفْوَاهِ الْجَمَاعَةِ ، لَمْ تَبْلُغِ الضَّحْكَ ، وَمَرَّتْ لَمْ تَسْمَعْ ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَرْ ، وَانْطَلَقَتْ
مِنَ الْمَبَاحِ الْمَعْفُوِّ عَنْهُ . وَلَكِنْ أَكْبَرَهَا أَبُو عَتَّابٍ مَنصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ . فَقَالَ :
وَيْلَاكَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ! أَتَتَنَدَّرُ بِالشَّيْخِ وَهُوَ مِنْذُ السِّتِينَ سَنَةً لَمْ تَفْتَهُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى
فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، وَعَلَى أَنَّهُ مُحَدِّثُ الْكُوفَةِ وَعَالِمُهَا ، وَأَقْرَأُ النَّاسِ لِكِتَابِ اللَّهِ ،
وَأَعْلَمُهُمْ بِالْفَرَائِضِ ، وَمَا عَرَفَتِ الْكُوفَةُ أَعْبَدَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهَ فِي الْعِبَادَةِ ؟

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ ^(٢) : أَنْتَ يَا أَبَا عَتَّابٍ ، رَجُلٌ وَحْدَكَ ، تُؤَصِّلُ الصَّوْمَ
مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَقَدْ يَبْسُتَ عَلَى الدَّهْرِ ، وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ جَائِعًا مِنْكَ ، وَمَا بَرَحْتَ

(١) وَلَدَ هَذَا الْإِمَامُ الْعَظِيمُ سَنَةَ ٦١ هِجْرَةَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٤٨ .

(٢) الْجُحَادَةُ هِيَ الْغَرَارَةُ الْمُمَثَّلَةُ ، فَكَانَتْ أُمُّهُ تَشْبِهُ بِهَا لَضَخَامَتِهَا .

تبكى من خشية الله ، كأنما اطلعت على سواء الجحيم ، ورأيت الناس يتواقعون فيها وهي لهبٌ أحمرٌ يلتفُّ على لهبٍ أحمر ، تحت دُخانٍ أسودٍ يتضربُ في دخانٍ أسود ؛ يتغامسُ الإنسانُ فيها وهي ملءُ السموات ، فما يكون إلا كالذبابة أوقدوا لها جبلاً ممتداً من النار ، ينطادُ بين الأرض والسماء ، وقد ملأ ما بينهما جمرًا وشُعلاً وحِمْماً ودُخاناً ، حتى لتهاربُ الشَّجْبُ في أعلى السماء من حرِّه ، وهو على هَوَْلِهِ وجسامته لِحَرِّ ذبابةٍ لا غيرها ، بيدَ أنها ذبابةٌ تُحَرِّقُ أبداً ولا تموت أبداً ، فلا تزال ولا يزالُ الجبل !

فصاح أبو معاوية الضَّرير : ويحك يا محمد ! دَعِ الرجلَ وشأنه ؛ إن لله عبداً متاعهم مما لا نعرف ، كأنهم يأكلون ويشربون في النوم ، فحياتهم من وراء حياتنا ، وأبو عَتَّاب في دنيانا هذه ليس هو الرجل الذي اسمه « منصور » ، ولكنه العمل الذي يعملهُ « منصور » . هل أتاكم خبرُ قارئِ المدينة « أبي جعفر الزاهد » ؟ قال الجماعة : ما خبره يا أبا معاوية ؟ قال : لقد نُوفِّي من قريب ، فرئيتُ بعد موته على ظهر السكبة ؛ وسترون أبا عتاب — إذا مات — على منارة هذا المسجد !

فصاح أبو عتاب : تَخَلَّلْ يا أبا معاوية ؛ أما حفظتَ خبر ابن مسعود : « كنا عند النبي (صلى الله عليه وسلم) فقام رجل ، فوقع فيه رجلٌ من بعده ؛ فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : « تَخَلَّلْ » قال : « مِمَّ أَتَخَلَّلُ ؟ ما أكلتُ لحماً ؟ » قال : « إِنْكَ أَكَلْتَ لَحْمَ أَخِيكَ ! »

فَتَقَلَّقَ الضَّرير في مجلسه ، وَتَنَحَّجَ ، وَهَمَّهم أصواتاً بينه وبين نفسه ، وأحسن الجماعة شأنه ، وقد عرفوا أن له شراً مُبْصِراً ، كالذي كان فيه من المزح والدُّعابة ، وشراً أعمى هذه بوارده ؛ فَاسْتَلَبَ ابنُ جُحَادَةَ الحديثَ مما بينهما وقال : يا أبا معاوية ، أنت شيخُنَا وبركتُنَا وحافظُنَا ، وأقرُّبُنَا إلى الإمام ، وأمُسْنَا به ؛

فحدثنا حديث الشيخ كيف صنع في رده على هشام بن عبد الملك^(١) ، وما كان بينك وبين الشيخ في ذلك ؛ فإن هذا مما انفردت أنت به دون الناس جميعاً ، إذ لم يسمعه غير أذنك ، فلم يحفظه غيرك وغير الملائكة .
فأسفر وجه أبي معاوية ، وسررى عنه ، واهتز عطفاه ، وأقبل عليهم بعفو القادر ... وأنشأ يحدثهم . قال :

إن هشاماً — قاتله الله — بعث إلى الشيخ : أن اكتب لي مناقب عثمان ومساوىء علي . فلما قرأ كتابه كانت داجنة إلى جانبه ، فأخذ القرطاس وألتمه الشاة ، فلا كتته حتى ذهب في جوفها ، ثم قال لرسول الخليفة : قل له : هذا جوابك ! فخشى الرسول أن يرجع خائباً فيقتله هشام ، فما زال يتحمل بنا ، فقلنا : يا أبا محمد ، نجه من القتل . فلما ألحنا عليه كتب : « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد يا أمير المؤمنين ، فلو كانت لعثمان (رضى الله عنه) مناقب أهل الأرض مانفعتك ، ولو كانت لعلي (رضى الله عنه) مساوىء أهل الأرض ما ضرتك فعليك بخويصة نفسك ، والسلام . »

فلما فصل الرسول قال لي الشيخ : إنه كان في خراسان محدث اسمه « الضحاک بن مزاحم الهلالي » وكان فقيه مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبي يتعلمون ؛ فكان هذا الرجل إذا تعب ركب حماراً ودار به في المكتب عليهم ، فيكون إقبال الحمار على الصبي هماً وإدباره عنه سروراً . وما أرى الشيطان إلا قد تعب في مكتبه وأعياء ، فركب أمير المؤمنين ... ليدور علينا نحن يسألنا : ماذا حفظنا من مساوىء علي ؟

قلت : فلماذا ألتمت كتابه الشاة ؟ ولو غسلته أو أحرقتة كان أفهم له وكان هذا أشبه بك . فقال : ويحك يا أبله ! لقد شابت البلاءة في عارضيك ؛ إن هشاماً

سَيَقْطَعُ مِنْهَا غِيْظًا ، فَمَا يَخْفَى عَنْهُ رَسُوْلُهُ اُنِّىْ اُطْعَمْتُ كِتَابَةَ الشَّاةِ ، وَمَا يَخْفَى عَنْهُ دَهَاوُهُ اَنْ الشَّاةَ سَتَبْعُرُهُ مِنْ بَعْدُ . . . !

قلت : أفلا تخشى أمير المؤمنين ؟

قال : ويحك ! هذا الأحوالُ عندك أمير المؤمنين ؟ أَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ فَهَبْهَا وَلَدَتْهُ مِنْ حَائِكٍ أَوْ حَجَّامٍ ! إِنْ إِمَارَةَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ ، هِيَ ارْتِفَاعُ نَفْسٍ مِنَ النُّفُوسِ الْعَظِيْمَةِ إِلَى أَثَرِ النُّبُوَّةِ ؛ كَأَنَّ الْقُرْآنَ عَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ثُمَّ رَضِيَ مِنْهُمْ رَجُلًا لِلزَّمَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَمَتَى أُصِيبَ هَذَا الرَّجُلُ الْقُرْآنِيُّ ، فَذَلِكَ وَارِثُ النَّبِيِّ فِي أُمَّتِهِ وَخَلِيفَتُهُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا مِنْ إِمَارَةِ الْمُلْكِ وَالتَّرَفِ ، بَلْ مِنْ إِمَارَةِ الشَّرْعِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْعَمَلِ وَالسِّيَاسَةِ .

هذا الأحوالُ الَّذِي التَّفَّ كدودة الحرير في الحرير ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْخَيْلِ لَا لِلجِهَادِ وَالْحَرْبِ ، وَلَكِنْ لِلهُوَ وَالْحَلَبَةِ ، حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ جِيَادِ الْخَيْلِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ فَرَسٍ لَمْ يَجْتَمِعْ مِثْلُهَا لِأَحَدٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَعَمِلَ الْخَزَّ وَقُطِفَ الْخَزَّ ، وَاسْتَجَادَ الْفَرَسَ وَالْكُسُوَّةَ ، وَبَالَغَ فِي ذَلِكَ وَأَنْفَقَ فِيهِ النِّفَقَاتِ الْوَاسِعَةَ ، وَأَفْسَدَ الرِّجُولَةَ بِالنِّعَمِ وَالتَّرَفِ ، حَتَّى سَلَكَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ سُنَّتَهُ ، فَأَقْبَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى لُهو أَنْفُسِهِمْ ، وَصَنَعُوا الْخَيْرَ صَنْعَةً جَدِيدَةً بِصَرْفِهِ إِلَى حِظْوَتِهِمْ ، وَتَرَكُوا الشَّرَّ عَلَى مَا هُوَ فِي النَّاسِ ، فَزَادُوا الشَّرَّ وَأَفْسَدُوا الْخَيْرَ ، وَلَمْ يَعُدِّ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ عِنْدَهُمْ هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ بِطُونَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ . . . ! وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَقْتَصِدُ فِي حِظِّ نَفْسِهِ لِيَسَعَ بِرَبْوَةٍ مَائَةٍ أَوْ مَائَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ إِخْوَانِهِ وَذَوَى حَاجَتِهِ ، فَعَادَ هَذَا الْغَنِيُّ لِنَفْسِهِ ثُمَّ يَتَسَّعُ ، حَتَّى لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَأْكُلَ رِزْقَهُ مَائَةً أَوْ مَائَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ !

إِنْ هَذَا الْإِسْلَامُ يَجْعَلُ أَحْسَنَ الْمَسَرَّاتِ أَحْسَنَهَا فِي بَذْلِهَا لِلْمُحْتَاجِينَ ، لَا فِي أَخْذِهَا وَالِاسْتِثْنَاءِ بِهَا ، فَهِيَ لَا تَضِيعُ عَلَى صَاحِبِهَا إِلَّا لِتَكُونَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ،

وكان الفقر والحاجة والمسكنة والإنفاق في سبيل الله — كأن هذه أرضون يُغرس فيها الذهب والفضة غرساً لا يُؤتي ثمره إلا في اليوم الذي ينقلب فيه أغني الأغنياء على الأرض ، وإنه لأفقر الناس إلى درهمٍ من رحمة الله وإلى مادون الدرهم ؛ فيقال له حينئذ : خذ من ثمار عملك ، وخذ ملء يديك !

والسلطان في الإسلام هو الشرع مرئياً يتابعه الناس ، متكلماً يفهمه الناس ، أمراً ناهياً يطيعه الناس . ولقد رأى المسلمون هذا الأحوال ، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا ؛ فمنعوا ما في أيديهم ، فانقطع الرِّفْد ، وقلَّ الخير ، وشحَّتْ الأنفس ، وأصبح خيرهم خيراً لهم لبطنه وشهوته ، وصار الزمان أشبه بناسه ، والناس أشبه بملكهم ، وملكهم في شهواته « فقير المؤمنين » لا أمير المؤمنين !

إن هذه الإمارة يا أبا معاوية ، إنما تكون في قرب الشبه بين النبي ومن يختاره المؤمنون للبيعة . وللنبي جهتان : إحداها إلى ربه ، وهذه لا يطمع أحد أن يبلغ مبلغه فيها ؛ والأخرى إلى الناس ، وهذه هي التي يُقاس عليها . وهي كلها رفق ورحمة وعمل ، وتديروا حياطة وقوة ، إلى غيرها مما يقوم به أمرُ الناس ؛ وهي حقوق وتبعات ثقيلة تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه ، وبهذا الانصراف تجذبُ الناس إلى صاحبها . فإمارة المؤمنين هي بقاء مادة النور النبوي في المصباح الذي يضيء للإسلام ، بإمداده بالقدر بعد القدر من هذه النفوس المضيئة . فإن صلح التراب أو الماء مكان الزيت في الاستضاءة ، صلح هشام وأمثاله لإمارة المؤمنين ! ويل للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطان عليهم بينه وبين النبي مثل ما بين دينين مختلفين . ويل ليومئذ للمسلمين ! ويل ليومئذ للمسلمين !

فلما أتمَّ الضريرُ حديثه قال ابن جُحادة : إن شيخنا على هذا الجِدِّ ليمزح ، وسأحدثكم غير حديث أبي معاوية ، فقد رأيتُ الدنيا كأنما عرفت الشيخ

ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له : اخحك متى ومن أهلى . ولكن وقاره
ودينه ارتقعا به أن يضحك بغمه ضحك الجهلاء والفارغين ، فضحك بالكلمة بعد
الكلمة من نوادره .

لقد كنتُ عنده فى مَرَضَتِهِ ، فعاده « أبو حنيفة » صاحبُ الرأى ، وهو
جبلٌ عِلمٌ شامخ ، فطَوَّلَ القعودَ مما يُحِبُّه ويَأْنَسُ به ، إذ كانت الأرواحُ لا تَعْرِفُ
مع أحبابها زمناً يطولُ أو يقصرُ . فلما أراد القيامَ قال له : ما كأنى إلا ثَقُلْتُ
عليك . فقال الشيخ : إنك لثَقِيلٌ عَلَىَّ وأنتَ فى بيتك . . . ! وضحك أبو حنيفة
كأنه طفلٌ يُبَلِّغُهُ أبوه بكلمةٍ ليس فيها معناها ، أو أبٌ دَاعِبُهُ طفله بكلمة فيها
غيرُ معناها .

وجاءه فى الغداة قومٌ يعودونه ، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخُ وسادته
وقام منصرفاً ، وقال لهم : قد شَفَى اللهُ مريضكم . . . !
فقال الضير : تلك رَوْحَةٌ من هواءِ دُنْبَاوَنَد^(١) ، فإن أبا الشيخ كان من
تلك الجبال ، وقدم إلى الكوفة وأُمُّه حاملٌ ؛ فوُلِدَ هنا ؛ فكأن فى دمه ذلك
النسيمَ تهبُّ منه النَفْحَةُ بعد النَفْحَةِ فى مثل هذه الكلماتِ المُتَنَسِّمَةِ ؛ ثم هى
رُوحُهُ الظرفَةُ الطيِّبَةُ تَلَمَسُ بعضَ كلامه أحياناً ، كما تَلَمَسُ رُوحُ الشاعرِ بعضَ
كلامِ الشاعرِ ؛ وما رأيتُ أدقَّ النوادرِ الساخرةِ وأبلغها وأعجبها بحجى إلا من
ذوى الأرواحِ الشاعرةِ الكبيرةِ البعيدةِ الغورِ ، كأنما تأتى النادرةُ من رؤيةِ
النفْسِ حقيقتين فى الشيء الواحد . والإمامُ فى ذلك لا يسخرُ من أحد ، إلا إذا
كانت الأرضُ حين تُخرجُ الثمرةَ الحلوةَ تَسْخَرُ بها من الثمرةِ المرةِ .

والعجيبُ أن النادرةَ الباردةَ التى لا تتفق إلا لأقوى الأرواحِ ، يتفق مثلها
لأضعفِ الأرواحِ ؛ كأنها تَسْخَرُ من الناسِ كما يسخرون بها . فهذا « أبو حَسَن »

(١) ناحية من رستاق الرى فى الجبال الثلجية وهى من بلاد العجم .

مُؤَلِّمُ السُّكَّابِ ، جاءه غلامان من صِبيته قد تعلق أحدهما بالآخر ؛ فقال : يا مُؤَلِّمُ ، هذا عَضُّ أُذُنِي . فقال الآخر : ما عَضَّضْتُهَا ، وإنما هو عَضُّ أُذُنِ نَفْسِهِ ... فقال المعلم : وتَمَكَّرُ بِي أَيْضاً يا ابن الخبيثة ؟ أهو جَمَلٌ طَوِيلُ العُنُقِ حتى يَنَالُ أُذُنَ نَفْسِهِ فَيَعَضُّهَا ... !

وطلع الشيخُ عليهم وكأَنما قرأ نفسَ أبي معاوية في وجهه المُنْفَتَحِ . ومن عجائب الحِكْمَةِ أَنَّ الذي يُلَمَحُ في عيني المبصرِ من خِوَالِجِ نَفْسِهِ ، يُلَمَحُ على وجه الضريرِ مُسَكِّباً مَجَسِّماً . وكان الشيخ لا يَأْنِسُ بِأَحَدٍ أَنَسَهُ بِأَبِي معاوية ، لذكائه وحِفْظِهِ وَضَبِطِهِ ، وَلَمُشَا كَلَمَةِ الظَّرْفِ الرُّوحِيِّ بينهما ؛ فقال له :

— « فِيمَ كَانَ أَبُو معاوية ؟ »

— « كَانَ أَبُو معاوية في الذي كَانَ فِيهِ ! »

— « وَمَا الذي كَانَ فِيهِ ؟ »

— « هُوَ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ ! »

— « فَأَجِبْنِي عَمَّا أَسْأَلُ عَنْهُ . »

— « قَدْ أَجَبْتُكَ ! »

— « بِمَاذَا أَجَبْتَ ؟ »

— « بِمَا سَمِعْتَ ! »

فَقَبِضَ وَجْهُ الشَّيْخِ وَقَالَ : « أَهْمُنَا وَهَنُكَ مَعَاً ؟ لَوْ أَنَّ هَذَا مِنْ امْرَأَةٍ غَضَبِي عَلَى زَوْجِهَا لَكَانَ لَهُ مَعْنَى ، بَلْ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا مِنْ امْرَأَةٍ غَضَبِي عَلَى زَوْجِهَا . أَحْسَبُ لَوْ أَنَّ فِي مَنْزِلِي مَنْ هُوَ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكُمْ مَا خَرَجْتَ ؟ » فقال الضرير :

« يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، كَأَنَّا زَوَّجْتُ الْعِلْمَ ، فَأَيَّتُنَا الَّتِي حَظَّيْتُ وَبَطَّيْتُ ... »

فَغَطَّى الْجَمَاعَةُ أَفْوَاهَهُمْ يَضْحَكُونَ ، وَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ ، ثُمَّ شَرَعَ يَحْدِّثُ فَأَفْضَى

من خبر إلى خبر ، وتسرح في الرواية حتى مرَّ به هذا الحديث :
عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « إن هلاك الرجال طاعتهم
لنساءهم » .

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ ، ولم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) :
« هلاك الرجل طاعته لامرأته » ؛ فإن هذا لا يستقيم ؛ إذ يكون بعض النساء
أحياناً أكمل من بعض الرجال ، وأوفر عقلاً وأسد رأياً ، وقد تكون المرأة هي
الرجل في الحقيقة عزماً وتديباً وقوة نفس ، ويتلین الرجل معها كأنه امرأة .
وكثير من النساء يكنّ نساءً بالخلية والشكل دون ما وراءها ، كأنما هيئن رجالاً
في الأصل ثم خلِقن نساءً بعد ، لإحداث ما يريد الله أن يحدث بهن ، مما يكون
في مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين في الخير أو الشر .

وإنما عمّ الحديث ليدلّ على أن الأصل في هذه الدنيا أن تستقيم أمور
التدبير بالرجال ؛ فإن البأس والعقل يكونان فيهم خِلقاً وطبيعةً أكثر مما يكونان
في النساء : كما أن الرقة والرحمة في خِلقه النساء وطبيعتهن أكثر مما في الرجال ،
فإذا غلبت طاعة النساء في أمة من الأمم ، فتلك حياة معناها هلاك الرجال ،
وليس المراد هلاك أنفسهم ، بل هلاك ما هم رجال به ، والحديد حديد بقوته وصلابته ،
والحجر حجر بشدته واجتماعه ؛ فإن ذاب الأول أو تقلل ، وتناثر الآخر أو تفقت ،
فذاك هلاكهما في الحقيقة ، وهما بعد لا يزالان من الحجر والحديد .

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها ، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفةً
أو تقرّ بالضعف ، بالضعف ، إلا إذا وجدت رجلاً الكامل ، رجلاً الذي يكون
معها بقوته وعقله وفننته لها وحبها إياه ، كما يكون مثلاً مع مثال . ضع مائة
دينار بجانب عشرة دنانير ، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتدعى وتستطيل ؛ قد
تقول : إنها أكثر إشراقاً ، أو أظرف شكلاً ، أو أحسن وضعاً وتصفياً ؛

ولكن الكلمة المحرمة هنا أن تزعم أنها أكبر قيمة في السوق . . . !

قال الشيخ : ومن من النساء تُصيب رجلها الكامل أو القريب من كماله عندها ، أى كمال طبيعته بالقياس إلى طبيعتها ، كمال جسيم مُفصل لجسيم ، تفصيل الثوب الذى يلبسه ويختال فيه ؟ أما إن هذا من عمل الله وحده ؛ كما يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، يبسط مثل ذلك للنساء فى رجالهن ويقدر . فإذا لم تُصب المرأة رجلها القوى — وهو الأعم الأغلب — لم تستطع أن تكون معه فى حقيقة ضعفها الجليل ، وعملت على أن يكون الرجل هو الضعيف ، لتكون معه فى تزوير القوة عليه وعلى حياته ، وبهذا تخرج من حيزها ؛ وما أول خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى ؛ فإن كثر خروجهن فى الطريق ، وتسكعن ههنا وههنا ، فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضاً ..

قال الشيخ : وكأن فى الحديث الشريف إيماء إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلن عن بعض الحق الذى لهن ، إبقاء على نظام الأمة ، وتيسيراً للحياة فى مجراها ؛ كما ينزل الرجل عن حقه فى حياته كلها إذا حارب فى سبيل أمته ، إبقاء عليها وتيسيراً لحياتها فى مجراها . فصبر المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسه جهادها وحربها فى سبيل الأمة ، ولها عليه من ثواب الله مثل ما للرجل يُقتل أو يُجرح فى جهاده .

ألا وإن حياة بعض النساء مع بعض الرجال تكون أحياناً مثل القتل ، أو مثل الجرح ، وقد تكون مثل الموت صبراً على العذاب ! ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لِمَرْوَجَةٍ يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها : « فإين أنتِ منه ؟ » قالت : ما آلوه إلا ما عجزتُ عنه ! قال : « فكيف أنتِ له ؟ فإنه جنتك ونارك . »

آه ! آه ! حتى زواج المرأة بالرجل هو فى معناه مرور المرأة المسكينة فى دنيا

أخرى إلى موتٍ آخر ، ستُحاسب عنده بالجنة والنار ، فحسابها عند الله نوعان : ماذا صنعتَ بدنياك ونعيمِها وبؤسِها عليك ؛ ثم ماذا صنعتَ بزواجك ونعيمِها وبؤسِها فيك ؟

وقد روينا أن امرأةً جاءت النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقالت : يا رسول الله ، إني وافدةُ النساءِ إليك ؛ ثم ذكرتُ ما للرجال في الجهاد من الأجر والغنيمة ؛ ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « أبلغني من لقيتِ من النساء أن طاعةً للزوج ، واعترافاً بحقه — يعدلُ ذلك ؛ وقليلٌ ممكّنٌ من يفعله ! »

قال الشيخ : تأملوا واعجبوا من حكمة النبوة ودقتها وبلاغتها ؛ يُقالُ في المرأة المُحبّة لزوجها المفتنة به المعجبة بكأله : إنها أطاعته واعترفت بحقه ؛ أوليس ذلك طبيعة الحب إذا كان حبا ؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر ، حين لا تصيب المرأة رجُلها المفصل لها ، بل رجلاً يُسمّى زوجاً ؛ وهنا يظهر كرمُ المرأة الكريمة ، وها هنا جهادُ المرأة وصبرُها ، وها هنا بذلُها لا أخذُها ؛ ومن كل ذلك ها هنا عملها لجنّتها أو نارها .

فإذا لم يكن الرجل كاملاً بما فيه للمرأة ، فلتنبّه هي رجلاً بنزولها عن بعض حقها له ، وتركها الحياة تجري في مجراها ، وإيثارها الآخرة على الدنيا ، وقيامها بفريضة كمالها ورحمتها ، فيبقى الرجل رجلاً في عمله للدنيا ، ولا يُمسَخُ طبعه ولا ينتكسُ بها ولا يذلّ ، فإن هي بدأت وتسلّطت وغلبت وصرّفت الرجل في يدها ، فأكثرُ ما يظهر حينئذٍ في أعمال الرجال من طاعتهم لنساءهم — إنما هو طيشُ ذلك العقل الصغير وجُرْأته ، وأحياناً وقاحتُه ؛ وفي كل ذلك هلاكٌ معاني الرجولة ، وفي هلاك معاني الرجولة هلاكُ الأمة !

قال الشيخ : والقلوبُ في الرجال ليست حقيقةً أبداً ، بطبيعة أعمالهم في

الحياة وأمكنتهم منها ، ولكنَّ القلبَ الحقيقيَّ هو في المرأة ، ولذا ينبغي أن يكون فيه السُّموُّ فوق كل شيء إلا واجب الرحمة ؛ ذلك الواجب الذي يَتَّجه إلى القويِّ فيكون حبًّا ، ويتَّجه إلى الضعيف فيكون حنانًا ورقَّة ، ذلك الواجب هو اللطف ؛ ذلك اللطف هو الذي يُثبت أنها امرأة .

قال أبو معاوية : وانفضَّ المجلس ، ومنعني الشيخُ أن أقوم مع الناس ، وصَرَفَ قائدي ؛ فلما خلا وجهه قال : يا أبا معاوية ، قم معي إلى الدار ، قلتُ ما شأنُ في الدار يا أبا محمد ؟ قال : إن (تلك) غاضبةٌ عليَّ ، وقد ضاقت الحالُ بيني وبينها ، وأخشى أن تتباعد ، فأريدُ أن تُصَلِّحَ بيننا صَاحِبًا .

قلت : فمِمَّ غضبُها ؟ قال : لا تُسألُ المرأةُ مِمَّ تغضب ، فكثيرًا ما يكون هذا الغضبُ حركةً في طباعها ، كما تكون جالسةً وتريدُ أن تقوم فتقوم ، وتريدُ أن تمشي فتمشي !

قلت : يا أبا محمد ، هذا آخرُ أربعِ مراتٍ ^(١) تغضبُ عليك غَضَبَ الطلاق ، فما يحبسُك عليها والنساءُ غيرها كثير .

قال : ويحك يا رجل ! أبأنعُ نساءً أنا ، أما علمتَ أن الذي يطلق امرأةً لغير ضرورةٍ مُلحِئَةٍ ، هو كالذي يبيعها لمن لا يدري كيف يكون معها وكيف تكون معه ؟ إن عمرَ الزوجة لو كان رقبةً وضُرِبَتْ بسيفٍ قاطعٍ لكان هذا السيفُ هو الطلاق !

وهل تعيشُ المطلقةُ إلا في أيامِ ميِّتةٍ ؟ وهل قاتِلُ أيامها إلا مطلقُها ؟
قال أبو معاوية : وقمنا إلى الدار ، واستأذنت ودخلت علي (تلك)

(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس « هذه رابع مرة »

زوجة إمام

بقية الخبر

قال أبو معاوية الضرير : وكنت في الطريق إلى دار الشيخ ، أروى في الأمر ، وأمتحن مذاهب الرأي ، وأقلبها على وجوهها ، وأنظر كيف أحتال في تأليف ما تنافر من الشيخ وزوجته ؛ فإن الذي يسفر بين رجل وامرأته إنما يمشى بفكره بين قلبين ، فهو مطلق نائرة^(١) أو مسعرها ، إذ لا يضع بين القلبين إلا حقه أو كياسته ، وهو لن يرد المرأة إلى الرأي إلا إذا طاف على وجهها بالضحك ، وعلى قلبها بالخجل ، وعلى نفسها بالرقّة ، وكان حكيماً في كل ذلك ؛ فإن عقل المرأة مع الرجل عقل بعيد ، يحىء من وراء نفسها ، من وراء قلبها . وجعلت أنظر ما الذي يفسد محلّ الشيخ من زوجته ، ومثّلت بينه وبينها ، فما أخرج لي التفكير ، إلا أن حسن خلقه معها دائماً هو الذي يستدعي منها سوء الخلق أحياناً ؛ فإن الشيخ كما ورد في وصف المؤمن : « هينّ لين كالجل الأنف^(٢) » ، إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » ، والمرأة لا تكون امرأة حتى تطلب في الرجل أشياء : منها أن تحبه بأسباب كثيرة من أسباب الحب ؛ ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف . فإذا هي أحبته الحب كله ، ولم تخف منه شيئاً ، وطال سكونه وسكونها ، نفرت طبيعتها نفرة كأنها تنخيه وتدمره ، ليكون معها رجلاً فيخيفها الخوف الذي تستكمل به لذة

(١) النائرة الغضب .

(٢) أي المأنوف ويسميه العامة (الخزوم) وهو الذي عقر أنفه بالحشاش فيقاد منه فيكون ذلولاً سميحاً .

حبها ، إذ كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل ، أن يَسْوَ عليه الرجلُ في الوقت بعد الوقت ، لا ليؤذِيَهُ ولكن ليخْضِعَهُ ؛ والآمرُ الذي لا يُخافُ إذا عُصِيَ أمرُهُ ، هو الذي لا يُعبَأُ به إذا أُطِيعَ أمرُهُ .

وكان المرأة تحتاج طبيعتها أحياناً إلى مصائب خفيفة ، تؤذي برقة أو تمرُّ بالأذى من غير أن تلمسها به ، لتتحرك في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها ؛ فإن طال ركود هذه الطبيعة ، أوجدت هي لنفسها مصائبها الخفيفة ، فكان الزوج إحداها

وهذا كله غير الجرأة أو البذاء فيمن يُبغض أزواجهن ، فإن المرأة إذا فرَّكت زوجها لمنافرة الطبيعة بينها وبينه ، مات ضعفها الأنثوي الذي يتم به جمالها واستمتاعها والاستمتاع بها ، وتعد بذلك لينها أو تصلب أو استحجر ، فتكون مع الرجل بخلاف طبيعتها ، فينقلب سُكرها النسائي بأنوثتها الجميلة ، عريضة وخلافاً وشرّاً وصخباً ، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه في صوتين لا في صوت واحد . ولعل هذا هو الذي أحسّه الشاعر العربي بفطرته — من تلك المرأة الصخابة الشديدة الصوت البادية الغيظ ، فضاعف لها في تركيب اللفظ حين وصفها بقوله :

صَلْبَةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيْقُهَا^(١)

قال أبو معاوية : واستأذنت على (تلك) ، ودخلت بعد أن استوثقت أن عندها بعض محارمها ؛ فقلت : أنعم الله مساءك يا أم محمد . قالت : وأنت فأنعم الله مساءك .

فأصغيت للصوت ، فإذا هو كالنائم قد اتبته يَتَمَطَّى في استرخاء ، وكأنها تقبلي

(١) هذا من عجائب اللغة العربية ، إذا زاد المعنى زادوا له في اللفظ . ورواية لسان العرب : « (شديدة) الصيحة » وليست بشيء ، فليصححها من يقتنى اللسان من القراء .

به وتردني معاً ، لا هو خالص للغضب ولا هو خالص للرضى .

فقلت : يا أم محمد ، إني جائع لم أَلَمْ اليوم بمنزلي . فقامت فقرّبت ما حضّر ؛
وفالت : مَعْدِرَةً يا أبا معاوية ، فإنما هو جهدُ المَقِلِّ ، وليس يعدو إمساك الرَّمقِ .
فقلت : إن الجوعانَ غيرُ الشّهوان ؛ والمؤمنُ يأكل في مَعَى واحد^(٢) ، ولم يخاق
اللهُ قِمحاً للملوك وقمحاً غيره للفقراء .

ثم سَمَّيْتُ ومددتُ يدي أتحسّسُ ما على الطَّبَقِ ، فإذا كَسَرْتُ من الخبزِ ، معها
شئ من الجزرِ المسلوقِ ، فيه قليلٌ من الخل والزيت ؛ فقلت في نفسي : هذا
بعضُ أسباب الشر ؛ وما كان بي الجوعُ ولا سَدُّهُ ، غيرَ أني أردتُ أن أعرفَ
حاضرَ الرزقِ في دار الشيخ ، فإن مثلَ هذه القِلَّةِ في طعام الرجل هي عند المرأة
قِلَّةٌ من الرجل نفسه ؛ وكلُّ ما تَقَدُّهُ من حاجاتها وشهواتِ نفسها ، فهو عندها
فقرٌ بمعنيين : أحدهما من الأشياء ، والآخر من الرجل : كلما أكثر الرجلُ من
إتحافها أكثرَ عندها ، وإن أقلَّ قلَّ . وإنما خلقت المرأة بطناً يلدُ ، فبطنُها هو
أكبرُ حقيقتها ، وهذه غايتها وغايةُ الحكمةِ فيها ؛ لا جَرَمَ كان لها في عقلها
مَعْدَةٌ معنوية ؛ وليس حبُّها للحلي والثياب والزينة والمال ، وطماخُها إليها ،
واستهلاكُها في الحرص عليها والاستشرافِ لها — إلا مظهرًا من حكم البطنِ
وسُلطانِه ؛ فذلك كله إذا حَقَّقْتَهُ في الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة
والسُّلطة ، وكان فقده من ذرائع الضعف والقِلَّةِ ؛ فإذا حَقَّقْتَهُ في المرأة أَلْفَيْتَهُ
عندها من معاني الشَّيْخ والبَطَر ، وكان فقده عندها كأنه فنٌّ من الجوع ،
وكانت شهوتُها له كالقَرَمِ إلى اللحم عند من حَرِمَ اللحم ؛ وهذا بعضُ الفرق بين
الرجال والنساء ؛ فلن يكونَ عقلُ المرأة كعقل الرجل لمكان الزيادة في معانيها

(١) في بعض الأثر : المؤمن يأكل في مَعَى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء .
وهذا الحديث رمز عجيب لهيمنة من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط .

« البَطْنِيَّة » فَحُسِبَتْ لَهَا الزِيَادَةُ هَهُنَا بِالنَّقْصِ هُنَاكَ ؛ فَهِيَ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : أَمَا نَقْصُ الْعَقْلِ فَهَذِهِ عِلَّتُهُ ؛ وَأَمَا الدِّينُ فَالْغَلَبَةُ تِلْكَ الْمَعَانِي عَلَى طَبِيعَتِهَا كَمَا تَغْلِبُ عَلَى عَقْلِهَا ؛ فَلَيْسَ نَقْصُ الدِّينِ فِي الْمَرَأَةِ نَقْصًا فِي الْيَقِينِ أَوْ الْإِيمَانِ ، فَإِنَّهَا فِي هَذَيْنِ أَقْوَى مِنَ الرَّجُلِ ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ هُوَ النَّقْصُ فِي الْمَعَانِي الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا يَكْمُلُ الدِّينُ إِلَّا بِهَا ؛ مَعَانِي الْجُوعِ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ، وَامْتِدَادِ الْعَيْنِ إِلَيْهَا ، وَاسْتَشْرَافِ النَّفْسِ لَهَا ؛ فَإِنَّ الْمَرَأَةَ فِي هَذَا أَقْلُ مِنَ الرَّجُلِ ؛ وَهِيَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ مَا بَرَحَتْ تُؤَثِّرُ دَائِمًا جَمَالَ الظَّاهِرِ وَزِينَتَهُ فِي الرِّجَالِ وَالْأَشْيَاءِ ، دُونَ النَّظَرِ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ حَقِيقَةِ الْمَنْفَعَةِ .

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ : وَأَرَيْتُمَا أَنِّي جَائِعٌ ، فَتَهَشَّتْ نَهْشَ الْأَعْرَابِيِّ ، كَيْلًا تَقْطَنَ إِلَى مَا أَرَدْتُ مِنْ زَعْمِ الْجُوعِ ؛ ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ أُسْتَدْعَى كَلَامُهَا وَأُسْتَمِيلَهَا لِأَنْ تَضْحَكَ وَتُسَرَّ ، فَأُغَيِّرَ بِذَلِكَ مَا فِي نَفْسِهَا ، فَيَجِدَ كَلَامِي إِلَى نَفْسِهَا مَذْهَبًا ؛ فَقُلْتُ : يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ، قَدْ تَحَرَّمْتُ بِطَعَامِكَ ، وَوَجَبَ حَقِّي عَلَيْكَ ، فَأَشِيرِي عَلَى بَرَأَيْكَ فِيمَا أُسْتَصْلَحُ بِهِ زَوْجَتِي ، فَإِنَّهَا غَاضِبَةٌ عَلَيَّ ، وَهِيَ تَقُولُ لِي : وَاللَّهِ مَا يُقِيمُ الْفَأْرُ فِي بَيْتِكَ إِلَّا لِحُبِّ الْوَطَنِ وَإِلَّا فَهُوَ يَسْتَرْزُقُ مِنْ بَيْوتِ الْجِيرَانِ .

قَالَتْ : وَقَدْ أَعْدَمْتُ حَتَّى مِنْ كِسْرِ الْخُبْزِ وَالْجُزْرِ الْمَسْلُوقِ ؟ اللَّهُ مِنْكَ ! لَقَدْ اسْتَصَلَّتْهَا مِنْ جَذُورِهَا ؛ إِنْ فِي أَمْرَاضِ النِّسَاءِ الْحُمَّى الَّتِي اسْمُهَا الْحُمَّى ، وَالْحُمَّى الَّتِي اسْمُهَا الزَّوْجُ

قُلْتُ : اللَّهُ ! اللَّهُ يَا أُمَّ مُحَمَّدٍ ؛ لَقَدْ أَيْسَرْتُ بَعْدَنَا ، حَتَّى كَأَنَّ الْخُبْزَ وَالْجُزَرَ الْمَسْلُوقَ شَيْءٌ قَلِيلٌ عِنْدَكَ مِنْ فَرْطِ مَا يَتَيَسَّرُ ؛ أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّ رِزْقَ الصَّالِحِينَ كَالصَّالِحِينَ أَنْفُسِهِمْ ، يَصُومُ عَنْ أَصْحَابِهِ الْيَوْمَ وَالْيَوْمِينَ وَكَأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ أُمَمَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَنِسَاءِ أَصْحَابِهِ

(رضوان الله عليهم) ؛ فما خيرُ امرأةٍ مسلمةٍ لا تكون بأديها. وخُلُقها الإسلاميّ كأنها بنتُ إحدى أمهات المؤمنين ؟

أفرايتِ لو كنتِ فاطمةَ بنتِ محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ أفكان ينقلك هذا إلى أحسن مما أنت فيه من العيش ؛ وهل كانت فاطمةُ بنتُ ملكٍ تعيشُ في أحلامِ نفسها ، أو بنتُ نبيٍّ تعيشُ في حقائقِ نفسها العظيمة ؟

تقولين : إنني استأصأتُ أمَّ معاوية من جذورها ؛ فما أمَّ معاوية وما جذورها ؟ أهي خيرٌ من أسماء بنتِ أبي بكرٍ صاحبِ رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد قالت عن زوجها البطلي العظيم : تزوّجني وما لَه في الأرض من مالٍ ولا مملوكٍ ، ولا شيءٍ غيرُ فرسِه وناضحِه ^(١) ، فكنتُ أعلفُ فرسَه وأكفيه مؤنته وأُسوسُه ، وأدقُّ النوى لناضحِه وأعلفُه ، وأستقي الماء وأخرزُ غرَبَه ^(٢) وأعجن ؛ وكنتُ أنقلُ النوى على رأسي من ثلثي فرسخ ، حتى أرسل إلى أبو بكرٍ بجارية ، فكفتني سياسةَ الفرس ، فكأنما أعتقني .

هكذا ينبغي لنساء المسلمين في الصبر والإباء والقوة ، والكبرياء بالنفس على الحياة كأنَّه ما كانت ، والرضا والقناعة وموازرة الزوج وطاعته ، واعتبار ما لهن عند الله لا ما لهن عند الرجل ، وبذلك يرتفعن على نساء الملوك في أنفسهن ، وتكون المرأةُ منهن وما في دارها شيء ، وعندها أن في دارها الجنة . وهل الإسلامُ إلا هذه الروحُ السماويةُ التي لا تهزمُها الأرضُ أبداً ، ولا تُذلُّها أبداً ، مادام يأسُّها وطمعُها معلقين بأعمال النفس في الدنيا ، لا بشهوات الجسم من الدنيا ؟ هل الرجلُ المسلمُ الصحيحُ الإسلام ، إلا مثلُ الحربِ يشورُ حولها غبارُها ، ويكونُ معها الشظفُ والبأسُ والقوةُ والاحتمالُ والصبر ، إذ كان مفروضاً على

(١) النواضح : الإبل يستقي عليها ، واحدها ناضح وسائقها النضاح .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور .

المسلم أن يكون القوة الإنسانية لا الضعف ، وأن يكون اليقينَ الإنسانيَ لا الشك ،
وأن يكون الحقُّ في هذه الحياة لا الباطل ؟

وهل امرأة المسلم إلا تلك المفروضُ عليها أن تُمدَّ هذه الحربَ بأبطالها ،
وعتادَ أبطالها ، وأخلاقَ أبطالها ؛ ثم ألا تكونَ دائماً إلا من وراء أبطالها ؟
وكيف تلدُ البطلَ إذا كان في أخلاقها الضعْفُ والمطامعُ الدليلةُ ، والضعفُ والسكسلُ
والبلادة ؟ ألا إن المرأةَ كالدارِ المبنية ، لا يسهلُ تغييرُ حدودها إلا إذا
كانت خراباً .

فاعترضته امرأة الشيخ وقالت : وهل بأسٌ بالدار إذا وُسِّعتْ حدودها من
ضيِّق ؟ أتكون الدار في هذا إلى نقصها أو تمامها ؟

قال أبو معاوية : فكدتُ أقطعُ في يدها ، وأحببتُ أن أمضيَ في استمالتها ،
فتركتُها هنيئةً ظافرةً بي ، وأريتها أنها شدتني وثاقاً ، وأطرتُ كالمفكر ؛ ثم
قلت لها : إنما أحدثك عن أم معاوية لأبي معاوية ؛ وتلك دارٌ لا تملك غيرَ
أحجارها وأرضها فبأى شيءٍ تتسع ؟

زعموا أنه كان رجلٌ عاملٌ يملك دُويرةً قد انصقتُ بها مساكُنُ جيرانه ،
وكانت له زوجةٌ حقة ، ما تزال ضيقة النفس بالدار وصغرها ، كأن في البناء بناءً
حول قلبها ؛ وكانا فقيرين ، كأم معاوية وأبي معاوية ؛ فقالت له يوماً : أيها الرجلُ ،
ألا توسِّعَ دارك هذه ، ليعلم الناس أنك أيسرتَ وذهبَ عنك الضرُّ والفقر ؟ قال :
فبماذا أوسِّعها وما أملك شيئاً ، أُمسك بيدي حائطاً وبشمالى حائطاً فأمدُّها أباعدُ
بينهما ... ؟ وهبني ملكة التوسعة ونفقتها ، فكيف لي بدور الجيران وهي
ملاصقةٌ لنا بيتَ بيت ؟

قالت الحقة : فإننا لا نريد إلا أن يتعلَّم الناس أننا أيسرنا ؛ فاهدمِ أنت الدار ،
فإنهم سيقولون : لولا أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المالُ في أيديهم لما هدموا ... !

قال أبو معاوية : وعاظتني زوجة الشيخ فلم أسمع لها همسة من الضحك لمثل
الحقماء ، وما اخترعته إلا من أجلها ، كأنها تريد أن يذهب عملي باطلاً ؛ فقلت :
وهل تتسع أم معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابي في صلاحه ؟
قالت : وما خبرُ الأعرابي ؟

قلت : دخل علينا المسجد يوماً أعرابي جاء من البادية ، وقام يصلي فأطال
القيام والناس يرمقونه ، ثم جعلوا يتعجبون منه ، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه
ويصفونه بالصلاح ؛ فقطع الأعرابي صلاته وقال لهم : مع هذا إني صائم ...
قال أبو معاوية : فما تمالككت أن ضحككت ، وسمعت صوت نفسها ؛ وميزتُ
فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذي أتسببُ له . ثم قلت :

وإذا ضاقت الدار فلم لا تتسع النفسُ التي فيها ؟ المرأة وحدها هي الجوُّ
الإنسانيُّ للدَّار زوجها ، فواحدةٌ تدخلُ الدَّار فتجعل فيها الروضةَ ناضرةً مُتروحةً
باسمةً ، وإن كانت الدَّار قحطةً مسحونةً ليس فيها كبيرُ شيء ؛ وامرأةٌ تدخل
الدَّار فتجعل فيها مثلَ الصحراء برمالها وقبظها وعواصفها ، وإن كانت الدَّار في
رياشها ومتاعها كالجنة السُّندسية ؛ وواحدةٌ تجعل الدار هي القبر . والمرأةُ حقُّ
المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الإنسانية ، فلا تجعلُ هذا
القلبَ لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة : مرة ذهباً ، ومرة فضة ، ومرة
نحاساً أو خشباً أو تراباً ، فإنما تكون المرأةُ مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة
معاً ؛ فعليها حقان لا حقَّ واحدٌ ، أصغرهما كبير . ومن ثمَّ فقد وجب عليها إذا
تزوجت أن تستشعرَ الذاتَ الكبيرةَ مع ذاتها ، فإن أغضبها الرجلُ بهفوةٍ منه ،
تجافتْ له عنها ، وصَفَحَتْ من أجل نظام الجماعة الكبرى ؛ وعليها أن تحكم حينئذٍ
بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها ، وهي طبيعة تَأبَى التفرق والانفراد ، وتقومُ على
الواجب ، وتضاعفُ هذا الواجبَ على المرأة بخاصة .

والإسلام يضع الأمة ممثلة في النسل بين كل رجل وامرأته ، ويوجب هذا المعنى إيجاباً ، ليكون في الرجل وامرأته شيء غير الذكورة والأنوثة ، يجمعهما ويقيّد أحدهما بالآخر ، ويضع في بهيميتهما التي من طبيعتها أن تتفق وتختلف ، إنسانية من طبيعتها أن تتفق ولا تختلف .

ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته ، فهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفسيهما ، فإن كل عقدة لا تحيى إلا ومعها طريقة حلها ، ولن يشأ الدين أحد إلا غلبه ، وهو اليسر والمساهلة ، والرحمة والمغفرة ، ولين القلب وخشية الله ؛ وهو العهد والوفاء ، والكرم والمواخاة والإنسانية ؛ وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيقة .

قال أبو معاوية : فحق الرجل المسلم على امرأته المسلمة ، هو حق من الله ، ثم من الأمة ، ثم من الرجل نفسه ، ثم من لطف المرأة وكرمها ، ثم مما بينهما معاً . وليس عجباً بعد هذا ما روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن ، لما جعل الله لهن عليهن من الحق »

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت : يا معشر النساء ، لو تعلمن بحق أزواجهن عليكن ، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحجر وجهها .

قال أبو معاوية : وكان الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فناء الدار ، وكنت زورت في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحقة التي يلبسها ، فيكون فيها من بذاذة الهيئة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره ، فظهر الجوع حتى على ثيابه . . . وقد مرّ بالشيخ رجل من المسوّدة^(١) وكان الشيخ في فروته هذه

(١) الذين يلبسون السواد ، وهم شيعة العباسيين .

جالساً في موضع فيه خليجٌ من المطر ، فجاء المسود فقال : قم فاعبر بي هذا الخليج .
وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك .

وكنت أريد أن أقول لأُم محمد : إن الصحو في السماء لا يكون فقراً في
السماء ، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته ، وإن المؤمن في لذات
الدنيا ، كالرجل الذي يضع قدميه في الطين ليمشي ، أكبرُ همه ألا يجاوز
الطين قدميه .

ولكن صوت الشيخ ارتفع : هل عليكم إذن ؟
قال معاوية : فبدرتُ وقلت : بسم الله ادخل ؛ كأني أنا الزوجة ... وسمعتُ
همساً من الضحك ؛ ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبي ، وغمزني في ظهري غمزة ؛
فقلت : يا أم محمد إن شيخك في ورعه وزهده كيُشبعه ما يُشبع الهدد ، ويرويه
ما يروى العصفور ، ولئن كان متهدماً فإنه جبل علم ، « ولا تنظري إلى عمش
عينيه ، ومُحوشة ساقيه ، فإنه إمام وله قدرٌ » ^(١) .

فصاح الشيخ : قم أخزأك الله ، ما أردتَ إلا أن تعرّفها عيوبي !
قال أبو معاوية : ولكنني لم أقم ، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده

(١) ما بين القوسين هو الوارد في التاريخ ، وعليه بنينا هذه القصة .

٦ قبح جميل

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة ، فصنع له مسلم بن عمران التاجر المتأدب ، صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء ، فجاء ابننا صاحب الدعوة ، وهما غلامان ، فوقفا بين يدي أبيهما ، وجعل ابن أيمن يطيل النظر إليهما ، ويُعجب من حسنهما وبرزتهما ورؤأتهما ، حتى كأنما أفرغ في الجمال وزينته إفراغا ، أو كأنما جاء من شمسٍ وقرٍ لا من أبوين من الناس ، أو هما قد نبتا في مثل تماويل الزهر من زينته التي تبدها الشمس ، ويصقلها الفجر ، ويتندى بها روح الماء العذب ؛ وكان لا يصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر ، كأن جاهلها لا ينتهى فما ينتهى الإعجاب به .

وجعل أبوهما يسارقهُ النظر مُسارقةً ، ويبدو كالمتشاغل عنه ، ليدع له أن يتوسم ويتأمل ما شاء ، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومحاييها ؛ بيد أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمة الإعجاب به ، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً ، وكأنها مأخوذة من لسانه أخذاً ، وحتى ليحس أن غريزةً في داخله كلمها الحسن من كلامه فردت عليه من كلامها .

قال ابن أيمن : سبحان الله ؛ ما رأيتُ كالיום قطّ دُميتين لا تفتح الأعين على أجلٍ منهما ؛ ولو نزلنا من السماء وألبستهما الملائكة ثياباً من الجنة ، ما حسبتُ أن تصنع الملائكة أظرفَ ولا أحسنَ مما صنعتُ أمهما .

فالتفت إليه مسلم وقال : أحب أن تعوذها . فمد الرجل يده ومسح عليهما ، وعوذها بالحديث المأثور ، ودعا لها ، ثم قال : ما أراك إلا استجدت الأم فحسن

نسلِك ، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً ، صِغارُهُ من كبارهِ ؛ وما عليك ألاّ تكونَ قد تزوجت ابنةَ قيصَرَ فأولدتها هذين ، وأخرَجتهما هي لك في صِيفَتِها الملوكية^(١) من الحسن والأدب والرواق ، وما أرى مثلَهما يكونان في موضع إلا كان حولهما جلالُ المُلك ووقارُهُ ، مما يكونُ حولهما من نور تلك الأم .

فقال مسلم : وأنت على ذلك غيرُ مُصدّق إذا قلت لك إني لأُحب المرأة الجميلة التي تصف ، وليس بي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحبُّ النساءِ إليّ ، وأخفهن على قلبي ، وأصلحهن لي ، ما أعِدُّ بها ابنةَ قيصَرَ ولا ابنةَ كِسرى .

فبقى ابنُ أيمن كالمدشود من غرابة ما يسمع ، ثم ذكر أن من الناس مَنْ يأكلُ الطينَ ويستطيعه لفسادٍ في طبعه ، فلا يحلو السُّكَّرُ في فمه وإن كان مكرراً خالصَ الخلوة ؛ ورَئى أشدَّ الرثاء لأمِّ الغلامين أن يكونَ هذا الرجلُ الحِلْفُ قد ضارَّها^(٢) بتلك الدميمة أو تسرَّى بها عليها ؛ فقال وما يملك نفسه : أمّا والله لقد كفرت النعمة ، وغدرت وجحدت وبالغت في الضر ، وإن أمَّ هذين الغلامين لامرأةً فوق النساء ، إذ لم يتبين في وليها أثرٌ من تغيُّر طبعها وكدورِ نفسها ، وقد كان يسعُّها العذرُ لو جعلتهما سَخنةَ عينٍ لك ، وأخرجتهما للناس في مساوئِكَ لافي محاسنِكَ ، وما أدري كيف لا تندُّ عليك ، ولا كيف صلحتُ بمقدار ما فسدت أنت ، واستقامتُ بمقدار ما التويت ، وعجيبُ والله شأنُكما ! إنها لتغلو في كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق ، كما تغلو أنت في البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة .

قال مسلم : فهو والله ما قلتُ لك ، وما أحبُّ إلا امرأةً دميمةً قد ذهبت

(١) تنجي هذه الكلمة في كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب ، وهو الأنصح في رأينا ، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جنّي كتابه : « التصريف الملوكي »
(٢) المضارة : اتخاذ الضرة على الزوجة .

بى كلِّ مذهب ، وأنستنى كلَّ جميلة فى النساء ، ولئن أخذتُ أصفُها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشَّوْهَةِ والدَّمَامَةِ ؛ غير أنها مع ذلك لا تجبىء إلا دالةً على أجهل معانى المرأة عند رجلها فى الحظوة والرضى وجمال الطبع ؛ وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة فى القبح هى زيادة فى الحسن وزيادة فى الحب ، وكيف يكون اللفظ الشائئ ، وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل ، وإلا الحسُّ الصادق بهذا المعنى ، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحسِّ ؟

قال ابنُ أيمن : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشياطين ، وقد عَجَّلَ الله لك من هذه الدميمة زوجتك التى كانت لك فى الجحيم ، لتجتمعاً معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أم هذين الصغيرين ، وما أدرى كيف يتصلُّ ما بينكما بعد هذا الذى أدخلت من القبح والدَّمَامَةِ فى معاشرتها ومُعَايشَتِها ، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرها إلى تلك . أَفَبِهَيْمَةٍ هى لاتعقل ، أم أنت رجل ساحر ، أم فيك ما ليس فى الناس ، أم أنا لا أفقه شيئاً ؟

فضحك مسلم وقال : إن لى خبراً عجيباً : كنت أنزل « الأُبُلَّةَ » وأنا مُنْعِيشٌ ^(١) فخلتُ منها تجارةً إلى البصرة فربحت ، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر ، حتى كثر مالى ، ثم بدا لى أن أتسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها ، وأبسط يدى للمال حيث يكثر وحيث يقل ، وكنت فى مِيعَةِ الشباب وَعُلوَائِهِ ، وأولِ هَجْمَةِ الفتوة على الدنيا ، وقلت : إن فى ذلك خلالاً ؛ فأرى الأمم فى بلادها ومُعَايشِها ، وأتقأبُ فى التجارة ، وأجمع المال والطرائف ، وأفيدُ عِظَةً وعبرة ، وأعلمُ علماً جديداً ، ولعلنى أصيبُ الزوجة التى أشتهاها وأصوّر لها فى نفسى التصاوير ، فإن أمرى من أوله كان إلى علوٍ فلا أريد إلا الغاية ، ولا أرمى إلا للسَّبَقِ ، ولا أرضى أن أتخلف فى جماعة الناس .

(١) أى متكسب ليعيش لا ليغنى ؛ وهذا يسميه العامه (المتسبب) .

وكأنني لم أرى الأبلّة ولا في البصرة امرأة بتلك التصاوير التي في نفسي ، فتأخذها عيني ، فتعجبني ، فتصلح لي ، فأتزوج بها ؛ وطمعت أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أحرزه في داري ؛ فما زلت أرمي من بلد إلى بلد حتى دخلت « بلخ » (١) من أجل مدّن خراسان وأوسعها غلّة ؛ تُحْمَلُ غَلَّتُهَا إلى جميع خراسان وإلى خوارزم ؛ وفيها يومئذ — كان — عالمها وإمامها « أبو عبد الله البلخي » وكنا نعرف اسمه في البصرة ؛ إذ كان قد نزها في رحلته وأكثرت الكتابة بها عن الرّواة والعلماء ؛ فاستخفّنتني إليه نزيّة من شوق إلى الوطن ، كأن فيه بلدي وأهلي ؛ فذهبت إلى حلقتة ، وسمعتُه يفسر قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « سوداء ولود خير من حسناء لا تلد . » فما كان الشيخ إلا في سحابة ، وما كان كلامه إلا وحيّاً يوحي إليه . سمعت والله كلاماً لا عهد لي بمثله ، وأنا من أول نشأتي أجلس إلى العلماء والأدباء ، وأدأخلهم في فنون من المذاكرة ، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخي ، ولقد حفظته حتى ما تقوتني لفظة منه ، وبقي هذا الكلام يعمل في نفسي عمله ، ويدفعني إلى معانيه دفعاً ، حتى أتى على ما سأحدثك به . إن الكلمة في الذهن لتوجد الحادثة في الدنيا .

قال ابن أيمن : اطو خبرك إن شئت ، ولكن اذكر لي كلام البلخي ، فقد تعلّقت نفسي به .

قال : سمعت أبا عبد الله يقول في تأويل ذلك الحديث : أمّا في لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه ، ما علمت أحداً تنبّه إليه ؛ فإنه (صلى الله عليه وسلم) لا يريد السوداء بخصوصها ، ولكنه كنى بها عما تحمّلت السوداء ، وما فوق السوداء ، وما هو إلى السوداء ، من الصفات التي يتقبّحها الرجال في خِلقة النساء وصورهنّ ؛ فألطف

(١) موقعها اليوم في بلاد الأفغان .

التعبيرَ وَرَقَّ به ، رفعاً لشأن النساء أن يصف امرأةً منهن بالقبح والدّمامة ، وتنزيهاً لهذا الجنس الكريم ، وتنزيهاً للسانه النبوي ؛ كأنه (صلى الله عليه وسلم) يقول : إن ذكرَ قُبْحِ المرأة هو في نفسه قبيحٌ في الأدب ، فإن المرأة أمٌ أو في سبيل الأمومة ؛ والجنة تحت أقدام الأمهات ؛ فكيف تكون الجنة التي هي أحسن ما يُتَخَيَّلُ في الحسن تحت قدمي امرأة ، ثم يجوز أدباً أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح .

أما إن الحديث كالتّصّ على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألا يصف امرأةً بقبح الصورة البتّة ، وألاّ يجري في لسانه لفظُ القبح وما في معناه ، موصوفاً به هذا الجنس الذي منه أمّه : أيودُّ أحدكم أن يمزق وجهَ أمّه بهذه الكلمة الجارحة ؟

وقد كان العربُ يُفصّلون لمعاني الدمامة في النساء ألفاظاً كثيرة ؛ إذ كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية ؛ أما أكمل الخلق (صلى الله عليه وسلم) ، فما زال يوصي بالنساء ويرفع شأنهن حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات ، كان يتكلم بهن إلى أن تكَلَجَّجَ لسانه وخفي كلامه ؛ جعل يقول : « الصلاة الصلاة . وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ؛ الله الله في النساء . » قال الشيخ : كأن المرأة من حيث هي إنما هي صلاةٌ تتعبّد بها الفضائلُ ، فوجبت رعايتها وتلقّيها بحقها ؛ وقد ذكّرناها بعد الرقيق ، لأن الزواج بطبيعته نوعٌ رقيق ؛ ولكنه ختمَ بها وقد بدأ بالصلاة ، لأن الزواج في حقيقته نوعٌ عبادة . قال الشيخ : ولو أن أمّاً كانت دميمةً شوهاء في أعين الناس ، لكانت مع ذلك في عين أطفالها أجملَ من ملكة على عرشها ؛ ففي الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً في حسّه ولفظه ، لم يكذب في أحدهما ؛ فقد انتفى القبحُ إذن ، وصار وصفها به في رأى العين تكذيباً لوصفها في رأى النفس ، ولا أقلّ من أن يكون

الوصفان قد تعارضاً فلا جمال ولا دمامة .

قال الشيخ : وأما في معنى الحديث ، فهو (صلى الله عليه وسلم) يقرّر للناس أن كرم المرأة بأمومتها ، فإذا قيل : إن في صورتها قبحاً ، فالحسناء التي لا تلد أقبحُ منها في المعنى . وانظر أنت كيف يكون القبحُ الذي يقال إن الحسن أقبحُ منه . . . !

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أن لا قبح في صورة المرأة ، وأنها منزّهة في لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف ، فإن كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حب المرأة حبا على طريقة البهائم ، من حيث تفضّلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه في غرائزه وشهواته ، لا يتكذّب في الغريزة ولا في الشهوة بتلويينهما ألواناً من خياله ، ووضعهما مرة فوق الحد ، ومرة دون الحد ^(١) .

فأكبرُ الشأن هو للمرأة التي تجعل الإنسان كبيراً في إنسانيته ، لا التي تجعله كبيراً في حيوانيته ، فلو كانت هذه الثانية هي التي يصطّلع الناس على وصفها بالجمال فهي القبيحة لا الجميلة ، إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيش فيما يصلح به الناس ، لا فيما يصطّلع عليه الناس ؛ فإن الخروج من الحدود الضيقة للألفاظ ، إلى الحقائق الشاملة ، هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدى إلى نعيم الآخرة وثوابها .

وهناك ذاتان لكل مؤمن : إحداهما غائبة عنه ، والأخرى حاضرة فيه ، وهو إنما يصل من هذه إلى تلك ، فلا ينبغي أن يحصر السماوية الواسعة في هذه الترابية الضيقة ؛ والقبح إنما هو لفظ تراعى يشار به إلى صورة وقع فيها من التشويه مثل معاني التراب ، والصورة فانية زائلة ، ولكن عملها باق ؛

(١) بسطنا هذا المعنى في كتابنا (السحاب الأحمر) .

فالنظر يجب أن يكون إلى العمل ؛ فالعمل هو لا غيره الذي تتعاوره أفاضل الحسن والقبح .

وبهذا السكال في النفس ، وهذا الأدب ، قد ينظر الرجلُ الفاضلُ من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة ، لا إلى الشوهاء ، ولكن إلى الجور العين . إنهما في رأى العين رجلٌ وامرأة في صورتين متنافرتين جمالاً وقبحاً ؛ أما في الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحي ، فهما إرادتان متحدثتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبية عشق ، وتلتقيان معاً في النفسين الواسعتين ، المراد بهما الفضيلة وثواب الله والإنسانية ؛ ولذلك اختار الإمام أحمد بن حنبل عوراء على أختها ، وكانت أختها جميلة ، فسأل : مَنْ أعقلها ؟ فقيل : العوراء . فقال : زوّجوني إياها . فكانت العوراء في رأى الإمام وإرادته هي ذات العينين السكحيلتين ، لوفور عقله وكمال إيمانه .

قال أبو عبد الله : والحديث الشريف بعد كل هذا الذي حكيناه يدل على أن الحب متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الإنسانية العامة ، متسعاً لها غير محصور في الخصوص منها — كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال في النفس ، واستطاع الإنسان أن يجعل حبه يتناول الأشياء المختلفة ، ويرد على نفسه من لذاتها ، فإن لم يسعده شيء بخصوصه ، وجد أشياء كثيرة تسعده بين السماء والأرض ، وإن وقع في صورة امرأته ما لا يعدُّ جمالاً ، رأى الجمال في أشياء منها غير الصورة ، وتعرّف إلى ما لا يخفى ، فظهر له ما يخفى .

وليست العين وحدها هي التي تؤامر في أيّ الشئين أجل ، بل هناك العقل والقلب ، فخياب العين وحدها إنما هو ثلث الحق . ومتى قيل : « ثلث الحق » فضياع الثلثين يجعله في الأقل حقا غير كامل .

فما نكرهه من وجه ، قد يكون هو الذي نحبّه من وجه آخر ، إذا نحن

تركنا الإرادة السليمة تعمل عملها الإنساني بالعقل والقلب ، وبأوسع النظير
دون أن أضيعهما « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

فوثب ابن أيمن ، وأقبل يدور في المجلس مما دخله من طرب الحديث
ويقول : ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا ابن عمران . قال مسلم : فكيف
بك لو سمعته من أبي عبد الله ؛ إنه والله قد حَبَّبَ إلى السوداء والقبیحة والدميمة ،
ونظرتُ لنفسی بخير النظيرين ، وقلتُ : إن تزوّجتُ يوماً فما أبالي جمالاً ولا
قبحاً ، إنما أريد إنسانيةً كاملة مني ومنها ومن أولادنا ، والمرأة في كل امرأة ،
ولكن ليس العقل في كل امرأة .

قال : ثم إنني رجعتُ إلى البصرة ، وآثرتُ السكنى بها ، وتعلّم الناسُ
إقبالي ، وعلمتُ أنه لا يحسنُ بي المُقامُ بغير زوجة ، ولم يكن بها أجلٌ قدراً
من جدّ هذين الغلامين ، وكانت له بنت قد عضّلتها وتعرّضَ بذلك لعداوة
خُطّابيها ؛ فقلت : ما لهذه البنت بدٌّ من شأن ، ولو لم تكن أكل النساءِ
وأجملهن ، ما ضنَّ بها أبوها رجاوةً أن يأتيه من هو أعلى . فحدثني نفسى بلقائه
فيها ، فخبّته على خلوة ...

فقطع عليه ابن أيمن وقال : قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين ،
وإنما نريدُ من خبر تلك الدميمة التي تعشّقتها .

قال : مهلاً فستنتهي القصةُ إليها . ثم إنني قلت : يا عمّ ، أنا فلانُ بن فلان
التاجر . قال : ما خفي عنى محلك ومحلُّ أهلك . فقلت : جئتُك خاطباً لابنتك .
قال : والله ما بي عنك رغبة ، ولقد خطبها إلى جماعة من وجوه البصرة وما
أجبتهم ، وإنى لكارّة إخراجها عن حِضْنِي إلى من يُقوِّمُها تقويمَ العبيد .

فقلت : قد رفعها الله عن هذا الموضع ، وأنا أسألك أن تدخلني في عددك ،
وتخلطني بِشَمْلِكَ .

فقال : ولا بد من هذا ؟ قلت : لا بد . قال : اُغْدُ عَلَىٰ بَرِّجَالِكَ .
فانصرفتُ عنه إلى مَلَأٍ من التجار ذوى أخطارٍ ، فسألتهم الخضور في
غَدٍ ؛ فقالوا : هذا رجل قد رد من هو أثرى منك ، وإنك لتُجرَّكُنَا إلى
سَعْيٍ ضائعٍ .

قلت : لا بد من ركوبكم معي . فركبوا على ثقة من أنه سيردُّهم .
فصاح ابن أيمى وقد كادت روحه تخرج : فذهبت ، فزَوَّجَكَ بالجميلة الرائعة
أم هذين ؛ فما خبرُ تلك الدميمة ؟

قال مسلم : يا سيدي قد صبرت إلى الآن ، أفلا تصبر على كلماتٍ تُنبئُكَ
من ابن يبدأ خبرُ الدميمة ، فإني ما عرفتها إلا في العُرسِ . . . !
قال : وَعَدَوْنَا عليه فَأَحْسَنَ الإجابة وزَوَّجَنِي ، وأطعم القوم ونحر لهم ، ثم
قال : إن شئتَ أن تبينَ بأهلك فافعل ، فليس لها ما يُحتاجُ إلى التلَوِّمِ
عليه وانتظاره .

فقلت : هذا يا سيدي ما أحبه . فلم يزل يُحدِّثني بكل حَسَنٍ حتى كانت
المغرب ، فصلاها بي ، ثم سَبَّحَ وسَبَّحْتُ ، ودعا ودعوتُ ، وبقى مقبلاً على
دعائه وتسيحه ما يلتفتُ لغير ذلك ، فأَمْضَيْ — علم الله — كأنه يرى أن ابنته
مُقبِلَةٌ منى على مصيبة ، فهو يتضرَّع ويدعو . . . !

ثم كانت العَتَمَةُ فصلاها بي ، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دار قد فُرِشَتْ
بأحسن فُرْشٍ ، وبها خَدم وجوارٍ في نهايةٍ من النظافة ؛ فما استقرَّ بي الجلوس
حتى نهض وقال : أَسْتَوْدَعُكَ الله ، وقَدَّمَ الله لكما الخير وأَحْرَزَ التوفيق .
واكتنفي عجائزُ من شمله ، ليس فيهنَّ شابةٌ إلا من كانت في الستين . . .

فنظرت فإذا وجوهٌ كوجوه الموتى ، وإذا أجسامٌ بالية يتصام بعضها إلى بعض ، كأنها أطلالُ زمنٍ قد انقضَّ بين يدي .

فصاح ابن أيمن : وإن دَمِمتك لعجوزٌ أيضاً ... ؟ ما أراك يا ابن عمران إلا قتلتَ أُمَّ الغلامين ... !

قال مسلم : ثم جَلَوْنِ ابنته علىَّ وقد ملأن عينيَّ هرمًا وموتًا وأخيلةَ شياطين وظلالٍ قُرود ؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتي ، حتى أسرعن فأرخين السور علينا ؛ فحمدتُ الله لذهابهن ، ونظرت

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ : لقد أطلت علينا ، فسَتَحَكِي لنا قصتك إلى الصباح ، قد علمناها ويليكَ ، فما خبرُ الدميمة الشوهاء ؟
قال مسلم : لم تكن الدميمةُ الشوهاء إلا العروس

فزاغت أعين الجماعة ، وأطرق ابنُ أيمن إطراقةً مَنْ وَرَدَ عليه ما حَيَّرَه ؛
ولكن الرجل مَضَى يقول :

ولما نظرتها لم أرَ إلا ما كنتُ حفظته عن أبي عبد الله البليخي ، وقلتُ :
هي نفسى جاءت بي إليها ، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فيَّ ويُديرني ويَصْرِفُني ؛ وما أسرع ما قامت المسكينةُ فأكَبَّتْ على يدي وقالت :

« يا سيدي ، إني سرٌّ من أسرار والدي ، كتمه عن الناس وأفضى به إليك ،
إذ رآكَ أهلاً لسِتره عليه ، فلا تخفِرْ ظَنَّهُ فيكَ ، ولو كان الذى يُطَلَّبُ من
الزوجة حسنَ صورتها دون حُسْنِ تدبيرها وعفافها لعَظُمَتْ حِجَّتِي ، وأرجو أن
يكون معي منهما أكثرُ مما قَصَّرَ بي في حُسْنِ الصورة ؛ وسأبلغ محبَّتَكَ في كل
ما تأمرني ؛ ولو أنك آذيتني لَعَدَدْتُ الأذى منك نعمةً ، فكيف إن وَسَعَنِي
كرمُكَ وسَتَرْتُكَ ؟ إنكَ لا تعاملُ اللهَ بأفضلَ من أن تكون سبباً في سعادةِ بأُسَّةٍ

مثلى . أفلا تحرصُ يا سيدى ، على أن تكون هذا السببَ الشريف ... »
ثم إنها وثبتت فجاءت بمالٍ فى كيس ، وقالت : يا سيدى ، قد أحلَّ الله لك
معى ثلاثَ حرائر ، وما آثرته من الإماء ؛ وقد سَوَّغْتُكَ تزويجَ الثلاثِ وابتياحَ
الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد وقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك
إلا سترى فقط !

قال أحمد بن أيمن : فُخِّفَ لى التاجر : أنها ملكت قلبى مِلْكا لا تصلُ إليه
حسناً بحسبها ؛ فقلت لها : إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه منى : « والله لأجعلَنَّكَ
حظى من دنياى فيما يؤثِّره الرجلُ من المرأة ، ولأضربَنَّ على نفسى الحجاب ،
ما تنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبداً . » ثم أتممتُ سرورَها ، فحدثتها بما حفظته عن
أبى عبد الله البلخى . فأيقنتُ — والله يا أحمد — أنها نزلت منى فى أرفع منازلها
وجعلتُ تحسُنَ وتحسُن ، كالغصن الذى كان مجروداً ، ثم وخزته الخُضرةُ من
هنا ومن هنا .

وعاشرتها ، فإذا هى أضبطُ النساء ، وأحسنهن تدبيراً ، وأشفقهن على ، وأحبهن
لى ؛ وإذا راحتى وطاعتى أوَّلُ أمرها وآخره ؛ وإذا عقلها وذكاؤها يظهريان لى
من جمال معانيها مالا يزال يكثر ويكثر ، فجعل القبح يقلّ ويقل ، وزال القبح
باعتمادى رؤيته ، وبقيت المعانى على جمالها ؛ وصارت لى هذه الزوجة هى المرأة
وفوق المرأة .

ولما ولدت لى ، جاء ابنها رائع الصورة ؛ فحدثتني أنها كانت لا تزال تتمنى
على كرم الله وقدرته أن تتزوج وتلد أجمل الأولاد ، ولم تدع ذلك من فكرها
قط ، وألَّفَ لها عقلها صورةَ أجمل غلام تتنلُّه وما برحت تتنلُّه ؛ فإذا هى أيضاً

كان لها شأنٌ كشأنى ، وكان فكرُها عملاً يعملُ في نفسها ، ويُديرها
ويصرفُها .

ورزقنى الله منها هذين الابنَيْنِ الرائعين لك ، فانظر ؛ أى معجزتين من
معجزات الإيمان ... !

الطائشة

قال صاحبُها وهو يُحدثنى من حديثها :

كانت فتاةً متعلِّمةً ، حُلوةَ المنظر ، حُلوةَ الكلام ، رقيقةَ العاطفة ، مُرَهَفَةً
الحسِّ ، فى لسانها بيانٌ ولوجُها بيانٌ غيرُ الذى فى لسانِها ، تعرِّفُ فيه الكلامَ
الذى لا تتكلمُ به ...

ولها طبعٌ شديدُ الطَّربِ للحياة ، مُستترِسلٌ فى مَرَّحِهِ ، خفيفٌ طيَّاشٌ ،
لو أثقلتْهُ بجبلٍ لخفَّ بالجبل ؛ تحسبُها دائماً سَكْرَى تتمايلُ من طربها ، كأن
أفكارها المِرحةَ هى فى رأسها أفكارٌ وفى دَمِها خمرٌ ...

وكان هذا الطبعُ السكرانُ بالشباب والجمال والطرب — يعملُ عمليْنِ
متناقِضين ؛ فهو دلالٌ مُتراجعٌ منهزم ، وهو أيضاً جُرْأَةٌ مُندَفِعةٌ متهمِّجةٌ .

وهزيمةُ الدلالِ فى المرأةِ إنْ هى إلا عَمَلٌ حَرْبِيٌّ ، مُضْمَرَةٌ فيه الكَرَّةُ
والهجوم ؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرةَ ذاتِ المعنَيْنِ : نظرةً واحدةً ؛ بها تُؤنِّبُك
المرأةُ على جَرَأَتِكَ معها ، وبها أيضاً تَعَذِّلُكَ على أنك لستَ معها أجراً
مما أنت ... !



قلت : ويحك يا هذا ! أتعرف ما تقول ؟

قال : فمن يعرف ما يقول إذا أنا لم أعرف ؟ لقد أحببتُ خمسَ عشرةَ فتاة ؛ بل هُنَّ أحببْنِي وفرَّغنَ قلوبهنَّ لي ، ما اعتزَّتْ عليَّ منهنَّ واحدة ، وقد ذهبن بي مذهباً ، واسكني ذهبتُ بهنَّ خمسةَ عشرَ !

قلت : فلا ريبَ أنك تحملُ الوِسامَ الإبلِسيَّ الأوَّلَ من رُتبةِ الجَمرةِ فكيف استَهَمَ بك خمسَ عشرةَ فتاة ؛ أجاهلاتُ هنَّ ، أعمىاواتُ هنَّ . . . ؟

قال : بل متعلَّقاتُ مُبصراتُ يَرَيْنَ ويُدركنَ ، ولا تُخطيُ واحدةٌ منهن في فهم أن رجلاً وامرأةً قصةُ حُبٍّ وما خمسَ عشرةَ فتاة ؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن الحائرِ البائرِ ، الذي كَسَدَ فيه الزواجُ ، ورقَّ فيه الدين ، وسقط الحياءُ ، والتهبَّتْ العاطفةُ ، وانتشرَ اللُّهو ، وكثُرَتْ فنونُ الإغراء ، واصطلح فيه إبليسُ والعلمُ يعملان معاً . . . ؛ وأُطلِقَتِ الحريةُ للمرأة ، وتوسَّعتِ المدارسُ فيما تقدَّم للفتيات ، وأظهرت من الخفاوةِ بهنَّ أمراً مُفْرِطاً حتى أخذن منها رُبَّ العلم . . . ؟

قلت : وثلاثةُ أرباعِ العلمِ الباقية ؟

قال : يأخذنها من الروايات والسيما .

عِلْمُ المدارس ، ما عِلْمُ المدارس ؟ إنهن لا يصنَّعن به شيئاً إلا شهاداتٍ هي مكافأةُ الحفظ وإجازةُ النسيان من بعد ؛ أما عِلْمُ السيما والروايات فيصنَّعن به تاريخهن . . . ورُبَّ منظر يشهده في السبا ألفُ فتاة بمرَّةٍ واحدة ، فإذا استقرَّ في وعيهن ، وطافت به الخواطرُ والأحلام — سلبهنَّ القرارَ والوقارَ فمثَّلْنَه ألفَ مرَّةٍ بألفِ طريقةٍ في ألفِ حادثة !

يظنون أننا في زمنٍ إزاحةِ العقباتِ النسائيةِ واحدةً بعد واحدة ، من حرية المرأة وعلمها ؛ أما أنا فأرى حريةَ المرأة وعلمها لا يُوجدان إلا العقباتِ النسائيةِ

عَقَبَةً بعد عقبه . وقد كان عيبُ الجاهلةِ المقصورةِ في دارها أن الرجلَ يحتالَ عليها ، فصار عيبُ المتعلمةِ المفتوحِ لها البابُ أنها هي تحتالُ على الرجلِ ؛ فمرةً بإبداعِ الحيلةِ عليه ، ومرةً بتلقينه الحيلةَ عليها . والغريبُ في أمرِ هذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاةَ تبدأ الطريقَ المجهولَ بجهلٍ . . . !

قلت : وما الطريقُ المجهولُ ؟

قال : الطريقُ المجهولُ هو الرجلُ ، [وإطلاقُ الحريةِ للفتاةِ أطلقَ ثلاثَ حُرَيَّاتٍ : حريةَ الفتاةِ ، وحريةَ الحبِّ ، والأخرى حريةُ الزواجِ ؛ ولما انطلقَ ثلاثُهُنَّ معاً تَغَيَّرَ ثلاثُهُنَّ جميعاً إلى فسادٍ واختلالٍ .

أما الفتاةُ فكانت في الأكثرِ للزواجِ ، فعادت للزواجِ في الأقلِّ وفي الأكثرِ للهوى والغزلُ ؛ وكان لها في النفوسِ وقَارُ الأمِّ وحرمةُ الزوجةِ ، فاجترأ عليها الشبانُ اجتراءهم على الخليعةِ والساقطةِ ؛ وكانت مقصورةً لا تُنالُ بعيبٍ ولا يتوجَّهَ إليها ذمٌّ ، فمشت إلى عُيوبِها بقدميها ، ومشت إليها العيوبُ بأقدامِ كثيرةٍ . . . وكانت بحملتها امرأةً واحدةً ، فعادت مما ترى وتعرفُ وتكابدُ كأنَّ جسمها امرأةٌ ، وقلبها امرأةً أخرى ، وأعصابها امرأةً ثالثةً . . .

وأما الحبُّ ، فكان حبا تتعرَّفُ به الرجولةُ إلى الأنوثةِ في قيودٍ وشروطٍ ، فلما صار حرّاً بين الرجولةِ والأنوثةِ ، انقلبَ حيلةً تغتَرُّ بها إحداها الأخرى ؛ ومتى صار الأمرُ إلى قانونِ الحيلةِ ، فقد خرج من قانونِ الشرفِ ، ويرجعُ هذا الشرفُ نفسه كما نراه ، ليس إلا كلمةً يُحتالُ بها .

وأما الزواجُ ، فلما صار حرّاً جاء الفتاةَ بشبهِ الزوجِ لا بالزوجِ . . . وضعفتُ منزلتهُ ، وقلَّ اتِّفاقُهُ ، وطال ارتقَابُ الفتياتِ له ، فضعفَ أثرُهُ في النفسِ المؤنَّثةِ ؛ وكانت من قبلُ لَفْظَتَا (الشابِّ ، والزوجِ) شيئاً واحداً عند الفتاةِ وبمعنى واحدٍ ، فأصبحتا كلمتين متميزتين : في إحداها القوةُ والكثرةُ والسهولةُ ، وفي الأخرى

الضعف والقلة والتعذر ؛ فالكل شبانٌ وقليلٌ منهم الأزواج ؛ وبهذا أصبح تأثيرُ الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يُقنعها منه أخسُّ بُرهاناته ، لا بأنه هو مُقنع ، ولكن بأنها هي مهيةٌ للاقتناع . . .

وفي تلك الأحوال لا يكون الرجلُ إلا مغفلاً في رأى المرأة . — إذا هو أحبها ولم يكن محتالاً حيلةً مثله على مثلها ، ويظلُّ في رأيها مغفلاً حتى يخدعها ويستزلفها ؛ فإذا فعل كان عندها ندلاً لأنه فعل . . . وهذه حريةٌ رابعة في لغة المرأة الحرة والزواج الحرُّ والحب الحر !

[وانظر — بعيشك — ما فعلت الحرية بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحت هذه الكلمة السامية من مبدوء الكلام ومكروهه حتى صارت غير طبعية في هذه الحضارة ، ثم كيف أحوالها فجعلتها في هذا العصر أشهر كلمة في الألسنة ، يُتهمكم بها على الدين والشرف وقانون العرف الاجتماعي في خوف المعرة والدينية والتصاؤون من الرذائل والمبالاة بالفضائل ؛ فكل ذلك (تقاليد) . . .]

وقد أخذت الفتيات المتعلّات هذه الكلمة بمعناها تلك ، وأجريت فيها في اعتبارهن مكروهة وخشية ، وأضفن إليها من المعاني حواشي أخرى حتى ليكاد الأب والأم يكونان عند أكثر المتعلّات من « التقاليد » . . . أي كلمة أبدعتها الحرية ، أم أبدعها جهلُ العصر وحقائقه ، وفجوره وإخاذه ؟ أي كلمة تعلّقها الفتيات المتعلّات لأنها لغة من اللغة ، أم لأنها من لغة ما يُحِبُّبن . . . ؟

« تقاليد » . . . ؟ فما هي المرأة بدون التقاليد . . . ؟ إنها البلاد الجميلة بغير جيش ، إنها الكنز الخبوء مُعرّضاً لأعين اللصوص ، تحوطه الغفلة لا المراقبة . هب الناس جميعاً شرفاء مُتعففين مُتصاوين ؛ فإن معنى كلمة « كنز » متى تَرَكْتَ له الحرية وأغفل من تقاليد الحراسة ، أوجدت حرّيته هذه بنفسها معنى كلمة « اص »

قال صاحبنا : أما الفتاة المحررة من (التقاليد) .. كما عرفتُها فهي هذه التي أقصَّ عليك قصتها ، وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاة رُشدين : يثبتُ أحدهما بالسِّن ، ويثبت الآخرُ بالزواج . ولو أن عائِسا ماتت في سن الخمسين أو الستين لوجب أن يقال : إنها ماتت نصفَ قاصِر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأة نصفَ الرجل ، إذ تمامُ شرفها الاجتماعي أن يكون الرجلُ مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوجُ على هذا هو تمامُ رُشدِ الفتاة بالغةً ما بلغت .

وأساسُ المرأة في الطبيعة أساسٌ بدنيٌّ لا عقليٌّ ، ومن هذا كانت هي المصنع الذي تصنعُ فيه الحياة ، وكانت دائماً ناقصةً لا تتم إلا بالآخر الذي أساسه في الطبيعة شأنُ عقله وشأنُ قوته ...

واعتبرْ ذلك بالمرأة تدرُسُ وتتعلم وتنبُغ ، فلو أنك ذهبتَ تمدحُها بوفورِ عقلها وذكاها ، وتقرِّظها بنبوغها وعبقريتها ، ثم رأيتَك لم تلقِ كلمةً ولا إشارةً ولا نظرةً على جسمها ومحاسنها — لتحوَّلَ عندها كلُّ مدحِكَ ذماً ، وكلُّ ثنائِكَ سُخرية ؛ فإن النبوغَ هاهنا في أعصاب امرأة تريد أن تعرفَ مع أسرار الكون أسرارَ كونها هي ، هذا الكون البدنيُّ الفاتن ، أو الذي تزعمُه هي فاتناً ، أو الذي لا ترضاه ولا ترضى أن تكونَ صاحبتَه إلا إذا وجدت من يزعمُ لها أنه كونٌ فاتنٌ بديعٌ ، مزينٌ بشمسه وقره وطبيعته المتنصِّرة التي تجعلُ مسَّهُ مسَّ ورقِ الزهر .

مثلُ هذه إنما يكونُ الثناءُ عليها ثناءً عندها حينما يكونُ أقلُّه باللسانِ العلويِّ ولغته ، وأكثرُه بالنظرِ الفنيِّ ولغته . وهذا على أنها عالمةُ الجنسِ ونابعته ، ودليلُ شدوذه العقليِّ ، والواحدة التي تحيى كالفلتهِ المفردةِ بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمن دونها ، وكيف بالنساء فيما هنَّ نساءٌ به ؟

دع جماعة من العلماء يمتحنون هذا الذى بينت لك ، فيأتون بامرأة جميلة نابغة ، فيضعونها بين رجال لا تسمع من جميعهم إلا : ما أعقلها ، ما أعقلها ، ما أعقلها ! ولا ترى فى عيني كل منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظر التلميذ لمعلمه فى سن جدته ... فهذه لن تكون بعد قريب إلا فى حالة من اثنتين : إما أن يخرج عقلها من رأسها ، أو ... أو تخرج فى وجهها لحيمة ... ! (ما أعقلها !) كلمة حسنة عند النساء لا يأتينها ولا يذمنها ، غير أن الكلمة البليغة العبقريّة الساحرة ، هى عندهن كلمة أخرى ، هى : (ما أجملها !) ؛ إن تلك تشبه الخبز القفّار لا شىء معه على الخوان ، أما هذه فهى المائدة مزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضاً .

وكان العقل الإنسانى قد غضب لمهانة كلمته وما عرّها به النساء ، فأراد أن يثبت أنه عقل ، فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة : (ما أعقلها) كل الشان والخطر ، وكل البلاغة والسحر ، عند ... عند الطفلة ... تفرح الطفلة أشد الفرح ، إذا قيل : ما أعقلها ... !

فقلت لمحدثى : كأنك صادق يا فتى ! لقد جلست أنا ذات يوم إلى امرأة أديمة لها ظرف وجمال ، وجاءت كبريائى فجلست معنا ... وكانت (التقاليد) كالحاشية لى ؛ فعلمت بعد أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدرى كيف استطاع أن ينسب جسمى وأنا إلى جانبه ، أذكره أنى إلى جانبه ! لكأنما كانت لقلبه أبواب يفتح ما شاء منها ويعلق . »

قال محدثى : فهذا هذا ؛ إن إحساس المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها ، أو تهتم أن تختاره ، أو تؤد أن تختاره ؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصّور الأخرى من رجلها فى أولادها .

وحياة المرأة لا أسرارَ فيها ألبتة ، حتى إذا دخلها الرجلُ عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتبينت أن هذا الجسم الآخر هو فلسفةٌ عميقةٌ لجسمها وعقلها .
قال : وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة ، وأنا مُغضبٌ أو كالمُغضب ...
ثم تلاحينا وطال بيننا التّلاحي ؛ فقالت لى : أنت بجانبى وأنا أسألُ : أين أنت ؟
فإنك لست كلُّك الذى بجانبى !

قال : ومذهبي فى الحب ، الكبرياء ، كما قلتَ أنت ، غيرَ أنها الكبرياء التى تدرك المرأة منها أنى قوى لا أنى مُتَكَبِّر ؛ كبرياء الرجل إمّا مهيبٌ مَرِح يملكُ أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مهيبٌ يملكُ أحزانَ هذا القلب .
إن المرأة لا تحبُّ إلا رجلاً يكون أولُ الحسن فيه حُسنَ فهمها له ، وأولُ القوّة فيه قوّةٌ إعجابها به ، وأولُ الكبرياء فيه كبرياءها هى بحبّه وكبرياءها بأنه رجل .
هذا هو الذى يجتمعُ فيه للمرأة اثنان : إنسانها الظريف ، ووحشها الظريف !

قلت : لقد بُدّنا عن القصة ، فما كان خبرُ صاحبتك تلك ؟
قال : كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوِّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبرىائى فى الحب ، ووصفتنى لها صفةً الإحساس لا وصفَ الكلام ؛ فكأنما تنبّهت فيها طبيعةَ زهو الفتاة بأنها فتاة ، وغيرةُ افتتانِ الأنثى بأن تكون فاتنة ؛ فرأت فى إخضاعى لجمالها عملاً تعملُه بجمالها .
ومتى كانت الفتاة مستخفةً « بالتقاليد » كهذه الأدبية المتعلّمة — رأت كلمة (الزوج) لفظاً على رجلٍ كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها فى المعنى ، ولا يختلفان إلا فى (التقاليد) ...

وعرّضت لى كما يعرّضُ المصارعُ للمصارع ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات ، اللواتى يحسبن أن فى قوتهن العلميّة تيّاراً زاحراً نهرنا الاجتماعى الراكد ؛ فتاة

تخرّجت في مدرسة أو كلية ، أو جاءت من أوروبا بالعالمية ... أفندري أية معجزة مصرية في هذا تباهى بها مصر ؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرّسة ، أو مفتّشة ، أو ناظرة في وزارة المعارف ؛ أو مؤلفة كتب وروايات ، أو محرّرة في صحيفة من الصحف . ولا يصعّرَن عندك شأن هذه المعجزة ، فهي والله معجزة مدام يتحقّق بها خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها ، وبقاؤها في الاجتماع المصرى امرأة بلا تأنيث ، أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير !

وكيف لا يكون من المعجزات أن تأليف رواية قد أغنى عن تأليف أسرة ؛ وأن فتاة تعيش وتموت وما ولدت للأمة إلا مقالات ... ؟

فقلت : يا صاحبي ، دُع هؤلاء وخذ الآن في حديث الطائشة الخارجة على التقاليد ، وقد قلت إنها عرّضت لك كما يعرض المصارع للمصارع . قال : عرّضت لى تريد أن تُصرّفتى كيف شئت ، فنبتوت في يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارها على هذه الرغبة ، فالتويت عليها ؛ فزادت إليهما خشية اليأس والخيبة ، فتعسّرت معها ؛ فزادت إلى هذه كلّها ثورة كبريائها ، فلم تسهّل ؛ فانتهدت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التي هي أول العبث والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التي هي أول الحب والهوى : رغبة تعذيبى بها لأنها مُتَعَذِّبَةٌ بى .

ثم ردتها الطبيعة صاغرة إلى حقائقها السلبية ، فإذا الكبرياء فيها إنما كانت خضوعاً يترأى بالعصيان ، وإذا الرغبة في تعذيب الرجل إنما كانت التماساً لأن تنعم به ، وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصراراً على تجرّئته ودفعه أن يستبدّ ويملك ؛ ورتتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النسوية الصريحة ، التي بنيت المرأة عليها شاءت أم أبت ، وهي أن تُعانى وتصر على ما تُعانى !

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً ، وكان هذا يشتدُّ عليها ، لأنه إشفاقٌ لا حُبٌّ ؛
وكانت إذا سألتني عن أمرٍ ترتابُ فيه ، قالت : أَجِبْنِي بلسانِ الصدق لا بلسانِ
الشفقة . وكانت تقول : إن في عينيها بكاءً لا تستطيع أن تزيله مع الدمع ،
وسيقْتُلُها هذا البكاء الذي لا يُبْكِي ، وقد اتخذت لها في دارها خلوةً ستمها :
(محرابَ الدَّمْعِ !) ، قالت : لأنها تبكي فيها بكاءً صلاةً وحباً ، لا بكاءً
حب فقط !

ثم طاشت الطيشة الكبرى ... !

قلت : وما الطيشةُ الكبرى ؟

قال : إنها كتبتُ إلى هذه الرسالة :

« عزيزي رَغِمَ أنْفِي ... »

« لقد أذَلَّتَنِي بشيئين : أحدهما أنك لم تَدِلَّ لي ، وجعلتني — على تعليمي —

أشدَّ جهلاً من الجاهلة ؛ وقد نسيت أن المرأة المتعلمة تعرفُ ثم تعرفُ مرتين :
تعرفُ كيف تُخطيء إذا وجب أن تخطيء ، وهذه هي المعرفة الأولى ؛ أما المعرفة
الثانية فتَوَهَّهها أنت ، فكأنني قلتُها لك ... »

« اعلم — يا عزيزي رَغِمَ أنْفِي — أني إذا لم أكن عنيزتك رَغِمَ أنْفُكَ ،

فسأتني ما يجعلك سَلَفًا ومَثَلًا ، وستكتب الصحفُ عنك أوَّلَ حادث يقع في
مصر عن أوَّل رجل اختطفته فتاة ... !

« وبعْدُ ، فقد أرسلتُ رُوحِي تُعَانِقُ رُوحَكَ ، فهل تشعرُ بها ؟ »

قال : فوجئتُ ساعةً وتبينتُ لي خفتها ، وظهر لي سَفَاهُها وطيشُها ، فأسرعتُ

إليها فَجَبْتُها فأجدها كالقاضي في محكمته ، لا عقلَ له إلا عقلُ الحكم القانوني
الذي لا يتغير ، ولا إنسانَ فيه إلا الإنسانُ المقيَّدُ بمادة كذا إذا حَدَثَ كذا ،

والمادة كذا حين يكون وصفُ الجرم كذا... !
فقلت لها : أهذا هو العلم الذي تعلَّمته ؟ ألا يكون علمُ المرأة خليقاً أن يجعل
صاحبته ذات عقلين إذا كانت الجاهلة بعقل واحد ؟
قالت : العلم ؟

قلت : نعم ، العلم .

قالت : يا حبيبي ، إن هذا العلم هو الذي وضع المسدس في يد المرأة الأوربية
لعاشقها ، أو معشوقها ! ثم أطرقت قليلاً وتنهَّدت وقالت : والعلم هو الذي جعل
الفتاة هناك تزوج بإرشاد الرواية التي تقرؤها ولو انقلب الزواج رواية...
والعلم هو الذي كشف حجاب الفتاة عن وجهها ، ثم عاد فكشف حياء وجهها ،
وأوجب عليها أن تواجه حقائق الجنس الآخر وتعرفها معرفة علمية... والعلم
هو الذي جعل خطأ المرأة الجنسي معفواً عنه ما دام في سبيل مواجهة الحقائق
لا في سبيل الهرب منها... والعلم هو الذي جعل المرأة مُساوية للرجل ، وأكد
لها أن واحداً وواحداً هما واحدٌ وكلاهما أوَّل... والعلم هو الذي عرَّى أجسام
الرجال والنساء ببرهان أشعة الشمس... والعلم يا عزيزي هو العلم الذي محَّاه من
العالم لفظة (أمس) لا يعرفها وإن كانت فيها الأديان والتقاليد...

قال صاحبها : فقلت لها : كأن العلم إفسادُ المرأة ! وكأنه تعليمُ معرَّاتها
وتقائصها ، لا تعليمُ فضائلها ومحاسنها...

قالت : لا ، ولكن عقل المرأة هو عقلُ أنثى دائماً ، ودائماً عقلُ أنثى ؛
وفي رأسها دائماً جوُّ قلبها ، وجوُّ قلبها دائماً في رأسها ؛ فإذا لم تكن مدرستها
متممةً لدارها وما في دارها ، تمتَّ فيها الشارع وما في الشارع .

العلم للمرأة ؛ ولكن بشرط أن يكون الأبُ وهيبة الأبُ أمراً مقررّاً في

العلم ، والأخُ وطاعةُ الأخِ حقيقةً من حقائق العلم ؛ والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئاً ثابتاً في العلم ، والاجتماعُ وزواجُ الدينيَّة والاجتماعيَّة قضايا لا يَنسخُها العلم . بهذا وحده يكونُ النساءُ في كل أمة مَصانِعَ علميَّة للفضيلة والكمالِ والإنسانية ، ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامة ، لأنه يبدأ من المرأة التامة .

أما بغير هذا الشرط ، فالمرأةُ الفلاحَةُ في حِجرها طفلٌ قَدِر ، هي خير للامة من أ كبر أديبة تُخرج ذُرِّيَّة من الكتُب . . .

انظر يا عزيزي رغم أنفي ، هذه رسالة جاءني اليوم من صديقتي فلانة الأديبة ال . . . فاسمع قولها :

« ... وأنا أعيشُ اليوم في الجمال ، لأنني أعيشُ في بعضِ خفايا الحبيب . . .
« وفي الحياة موتٌ حلوٌ لذيذ ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسي على صدره القوي ، وحينما نسيتُ على صدره القوي صدري . . . »

أسمعت يا عزيزي ؟ إن كنتَ لَمَّا تَعَلَّم أن هذا هو علمُ أكثرِ الفتياتِ المتعلِّماتِ حين يكسِدُ الزواج — فاعلمهُ . ومتى عَمِيَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى ، فإن حرية المرأة لا تكون أبداً إلا حرية الفكرة المحرمة !

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هذا . . . ودسَّ يده في جيبه فأخرج أوراقاً كتبَ فيها روايةً صغيرةً أسماها : (الطائشة) .

الطائشة

٢

وهذا مُحْصَلُ رواية « الطائشة » ، نقلناه من خطِّ الكاتب على مَسَاقٍ ما دَوَّنه في أوراقه ، وعلى سَرَدِهِ الذي قَصَّ به الخبر ؛ وقد أعطانا من البرهان ما نطمئنُ إليه أن هذه « الطائشة » هي من تأليف الحياة لا من تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يأنفِكْ حديثاً ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم يَنْقُصْها بمعِرة ؛ ثم أشهد على قوله كُتِبَ صاحبته الأديبة المُسْتَهْتَرَةُ التي لا تبالى ما قالت ولا ما قيل فيها ؛ وهذه الكتبُ رسائلُ : منها المُوجِزُ ومنها المستفيضُ ، وهي بجملة ما تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنِّنة ، وتنزلُ الروايةُ منها منزلةَ اللُّمَعِ المقتضبة ؛ وكل ذلك يُشبه بعضُه بعضاً ، فكلُّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض .

قال كاتب (الطائشة) :

كنتُ رجلاً غزِلاً ولم أكن فاسقاً ، ولستُ كهؤلاء الشَّبَّان الذين أُصيبوا في إيمانهم بالله فأصيبوا في إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقِّقون المدينية فحقَّقوا كلَّ شيء إلا المدينية .

ترى أحدهم شريفاً يأنفُ أن يكونَ لصاً وأن يسمى لصاً ، ثم لا يعملُ إلا عملَ اللص في استلاب العفافِ وسرقة الفتياتِ من تاريخون الاجتماعى ؛ وتراه نجدّاً يستنكفُ أن يكونَ فى أوصاف قاطع الطريق ، ثم يأبى إلا أن يقطع الطريقَ فى حياة العذارى وشرفِ النساء .

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يعرضون للفتيات المتعلّقات بوجوه مصقولة تحتملُ شيئين : الحبَّ والصَّع . . . ولكنَّ أكثرَ هؤلاء المتعلّقات يضعنَ القُبلة

في مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّ الغريزة التي فيهن فعاتت بقايا لا تستمسك ؛ وبصرهنَّ بأشياء تزيد قوة الحياة فيهن خطراً ، وتوحي إليهنَّ وخيها من حيث يشعرن ولا يشعرن ؛ وصوّر في أوهامهنَّ صوراً تحت الصور التي كانت في عقائدهن ؛ وأخرجهنَّ من السلب الطبيعي الذي حماهنَّ الله به ، فلهنَّ العفة والحياء ، ولكن ليس لهن ذلك العقل الغريزي الذي يجيء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتُ منهنَّ يخشين العارَ وسمته الاجتماعية ولكن خشيّة فقهاء الحيل الشرعية ، قد أرضدوا الكل وجهه من التحريم وجهاً من التحليل ، فأصبح امتناع الإثم هو ألا تكون إليه حاجة

والعقل الذي به التفكير يكون أحياناً غير العقل الذي به العمل ؛ ففي بعض الجاهلات يكون عقل الحياء والعفة والشرف والدين — غريزة كغرائز الوحش ، هي الفكرة وهي العمل جميعاً ، وهي أبداً الفكرة والعمل جميعاً لا تتغير ولا تبدل ، ولا يقع فيها التنقيح الشعري ولا الفلسفي وما غريزة الوحش إلا إيمانه بمن خلقه وحشاً ؛ وكذلك غريزة الشرف في الأنثى هي عندى حقيقة إيمانها بمن خلقها أنثى .

وشرف المرأة رأس مال للمرأة ، ومن ذلك كان له في أوهام العلم اشتراكية بحسبه تنظر فيه نظرها وتزيغ زيفها وتقضي حكمها ؛ وأكثر من عرفت من المعلمين والمتعلمات قد اتبها بطبيعتهم العلمية إلى الرضى بهذه الاشتراكية ، وإلى التسامح في كثير ، وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبل عُذراً ، ومن هاهنا كان بعض الجاهلات كالحصن المغلق في قمة الجبل الوعر ، وكان بعض المتعلمات دون الحصن ، ودون القمة ، ودون الجبل ، حتى تنزل إلى السهل فتراهنَّ ثمة .
لقد غفلت الحكومات عن معنى الدين وحقيقته ، فلو عرفت لعرفت أن الإنسانية لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما ؛ فإن في الرجل إنساناً عامّاً ونوعاً خاصّاً

مذكراً ، وفي المرأة إنساناً عامّاً كذلك ، ونوعٌ خاصٌّ مؤنث . والدينُ وحده هو الذي يُصلح النوعَ بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية ، وهو الذي يُحاجِزُ بين الغريزتين ، وهو الذي يضعُ القوةَ الروحيةَ في طبيعة المتعلم ؛ فإن كانت طبيعة التعليم قويةً ، كانت الروحيةُ زيادةً في القوة ؛ وإن كانت ضعيفةً كما هي الحالُ في هذه المدنية ، لم تجمع الروحيةُ على المتعلمِ ضعفين ، يبتلي كلاهما الآخر ويزيده .

فلانٌ وفلانٌ تعلّقا فتاتين جاهلةً ومتعلمةً ؛ وكلتاها قد صدّت صاحبها وامتنعتُ منه ؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانها) إنها كالوحش ، وإن صدودها ليس صدوداً حسَبُ ، بل هو ثورةٌ من فضيلتها وإيمانها ، فيها المعنى الحربيُّ مجاهداً مُتَحَفِّزاً للقتل

وأما المتعلمةُ فيقول (فلانها) إنها ككل امرأة ، وإن صدودها ثورةٌ ، ولكن من دلالها تُرضي به أولٌ ما تُرضي وآخر ما تُرضي — كبرياء الجمال فيها لا الإيمان ولا الفضيلة . فكأنها إجماعٌ للطامع أن يزيد طمعاً أو يزيد احتيالاً . . . وفلانٌ هذا يقول لي : إن ضعفاءَ الإيمان من الشبان المتعلمين — وأكثرهم ضعفاءُ الإيمان — لو حققت أمرهم وبلّوت سرائرهم ، لتبينت أنهم جميعاً لا يرون قلبَ الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كُتب عليها : (للإيجار) . . . !

يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا فقد صَحَّ عندي أن سياسةَ أكثر المتعلمات هي سياسةُ فتحِ العينِ حَذَرًا من الشبان جميعاً ؛ وإغماضِ العينِ لواحدٍ فقط . . .

وهذا الواحدُ هو البلاءُ كله على الفتاة ، فإنها بطبيعتها تتقيّد ولا تنفصلُ إلا مُكرهَةً ، وهو بطبيعته قيدهُ لذته ، فيتصلُ وينفصلُ ؛ غير أنها لا بد لها من

هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحى إليها بالحياة لا يجعلُ في ذلك موضعاً للتكبر عندها ، والحياةُ نصفُ معانيها النفسية في الصديق ؛ فالأنوثة بغيره مظلمةٌ في حياتها ، راكدةٌ في طباعها ، ثقيلةٌ على نفسها ، مادام « الشعاع » لا يلمسها . . . والدينُ يأبى أن يكونَ ذلك الصديقُ إلا الزوجُ في شروطه وعهوده ، كيلا تنقيدَ المرأةُ إلا بمن يتقيدُ بها ؛ والعلمُ لا يأبى أن يكونَ الصديقُ هو الحب ؛ والفنُّ يوجب أن يكونَ هو الحب ؛ وليس في الحب شروطٌ ولا عهود ، إلا وسائلٌ تُختلقُ لوقتها ، وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة ؛ ولفظُ الحب نفسه اصُّ لغوى خبيثٌ ، يسرقُ المعاني التي ليست له ويُنفقُ مما يسرق . وليس من امرأةٍ يخذلها عاشقٌ إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص حين يُمسك .

يقول كاتب « الطائشة » .

تلك فلسفةٌ لأبد منها في التوطئة للكتابة عن (عزيزتى رغم أنفى) .
ومن كانت مثلها في أفكارها واستدلالاتها وحججها وطريقاتها — كان خليقاً بمن يكتب قصتها أن يجعلَ القصةَ من أولها مُساحةً

لقد تَكَارَهَتْ على بعض ما أرادت منى مادام الحبُّ (رغم أنفى) ،
وما دامت السياسةُ أن أداريها وأتبعَ محبتها ؛ غيرَ أنى صارحتها بكلمةٍ شمسيةٍ تلمعُ تحت الشمس ، أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنها هو اللهو البرى لا غيره ،
وأن ذلك جهدُ ما أنا قوىُّ عليه وفيَّ به .

قالت : فليكن ، ولكن صداقةً أعلى قليلاً من الصداقة . . . ولو من هذا
الحب المتكبر الذى لا يصدقُ كيلا يكذب . . . إن هذا النوعُ من الحب يطيشُ بعقل المرأة ، ولكنه هو أول ما يستهيمها ويُعجبها ويورثها التِياع الحنين والشوق .

كتبْتُ لى : « أنا لا أنألم فى هواءك بالألم ، ولكن بأشياء منك أقالها الألم ؛
ولا أحزنُ بالحزن ، ولكن بهمومٍ بعضها الحزن .

« إنك صنعتَ لى بكاءً ودموعاً وتهديدات ، وجعلتَ لى ظلاماً منك ونوراً
منك يا نهارى ولىلى . ترى ما اسمُ هذا النوعِ من الصداقة ؟
اسمُه الحبُّ ؟ لا .

« اسمُه الكبرياءُ ؟ لا .

« اسمُه الحنانُ ؟ لا .

« اسمُه حبُّكَ أنتَ ، أنتَ أيها الغامضُ المتقلب . ألا ترى أَلِفاظى تبكى ،
ألا تسمعُ قلبى يصرخُ ، بأىِّ عدْلِكَ أو بأىِّ عدلِ الناسِ تريدُ أن أحيَا فى عالمِ
شمسُه باردة . . . هذا قتلٌ ، هذا قتل . »

فكتبْتُ إليها : « إن لم يكن هذا جنوناً فإنه اقريبُ منه . »
فردتْ على هذه الرسالة :

« أتُكاتبُننى بأسلوبِ التلغراف ... ؟ لو أهديتَ إلى عِقْدٍ من الزمردِ حبَّاتُه
بعددِ هذه الكلماتِ لكنتَ بخيلاً ، فكيف وهى أَلِفاظٌ ؟ إني لأبكى فى غَمَضَةٍ
واحدةٍ بدموعٍ أكثرَ عدداً من كلماتك ، وهى دموعٌ من آلامى وأحزاني ؛
وتلك أَلِفاظٌ من هَوَاك وعَبَثِكَ !

« ما كان ضررُكَ لو كتبتَ لى بضعةً أسطرٍ تنسخُها من تلغرافاتِ رُوتر ...
مادمتَ تَسخرُ منى ؟ أنتَ الشبابُ وأنا الكُهولةُ ، فليس لك بالطبيعةِ إلا
الانصرافُ عَنِ ، وليس لى بالطبيعةِ إلا الحنينُ إليك ؟ »

لا أدرى كيف أحبَّيتها ، ولا كيف دَعَتْنى إليها نفسى ؛ ولكن الذى أعلمُه
أَنى تَحَادَعْتُ لها وقلتُ : إن المستحيلَ هو منعُ هذا الشرِّ ، والممكنُ هو تخفيفه ؛

ثم أقبلت أرثي لها، وأخففت عنها، وأقبلت هي تضاعف لي مكرهاً وتخدعها،
وكان الأمرُ بيننا كما قالت : « في الحب والحرب لا يكون الهجومُ هجومًا وفيه
إرفقٌ أو تراجعٌ » (١) .
إن المرأةَ وحدها هي التي تعترف كيف تقابل بالصبر والأناة ؛ ولا يشبهها في
ذلك إلا دُهاةُ المستبدين .

سألتني أن أهدى إليها رسمي ؛ فاعتلتُ عليها بأن قلتُ لها : إن هذا الرسمَ
سيكون تحت عينيك أنت ورسمٌ حبيب ، وليكنه تحت العينِ الأخرى سيكون
رسمٌ مُهم . إن أديتَ راسمًا باليدِ رَدًّا ، أو ثلاثة رَدًّا ، أو حتى رَدًّا رَمْسًا كما
وظننتُني أبلغتُ في الحجة وقطعتُها عني ؛ فخافني من الغدِ بالردِّ الفمحم ،
جاءتني بإحدى صديقاتها لتظهر في الرسمِ إلى جانبي كأني من ذوى قرابتها ...
فيكونُ الرسمُ رسمٌ صديقها ، ويكون مُهدى منها لامي ، وكأني فيه حاشيةٌ
جاءت من عمّة أو خالة ... (٢) .
وأصررتُ على الإباء ، ونافرتني القول في ذلك ، تردُّ عليّ وأردُّ عليها ،
وتغاضبنا وانكسرتُ حزناً وذهبتُ باكياً ؛ ثم تسببتُ إلى رضى فرضيت .

حدثتني أن صديقتها فلانة الأديبة استطاعت أن تسنيرَ صاحبها فلاناً في
مخدعها ، في دارها ، بين أهلها ، مُنتصفَ الليل . قلتُ : وكيف كان ذلك ؟
قالت : إنها تحمل شهادة . . . وهي تلمسُ أعمالاً وقد طال عليها ؛ فوعيتُ
لذويها أنها عثرت في كتاب كذا على رُقيةٍ من رُقي السَّحر ، فتريد أن تتعاطى
تجربتها بعد نصفِ الليلِ إذا مُحقَّ القمرُ ؛ وأنها ستُطلقُ البخورَ وتبقى تحت
ضبابته إلى الفجرِ تهيمُ بالأسماء والكلمات . . . (٣) .

ثم إنها اتعدت وصاحبها اليوم ، وأجافت ياب دارها ولم تعلقه ، وأطلقت
البخور في محجر كبير أثار عاصفة من الدخان المعطر ، وجعل مخدعها كمدع
عروس من ملكات التاريخ القديم ؛ وبقي صاحبها تحت الضبابه يهيم وتهيمهم ...
(تكملة) ثم خرج في أغباش السحر .

هكذا قالت ؛ وما أدري أهو خبر عن تلك الصديقة وفلاها ، أم هو اقتراح
على أنا من « فلانتى » لا تكون لها عفريت الضبابه ... ؟؟
... لعلها تعلم

لم يخف عليها أن لدعة حبها وقعت في قلبى ، وأن صبرها قد غاب كبريائى ،
وأن كثرة التلاقى بين رجل وامرأة يطمع أحدهما فى الآخر — لابد أن ينقل
روايتهما إلى فصلاها الثانى ، ويجعل فى التأليف شيئا منتظرا بطبيعة السياق ...
والحاح امرأة على رجل قد خلها وجفا عن صلتها ، إنما هو تعرضها للتعقيد الذى
فى طبيعته الإنسانية ؛ فإن هى صابرة وأمعنت ، فقلما يدعها هذا التعقيد من حل
لمعضلتها . وبمثل هذه العجبية كان تعقيدا وكان غير مفهوم ولا واضح ؛ وقد
ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب ، وقد تعمل فيه حالة من حالات النفس
ما لا يعمل السحر ؛ وكذلك يقع للرجل إذا أحب المرأة فنبت عن مودته فعرض
للتعقيد الذى فى طبيعتها وأمعن وثبت وصابر .

رأت الجرة الأولى فى قلبى فأضمرت فيه الثانية ، حين جاءتنى اليوم بكتاب
زعمت أن فلانا أرسله إليها يطارحها الهوى ويبتئها وله الحنين والتميع الحب .
ويقول لها فى هذا الكتاب : « أنا لم أشرب خمر قط ، ولكنى لا أراى أنظر
إلى مفاتيحك ومحاسنك إلا وفى عيني الخمر ، وفى عقالى السكر ، وفى قابى العربة .
جئت لى ويحك نظرة سكير فيها نسيان الدنيا وما فى الدنيا ما عدا الزجاجة ... »
(ويختتم بهذه العبارة :

« آه لو استطعتُ أن أجعل كلامي في نفسك ناعماً ، ساحراً ، مُسكرًا ، مثلَ كلام الشَّفةِ للشَّفة حين تُقبِّلُها . . . ! »

عند هذا وقع الشيء المنتظر في الفصل الثاني من الرواية ، وختم هذا الفصل بأول قبلة على شفتي (المثلة) .

قالت : هذه القبلة كانت (غَلْطَةً مطبعية) ، ومضت تسميها كذلك ، واستمرت المطبعة تغلط وما علمتُ إلا من بعدُ أن ذلك الكتاب الذي استَوْقَدْتُ به غيَرتي ، إنما كان من عملها ومكرها .

وجاءتني اليوم بآبدَةٍ من أوابدها ، قالت : أنت رَجُيٌّ محافظٌ على التقاليد . قلتُ : لأنى أرى هذه التقاليد كالصباح الذي يتكرَّر في كل يوم وهو في كل يوم ضياء ونور .

قالت : أو كالمساء الذي يتكرر وهو في كل يوم ظلامٌ وسواد !

قلت : ليس هذا إلىَّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر .

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياة اليوم علمية أوربية ، والزمن حَثِيثٌ في تقدمه ، وأصحاب « التقاليد » جامدون في موضعهم قد فاتهم الزمن ، ولذلك يسمونهم (متأخرين) . أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت في أوربا زِيًّا قديمًا ، فأخذ المَقْصُ يعملُ في تهذيبها ، يقطعُ من هنا ويشقُّ من هنا . . . ؟

اسمع أيها « المتأخر » ، وتأمل هذا البرهان الأوربي العصري :

أخبرتني صديقتي فلانة حاملة شهادة . . . أنها كانت في القطار بين الإسكندرية والقاهرة ، وكانت معها فتاة من جيرتها تحملُ الشهادة الابتدائية ؛ فجمعهما السفرُ بشابٍ وسيمٍ ظريفٍ يُشاركُ في الأدب ، غير أنه رَجُيٌّ (متأخر) ،

وصديقتي تعرفُ من كل شيء شيئاً ، وتأخذُ من كل فن بطرف ؛ فجئى الحديثُ
بينهما بجراه ، وتركت الصديقةُ نفسها لدواعيها ، وانطلقت على سَجَّيتها الظريفة ،
ووضعت فنَّ لسانها في الكلام فجعلتُ فيه رُوحَ التقبيل ... !

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرتُ ذلك (المتأخر) ووقعتُ من
نفسه ، ودفعته إلى الزمن الذي هو فيه . فلما هممتُ بدواعه سألتها : أين تذهبان ؟
فأغضتُ صاحبةُ الشهادة الابتدائية ، وأطرقتُ حياءً ، ورأت في السؤال تهمةً
وربية ، فأنبتتها الصديقةُ وأيقظتها من حياءها ، وقالت لها : ألا تراين شرقيةً
متأخرة ؟ إن لم يسعدنا الحظ أن تكونَ لنا حرية المرأة الأوربية في المجتمع وفي
أنفسنا ؛ أفلا يسعدنا أن تكونَ لنا هذه الحرية ولو في أنفسنا ؟

ثم ردَّت على الشاب فأبانتَه بمكانها وعنوانها ، فأطعمه رُدُّها ، فسألها أن
تنزَّه معه في بعض الحداثق ، فأبت صاحبةُ الابتدائية ولجَّتْ عَمَائِها الشرقيةُ
المتأخرة ، ورأت في ذلك مَسْقَطةً لها ، فَلَوَتْ إلى دارها وتركتها إنساناً
وإنساناً لا فتى وفتاة ؛ وتنزَّها معاً ، وعرف الشابُّ الرجعى الحبَّ ، والجرَّ التي هي
تحيةُ الحب !

ولم تستطع الفتاةُ الماكرةُ أن ترجعَ إلى دارها وهي سَكْرَى كما زعمت
للشاب — فَأَوَتْ إلى فُسْدق ، وخُتِمت روايتُهما بإعراضٍ من الشاب أجابت
هي عليه بقولها : ألا زلت (متأخراً) ؟

قالت « الطائشة » :

نعم يا عزيزى (المتأخر) ، إن مذهب المرأة الحرة ... في الفرق بين الزوج
وغير الزوج ، أن الأول رجلٌ ثابتٌ ، والآخر رجل طارى . والثابتُ ثابتٌ
معها بحقه هو ؛ والطارى طارى عليها بحقها هي ... فإن كانت حرةً فلها حقُّها ...
قال كاتب الطائشة : وهنا ، هنا ، هنا ، كاد الشيطانُ يرفع الستار عن

فصل ثالث في هذه الرواية ، رواية « الطائشة » . . .

و قد كان هذا هو المقام الذي انتهى إليه المؤلف في هذه الرواية . . .

نقول نحن : وإلى هنا ينتهي نصف الرواية ؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون

قصة أخرى اسمها : (الطائش والطائشة) . . .

؟ إن لم يكن : . . .

ثم إن المؤلف قد أتى به دليل على أنه قد انتهى إلى ما كان يريد . . .

فقد كتب في المقدمة : . . .

و قد كان في ذلك ما لا يخفى . . .

لذلك أن رسائل الطائشة (١)

إن المؤلف قد أتى به دليل على أنه قد انتهى إلى ما كان يريد . . .

فقد كتب في المقدمة : . . .

و قد كان في ذلك ما لا يخفى . . .

لذلك أن رسائل الطائشة (١)

إن المؤلف قد أتى به دليل على أنه قد انتهى إلى ما كان يريد . . .

فقد كتب في المقدمة : . . .

و قد كان في ذلك ما لا يخفى . . .

لذلك أن رسائل الطائشة (١)

إن المؤلف قد أتى به دليل على أنه قد انتهى إلى ما كان يريد . . .

فقد كتب في المقدمة : . . .

و قد كان في ذلك ما لا يخفى . . .

لذلك أن رسائل الطائشة (١)

إن المؤلف قد أتى به دليل على أنه قد انتهى إلى ما كان يريد . . .

لله السعادة في جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكر غير مقيد بمعنى تألم منه ، ولا بمعنى تخاف منه ، ولا بمعنى تحذر منه ؛ والشقاء في تفصيله وجماعته انحباس الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب .

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصورة التي يبرق شعاعها وتكاد تقوم بإزاء نفسها كالمراة بإزاء الوجه ؛ وهي فيها عذبة الكلام من أنها مرة الشعور ، متسقة الفكر من أنها مختلة القلب ، مُسَدِّدَةُ المنطق من أنها طائشة النفس ؛ وتلك إحدى عجائب الحب ؛ كلما كان قفراً ممحلاً اخضرت فيه البلاغة وتغننت والتفت ؛ وعلى قلة المنفعة من لذاته تزيد فيه المنفعة من أوصافه ؛ ولما كان هذا الحب طبيعة غريبة تروى بالنار فتخضب عليها وتفتق بمعانيها ، كما تروى الأرض بالماء فتخضب وتتغطى بنباتها ؛ فإن روى الحب من لذاته وبرد عليها ، لم يُنبِتْ من البلاغة إلا أخفها وزناً وأقلها معاني ، كأول ما يبدو النبات حين يتفطر الثرى عنه ، تراه فتحسبه على الأرض مسحة لون أخضر ؛ أو لم يُنبِتْ إلا القليل القليل كالنعاشب^(١) في الأرض

السبخة .
إن قصة الحب كالرواية التمثيلية ، أبلغ ما فيها وأحسنه وأعجب ما كان قبل « العمدة » ، فإذا انحلت هذه العقدة فانت في بقايا مفسرة مشروحة تريد أن تنتهي ، ولا تحتمل من الفن إلا ذلك القليل الذي بينها وبين النهاية .

! هذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها : لا أن لي فيكم نصيباً ولا رايخه
« ... »
« لماذا أكتب لك غير الفاظ حقيقي وحقيقتك ؟ »

(١) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك .

« يُحْيِلُ إِلَى أَنْ أَلْفَاطَ خُضُوعِي وَتَضَرَّعِي مَتَى انْتَهَتْ إِلَيْكَ انْقَلَبْتُ إِلَى أَلْفَاطِ شَجَارٍ وَنَزَاعٍ !

« أَيْ عَدَلٍ أَنْ تَلْمَسَكَ حَيَاتِي لَمَسَةَ الزَّهْرَةِ النَاعِمَةِ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ ، وَتَقْذِفَنِي أَنْتَ قَذْفَ الْحَجَرِ بِلَاءِ الْيَدِ الصُّلْبَةِ مُتَمَطِّيَةً فِيهَا قُوَّةُ الْجَسَمِ ؟

« جَعَلْتَنِي فِي الْحُبِّ كَالِةٍ خَاضِعَةٍ تَدَارُ فَتَدُورُ ، ثُمَّ عَمِيتَ بِهَا فَصَارَتْ مَتَمَرِّدَةً تَوْقَفٌ وَلَا تَقِفُ ؛ وَالنَّهَايَةُ — لَا رَيْبَ فِيهَا — اخْتِلَالٌ أَوْ تَحْطِيطٌ !

« وَجَعَلْتَ لِي عَالِمًا ؛ أَمَا لَيْلُهُ فَأَنْتَ وَالظَّلَامُ وَالْبُكَاءُ ، وَأَمَا نَهَارُهُ فَأَنْتَ وَالضِّيَاءُ وَالْأَمَلُ الْخَائِبُ . هَذَا هُوَ عَالَمِي : أَنْتَ أَنْتَ . . . !

« سَمَائِي كَأَنَّهَا رُقْعَةٌ أُطْبِقْتُ عَلَيْهَا كُلُّ غَيُومِ السَّمَاءِ ، وَأَرْضِي كَأَنَّهَا بُقْعَةٌ اجْتَمَعَتْ فِيهَا كُلُّ زَلَزَلِ الْأَرْضِ ! لِأَنَّكَ غَيِّمَةٌ فِي حَيَاتِي ، وَزَلَزَلَةٌ فِي أَيَّامِي .

« يَا بَعْدَ مَا بَيْنَ الدُّنْيَا الَّتِي حَوْلِي وَبَيْنَ الدُّنْيَا الَّتِي فِي قَلْبِي !

« مَا يَحْمِلُ مِنْكَ أَنْ تُلْزِمَنِي لَوْمَ خَطَا أَنْتَ الْخَطِيءُ فِيهِ . سَلَنِي عَنْ حَبِي أُجِيبُكَ عَنْ نَسْكَبِي ، وَسَلَنِي عَنْ نَسْكَبِي أُجِيبُكَ عَنْ حَبِي !

« كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِي الْكِبْرِيَاءُ فِي الْحُبِّ ، وَلَكِنْ مَاذَا أَصْنَعُ وَأَنْتَ مَنْصَرِفٌ عَنِّي ؟ وَيَلَاهُ مِنْ هَذَا الْإِنْصِرَافِ الَّذِي يُجْعَلُ كِبْرِيَاؤِي رِضًى مَنِي بِأَنْ تَنْسَى ! فَتَنْسَى ...

« لَيْسَ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ تَعْطِفُكَ إِلَّا هَذَا الْحُبُّ الشَّدِيدُ الَّذِي هُوَ يَصُدُّكَ ، فَكَأَنَّ الْأَسْبَابَ مَقْلُوبَةً مَعِيَ مِنْذُ انْقَلَبْتَ أَنْتَ .

« وَيُحْيِلُ إِلَى مَنْ طُغْيَانِ آلَامِي أَنْ كُلَّ ذِي حُزْنٍ فَعِنْدِي أَنَا تَمَامُ حُزْنِهِ !

« وَيُحْيِلُ إِلَى أَنِّي أَفْصَحُ مِنْ نَظْقِ بَاهٍ !

« عَذَابِي عَذَابُ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْكَذِبَ أَبَدًا أَبَدًا ، بِالْكَاذِبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الصِّدْقَ أَبَدًا أَبَدًا !

« كم يقول الرجال في النساء ، ولم يصفونهن بالكيد والغدر والمكر ؛ فهل
جئت أنت لتُعاقِبَ الجنسَ كله في أنا وحدي ... ؟
« ما لكلامي يَتَقَطَعُ كأنما هو أيضاً مُحْتَنَقٌ ؟

« لَشَدَّ ما أُمْتَمَى أن أشتري انتصارى ، ولكن انتصارى عليك هو عندي
أن تنصراً أنت .

« إن المرأة تطلب الحرية وتلج في طلبها ، ولكن الحياة تنتهي بها إلى
يقين لا شك فيه ، هو أن الطف أنوع حريتها في الطف أنوع استعبادها !
« حتى في خيالي أرى لك هيئة الأمر النأهى أيها القامى . لا أحب منك
هذا ، ولكن لا يُعْجِبُنِي منك إلا هذا ... !

« ويزيدك رفعة في عيني أنك لم تحاول قط أن تزيد رفعة في عيني .
« فالمرأة لا تُحِبُّ الرجل الذى يعمل على أن يلقفها دائماً ليرفع من
شأنه عندها .

« إن الطبيعة قد جعلت الانوثة (في الإنسان) هى التى تَلَفِتُ إلى نفسها
بالتصنع والتزيّد ، وعرض ما فيها وتسكف ما ليس فيها ؛ فإن يصنع الرجل
صنيعها فما هو فى شئٍ إلا تزيين احتقاره !
« التزيّد فى الأنوثة زيادة فى الأنثى عند الرجل ، ولكن التزيّد فى الرجولة
نقص فى الرجل عند الأنثى !

« ارفع صوتك بكلماتي تسمع فيها اثنين : صوتك وقلبي .
« ليست هى كلماتي لديك أكثر مما هى أعمالك لدى .
« وليس هو حبي لك أكبر مما هو ظلمك لي !

« مَا أَشَدَّ تَعَسُّي إِذَا كُنْتُ أَخَاطِبُ مِنْكَ نَائِمًا لَيْسَ مَعِيَ أَجْلَامُهُ وَلَا يَسْمَعُنِي !
 « مَا أَتَعَسَّ مَنْ تُكَيِّمُهُ الْحَيَاةُ بُكَاءَهَا الْمَلْحَجِّي عَلَى مَيِّتٍ لَا يَرْجِعُ ، أَوْ بُكَاءَهَا
 الْمَالُوفَ عَلَى حَبِيبٍ لَا يُنَالُ ! رَسَمْتُ لَهَا فِي لَدُنِّي وَلَقَبْتُهَا بِ« كَلِيَالِه »

« وَلَكِنْ فَلَا ضَبْرَ وَلَا ضَبْرَ عَلَى الْإَيَّامِ الَّتِي لَا طَعْمَ لَهَا ، لِأَنَّ فِيهَا الْحَبِيبَ
 الَّذِي لَا وَفَاءَ لَهُ !

« إِنْ الْمَصَابَ بِالْعَمَى اللَّوْنِي يَرَى الْأَحْمَرَ أَخْضَرَ ، وَالْمَصَابَ بِعَمَى الْحَبِّ يَرَى
 الشَّخْصَ الْقَفْرَ كُلَّهُ أَزْهَارًا . لَيْسَ بِمَعْنَى أَنْ تَنْظُرَ فِيهِ دُمُيَّةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
 ثَلَاثَةَ « عَمَى مَرَّ كَبَّ أَنْ تَكُونَ أَزْهَارًا مِنَ الْأَوْهَامِ وَلَهَا مَعَ ذَلِكَ رَائِحَةُ تَعَبٍ .
 « وَعَمَى فِي الزَّمَنِ أَيْضًا أَنْ يَنْظُرَ إِلَى السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْ سَاعَاتِ الْحَبِّ ،
 فَيَرَى الْإَيَّامَ كُلَّهَا فِي حَكْمِ هَذِهِ السَّاعَةِ . لَمْ تَلْ أَزِيدَ فِي تَعَبِي شَيْئًا »

« وَعَمَى فِي الدَّمِ ، أَنْ يَشْعُرَ بِالْحَبِيبِ يَوْمًا فَلَا يَزَالُ مِنْ بَعْدِهَا يُحْيِي خِيَالَهُ
 وَيَغْذِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا يُحْيِي جِسْمَ صَاحِبِهِ .

« وَعَمَى فِي الْعَقْلِ ، أَنْ يَجْعَلَ وَجْهَ إِنْسَانٍ وَاحِدٍ كَوَجْهِ النَّهَارِ عَلَى الدُّنْيَا ،
 تَطْلُعُ الْأَشْيَاءُ فِي لَوْنِهِ ، وَبَغْيَرِ لَوْنِهِ تَنْطَلِقُ الْأَشْيَاءُ . لَيْسَ بِمَعْنَى أَنْ تَنْتَاقِلَ
 « وَعَمَى فِي قَلْبِي أَنَا ، هَذَا الْحَبُّ الَّذِي فِي قَلْبِي ! لَمْ تَلْ أَزِيدَ فِيهِ لَدُنِّي شَيْئًا »

« لَيْسَ الظَّلَامُ إِلَّا فَقْدَانُ النُّورِ ، وَلَيْسَ الظُّلْمُ فِي النَّاسِ إِلَّا فَقْدَانُ الْمَسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ .
 « وَظُلْمُ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ عَمَلُ فَقْدَانِ الْمَسَاوَاةِ لِأَعْمَلِ الرِّجَالِ .

« كَيْفَ تَسْخَرُ الدُّنْيَا مِنْ مَتَعَلِّمَةٍ مِثْلِي ، فَتَضَعُهَا مَوْضِعًا مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعْفِ
 بَحِثْ لَوْ سَأَلْتُ أَنْ تَكْتُبَ (وَطِيفَتَهَا) عَلَى بَطَاقَةٍ ، لَمَا كُتِبَتْ تَحْتَ اسْمِهَا إِلَّا
 هَذِهِ السَّكْمَةُ : (عَاشِقَةُ فَلَانِ) . لَيْسَ بِمَعْنَى أَنْ تَنْتَاقِلَ مِنْ رَسْمٍ إِلَى رَسْمٍ »

« وحتى في ضعف المرأة لا مساواة بين النساء في الاجتماع ، فكل متزوجة وظيفتها الاجتماعية أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول إن عشقتها وظيفتها ... »

« وحتى في الكلام عن الحب لا مساواة ، فهذه فتاة تحب فتتكلم عن حبها فيقال : فاجرة وطائشة . ولا ذنب لها غير أنها تكلمت ؛ وأخرى تحب وتكتم ، فيقال : طاهرة عفيفة . ولا فضيلة فيها إلا أنها سكنت . »

« أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكل في حرية النكاح المحبوبة . »
« لا لا ، قد رجعت عن هذا الرأي . »

« ... * * * »
« إن القلق إذا استمر على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشاذ من قوانين الحياة . »

« والنساء يقلقن الكون الآن مما استقر في نفوسهن من الاضطراب ، وسيخربنه أشنع تخريب . »

« ويل للاجتماع من المرأة العصرية التي أنشأها ضعف الرجل ! إن الشيطان لو خيّر في غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حرة متعلمة خيالية كاسدة لا تجد الزوج ! ... »

« ويل للاجتماع من عذراء بائسة خيالية ، تريد أن تفر من أنها عذراء ! لقد امتلأت الأرض من هذه القبايل ... ولكن ما من امرأة تفرط في فضيلتها إلا وهي ذنب رجل قد أهمل في واجبه . »

« ... * * * »
« هل تملك الفتاة عرضها أو لا تملك ؟ هذه هي المسئلة ... »

« إن كانت تملك ، فلها أن تتصرف وتعطي ؛ أو لا ، فلهذا لا يتقدم الملاك ؟ »
« هذه المدتيه ستقلب إلى الحيوانية بعينها ؛ فالحيوان الذي لا يعرف النسب لا تعرف أنشاء العرض . »

« وهل كان عبثاً أن يفرض الدين في الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل ؟

« ولكن أين الدين ؟ واأسفاه ! لقد مدّنوه هو أيضاً ... !

« طالت رسالتي إليك يا عزيزي ، بل طاشت ، فإني حين أجذك أفقد اللغة ، وحين أفقدك أجدها .

« ولقد تكلمت عن الدين لأنني أراك أنت بنصف دين ...

« فلو كنت ذا دين كامل لتزوجت اثنتين ... !

« لا لا ، قد رجعت عن الرأي ... »

(طبق الأصل)

فلسفة الطائشة

... وهذا مجلس من مجالس (الطائشة) مع صاحبها ، مما تسقطه من حديثها ؛ فقد كان يكتب عنها ما تُصيب فيه وما تخطئ ، كما يكتب أهل السياسة بعضهم عن بعض إذا فاوض الحليف حليفه ، أو ناكر الخصم خصمه ؛ فإن كلام الحبيب والسياسي الداهية ليس كلام المتكلم وحده ، بل فيه نطق الدولة ... وفيه الزم يُقبل أو يُدبر .

وصاحب الطائشة كان يراها امرأة سياسية كهذه الشؤون التي تُرغم صديقاً على الصداقة ، لأنه في طريقها أو طريق حواشيها ؛ وكان يسميها « جيش احتلال » إذ حطت في أيامه واحتلتها فتبوات منها ما شاءت على رغبه ، واستباحته

ما أرادت مما كان يحميه أو يمنّيه . وقد كان في مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظلّ شيء على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته . . . فهذا ليس مما يغسل بالماء ، ولا يكنس بالمكنسة ، ولا يغطى بالأغطية ؛ إنما إزالته في إزالة الشبح الذي هو يلقيه ، أو إطفاء النور الذي هو يُثبته .

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية ، والسُخرية من الحسن الفاتن الذي تقدّسه ، تأتي من اشتهاؤ هذا الحسن ؛ فذاك إسقاطه سقوطاً مقدساً . . . أو ذاك تقدّسه إلى أن يسقط ، أو هو جعلُ تقدّسه باباً من الحيلة في إسقاطه . لا بد من سُفُل مع العلو يكون أحدهما كالسُخرية من الآخر ؛ فإذا قال رجلٌ لامرأةٍ قد فتنته أو وقعت من نفسه : « أحبُّك . » أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استهانها ، ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كلُّ معاني الوقاحة الجنسية ، وكلُّ السُخرية بالحجوب سُخريةٌ بإجلال عظيم . . . وهي كلمة شاعرٍ في تقدّس الجمال والإعجاب به ، غير أنها هي بعينها كلمة الجزّار الذي يرى الخروف في جماله اللحميّ الذهنيّ ، فيقول : « سمين . . . ! »

لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة ، ويُحرّم إظهار الفتنة من الجنس للجنس ، ويفصل بمعاني الحجاب بين السائب والموجب ، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغضّ البصر ، إذ لا يكفي حجاب واحد ، فإن الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً ؛ ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها ، وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته ؛ إذ هي كلمة حيلة في الطبيعة أكثر مما هي كلمة صدق في الاجتماع ، ولا يؤكّد في الدين صدقها الاجتماعي إلا العقد والشهود لربّ الحقوق بها ، وجعلها في حيطة القوة الاجتماعية التشريعية ، وإقرارها في موضعها من النظام الإنساني ؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشق من معاني الزوج ، أما أن يكون من معني آخر أو يكون بلا معني فلا ؛ وكل ذلك

لصيانة المرأة ، ما دامت هي وحدها التي تلد ، وما دامت لا تلد للبيع . . .
وفلسفة هذه الطائفة فلسفة امرأة ذكية مطلعة مُحيطَة بمفكرة ، تُبغِرُ
الكتب والعقل والحوادث جميعاً ، وقد أصبحت بعد سقطة جنبها ترى الصواب
في شكائين لا شكل واحد : فتراه كما هو في نفسه ، وكما هو في أغلاطها . . .
وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مُطارحات العاشقة ، واقتصرنا
على ما هو كالإملاء من الأستاذة . . .

قال صاحب الطائفة : ذكرت لها « قاسم أمين » وقلت : إنها خير تلاميذه
وتلميذاته . . . حتى لكانها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة . . . فقالت :
إنما كان قاسم تلميذ المرأة الأوربية ، وهذه المرأة بأعيننا فما حاجتنا نحن إلى
تلميذها القديم ؟
قالت : وأبلغ من يردُّ على قاسم اليوم هي أستاذته التي شَبَّت بها أطوار
الحياة بعده ، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر في عهد بعينه ولم
يُتسع الأيام نظره ، ولم يستقرئ أطوار المدنية ؛ فلم يُقدِّر أن هذا الزمن المتمدِّن
سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله ، وأن العلم
لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة ، فأقواها بالطبيعة أقواها بالعلم ،
وكان الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ولا تحت الحياة مثلها . . .
مزَّق البرقع وقال : « إنه مما يزيد في الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفة
الوجه لكان في مجموع خلقها — على الغالب — ما يردُّ البصر عنها » . . . فقد زال
البرقع ، ولكن هل قدر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرة دائماً في الميدان الجنسي
بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تبتدع لكل معركة أسلحتها ، وأنها إن كشفت
برقع الخرز فستضع في مكانه برقع الأبيض والأحمر . . . ؟

عاشق
مصر

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يحفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنت فلان ، أو زوج فلان كانت تفعل كذا ؛ فهي تأتي كل ما تشتهي من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب . » فقد زال البرقع والنقاب ، ولكن هل قدر قاسم أن المرأة السافرة ستلجأ إلى حماية أخرى ، فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تلبس جسمها ثوباً يكسوه ، تلبسه الثوب الذي يكسوه ويزينه ويظهره ويحجركه في وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمه . . . وهذا الموضع اسمه . . . وانظر هنا وانظر هاهنا . . . ما زادت المدنية على أن فككت المرأة الطيبة ثم ركبته في

هذه الهندسة الفاحشة ! . . . في عشت لا آلاماً فتيهات لا
وأراد قاسم أن يعلمنا الحب للترابط به الزوج معنا ، فلم يزد على أن جراًنا على الحب الذي فوّقه الزوج منا ، وقد نسي أن المرأة التي تحالط الرجل ليُعجبها وتُعجبه فيصير زوجها زوجين — إنما تحالط في هذا الرجل غرائزه قبل إنسانيته ، فتكون طبيعته وطبيعتها هي محل التحالطة قبل شخصيتهما ، أو تحت ستار شخصيتهما ؛ وهو رجلٌ وهي امرأة ، وبينهما مصارعة الدم . . . وكثيراً ما تكون المسكينة هي المذبوحة . وقد انتهينا إلى دهرٍ يُضنعُ حُبّه ومجاسنُ أحبابه في « هولبود » وغيرها من مُدن السِما ، فإن رأى الشاب على الفتاة مظهر العفة والوقار قال : بلادة في الدم ، وبلاهة في العقل ، وثقل أى ثقل ؛ وإن رأى غير ذلك قال : فُجورٌ وطيش ، واستهتارٌ أى استهتار . فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدين ؟

لقد أخطأ قاسم في إغفال عمل الزمن من حساباته ، وهاجم الدين بالعرف ؛ وكان من أغش غاظه ظنه العرف مقصوراً على زمنه . وكأنه لم يدر أن الفرق بين

الدين وبين العُرف ، هو أن هذا الأخير دائماً الاضطراب ، فهو دائماً التغيّر ، فهو لا يصلح أبداً قاعدةً للفضيلة ؛ وهانحن أولاء قد اتهمينا إلى زمن العُرمي ، وأصبحنا نجد لقيفاً من الأوربيين المتعلمين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا في جزيرتهم أو محلّتهم أو ناديتهم رجلاً يلبس في حقويه ثوباً قصيراً كأنه ورقُ الشجر على موضعه ذاك من آدم وحواء — إذا رأوا هذا المتعفف بخِزّة ... أنكروا عليه وتساءلوا بينهم . مَنْ ؛ مَنْ هذا الراهب ؟

ونسى قاسم — غفر الله له — أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيّرها ، فالتى تُفرغ الثوب على أعضائها إفراغ الهندسة ، وتلبس وجهها ألوان التصوير — لا تفعل ذلك إلا وهى قد تغيّرت فهمها للفضائل ، فتغيّرت بذلك فضائلها ، وتحوّلت من آيات دينية إلى آياتٍ شعرية . وروحُ المسجد غيرُ روح الحانة ، وهذه غيرُ روح المرقص ، وهذه غيرُ روح الخدع ، ولكل حالة تلبس المرأة لبساً فتخفى منها وتبدى . وتحريك البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريك النفس لتتغير صفاتها . وأين أخلاق الثياب العصرية في امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التى كانت لها من الحجاب ؟ تبدّلت بمشاعر الطاعة ، والصبر ، والاستقرار ، والعناية بالنسل ، والتفرغ لإسعاد أهلها وذويها — مشاعر أخرى ، أوّلها كراهية الدار والطاعة والنسل ؛ وحسبك من شرّ هذا أوّله وأخفه !

كان قاسم كالخدوع المغترّ بآرائه ، وكان مُصلحاً فيه روحُ القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلدٌ مُتَّبِع ، أليس عليه أن يُسند رأيه دائماً إلى نصّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلّمة ، أن الأولى « لا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدّم له أفضل شيء لديمها وهو نفسها ، وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلّعات ، إذا جرى القدرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن ، لم يكن ذلك إلا بعد محبة

شديدة يسيقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (....) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئاتٍ وألوفٍ ممن تراهم في كل وقت (!!!!) وهي تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تُسلم نفسها إلا بعد منازلةٍ يختلفُ زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف (؟؟؟؟) ...» (١)

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ المدنيين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لإحدى الفاجرتين : أيتها الجاهلةُ الحقاء ، كيف لم تتحاشى ولم تستترى فلا يكون للقانون عليك سبيل ؟

وحتى في هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرفُ الأرنبَ وأذنيها (٢) وإلا فتي كان في الحب اختيار ، ومتى كان الاختيارُ يقعُ « فيما يجري به القدر » ، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها فتدرس الصفات والشمائل في مئاتٍ وألوفٍ ممن تراهم في كل وقت لتصفّيها كلها في واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك ! هذا مضحك !

إليك خبراً واحداً ممن تنشره الصحفُ في هذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خريجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ؛ ففسّر لي أنت كلام قاسم ، وأفهمني كيف تكون اثنان واثنتان خمسة وعشرين ؟ وكيف يكون فراؤ متعلّمة أصيلة مع سائق سيارته هو محاذرة وضع الثقة فيمن لا يكون أهلاً لها ؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن في هذا أيضاً ، فكثير من المنكرات والآثام قد انحلت منها المعنى الدينيُّ ، وثبت في مكانه معنى اجتماعيٌّ مقررٌ ، فأصبحت المتعلمة

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما في هذا الكتاب هو في رأينا خلط وخطب .

(٢) يقول العرب : « فلان يعرف الأرنب وأذنيها » أى يعرف الشيء بالعلامة التي تشبهه ولا تتخلف .

لا تتخوّف من ذلك على نفسها شيئاً ، بل هي تُقارِفُهُ وتُستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ، وتقدّم فيه للرجال المهذّبين مرةً ذراعها ، ومرة خصرها

أقرأتَ (شهرزاد) ؟ إن فيها سطرّاً يجعل كتابَ قاسمٍ كله ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيء يُقرأ :

قالت شهرزاد المتعلّمة ، المتفلسفة ، البيضاء ، البضة ، الرشيقّة ، الجميلة ؛ للعبد الأسود الفظيع الدميم الذى تهواه : « ينبغى أن تكونَ أسودَ اللون ؛ وضعِ الأصل ؛ قبيحَ الصورة ؛ تلك صفاتُ الخالدة التى أُحبّها » (١)

فهذا كلامُ الطبيعة نفسها لا كلامُ التأليفِ والتلفيقِ والتزويرِ على الطبيعة .

قال صاحبُ الطائشة :

فقلتُ لها : فإذا كان قاسم لا يُرضيكِ ، وكان الرجلُ مصلحاً دخلته روحُ القاضى ، فخلطَ رأياً صالحاً وآخر سيئاً ، فلعل « مصطفى كمال » هُتِّمَ من رجلٍ فى تحرير المرأة تحريراً مزقَ الحجاب والـ . . . ؟

قالت : إن مصطفى كمال هذا رجلٌ نائرٌ ، يسوقُ بين يديه الخطأ والصواب بَعْصاً واحدة ، ولا يمكن فى طبيعة الثورة إلا هذا ، ولا يبرحُ نائراً حتى يَتِمَّ انسلاخُ أُمّتِهِ . وله عقلٌ عسكريٌّ كان يُمَكِّرُ به مكرَ الألمان ، حين أكرههم الحلفاء على تحويلِ مصانع (كروب) ، فحوّلوها تحويلاً يردّها بأيسرِ التغييرِ إلى صنعِ المدافع والمهلكات . وليس الرجلُ مُصلحاً ألبتّة ، بل هو قائدُ زَهاه النصرُ الذى اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفّته كلمة : « أريد . . . »

(١) ص ١٠٦ من « شهرزاد » للكاتب الدقيق صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ — ٥٢ وفى غيره من كتبنا .

وجعل بعد ذلك إذا غلط غلطة أرادها منتصرة ، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم ، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ، ويأخذهم كيف شاء ، ويدعهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحدة : هو مؤلف الرواية ، والقانون نفسه أحد الممثلين ...

وحيث أنه على الدين وأهل الدين هو الدليل على أنه ناثراً لا مصالح ؛ فان أخذ أخلاق الثورة حقد الثائرين ، وهذا الحقد في قوة حربٍ وحدها ، فلا يكون إلا مادةً للأفعال السكتيرة المذمومة . والرجل يحتذى أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين في خيرها وشرها ، ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفسهم ، يتبرأون هم منها ويلحقها هو بقومه ، فكأنه يعتنف الآراء ويأخذها أخذاً عسكرياً ، ليس في الأمر إلا قوله : « أريد . » فيكون ما يريد . هو لم يحكم على شهر من أوروبا يجعله تركياً ، ولكنه جعل رذائل أوروبا تتجنس بالجنسية التركية ... وتالله إنه لا يسر عليه أن يجيء بملائكة أو شياطين من المردة ، ينفخون أرض تركيا فيمطونها مطاً فيجعلونها قارة ، من أن يسكره أوروبا على اعتبار قومه أوربيين بلبس قبعة وهدم مسجد . إنه لا يزال في أول التاريخ ، وهذا الشعب الذي انتصر به لم تلده مبادئه ، ولا أنشأه هدم المساجد وشق العلماء ؛ بل هو هو الذي ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يعوزُهُ إلا القائد الحازم المصمم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فإذا فتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحول نبياً ، فهذا شيء آخر له اسم آخر .

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعل مسئلتنا هذه علمية ، وأن نبجسها بحثاً علمياً ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في إنجلترا ؛ فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لا حرب الدويلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ ... ثم يستعز الرجل

بدلته على قومه ، ويدخله الغرور ، فيتصنع لهم مرة ، ويتزين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبِدة فيُسِفُّه دينهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم ، لأن هذا هو الإصلاح في رأيه . أفترى الانجليز حينئذ يَضُوءُونَ إليه ويلتقون حوله ويقولون : قائدنا في الحرب ، ومُصلِحنا في السِّلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننصر به على الله ، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله ... ؟ أم تحسب كتشتر كان يجسرُ على هذا وهو كتشتر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يتدافعُ اثنان أن هدم كنيسة واحدة يومئذ لا يكون إلا هدم كتشتر وتاريخ كتشتر ، ولكن العجزَ ممهِّدٌ من تلقاء نفسه ، والأرضُ المنخسفةُ هي التي يَسْتَنقِعُ فيها الماء ، فله فيها اسمٌ ورسمٌ ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمُّ ، فإذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كلِّ جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل ... ! (١)

قال صاحبُ الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء ، فكيف لا ترين مثل هذا لنفسك ؟
فتضعفت لهذه الكلمة ، ولجَلَجَت قليلاً ثم قالت : أنت سلبتني الرأيَ لنفسى ، ووضعتنى فى الحقيقة التى لا تقيد بقانون الخير والشر .

قلت : فإذا كانت كلُّ امرأة تغلطُ لنفسها فى الرأى ، وتنصحُ بالرأى الصائب غيرَها ، فيؤشِكُ ألا يبقى فى نساء الأرض فضيلة ولا يعودُ فى المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب ...

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ ديننا الإسلامى مع المرأة ، فهو يخلقُ طبائعَ المقاومة فى المرأة ، ويخلقها فيما حولها ، حتى ليخيلُ إليها أن السماءَ عيونٌ تراها ،

(١) أفردنا مقالاً خاصاً لهذا الإلحاد التركى الذبانى فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كائلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، نقرؤه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأن الأرض عقولٌ تُحصى عليها ؛ وهل أعجبُ من أن هذا الدينَ يقضى قضاءً مبرماً أن تكون ثيابُ المرأةَ أسلوبَ دفاعٍ لا أسلوبَ إغراء ، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في (الراديو) له دوى في الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب ، وغيرَ الرجل ، وشرفَ الأصل ؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوةَ منها كأنها جنينٌ يكبرُ ولا يزال يكبرُ حتى يكونَ عارَ ماضيها وخِزْيَ مستقبلها .

هذه كلها حُجُبٌ مضروبةٌ لا حجابٌ واحد ، وهي كلها لخلق طبايع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجاب الأخير كالشور حول القلعة ؛ ولكن قَبَّحَ الله المدينةَ وفنَّها ؛ إنها أطلقت المرأةَ حرّةً ، ثم حاطتها بما يجعلُ حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لا غير . أنت مُحَمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ولكن بين الاصوص ؛ كأنك في هذا لستَ حراً إلا في اختيار من يجنى عليك !

لم تعد المرأةُ العصريةُ انتصارَ الأمومة ، ولا انتصارَ الخلقِ الفاضل ، ولا انتصارَ التعزية في هموم الحياة ؛ ولكن انتصارَ الفن ، وانتصارَ اللهو ، وانتصارَ الخلاعة .

قال صاحب الطائشة : فضحكتُ وقلتُ : وانتصاري . . . !

(طبق الأصل)

» تنبيه «

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هي في الدنيا ، ليس فيها كلمة من المرنج ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ، ولعله يردّ بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذ عن أخطأ .

٢٠٦

تربية لؤلؤية

كتبتُ إلى سيدة فاضلة بما هذه ترجمته منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى :
... أما بعدُ فهذا الذى كنا ظننّا وظنّنتُ ، فأقرأ الفصل الذى انتزعته لك
من مجلة ... وستعرفُ منه وتنكر ، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى ...
وتجدُ فتاة اليوم على ما وقع بها من الظنة ، وكثرَ فيها من أقوال السوء —
لا تَشْمُسُ على الرّيبة ولا تريد أن تنتفى منها ، بل هى تعملُ لتحقيقها ، وتبغى مع
تحقيقها أن يتعلّم الناس ذلك منها ، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت ،
ويُسَوِّغوها مُقَارَفَةَ الإثم ، ويقرّوها على منكراتها .

أما إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلاتُ هنّ أمسنّا الزاهبَ بلا فائدة ، فإن
فتياتنا المتعلّقاتِ هنّ يؤمنّ الضائعُ بلا فائدة ، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسُدُ
ومعها الفضيلة ، فأصبحت المتعلّمة لم تَكْدُ تنفقُ ومعها الرذيلة ، ولتاجر أُمّى طاهرُ
الاسم تتحرك سُوقُهُ وتحمي ، خيرٌ من تاجر متعلّم نجس الاسم قد ماتت بسوقه
وَحَدَّتْ ، فما تنفّسُ من درهم ولا دينار .

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية ، فلما أحكمتها المتعلّقاتُ منا ، كنّ بين
الشرق والغرب كالسَّبِيحَةِ النّشَاشَةِ من الأرض ، طَرَفٌ لها بالفلاة وطرفٌ
بالبحر ؛ فهى رملٌ فى ماء فى ملح ، لا تَخْلُصُ لفسادٍ ولا صحة ، فاعتبر هذه وهذه
فستجدّهما بحكايةٍ واحدةٍ ، أصلاً وطبق الأصل .

وقرأتُ الفصل الذى أومأتُ إليه السيدة ، وكان فى كتابها ، فإذا هو لكاتبة
تزعم (أنها من رُفَعَنَ عِلْمَ الجهاد لحرية المرأة) ، وإذا فى أوله :

« كتبت آنسة أديبة في عدد سابق من ... الأغر تقول : « أجل ، لنفتش عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة ، فإن أخطأناهم أزواجاً فإن نخطئهم أصدقاء !!! » وكتب بعد هذا أديب فاضل ، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى ، ويطرقان نفس السبيل (كذا) التي اختطتها الآنسة الجريئة في غير حق ، الثائرة في نزق . ثم قالت بعد ذلك : « قرأت مقال الآنسة الثائرة في حيوية صارخة !!!! فجزعت ، لأن (قاسم أمين) عند ما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة ، و (ولى الدين يكن) عند ما جاهر بعده في سبيل السفور ، و (هدى شعراوي) عند ما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة — ما ظننت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور إلى حد أن تقف آنسة مهذبة ، تكشف عن رأسها تبكي وتستبكي سواها معها ، من أجل الزواج ... »

وأنا فلست أدري والله ممّ تعجب هذه الكاتبة ، وإني لأعجب من عجبها ، وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلاً وهوينا ، مظهره الجدّ والقصد والغضب . أئنّ أطيع للنساء أن يثرن كما تقول الكاتبة ، وجاهد فلان وفلان في هذه الثورة فأخذت مأخذها ، فانطلقت لشأنها ، فأوغلت في حريتها ، فامتدّ بها أمدّها شوطاً بعد شوط — ثم جاء خلق من أخلاق المرأة يُسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته نائراً هو أيضاً في غير مُدارة ولا حذق ولا كياسة ، يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله ، ثم وقف على رغبه في الطريق منكسراً مما به من اللغة والوثبة يتوجّع ، يتنهد ، يتلذّع بهذه المعانى وهذه الكلمات — أئن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة : جَرى عليكِ وكنتِ حرة ، وترعزعتِ وكنتِ ثابتة ، وأخشتِ وكنتِ عفيفة ، وتعهّرتِ وكنتِ طاهرة ؟ أفلا تقول لها : سَفَرْتَ أخلاقكِ إذ كنتِ سافرة بارزة ، وضاع حيائكِ

إذ كنت مُخلَّاةً مهمَّلةً ، وغَلَوْتَ إذ كنتِ في المبالغة من البدء ؟
أفلا تقول لها : لقد تَلَطَّفْتَ فجئتِ بالمعنى المجازيِّ لكلمة (العُرى) ، ولقد
أبدعتِ فكنتِ امرأةً ظريفةً اجتماعيةً خَيَّلةً للشعر والفن ، وحقَّقتِ أن واجبَ
الظريفة الجميلة إعطاء الفن غذاءً مِنْ ، ومن ؛ ومن لهما . . . ؟
نعم إن قاسم أمين (رحمه الله) لم يكن يظن ولكن أما كان
ينبغي أن يظن أن بعضَ الصواب في الخطأ لا يجعلُ الخطأ صواباً ؟ بل هو أخرى
أن يُلبَّسه على الناس فيُشبهه عليهم بالحق وما هو به ، ويجعلهم يسكنون إليه
ويؤمنون جانبه فينتهي بهم يوماً إلى أن يَنْتَسِفَ خطؤه صوابه ، ويغطَّى باطله
على حقه ، ثم تَسْتَطِرْقُ إليه عواملٌ لم تكن فيه من قبل ، ولا كانت تجد إليه
السبيل وهو خطأ محض ، فتمدُّ له في الغي مدداً . ثم تنتهي هي أيضاً إلى نهايتها ،
وتتَوَلَّى إلى حقائقها ؛ فإذا كل ذلك قد داخلَ بعضُه بعضاً ، وإذا الشر لا يقفُ
عند ما كان عليه ، وإذا البلاء ليس في نوع واحد بل أنواع .

ما يرتاب أحد في نية قاسم أمين ، ولا نزع من أن له خَفِيَّةً سوء أو مُضْمَرٌ شر
فيما دعا إليه من تلك الدعوة ، ولكني أنا أرتاب في كفايته لما كان أخذ نفسه
به ، وأراه قد تكلف ما لا يُحسَن ، وذهب يقول في تأويل القرآن وهو لا ينفذُ
إلى حقائقه ، ولا يستبطنُ أسرارَ عريته ، وكان مناظروه في عصره قوماً ضعفاءً ،
فاستعلاهم بضعفهم لا بقوته ، وكانت كلمةُ الحجاب قد انتفخت في ذهنه بعد أن
أفرغت معانيها الدقيقة ، فأخذها ممتلئةً وجاء بها فارغة ، وقال للنساء : غَيِّرْنَ
وبدِّلْنَ . فلما أظننه وبدَّلْنَ وغيرْنَ ، وجاء الزمنُ بما يفسِّر الكلمة من حقائقه
وتصاريفه لا من خيالاتِ التخييل أو المتشيع — إذا معنى التغيير والتبديل هو
ما رأيتُ ، وإذا الحجابُ الأول على ضلاله كان نصفَ الشر ، وإذا المرأة التي
رحبت الشارع هي التي خسرت الزوج ! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفيًا للحجاب

عن المرأة ، ولكن نفيًا للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة ، كأنها مجرمة عُوقبتْ على فساد سياستها ؛ وهي قارّة في بيتها ولكنها مع ذلك منفيةٌ من مستقبلها .

كانوا يحتجّون لنفي الحجاب بالفلاّحات في سفورهن ؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعي في ذلك ، وهو أن السفور إنما عَمَّهْن من كونهن لسن في المنزلة الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة ؛ ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا في اجتماع طبيعي فطريّ أساسه الخلط في الأعمال لا التمييز بينها ، والاشتراك في شيء واحد هو كسبُ القوتِ ^(١) لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس .

ولست أرى هذه اللّجاجة ، أو « الحيوية الصارخة » التي ثارت بفتياتنا — إلا تمرّدًا من طبيعتهن على الأحوال الظالمة المتصرفية بها ؛ ويَحْسَبَنَّ توسعًا من الطبيعة في الحرية ، وطلبًا للعالم كله بعد الشارع ، وللحقوق كلّها بعد نبذ الحجاب ؛ وهو في الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق ، ورغبة منها في أن تُحدَّ بمحدودها ويُؤخَذَ منها العالم كله بما فيه ، وتُعْطَى البيت وحده بما فيه .

إذا أنت كشفت جذورَ الشجرة لتُطلقها بزعمك من حجابها ، وتُخرجها إلى ^لالنور والحرية ، فإنما أعطيتها النور ، ولكن معه الضعف ؛ والحرية ، ومعها الانتقاص ؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معًا ؛ فخذها بعد ذلك خشبًا لا ثمرًا ، ومنظرَ شجرة لا شجرة ، لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها ، وجهلت أنها من أطباق الثرى في قانون حياتها ، لا في قانون حجابها . أفليست كذلك جذورُ الشجرة الإنسانية ؟

(١) ولهذا لا يكاد يقتنى الفلاح ولو أيسر الغنى ، حتى يصون امرأته ويحجبها ويرتفع بمعناها في نفسه .

كلُّ ما يتغير يسهلُ تغييرُهُ على من شاء ، ولكنَّ التناججَ الآتيةً من التغيير لا تكون إلا حتماً مقضياً كما يقضى ، فلن يسهلَ تبديلُها ولا تحويلُها ولا ردُّها أن تقع . وقد أخطأ جماعة السفور ، بل أنا أقول : إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية ، وإنهم طَبُّوا للمرأة المسلمة كذلك الطبُّ الذى أساسه الراحة الذكية فى البخور...! (١)

وما هو الحجابُ إلا حفظُ روحانية المرأة للمرأة ، وإغلاءِ سعرها فى الاجتماع ، وصونها من التبذُّلِ للمقوتِ ، لضبطها فى حدودِ كحدودِ الرِّيح من هذا القانون الصارم ، قانونِ العَرَضِ والطلبِ ؛ والارتفاعُ بها أن تكونَ سِلْعَةً بائرةً ينادى عليها فى مدارجِ الطرق والأسواق : العيونُ الكحيله ، الخدودُ الوردية ، الشفاهُ الياقوتية ، الثغورُ اللؤلؤية ، الأعطفُ المرتجة ، النهود... أو ليس فتياتنا قد انتهن من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية ، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهرون فى الطرق إلا لتنادى أجسامهن بمثل هذا ؟ وهذه التى كتبت اليومَ تطلبُهم مُخَادِنِينَ إن أخطأتهم أزواجاً ، وتفتشُ عليهم تفتيشاً بين الزوجاتِ والأمهاتِ والأخوات ! هل تريد إلا أن تثبَ درجةً أخرى فى مخزيات هذا التطور ، فتمشى فى الطريق مشى الأنثى من البهائم طَوْحاً مَطْرُوفَةً ، تذهبُ عيناها هنا وههنا تلتبسُ من يخطو إليها الخطوةَ المقابلة... ؟ ما هو الحجابُ الشرعى إلا أن يكونَ تربيةً عمليةً على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخفها الرحمة ؟ هذه الصفةُ النادرةُ التى يقوم الاجتماعُ الإنسانى على نزعها والمنازعة فيها ما دامت سنة الحياة نزاعَ البقاء ، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظُ المرأةُ به منزلتها ، وتودى فيه عملها ، وتكون مغرِساً للإنسانية وغارسةً لصفاتها معاً .

لقد رأينا مواليدَ الحيوان تولد كلها : إما ساعيةً كاسبةً لوقتها ، وإما محتاجةً إلى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضى فتكدحَ لعيشها ؛ إذ كانت غايةُ الحيوان هي الوجود في ذاته لافي نوعه ، وكان بذلك في الأسفل لافي الأعلى . غير أن طفلَ المرأة يكون في بطنها جنيناً تسعة أشهر ، ثم يولد ليكون معها جنيناً في صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعافَ ذلك ، سنةً بكل شهر . فهل الحجابُ إلا قصرُ هذه المرأة على عملها ، لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت ؟ وهل قصرُها في حجابها إلا تربيةٌ طبيعية لرحمتها وصبرها ، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها ؟

أعرف معلمةً ذاتَ ولد ، تترك ابنها في أيدي الخدم بعد وصاةٍ علميةٍ سيكولوجية وتمضي ذاهبةً عن يمين الصباح ، ويمضي زوجها عن شماله وقد رأيت هذا الطفل مرة ، فرأيت شيئاً جديداً غير الأطفال ، له سمةٌ روحانية غير سماتهم ، كأنما يقول لي : إنه ليس لي أبٌ وأم ، ولكن أبٌ رقم (١) ، وأبٌ رقم (٢) !

وقد كنتُ كتبت كلمة عن الحجاب الإسلامي قلت فيها : « ما كان الحجابُ مضروباً على المرأة نفسها ، بل على حدودٍ من الأخلاق أن تجاوز مقدارها أو يُخالطها السوء أو يتدسّسَ إليها ؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب ، وليس يؤدى إليها شيء إلا أن تكون المرأة امرأة في دائرة بيتها ، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعاني . »

وهذا هو الرأي الذي لم يتنبه إليه أحد ، فليس الحجابُ إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحِهِ الدينية المَعْبُدِيَّة ، وهو كالصدفة لا تحجبُ اللؤلؤة ولكن تربّيها في الحجاب تربيةً لؤلؤية ؛ فوراء الحجاب الشرعي الصحيح معاني

التوازن والاستقرار والهدوء والاضطراد ، وأخلاق هذه المعاني وروحها الديني القوي ، الذي ينشئ عجيبة الأخلاق الإنسانية كلها ؛ أي صبر المرأة وإشارتها . وعلى هذين تقوم قوة المدافعة ، وهذه القوة هي تمام الأخلاق الأدبية كلها ، وهي سرُّ المرأة الكاملة ؛ فلن تَجِدَ الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا في المرأة ذات الدين والصبر والمدافعة . إنها فيها تشبه أخلاق نبي من الأنبياء .

✓ وقد مُحِقَّ الدين والصبر ، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلّقات ، فابتُلِينَ من ذلك بالضجر والملل ، وتشويه النفس ؛ ووقع فيهن معنى كعنى العَفَن في الثمرة الناضجة ؛ وجهلن بالعلم حتى طبيعتهن ، فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية في ذاتها ، وأنه لا يشدّها وقيّمها إلا الصفات السلبية ، وملاكها الصبر فروعُه وأصوله ، وجمالها الحياء والعفة ، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده . إنه إن لم يكن في المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا .

وما تخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية ، وانتحالها صفات الإيجاب ، وتمردّها على صفات السلب ، كما يقع لعهدنا ؛ فإن هذا لن يتم للمرأة ، ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأة نقائص أخلاقها من أخلاقها ، كما نرى في أوروبا ، وفي الشرق من أثر أوروبا ؛ فمن هذا تُلَقِّي الفتاة حياءها وتَبْذُو وتُفْجِس ، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالمعاني وحدها ، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك ؛ وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة ، والمجلات العارية ؛ فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون علم الفكر الساقط .

وعادت الفتاة من ذلك لا تبتغي إلا أن تكون امرأة روية : إما فوق الحياة ، وإما في حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر ! وتنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين ، وليست الطرفين جميعاً ؛ فتحاول أن تقرر للحياة

الجديدة تأويلاً جديداً لمعانى الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها ؛
فانسلخت من كل شيء ، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت
طيشها الأخير ، فانسلخت من إنسانية الغريزة .

أما إن غلطة الرجل في المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة في نفسها .
وهي قد أعطيت في طبيعتها كل معانى حجابها ؛ فاحساسها محتجبٌ مخبئٌ أبداً
كأنه في إنب^(١) وملاءة وبرقع ، وأفكارها طويلة الملامزة لها لا تكاد تتركها ،
كأنها منها في بيت ؛ وطبيعتها الحذر لا تتركها كأنها الحارس الثابت في موضعه ،
القائمٌ بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل ؛ وطول التأمل موكِّلٌ بها كأن
عمله مصاحبةٌ وحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها ؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب
أقذارها ، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبها تذهبُ الأقدار فيه مذاهبٌ أخرى ؛
وضغطة الحياة الطبيعية فيها ، حتى لا يساورها هم من المموم إلا صار كأنه من
عادتها . والتي تمزقها الحياة كما ولدت لا تكون الحياة إلا رحيمةً بها إذا ضغطتها !
فخرج المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها ، فهو إضعافٌ لها ، وتقصيرةٌ
للرجال بها . وماذا تجدى عادة الحذر إذا أفسدتها عادة الاسترسال والاندفاع ؟
فيكون حذراً ليكون إغفلاً ، ثم يكون إغفلاً ليعود الزلة والغلطة ؛ ومتى رجع
غلطة فهذا أول السقوط ، ومبدأ الانقلاب والتحول . وليس الفرق بين امرأة
نفور من الريبة ، شمسٍ لا تطالع الرجال ولا تطعمهم ؛ وبين امرأة قروورٍ على
الريبية ، هلولٍ فاجرة — ليس الفرق إلا حجاب الحذر أُسدِلَ على واحدة ،
وانكشف عن أخرى .

وإذا قرئت المرأة في فضائلها ، فإنما هي في حجابها ودينها ، وإنما ذلك

(١) الإنب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين ، وتسميه الرفيات (الملس) .

✓ الحجاب ضابطٌ حريتها الصحيحة ، باعتبارها امرأةً غيرَ الرجل ؛ فهو مسَمَّى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها ، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهراً من الرأي لا يدركون مذهبَه ، ولا يحققون ما ينتهى إليه ، وينفذون فى حكمهم على الظاهر لا على البصيرة — هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا فى القماش والكساء والأبنية ، كأن حجاب الأخلاق النسوية شئ يصنعه الحائك والباني والمستعبد ، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية ؛ فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم ، يأتون بنصف الجهل .

لم يخلق الله المرأة قوة عقل فتكون قوة إيجاب ، ولكنه أبدعها قوة عاطفة لتكون قوة سلب ؛ فهى بخصائصها والرجل بخصائصه ؛ والسلب بطبيعته متحجب صابراً هادئ منتظر ، ولكنه بذلك قانون طبيعى تتم به الطبيعة .
وينبغى أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفاً ، وزيادة لا نقصاً ؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها فى مشاكلك أن يكون كصوت الرجل صيحة فى معركة ، بل تحتاج هذه المشاكل صوتاً رقيقاً مؤثراً محبوباً مجمعا على طاعته ، كصوت الأم فى بيتها .

أيتها الفتاة ، إن صدقَ الحياة تحت مظاهرها لا فى مظاهرها التى تكذب أكثر مما تصدق ؛ فساعدى الطبيعة واحجى أخلاقك عن الرجل ، لتعمل هذه الطبيعة فيه بقوتين دافعتين : منها ومنك ، فيُسرع انقلابه إليك وبجنته عنك ؛ وقد يجد الفاسق فسقات وبغايا ، ولكن الرجل الصحيح الرجولة لن يجد غيرك .
وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة ، وتمكين للرجل نفسه أن يُرجف بك الظن ، ويسىء فيك الرأي ؛ وعقابك على ذلك ما أنت فيه من الكساد والبوار ؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان ، وعقاب أفكارك لنفسك بالأم !

س. ١. ع^(١)

الروضة
النقية

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة الغزوبة ، ويحبون المرأة حباً خائفاً
يُقدِّم رجالاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يُقبل إلا أدبر ، ولا يعزِّم إلا انحلَّ عزمته .
بلغوا الرجولة وكان ليست فيهم ؛ وتمرُّ بهم الحياة مرورها بالتمائل المنصوبة ،
لا هذه قد ولدت لها ولا أولئك ؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معاني وجودهم ،
لا ليطلبوا سعادة وجودهم ، ويُمخِّرون في شعوذة الحياة بالنهار على الليل ، وبالليل
على النهار ؛ يحاولون أن يجدوا كالناس أياماً وليالي ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من
الغزوبة إلا نهراً واحداً ، نصفه أسود مُقْفِرٌ مظلم ... !

فأما «س» فرجلٌ «كشيخ المسجد» يكاد يرى حصير المسجد حيث
وطئت قدماه من الأرض ... ذو دين وتقوى ، ما يزال بهما ينقبض وينكش
ويتزأيل حتى يرجع طفلاً في الثلاثين من عمره ... وهو حائرٌ بائرٌ لا يتجشأ شيء
من أمر المرأة ، وقد فقد منها ما يحلُّ وما يحرم ، ولا جرأة لنفسه عليه ، فلا
جرأة له على الموبقات ، ولا يزيّن له الشيطان ورطة منها إلا أمّلس منه ، فإن
له ثلاثة أبواب مفتوحة لله رب : إذ يخشى الله ، ويتوقّى على نفسه ، ويستحي
من ضميره .

وأما «ا» فرجلٌ مغزابةٌ ، ولكنه كالإسفنجة ، امتلأت حتى ليس فيها خلاصة
لقطرة ، ثم عصرت حتى ليس فيها بلالٌ من قطرة ؛ وقد بلغ ما في نفسه وقضى
نهمته حتى اشتفى مما أراد ؛ ثم قلب الثوب ... فإذا له داخلَةٌ ناعمةٌ من الخرز
والديباج ، وإذا هو «الرجل الصالح» العفيف الدخلة ، ما تنطأ له نفسٌ إلى

مَأْتَمٌ ، ولا يعرف الشيطانُ كيف يَتَسَبَّبُ لَصُلْحِهِ ومُرَاجَعَتِهِ الودِّ ...
 وأما «ع» فهو كالأعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجلٍ
 واحدةٍ ، ولكنه يمشى ... وهو «مَلِكُ الشوارع» لا يزال فيها مقبلاً مُدْبِراً
 طرفاً من النهار وزلفاً من الليل ؛ فإذا لم يكن في الشارع نساء ظَنَّ الشارعَ قد
 هَرَبَ من المدينة وخرج من طاعته ... ولهذه الشوارع أسماءٌ عنده غيرُ
 أسماءها التي يتعارفها الناسُ ويستدلُّون بها . فقد يكون اسمُ الشارع مثلاً :
 «شارع طه الحكيم» ويسميه هو «شارع ماري» ... ويكون اسمُ الآخر :
 «شارع كشنر» فيسميه «شارع الطويلة» ... ودَرْبُ اسمه «درب الملاح»
 واسمه عنده «درب المليحة» ... وهلمَّ جراً ومسخاً .
 وإذا أراد صاحبنا هذا أن يسخرَ من الشيطان دخل المسجدَ فصلّى ، وإذا
 أراد الشيطان أن يسخرَ منه دَحَرَجَه في الشوارع ... !

وافيت هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة : «تربية أولوية» ، يناقشونها
 بثلاثة عقول ، ويفتشونها بستَ عيون ؛ فأجمعوا على أن المرأةَ السافرة التي
 نبذت «حجاب طبيعتها» على ما بينتُه في تلك المقالة — إن هي إلا امرأةٌ
 مجهولةٌ عند طالبي الزواج ، بقدر ما بالغت أن تكونَ معروفةً ، وأنها ابتعدت من
 حقيقتها الصحيحة ، قدر ما اقتربت من خيالها الفاسد ؛ وأتقنت الغايط لِيَصْدُقَهَا
 فيه الرجلُ ، فلم يكذبها فيه إلا الرجل ؛ وجعلت أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً
 من أحسن معانيها ... !

وأردت أن أعرف كيف تنصِّفُ الطبيعةُ من الرجل العزبِ المرأةَ التي
 أهملها أو تركها مُهملةً ... وأين تبلغَ ضَرَبَاتُها في عيشه ، وكيف يكون أثرُها
 في نفسه ، وكيف تكون المرأةُ في خائنة الأعين ؛ فتسرَّحتُ مع أصحابنا في الكلام

فنا بعد فن ، وأزلت حذارهم الذي يجذرون ، حتى أفضوا إلى بفلسفة عقولهم
وصدورهم في هذه المعاني .

قال «س» : حسبي والله من الآلام والآلام معها — شعوري مجرمانى
المرأة ؛ فهو بلائ منغى القرار ، وسلبنى السكينة ؛ وكأنه شعور بمثل الوحدة
التي يعاقب السجين بها مصروفاً عن الحياة مصروفة عنه الحياة ؛ تجعله جذران
سجنه يتمنى لو كان حجرًا فيها فينجو من عذاب إنسانيته الدليلة الجرمة ، المخلى
بينها وبينه توسعة مما يكره ؛ شعور بالوحدة والعزلة حتى مع الناس وبين الأهل
فما في إلا عواطف خرس لا تستجيب لأحد ولا يجاوبها أحد في « ذلك المعنى » .
وتمام الدلة أن يجد العزب نفسه أبداً مكرها على الحديث عن آلامه
لكل من يخاطبه أو يجلس إليه ، كأنه يحمل مصيبة لا ينفس منها إلا كلامه
عنها . وهذا هو السر في أنك لا تجد عزباً إلا عرفته ثرثاراً لا تزال في لسانه
مقالة عن معنى أو رجل أو امرأة ، وأصبته كالذباب لا يطير عن موضع إلا ليقع
على موضع .

ومع جهد الحرمان جهد شر منه في المقاومة وكف النفس ؛ فذلك تعب
يهلك به آدمي ، إذ لا يدعه يتقار على حالة من الضجر فيما تنازعه الطبيعة إليه ،
وهو كالمزع في أعصابه ، يحسها تشد لتقطع ، ودائماً تشد لتقطع .
وقد رهقني من ذلك الضنى النسوى ما عيل به صبرى وضعف له احتملى ؛
فما أرانى يوماً على جمام من النفس ، ولا ارتياح من الطبع ؛ وكيف وفى القلب
مادة هم ، وفى النفس علة انقباضها ، وفى الفكر أسباب مشغلته ؟ وقد أوقدت
سورة الشباب نارها على الدم ، تلتعجج في الأحشاء ؛ وتطير في الرأس ، وتصبغ
الدنيا بلون دُخانها ، وفى كل يوم يتخلف منها رماد هو هذا السواد الذى ران
على قلبى .

وما حال رجلٍ عذابه أنه رجل ، وذلّه أنه رجل ؟ يلبس ثيابه الإنسانية على مثل الوحش في سلاسله وأغلاله ، ويحمل عقلًا تسبّه الغريزة كلّ يوم ، وتراه من العقول الزّيف لا أثر للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة الثابتة ، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مجترًا جريمة فكر

وفي دُونِ هذا ينكرُ المرءُ عقله ؛ وأى عقلٍ تراه في رجلٍ عزبٍ يقع في خياله أنه متزوج ، وأنه يأوي إلى « فلانة » ، وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ، وأنه من أجلها كان عزوفًا عن الفحشاء ، بعيدًا من المنكر ؛ وفاءً لها ، وحفظًا لعهد الله فيها ، وقد دلّته بفنونها التي يبتدعها فكره ؛ وهي ساعة تؤاكله على الخوان ، وساعة تضاحكه ، ومرة تُعابيه ، وتارة تُجافيه ، وفي كل ذلك هو ناعمٌ بها ، يحدثها في نفسه ، ويسمرُ معها ، ويتصنّع لها وتتصنع له ؛ ويُعابها أحيانًا في رقة ، وأحيانًا في جفاء وغلظة ؛ وقد ضربها ذات مرة . . . ؟

ألا إن فكرة المرأة عندي هي هذا الجنون الذي يرجع بي إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرمي بي في كهفٍ أو غابةٍ ، فأراني من وراء الدهور كأني أبدأ الحياة منفردًا وأجدني رجلًا عاريًا متوحشًا متأبدًا ليس من الحيوان ولا من الإنس ، دنياه أحجارٌ وأشجار ، وهو حجرٌ له نموُّ الشجر .

لقد توزّعت المرأة عقلي فهو متفرّقٌ عليها ، وهي متفرقة فيه ، لا أستطيعُ والله أن أتصورها كاملة ، بل هي في خيالي أجزاء لا يجمعها كلٌّ ؛ هي ابتسامةٌ ، هي نظرةٌ ، هي ضحكةٌ ، هي أغنيةٌ ، هي جسمٌ ، هي شيءٌ ، هي هي هي .

أكلُّ تلك المعاني هي المرأة التي يعرفها الناس ، أم أنا لي امرأةٌ وحدي ؟ وإني على ذلك لأتخوفُ الزواجَ وأتحمّاه ؛ إذ أرى الشارعَ قد فصّح النساءَ وكشفهنّ ؛ فما يُريني منهنّ إلا امرأةً تُزهي بثيابها وصنعةٍ جمالها ، أو امرأةً

كلها ربة من فضائلها ؛ والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصانع ، تخطيط ثوبها بيدها فتباهي بصنعتة قبل أن تباهي بلبسه ، وتزهى بأثر وجهها في ، لا بأثر المساحيق في وجهها . وإن مكابدة العفة ، ومصارعة الشيطان ، وتوهج القلب بناره الحامية ، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل — كل ذلك ومثله معه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل ، أبتلى منها في صديق العمر بعدو العمر .

إن أثر الشارع في المرأة هو سوء الظن بها ، فهي تحسب نفسها معلنة فيه / أنوثتها ، وجهالها ، وزيتها ؛ ونحن نراها معلنة فيه سوء أدب ، وفساد خلق ، وانحطاط غريزة . ومن كان فاسقاً أساء الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله في كل واحدة ؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك متعلقاً يتعلق به ، وقياساً يقيس عليه ؛ والفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ، بل تعم .

آه لو استطعت أن أوقظ امرأة من نساء أحلامي . . . !

وقال « ١ » : لقد كانت معاني المرأة في ذهني صوراً بديعة من الشعر تستخفي إليها العاطفة ، ولا يزال منها في قلبي لكل يوم نازية تنزو . وكانت المرأة بذلك حديث أحلامي ونجى وساوسى ، وكنت عفيف البنطلون (١) ؛ ولكن النساء أيقظنني من الحلم ، وجعثنني فيه بالحقيقة ، ووضعن يدي على ماتحت مئس الحية . ولو حدثتك بجملة أخبارهن ، وما مارست منهن لتكرهت وتسخط ، ولأيقنت أن كلمة (تحرير المرأة) إنما كانت خطأ مطبعياً ، وصوابها :

(١) يقول العرب في الكناية عن العفة : وهو عفيف الإزار ، وترجمتها في عصرنا

(تجريد المرأة) ... فهو لاء النساء أو كثرتهن — لم يُذِنَّ الحِجَابَ إِلَّا لِتَخْرَجَ واحدةٌ مما تجهلُ إلى ما تريد أن تعرف، وتخرج الأخرى مما تعرفُ إلى أكثر مما تعرفه، وتخرج بعضهن من إنسانةٍ إلى بهيمة

لقد عرفتُ فيمن عرفتُ منهن الخفيفة الطيَّاسة، والحقاء المتساقطة، والفاحشة ذات الرِّيبة؛ وكلُّ أولئك كان تجريدُهن أي تجريدُهن — تقليداً للمرأة الأوربية؛ تهالكنَ على رذائلها دون فضائلها، واشتدَّ حرصُهن على خيالها الروائي دون حقيقتها العلمية، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائل كما هي، بل نزيد عليها ضعفنا فإذا هي رذائلُ مضاعفة.

كان الحلمُ الجميلُ في الحِجَابِ وحده، وهو كان يُسرُّ أنفاسي ويستطيرُّ قلبي، ويُرغمني مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرُّم، ورمزَ الأدب، وشارة العفة، وأن هذه الحصنة الخدرة — عذراء أو امرأة — لم تلقِ الحِجَابَ عليها إلا إيداناً بأنها في قانون عاطفة الأمومة لا غيرها؛ فهي تحت الحِجَابَ لأنه رمزُ الأمانة لمستقبلها، ورمزُ الفصل بين ما يحسن وما لا يحسن، ولأن وراءه صفاءً بروحها الذي تخشى أن يكدر، وثبات كيانها الذي تخشى أن يززع.

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الخلقِ وصنوف الزينة والكسوة الحسنة: «يا هؤلاء، إنكم إنما تعلمونهنَّ محبة الأغنياء لا محبة الأزواج»، وأحكم من هذا قول ذلك الرجل الإلهي الصارم عمر بن الخطاب: «إضرِبوهنَّ بالعُرَى» فقد عُرِفَ من ألف وثلاثمائة سنة أن تجريدَ المرأة هو تجريدُها، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لإظهار زينتها. فلو مُنعت الثياب الجميلة حبستْها طبيعتها في بيتها. فماذا تقول الشوارع لو نطقت؟ إنها تقول: يا هؤلاء، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد ...!

لقد والله أنكرتُ أكثر ما قرأتُ وسمعتُ من محاسنهن وفضائلهن وحياتهن،

ولقد كان الحجابُ معنًى لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار الشارحُ معنًى لسهولةها ورخصها ؛ وكان مع تحقّقِ الصعوبة أو توهّمها أخلاقٌ وطباعٌ في الرجل ، فصار مع توهّم السهولة أو تحقّقها أخلاقٌ وطباعٌ أخرى على العكس من تلك ؛ ما زالت تنمّي وتتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقّى بمن لسن المرأة في الطريق من « الجنحة » إلى « الجناية » .

وتخنّت الشبان والرجال ، ضروباً من التخنث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال ، وتحلّلت فيهم طباعُ الغيرة ، فكان هذا سريعاً في تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسريعاً في إفساد اعتقادهم ، وفي نقض احترامهم ، فأقبلوا بالجسم على المرأة ، وأعرضوا عنها بالقلب ؛ وأخذوها بمعنى الأنوثة ، وتركوها بمعنى الأمومة ؛ ومن هذا قل طلاب الزواج ، وكثر زوّاد الخنا .

ولقد جاءت إلى مصرَ كاتبة إنجليزية ، وأقامت أشهراً تخلّط النساء المتحجبات وتدرسُ معاني الحجاب ، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه : « سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية » قالت في آخره : « إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً ، وهذا التنافسُ الجنسيّ ، وتجريدُ الجنسيتين من الحجب المشوّقة الباعثة التي أقامتها الطبيعةُ بينهما — إذا كان هذا سيُصبحُ كلُّ أثره أن يتولّى الرجالُ عن النساء ، وأن يزولَ من القلوب كلُّ ما يحركُ فيها أوتار الحب الزوجي فما الذي نكونُ قدر بحماه ؟ لئلاّ والله تضطربنا هذه الحال إلى تغيير خططنا بل قد نستقرّ طوعاً وراء الحجاب الشرقي ، لنتعلم من جديد فنَّ الحب الحقيقي . »

وقال « ع » : لستُ فيلسوفاً ، ولكنّ في يدي حقائق من علم الحياة لا تأتي الفلسفةُ بمثلاً ، وكتابي الذي أقرأ فيه هو الشارح .
فاعلم أنّ العزّاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض ، وهم كاللصوص

ألقى
في الرفق

السفلى
الذي
الوان

لا يجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة . وحياة اللص معناها وجود السرقة ، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق .

ومن حُكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يُباهى بإظهار فسقه قدر ما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها ؛ وهذه إشارة من الطبيعة إلى أن المرأة مسكينة مظلومة . فما ابتذال الحجاب ، ولا استهتاك النساء إلا جواباً على انتشار العزوبة في الرجال ، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فذالاً إلى ما دون الصفر ؟ فهذا الثلج ماء يعتذر من تحوله وانقلابه بعذر طبيعي قاهر ، له قوة الضرورة الملجئة ، وكذلك المرأة المذلة أو الطامحة أو المتبدلة أو المتهتكة — ما صِفَاتُهن إلا توكيدٌ لأعذارهن .

وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم ، فالعزب وإن كان رجلاً حراً في نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأئوثة حقها فيه ؛ فحتى جحد هذا الحق ، واستكبر عليه ، رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه ؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة وأحكامها وقوتها التنفيذية .

وإذا أُطْلِقَت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزاباً ، فإذا يكون إلا أن تُمحي الدولة ، وتسقط الأمة ، وتتلشى الفضائل ؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها ، ولا ينبغي أن تتربص بها الحكومة حتى تعم ، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هي ، ويجب تفسير كلمة « العزب » في اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة المرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساء رأى العزَاب في النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا في أسوأ أحوالها وأقبح صِفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجوداً محزناً يستمتعون فيه ، ولكنهم يهلكون ويهلكون به .
هم والله أساتذة الدروس السافلة في كل أمة ، وهم والله بُعَاةٌ من الرجال في حكم
البغايا من النساء ، يَجْرُونَ جميعاً جُجْرَى واحدًا . وَمَنْ هِيَ البَغْيَى في الأكثر إلا
امرأةٌ فاجرة لا زَوْج لها ؟ وَمَنْ هُوَ العَزَبُ في الأكثر إلا رجلٌ فاسق لا زوجة
له ؟ على أن مع المرأة عذرٌ ضعيفها أو حاجتها ، ولكن ما عذرُ الرجل ؟

ماذا تُقيدُ الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فَوْضَى الحياة ، وسَيَرَهَا /
على نظامها ، وَتَحَقُّقُهَا على أسخفِ ما فيها من الخيال والحقيقة ؛ وأىُّ عَزَبٍ يجد
الاستقرارَ ، أو تجتمع له أسبابُ الحياة الفاضلة ؛ وهو قد فقدَ تلك الروح التي تتم روحه ،
وتنقِّحها ، وتمسِكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها ، وتجيئُه بالأرواح
الصغيرة التي تُشعره التَّبَعَةَ والسيادة معاً ، وتمتدُّ به ويمتدُّ بها في تاريخ الوطن ؟
كيف يُعتبر مثلُ هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حيٌّ مختلٌّ في وجودٍ مُستعار ،
يقضي الليلَ هارباً من حياة النهار ، ويقضي النهارَ نافرماً من حياة الليل ؛ فيقضي
عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل ببعضها ، بل
بالممكن من بعضها . . . !

أَيَّةُ أُسْرَةٍ شريفة تقبل أن يساكنها رجلٌ عَزَبٌ ، وأَيَّةُ خادِمٍ عفيفةٍ
تطمئن أن تخدم رجلاً عَزَباً ؟ هذه هي لعنةُ الشرفِ والعفةِ لهؤلاء الأعزاب
من الرجال !

قال الراوى : وهنا انتفض « س » و « ا » وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة
ويردّاها إلى حلقِ « ع » . ثم سألنى ثلاثتهم أن أُسْقِطَها من المقال ، بَيَدَ أُنَى
رَأَيْتُ أَنْ خيراً من حذفها أَنْ تكونَ اللعنةُ لأعزَابِ الرجالِ إلا « س » و « ا »
و « ع » . . .

استنوق الجمّل ...

قال الشاب : لا قِبَل لي بهذا التعب المُعَيّ الذي يسمّونه « الزواج » فما هو إلا بيتٌ ثَقُلَ على شَيْئَيْن : على الأرض ، وعلى نفسي ؛ وامرأةٌ هُمَّها في موضعين : في دارها ، وفي قلبي ؛ وما هو إلا أطفالٌ يُلْزِمونني عملَ الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدينِ اثنتين ، وأتحمّلُ فيهم رَهَقًا شديدًا كأنما أبنيهم بأيامٍ ، وأجمعُ همومَ رؤوسهم كلّها في رأسٍ واحدٍ هو رأسي أنا .

يُولَدُ كلٌّ منهم بمَعْدَةٍ تهضمُ لتوّها وساعتها ، ثم لا شيء معها من يدٍ أو رجلٍ أو عقلٍ إلا هو عاجزٌ لا يستقلّ ، مُتَخَذِلٌ لا يطيق ولا يقدر .

قال : وإذا كان أولُ الزواج أَيْ عَسَلُهُ وحلّواه أنه امرأةٌ تُذهِبُ غُزْبتي . فأنّا وأمثالي ما نزالُ في عَسَلٍ وحلوى . . . ولكلّ وقتٍ زواج ، ولكل عصرٍ أفكار ، وما أسخفَ الليالي إذا هي ترادفتْ على ضَرْبٍ واحدٍ من أحلامها ، فهذا يجعلُ النومَ حكمًا بالسجن عشرَ ساعات . . . !

قال : وإذا أردتَ أن تستكشفَ القصةَ فاعلم أننا نحن العُزَّاب قوم كرجال الفن ؛ رذيلتهم فَنِيَّةٌ ، وفضيلتهم فَنِيَّةٌ ، فتلك وهذه بسبيل ؛ وكلُّ شيء في الفن هو لموضعه من الفن لا من غيره ؛ فإذا قلتَ : هذا خالٍ من الفضيلة ، عارٍ من الأدب ؛ وعَبَتَ الفنَ لذلك — فما هو إلا كهيبتك وجهَ المرأة الجميلة لأنه خالٍ من لِحْيَةٍ . . . ! هاتِ الظلامَ وسوادَه ، فانه لونُ كالنور وإشراقه ، لا بدّ من كليهما ؛ إذ المعنى الفنّي إنما يكون في تناسبِ الأشياءِ لا في الأشياءِ ذاتها ؛ ويدُ الفنّي كيدُ الغنى ؛ هذه لا يقع فيها الذهبُ إلا ليتعدّد ثم يتعدّد ؛ وتلك لا تقع

ففي المرأة إلا لتتعدد ثم تتعدد ؛ وفي كل دينار قوة جديدة ، وفي كل امرأة فن جديد . . .

قال : ومذهبننا في الحياة أن نستمتع بها ضروباً وأفانين ؛ من أطاق أنواعاً لم يقتصر على نوعين ، ومن قدر على نوعين لم يرض الواحد ؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى ، لثقل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصوّان ؛ إذ هي لا تلد أشعة كواكب ، ولا قطرات ندى ؛ وحسب الجسد برأس واحد حملاً .

قال : ومن الذي تعرض عليه الحياة سلامها وتحياتها وأشواقها في مثل رسالة غرام ، ثم يدع هذا ويسألها غضبها وخصامها ولجاجتها في مثل قضية من قضايا المحاكم كل ورقة فيها تلد ورقة . . ؟

ثم قال الشاب : لا تحسبن أن المرأة هي السافرة عندنا ، ولكن اللذة هي السافرة ؛ وما أحكم الشرع ! أقول لك وأنا محامٍ يقرر الحقيقة : — ما أحكم الشرع الذي لم يرخص في كشف وجه المرأة إلا للضرورة ، فإن الواقع في الحياة أن هذا الكشف كثير ما يكون كمنقب اللص على ما وراء النقب ؛ وإذا كسر ما فوق القفل من الخزانة المكتنز فيها الذهب والجوهر ، فالباب الحديد كله سخرية وهزؤ من بعد . . !

هذه عقلية شاب محام طوى عقله على الكتب القانونية ، وطوى قلبه على مثلها من غير القانونية . . . وليس يمتري أحد في أنها عقلية السواد من شبائنا المثقف الذي لبس الجلد الأوربي . ومن البلاء على هذا الشرق أنه ما برح يناهض المستعمرين ويؤائبهم ، غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التي تناهضه وتوابه ، جاهلاً أن أوروبا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية ؛ وتسوق

الأسطول والجيش ، والكتاب والأستاذ ، واللذة والاستمتاع ، والمرأة والحب .
ولو أن عدوًّا رماك بالنار فاستطارت في ثيابك أو متاعك لما دخلك الشك
أن عدوك هو النار حتى تفرغ من أمرها . فكيف — لعمري — غفل الشريون
عن أخلاق نارية حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كما نأكلنا ينضجونهم عليها
ليكونوا أسهل مساعاً ، وألين أخذاً ، وأسرع في الهضم !

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوروبا في أعصابه ؛
وأما مصر ونساؤها ورجالها فعلى طرف لسانه لا تكون إلا صيحة ، وليس بينه
وبينها في الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها ، لا من ناحية فائدتها منه .

وتلك المعاني كلها مشتق بعضها من بعض ، ومرجعها إلى أصل واحد ،
كالأمراض التي تبلى الجسم يهدد شئ منها لشيء ، ما دامت طبيعة هذا الجسم
زائفة أو مختلة ، أو متراجعة إلى الضعف ، أو ذاهبة إلى الموت .

وأولئك شبان وقف بهم الشباب موقف بلادة ، فلا يخطو إلى الرجولة ،
ولا يكمل نموه الاجتماعي كما يكمل الرجل الوطني ؛ فمن ثم يكون خواراً
لا يستطيع أن يحمل أثقالاً مع أثقاله ، ويستوى العجز والخمول ؛ فلا يكون
إلا قاعد الهمة ، رخو العزيمة ، قد استنم إلى أسباب عجزه وتأذله ؛ ولا يكون
في بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حميلة على ذويه ، ضجعة لا يمشي ،
نومة لا ينتهض ، مستريحاً لا يعمل .

وبهذه المكسلة الاجتماعية في الشبان يبدأ الشعب يتحول من داخله
فينصرف عن فضائله ، ويتخذ في مكانها فضائل استعارة يقلد فيها قومًا غير قومه ،
ويجلبها ليئنة غير بيئته ، ويقسرها على أن تصالح له وهي فساد ، ويكرهها على
أن تنفعه وهي ضرر ، وتلك حالة يغامر فيها الشعب بكيمانه فلا تلبث أن
تصدعه وتفرقه .

ولو أن في السحاب مطراً وغيثاً لما كان له في كل ساعة لونٌ مصبوغ ، ولو أن في الشباب ديناً لما صبغت تلك الأخلاقُ الفاسدة ، وما ذهابُ الحارس عن مكانٍ إلا دعوةٌ للصّوص إليه ، وهل كان الدينُ إلا واجباتٍ وتبعاتٍ وقيوداً يزداد من جميعها إعدادُ الإنسان لأمثالها في الاجتماع ، حتى يقرّ في إنسانيته الصحيحة على النحو الذي يصلح له منفرداً ويصلح له مجتمعاً ؟ فليست الزوجة وحدها هي التي خسرت الشاب بل خسره معها الوطنُ والدينُ والفضيلةُ جميعاً ، وبهذا انعكس وضعه من الجماعة ، فوجب في رأيه أن تُسخر الجماعةُ له ، وأن يستقلّ هو بنفسه ، وبهذا انعكس ، وهذا السقوط ، وهذا الاستمتاع الذي يجد سعادته في نفسه ؛ أصبح أولئك الشبان كأنما حقّقهم على المجتمع أن يقدم لهم بغايا لا زوجات بغايا حتى من الزوجات . . . !

قبحَ الله عصرًا يجهلُ الشاب فيه أن الرجلَ والمرأةَ في الوطن كلمتان تفسّر الإنسانية إحداها بالأخرى تفسيراً إنسانياً دينياً بالواجبات والقيود والأعمال ، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق كما تفسّر الحيوانية الذكر والأنثى .

والنفسُ الدنيئة أو المنحطّة في أخلاقها ومنازِعِها من الحياة لا تكون إلا دنيئة أو منحطّة في أحلامها وأخيلتها الروحية ، دنيئة كذلك في طاعتها إن قضت عليها الحياة بموضع الخضوع ، دنيئة في حكمها إن قضت لها الحياة بمنزلة من السلطة . ولو تنهت الحكومة لطردت من عملها كلَّ موظف غير مناهل ، فإنها إنما تستعملُ شرّاً لا رجلاً يمنع الشر ، وكلُّ شابٍ تلك حاله هو حادثة ترتدّ في الحوادث وتستلزمها ، وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه .

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعة ثالثة تقوم بالاثنتين معاً ، وهي طبيعة الشعب . فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفرّ

الشابُّ القويُّ من تبعَةِ الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجباتِ الإنسانية ؛ ولا يُقيم لوطنه جانباً من بناء الحياة في نفسه وزوجه وولده ، بل يذهبُ يجعلُ حظَّ نفسه فوقَ نفسه ، وفوقَ الإنسانية والفضيلة والوطنِ جميعاً ؛ ولا يعرفُ أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعافٌ في طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل في أيِّ أسبابها عرّضت .

ومن فسولة الطبع ولؤمه ودناءته أن يهربَ هذا الجنديُّ من ميّدانه الذي قرّضت عليه الطبيعةُ الفاضلة أن يجاهدَ فيه لأداء واجبه الطبيعي متعللاً لفراره المُخزى بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يُعاني فيه كما يحتاج الجبانُ بخوف الهلاك وعناء الحرب .

ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كسادَ الفتيات ، وبوارهنَّ على الوطن ؛ وأن يتواطأوا على نبذ هذه الأحمال ، وإلقائها في طرُق الحياة ، وتركها لمقاديرها المجهولة . كأنهم أصلحهم الله لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم في أمّات الجيل المقبل ، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهُمومها السامية .

إن الجملَ إذا استنوقَ تخنّثَ ولانَ وخضع ، ولكنه يحمل ؛ وهؤلاء إذا استنوقوا تخنّثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا . . .

ومن سقوط النفس في الرجل النكس العاجز المقصّر أن يحتجّ لغزوبته بعلمه وجهل الفتيات ؛ أو تمدّنه وزعمه أنهن لم يبلغن مبلغ الأوربية ، ولا يدري هذا المنحطُّ النفس أن الزواج في معناه الإنساني الاجتماعي هو الشكل الآخر للاقتراع العسكري ، كلاهما واجبٌ حتمٌ لا يُعتدَّر منه إلا بأعذارٍ معيّنة ، وما عداها فجبنٌ وسقوطٌ وانحلالٌ ولعنةٌ على الرجولة .

ومن سقوط النفس أن يُعني الشابُّ عن الزواج لفجوره فقره ، ويُمكن له ؛

وكانه لا يعلم أنه بذلك يحطّمُ نفسين ، ويُحدِثُ جرّيتين ، ويجعلُ نفسه على الدنيا لعنتين .

ومن سقوط النفس أن يفتّر الشاب فتاةً حتى إذا وافق غرّتها مكرّها وتركها بعد أن يلبسها عارها الأبدي ؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفساً اص خبيثاً فاتك ، هو أبداً عند من يسرقهم في باب الخسائر والنكبات ، لافي باب الربح والمكسب ؛ وعند المجتمع في باب الفساد والشر ، لافي باب المصاحبة والخير ؛ وعند نفسه في باب الجريمة والسرقة ، لافي باب العمل والشرف .

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج في أصلها وفروعها الكثيرة التي منها المغالاة والشطط في المهور ، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية ، وإهال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاهٍ أو ثراء ، وعزوفها عن الفاضل ذي الكفاف أو اليسير على غنى في رجولته وفضائله ، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة ، والسبيكة بالدينار ، وكأن الطبيعة قد ابتليت هي أيضاً بالسقوط ، فأصبحت تعتبر الغنى والفقير ، فتجعل في دم أولاد الأغنياء رُوح الذهب واللؤلؤ والماس ، وتلق في دم أولاد الفقراء رُوح النحاس والخشب والحجارة . . . على حين أن الجميع مُستيقنون لا يتدافع اثنان منهم في أن الطبيعة لا تبالي إلا بوراثنة الآداب والطباع .

وأعظم أسباب هذا السقوط في رأيي هو ضعف التربية الدينية في الجنسين ، وخاصة الشبان ؛ فظننا من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لا غيره نظام هذه الحياة وقوامها في كل ما يتصل منها بالنفس . وليست المدنية الصحيحة — كما يحسب المفتونون — هي نوع المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها ؛ وإلى هذا ترمي كل مبادئ الإسلام . فإن هذا الدين القوى

الإنسانى لا يعبأ بزخارف كهذه التى تتلبس بها المدنية الأوربية القائمة على الاستمتاع ، وفنون اللذات ، وانطلاق الحرية بين الجنسين ؛ فهذا بعينه هو التحطيم الإنسانى الذى ينتهى بهتدم تلك المدنية وخرابها ؛ وإنما يعبأ الإسلام بالعقيدة التى تنظم الحياة تنظيمًا صحيحًا مُتساوياً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة ، بعيداً من الخلط والفوضى .

و يقابلُ ضعف التربية الدينية مظهرٌ آخرٌ هو سببٌ من أكبر أسباب السقوط ، وهو ضعف التربية الاجتماعية فى المدرسة ؛ وإلى هذا الضعف يرجع سببٌ آخر هو تخنث الطباع واسترسالها إلى الدعة والراحة ، وفرارها من حمل التبعة « المسئولية » التى هى دائماً أساس كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى . وبذلك الضعف وذلك السقوط وضعت المرأة البغى العاهرة فى الموضع الطبيعى للأم ، ونزل الرجل السافل المنحط فى المكان الطبيعى للأب ، وتحللت قوى الوطن بانحراف عنصريه العظيمين عن طبيعتهما ، وجعلت فضيلة الفتيات المسكينات تتأكل من طول ما أهملت ، وأخذ سُوسُ الدم يتركها فضائل نخرة ، ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته ، ما دامت الفضيلة فى حكم الناس وتصريفهم قد تَرَكَتْ مكانها للقوانين ، وما دامت قوة النفس قد أخلت موضعها للقوة التنفيذية .

لقد قُتِلَتْ رُوحِيَّةُ الزواج ، وهى على كل حال جريمة قتل ، فمن القاتل يا صاحبنا المحامى ؟

قال الشاب : هو كل رجلٍ عَزَبَ .

قلت : فما عقابُه ؟

فسَكَتَ ولم يَرَجِعْ إِلَى جواباً .

قلت : كأنى بك قد تَاهَلَّتْ وَخَلَاكَ ذَمُّ . . فما عقابُه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزّاب ، فليعاقبهم الشعبُ
بتسميتهم « أرامل الحكومة » ... واحدُهم : رجلٌ أرملةٌ حكومة ...
ثم قال : اللهم يسّرْها ولا تجعلني رجلاً بغلطتين : غلطية في نساء الأمة ،
وغلطية في ألفاظ اللغة .

أرملة حكومة ...

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا^(١) هو الرجلُ العزّاب ،
يكون مُطيقاً للزواج ، قادراً عليه ، ولا يتزوج ؛ بل يركبُ رأسه في الحياة ،
ويذهبُ يُمَوّه على نفسه كذباً وتدليساً ، وينتحلُّ لها المعاذير الواهية ، ويمتثلُ
العلل الباطلة ، يحاول أن يُلحق نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يحطُّ
الرجل المتزوج إلى مرتبته هو ؛ ويضيف شؤمه على النساء إلى هؤلاء النساء
المسكينات ، يزيدهن على نفسه شرّ نفسه ، ويرميهن بالسوء وهو السوء عليهن ،
ويتنقّصهن ومنه جاء النقص ، ويعيبهن وهو أكبرُ العيب ؛ لا يتذكر إلا الذي
له ، ولا يتنامى إلا الذي عليه ، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا ، وتبدّلت رسومُ
الحياة ، فزالت الرجولةُ بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة ، وانقضت الأنوثةُ بحقوقها
من المرأة إلى الرجل ، فوجب أن تحمِلَ تلك ما كان يحمل هذا ، فتقدّم ويقرّ
وادعاً ، وتعب واستريح ، وتُعاني الهموم السامية في الحياة الاجتماعية ، ويعاني

(١) انظر مقالة « استنوق الجمل » . والناء في « أرملة الحكومة » ليست للتأنيث ،
بل هي تاء جديدة في العربية ، تزداد في هذه الكلمة خاصة واسمها تاء الهزؤ . . . ويأجبنا
لو اصطلاح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل عزب « أرملة الحكومة »
فإن هذا الاسم إذا عم وشاع كان في معناه وفعله المطهر ، حامضاً لغوياً كحامض الفنيك . . . !

الْحَتَّ ابْتِسَامَاتِهِ وَدُمُوعَهُ ، مُتَكِنًا فِي مَجْلِسِهِ النَّسِيمِي تَحْتَ جَنَاحِ الْمُرُوحَةِ . . .
فَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَتَشْرِفُ عَلَى هَلَكَتِهَا ، وَتُخَاطِرُ بِحَاضِرِهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ، وَأَمَّا هُوَ فَيَبْقَى
مِنْ ثِيَابِهِ فِي مِثْلِ الْخِلْدَرِ الْمَصُونِ . . . !

(أَرْمَلَةُ الْحُكُومَةِ) هُوَ ذَلِكَ الشَّابُّ الزَّائِفُ الْمُبْهَرَجُ ، يُحْسَبُ فِي الرِّجَالِ
كَذَبًا وَزُورًا ؛ إِذْ لَا تَكْمُلُ الرَّجُولَةُ بِتَكْوِينِهَا حَتَّى تَكْمَلَ بِمَعَانِي تَكْوِينِهَا ؛ وَأَخْصُ
هَذِهِ الْمَعَانِي إِنْشَاءَ الْأُسْرَةِ وَالْقِيَامُ عَلَيْهَا ، أَيْ مَغَامَرَةُ الرَّجُلِ فِي زَمْنِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ
وَوُجُودِهِ الْقَوِيِّ ، فَلَا يَعِيشُ غَرِيبًا عَنْهُ وَهُوَ مَعْدُودٌ فِيهِ ، وَلَا طُفِيلًا فِيهِ وَهُوَ
كَالْمَنْفِيِّ مِنْهُ ، وَلَا يَكُونُ مَظْهَرًا الْقُوَّةِ الْجِنْسِ الْقَوِيَّ هَارِبَةً هَرُوبَ الْجَبْنِ مِنْ حَمَلٍ
ضَعْفِ الْجِنْسِ الْآخَرِ الْمُحْتَمِي بِهَا ، وَلَا لِمَرْوَةِ الْعَشِيرِ مُتَبَرِّئَةً تَبَرُّؤُ النَّذْلَةِ مِنْ
مُؤَاوَرَةِ الْعَشِيرِ الْآخَرِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهَا ؛ وَلَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ وَالذَّكَاءُ يَعْمَلَانِ
فِي نِسَاءِ أُمَّتِهِ عَمَلًا وَاحِدًا ، وَأَنْ يَصْبَحَ هُوَ وَالسَّكْسَادُ لَا يَأْتِي مِنْهُمَا إِلَّا أَثَرٌ
مُتَشَابِهٌ ، وَأَنْ يَمِيتَ هُوَ وَالْفَنَاءُ فِي ظُلْمَةٍ وَاحِدَةٍ كَظُلُمَاتِ الْقَهْرِ ، تَنْقُلُ الْأَحْدَاثَ
إِلَى الثُّورِ ، فَتَجْعَلُ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ يَقْتَضِيهِ الْوَطَنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَبٌ وَأُمٌّ
وَأَطْفَالٌ — بَيْتًا خَاوِيًا كَأَنَّمَا تَكِلُ الْأُمُّ وَالْأَطْفَالُ ، وَبَقِيَتْ فِيهِ الْبَقِيَّةُ مِنْ هَذَا
الرَّجُلِ الْعَرَبِ الْمَيِّتِ أَكْثَرَ تَارِيخِهِ . . . !

لَقَدْ رَأَيْتُ بَعِيْنِي أَدَاةَ الْعَرَبِ وَأَثَانَهُ الْمُبْعَثَرِ فِي بَيْتِهِ ، كَأَنَّمَا يَقْصُ عَلَيْهِ كُلُّ
ذَلِكَ قِصَّةَ شَوْمِهِ وَوَحْدَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ الْفَرَسُ وَالنَّجْدُ وَالطَّرَازُ : « بَعِيْنِي
يَا رَجُلَ وَرَدَّنِي إِلَى السُّوقِ ؛ فَإِنِّي هُنَاكَ أَطْمَعُ أَنْ يَكُونَ مَصِيرِي إِلَى أَبِي وَأُمِّ
وَأَوْلَادِ ، أَجِدُّهُمْ فَرَحًا وَجُودِي ، وَأَصِيبُ مِنْ مَعَاشَرَتِهِمْ بَعْضَ ثَوَابِي ، وَأُبْلَى
تَحْتَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ فَأَكُونُ قَدِّمَاتُ عَمَلًا إِنْسَانِيًّا . أَمَّا عِنْدَكَ ، فَأَنْتَ خَشَبَةٌ
مَعَ الْخَشَبِ ، وَأَنْتَ خِرْقَةٌ بَيْنَ الْخِرْقِ . وَاسْمِعْ السَّكْرَسِيَّ إِنَّهُ يَقُولُ : أَفَّ .
وَأَصْغِرْ إِلَى فِرَاشِكَ إِنَّهُ يَقُولُ : تَفَّ . »

شَهِدَ العَزَبُ رَبَّ الكَعْبَةِ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ مُبْتَلًى بِالْعَافِيَةِ ، مُسْتَعْبَدٌ بِالْحَرِيَةِ ،
مَجْنُونٌ بِالْعَقْلِ ، مَغْلُوبٌ بِالْقُوَّةِ ، شَقِيٌّ بِالسَّعَادَةِ . وَشَهِدَتْ الْحَيَاةُ عَلَيْهِ رَبَّ الْبَيْتِ
أَنَّهُ فِي الرِّجُولَةِ قَاطِعُ طَرِيقٍ ؛ يَقْطَعُ تَارِيخَهَا وَلَا يُؤَمِّنُهُ ، وَيَسْرِقُ لَذَاتَهَا وَلَا يَكْسِبُهَا ،
وَيُنْجِرُ عَلَى شَرِّعِهَا وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ ، وَيَعْصِي وَاجِبَاتِهَا وَلَا يَنْقَادُ لَهَا . وَشَهِدَ
الْوَطَنُ — وَاللَّهِ — عَلَيْهِ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَارِغٌ كَالْوَاغِلِ عَلَى الدُّنْيَا ؛ إِنْ كَانَ نِعْمَةً
بِصَلاَحِهِ ، انْتَهَتْ النِّعْمَةُ فِي نَفْسِهَا لَا تَمْتَدُّ ؛ وَإِنْ كَانَ بَفْسَادِهِ مَصِيبَةٌ اِمْتَدَّتْ فِي
غَيْرِهَا لَا تَنْقَطِعُ . وَأَنَّهُ شَحَّاذُ الْحَيَاةِ ، أَحْسَنَ بِهِ الْأَجْدَادُ نَسْلًا بَاقِيًا ، وَلَا يُحْسِنُ هُوَ
بِنَسْلِ يَمَقَى . وَأَنَّهُ فِي بِلَادِهِ كَالْأَجْنَبِيِّ ، مَهْبُطُهُ عَلَى مَنَفْعَةٍ وَعَيْشُهُ لَا غَيْرِهَا ؛ ثُمَّ
يَمُوتُ وَجُودُ الْأَجْنَبِيِّ بِالنَّقْلَةِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَيَمُوتُ وَجُودُ الْعَزَبِ بِالانتقالِ إِلَى رَبِّهِ ؛
فَيَسْتَوِيَانِ جَمِيعًا فِي انْقِطَاعِ الْأَثَرِ الْوَطَنِيِّ ، وَيَتَفَقَّانِ جَمِيعًا فِي انْتِهَابِ الْحَيَاةِ الْوَطَنِيَّةِ ؛
وَأَنْ كُلِيهِمَا خَرَجَ مِنَ الْوَطَنِ أَبْتَرَّ لَا عَقِبَ لَهُ ، وَيَذْهَبَانِ مَعًا فِي لُجَجِ النِّسْيَانِ :
أَحْدُهُمَا عَلَى بَاخِرَةٍ ، وَالْآخَرُ عَلَى النِّعْشِ !

جاءني بالأمس « أرملة حكومة » وهو مهندس موظف . ومعنى الهندسة
الدقة البالغة في الرقْم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق ؛ ثم الحذر البالغ أن يختلَّ
شيء أو ينحرف ، أو يتقاصر أو يطول ، أو يزيد أو ينقص ، أو يدخله السهو ،
أو يقع فيه الخطأ ؛ إذ كان الحاضر في العمل الهندسي إنما هو للعاقبة ، وكان
الخيال للحقيقة ؛ وكان الخرق هنا لا يقبل الرقعة . ومتى فصّلت الأرقام الهندسية
من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة ، ورجع الحساب
حينئذ وهو حساب عقل المهندس ؛ فإما عقل دقيق منتظم ، أو عقل مأفون مختل .
بيد أن المهندس — على ما ظهر لي — قد خاتمت حياته من الهندسة . . .
وانتهى فيها من التحريف المضحك — حتى فيما لا يخطئ الصغار فيه — إلى

مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة «إياك نعبد وإياك نستعين» فقد رَوَوْا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلّي بهم فى مسجدّها ، فنزل به ضيفٌ من العلماء فقال له الخطيب : إن لى مسائل فى الدين لم يتوجّه لى وجه الحق فيها ، ولا أزال متحيّر الرأى ، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة ، فأريد أن أسألك عنها . قال العالم : سل ما أحببت .

قال الخطيب : أشكّل علىّ فى القرآن بعض مواضع ، منها فى سورة الحمد «إياك نعبد وإياك» ... أى شىء بعده . «تسعين أو سبعين» ... ؟ أشكّكت علىّ هذه فأنا أقرؤها : تسعين . أخذاً بالاحتياط ... !

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة ، فهو عزبٌ أخذاً بالاحتياط . قال وهو يحاورنى :

كيف تُكَلِّفنى الزواج وتُكرِهنى عليه ، وتُعَنِّفنى على العزوبة وتعيبنى بها ؛ وإنما أنت كالذى يقول : دع الممكن وخذ المستحيل . إن استحالة الزواج هى جعلتنى عزباً ، والعزوبة هى جعلتنى فاسداً ، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب ، إما أن تكسد الفتاة ، وإما أن تتصل بها العدوى . والعزب لا يأبى أن يُقال فيه إنه للنساء طاعونٌ أحمر أو هواءٌ أصفر ؛ فهو والله مع ذلك موتٌ أسود وبلاء أزرق .

قلت : لقد هَوَّلْتَ علىّ ؛ فما مستحيلك يا هذا ، ولم استحال عليك ما أمكن غيرك ، وكيف بلغت مصر خمسة عشر مليوناً ؟ أمِن غير آباء خُلِقُوا ، أم زُرِعُوا زرعاً فى أرض الحكومة ؟ إسمع — ويحك — ألا يكون الرجال قد أقبلوا وتراجعت ، وتجلّدوا وتوجّعت ، أو أقدموا وخسّست ، واسترجلوا وتأنّست ؟ قال : ليس شىء من هذا .

قلت : فإن المسألة هي كيف ترى الفكرة ، لا الفكرة نفسها ، فما حَمَلَكَ على العزوبة وأنت موظف وظيفتُكَ كذا وكذا ديناراً ، وأنت مهندس يَصْدُقُ عليك ما قالوه في الرجل المجردود : لو عَمِدَ إلى حَجَرٍ لا نَفْلَقَ له عن رزق .
قال : أليس مستحيلاً ثُمَّ مستحيلاً أن يجمعَ مثلي يَدَه على مائة جنيهِ يدفعها مهرأً ؛ وما طرقتُ — علم الله — باباً إلا استقبلوني بما معناه : هل أنت معجزة مالية ؟ هل أنت مائة جنيهِ ؟

قلت : فإن عملك في الحكومة يُغَلُّ عليك في السنة مائة وثمانين ديناراً فلم لا تعيش سنةً واحدة بثمانين فتقع المعجزة ؟
قال : « بكل أسف » لا يستطيع الرجل العزب أن يدَّخر أبداً ؛ فهو في كل شيء مبدَّد ضائع متفرق .

قلت : فهذه شهادتُكَ على نفسك بالسَّفَه والخرق والتبذير : تنفق ما يكفي عدداً وتَضيقُ بواحدة ، وماذا يَرْتَى مثلك في الحياة ؟ أَعِنْدَ نفسه وفي يمينه أن يتأبَّدَ فيبقى عزباً فهو ينفق ما جمع في شهوات حياته ، ويتوسَّع فيها ضروباً وألواناً ليكونَ وهو فرد كأنه وهو في إنفاقه جماعة ، كل منهم في موضع رذيلة أو مكانٍ لهوٍ ؛ وكانَ منه رجالاً هو كاسِبُهُم وعائلُهُم ، ينفق على هذا في القهوة ، وعلى هذا في الحانة ، وعلى ذلك في الملاهي ، وعلى الرابع في المواخير ، وعلى الخامس في المستشفى . . . ؟ إن كان هذا هو أصلَ الرأى عند العزب ، فالعزبُ سفيه مجرم ، وهو إنسانٌ خربٌ من كل جهة إنسانية ، وهو في الحقيقة ليس المتَّسِّعَ لِنَفَقَاتِ خمسة ، بل كأنه قاتلُ خمسة من أبناء وطنه ؛ إذ كان بهذا مُطِيقاً أن يكونَ أباً ينفق على أبنائه ، لا سفياً ينفق على شياطينه .

فإن كان قد بنى رأيه على أن يتعزَّبَ مدةً ثم يتأهل ، فهذا أخرى أن يعينه على حسن التدبير ، وهو مَضْرُوءٌ له على شهوة الجمع والادِّخار ؛ إذ يكون عند نفسه

كأنما يَكْدَحُ لعياله وهو في سَعَةٍ منهم بعدُ ، وهم لا يزالون في صُلبه على الحال التي لا يسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهماً وعزائم يَرِثونها من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا .

إنما العزَبُ أحدُ رجلين : رجلٍ قد خرج على وطنه وقومه وفضائل الإنسانية ، قاعدته : جُرَّ الحبل ما انجرَّ لك . وهذا داعرٌ فاسقٌ ، مبذرٌ متلافٍ إن كان من الميَاسير ، أو مُريبٌ دنيءٌ حقيرُ النفس إن كان من غيرهم . . . ورجلٍ غير ذلك ، فهو في وثاقِ الضرورة إلى أن تُطْلَقَه الأسباب ، ومن ثمَّ فهو يعمل أبداً للأسباب التي تُطْلَقُه ، ويعرف أنه وإن لم يكن أهلاً فلا تزال ذمته في حق زوجةٍ سَيَعُوها ، وفي حقوقِ أطفالٍ يَأْبُوهُمْ ، وواجباتِ ووطنٍ يخدمه بإنشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده ، والقيام على سياستها ، والنهوضِ بأعبائها . فانظر ويحك أيُّ الرجلين أنت ؟

قال : فتريدني أن أقامرَ بتعب سنةٍ وأنا بعد ذلك وما يُقدَّرُ لي ، وقد أشتري بتعب سنة من العمر تعبَ العمر كله ؟

قلت : فهذه هي خِسةُ الفردية ، ودناءتها الوحشيةُ في جنائيتها على أهلها ، وسوء أثرها في طباعهم وعزائمهم ؛ فهي فرديةٌ تضرب فيهم العاطفة الاجتماعية ضربَ التَلَف^(١) ، وتبتليهم بالخوف من التبعات حتى لَيَتَوَهَّمُ أحدهم أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة ، ولكن على معركة . وهي تُصِيهِم بالقسوة والغِلظة ؛ فما دام الواحد منهم واحداً لنفسه ، فهو في تصريف حُكم الأثرة ، وفي قانون الفتنة بأهواء النفس ومنافعها ؛ كأنما يعامله الناس رجلاً كله مَعْدَةً ، أو هو فيهم قوة هضمٍ ليس غير .

قال : ولكن الزواج عندنا حظٌّ محبوبٌ « لوتريّة » والنساء كأوراق السحب ،

(١) يقال ضربه ضرب التلف ، أي الضرب الذي يقتله ويتلفه .

منهن ورقة هي التوفيق والغنى بين آلاف هن الفقر والخيبة المحقة .
قلت : هل اعتدت أن تتكلم وأنت نائم ؟ فلعلك الآن في نومة عقل ،
أو لا فأنت الآن في غفلة عقل .

إن هذا المسكين الذي يمسخ الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لا يخلو
منها ؛ يعلم علماً أكثر من اليقين أن عيشه هو من مسخ الأحذية لا من
الأخيلة التي في هذه الأوراق ؛ فهو لا يعتد بها في كبير أمر ولا صغيره ، وما
يُنزِلُها في حساب رغبته وثوبه إلا يوم يُخالطُ في عقله فيتنزّه أن يمسخ أحذية
الناس ، ويرى أن عظيماً مثله لا يمسخ إلا أحذية الملائكة ...

أنت يا هذا مهندس ، ولك بعض الشأن وبعض المنزل ، فهَبْكَ ارتأيت
أنه لا يحسن بك أو لا يحسن لك إلا أن تنزوج بنت ملك من الملوك ، فهذه
وحدها هي عندك « النمرة الراحجة » ، وسائر النساء فقر وخيبة ، ما دام الأمر أمر
رأبك وهواك ؛ غير أنك إذا عرّضت لتلك « النمرة الراحجة » لم تعرفك هي
إلا صُلوفاً في الصعاليك ، وأحمق بين الحق .

إن تلك الأوراق تُصنعُ صنعها على أن تكون جملتها خاسرة إلا عدداً قليلاً
منها ؛ فإذا تعايطت شراءها فأنت على هذا الأصل تأخذها ، وبهذا الشرط
تبدلُ فيها ؛ وما تَمَتَّرِي أنت ولا غيرك أن القاعدة ههنا هي الخيبة ، وشذوذها
هو الربح ؛ وليس في الاحتمال غير ذلك ؛ ومن ثمّ فقد برى إليك الخط إن
لم يُصَبِّك شيء منه ؛ وأين هذا وأين النساء ، وما منهن واحدة إلا وفيها منفعة
تكثر أو تقل ، بل الرجال للنساء هم أوراق السحب في اعتبارات كثيرة ،
ما دامت طبيعة اتصالهما تجعل المرأة هي في قوانين الرجل أكثر مما تجعل الرجل
في قوانينها ، وهل ضاعت امرأة إلا من غفلة رجل أو قسوته أو فسولته أو فجوره ؟
قال المهندس : فإني أعلم الآن — وكنت أعلم — أن لا صلاح لي إلا

بالزواج ، وأن طريقى إلى الزوجة هو كذلك طريقى إلى فضيلتى وإلى عقى .
وتالله ما شئ أسوأ عند العزب ولا أكره إليه من بقاءه عزباً ؛ غير أنه يكابر
فى المارة كلما تحاقرتُ إليه نفسه ، وكما رأى أن له حالاً ينفردُ بها فى سحق الله
وسحق الإنسانية . ولا مكذبة ، فقد والله أنفقتُ فى رذائلى ما يجتمع منه مهرُ
زوجة سرية تشتطُ فى المهر وتغلو فى الطلب ؛ ولكن كيف بى الآن وما جبرنى
من قبلُ إصلاح ، ولا أعانى اقتصاد ، ومن لى بفتاة من طبقى بمهر لا أتحمّل
منه رهقاً ، ولا تنقاصرُ معه أُمورى ، ولا تختلُ معيشتى ؟

قلت : فإذا لم يملك الحمارُ من القاهرة إلى الإسكندرية ؛ فإنه يملك إلى
قليوب أو طوخ . وفى النساء اسكندرية ، وفيهن شبرا ، وقليوب ، وطوخ ؛
وما قرُبَ وبُعد ، وما رخصَ وغلا .

قال : ولكن بلدى اسكندرية ...

قلت : ولكنك لا تملك إلا حماراً ... والمرأة من كل طبقةٍ سعرُها فى
هذا الاجتماع الفاسد ؛ ولو تعاونَ الناسُ وصلحوا وأدركوا الحقيقة كما هى ،
لما رأينا الزواجَ من فقر المهور كما يركبُ سُلاحفَةٌ يمشى بها ... ونحن فى
عصر القطار والطيارة ، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا فى عصر الحمار
والجل — كأنه وحده من السرعة فى طيارة أو قِطار .

حين يفسدُ الناسُ لا يكون الاعتبارُ فيهم إلا بالمال ، إذ تنزل قيمتهم
الإنسانية ويبقى المال وحده هو الصالح الذى لا تتغير قيمته . فإذا صلحوا كان
الاعتبارُ فيهم بأخلاقهم ونفوسهم ، إذ تنحطُ قيمةُ المال فى الاعتبار ، فلا يغلبُ
على الأخلاق ولا يسخرها . وإلى هذا أشار النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله

لطالب الزواج : « التمس ولو خاتماً من حديد ^(١) . » يريد بذلك نفى المادية عن الزواج ، وإحياء الروحانية فيه ، وإقراره في معانيه الاجتماعية الدقيقة ، وكأنما يقول : إن كفاية الرجل في أشياء إن يكن منها المال فهو أقلها وآخرها ، حتى إن الأخس الأقل فيه ليُجزى منه كخاتم الحديد ؛ إذ الرجل هو الرجولة بعظمتها وجلالها وقوتها وطبايعها ، وإن يُجزى منه الأقل ولا الأخس مع المال ، وإن ملء الأرض ذهباً لا يكمل للمرأة رجلاً ناقصاً ؛ وهل تُسمُّ الأسنان الذهبية اللامعة ؛ يحملها الرجل الهرم في فمه ؛ شيئاً مما ذهب منه ؟ وما عسى أن تصنع قواطع الذهب الخالص وطواحنه لهذا المسكين بعد أن نطق تحاتت أسنانه العظمية وتناثرها أنه رجل حلّ البلي في عظامه ... ؟

(١) انظر « قصة زواج ، وفلسفة المهر » .

رؤيا في السماء

قال أبو خالدٍ الأحولُ الزاهد : لما ماتت امرأةُ شيخنا أبي ربيعة الفقيهِ العوفي ، ذهبتُ مع جماعةٍ من الناس فشهِدنا أمرَها ؛ فلما فرغوا من دفنها وسُويَ عليها ، قام شيخنا على قبرها وقال : يرحمك الله يا فلانة ! الآن قد شُفيتِ أنتِ ومَرِضتُ أنا ، وعُوفيتِ وابْتُليتِ ، وتركيتِ ذاكرًا وذهبتِ ناسيةً ، وكان للدنيا بكِ معنى ، فستكونُ بعدكِ بلا معنى ؛ وكانت حياتكِ لي نصفَ القوةِ ، فعاد موتكِ لي نصفَ الضَّعفِ ؛ وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتكِ هومًا في صورِها الخَفَّةِ ، فستأثني بعد اليومِ في صورِها المضاعفةِ ؟ وكان وجودكِ معي حجابًا بيني وبين مَشَقَّاتٍ كثيرةٍ ، فستخلصُ كلُّ هذه المَشاقِّ إلى نفسي ؛ وكانت الأيامُ تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ في رقتكِ وحنانكِ ، فستأثني أكثرَ ما تأثني مُتَجَرِّدَةً في قسوتِها وغِلظَتِها . أما إني — والله — لم أزرَأُ منكِ في امرأةٍ كالنساءِ ، ولكني رُزئتُ في المخلوقةِ الكريمةِ التي أحسستُ معها أن الخليفةَ كانت تتلطفُ بي من أجلِها !

قال أبو خالد : ثم استدَمَعَ الشيخُ ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره ، وهو كان أعلمُ بما يعزِّي الناسُ بعضهم بعضًا ، وأحفظُ لما وَرَدَ في ذلك ؛ غيرَ أن للكلامِ ساعاتٍ تَبْطُلُ فيها معانيه أو تَضَعُفُ ، إذ تكون النفسُ مُسْتَغْرِقَةً الهمَّ في معنى واحدٍ قد انحصرتُ فيه ، إما من هَوَلِ الموتِ ، أو حبٍّ وقع فيه من الهَوَلِ ظلُّ الموتِ ، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُّ الحبِّ ، أو لَجاجَةٍ وقع فيها ظلُّ الرغبةِ . فكنتُ أحَدُهُ وأعزِّيهِ ، وهو بعيدٌ من حديثي وتعزيتي ؛ حتى انتهينا إلى الدار فدخلنا وما فيها أحدٌ ؛ فنظرَ يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وقلَّبَ عينيه ههنا وههنا ، وحوَّ قَلَّ واسترجعَ ، ثم قال : الآن ماتت الدارُ أيضًا يا أبا خالد ! إن البناءَ كأنما يحيا

برُوح المرأة التي تتحرك في داخله ؛ وما دام هو الذي يحفظها للرجل ، فهو في عين الرجل كالمطرف^(١) تلبسه فوق ثيابها من فوق جسمها : وانظر كم بين أن ترى عينك ثوب امرأة في يد الدلال في السوق ، وبين أن تراه عينك يلبسها وتلبسه ! ولكنك يا أبا خالد لا تفقه من هذا شيئاً ، فأنت رجل آليت لا تقرب النساء ولا يقربنك ، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله ؛ وكأن كل نساء الأرض قد شاركن في ولادتك فخرمن عليك ! وهذا مالا أفهمه أنا إلا ألفاظاً ، كما لا تفهم أنت ما أجد الساعة إلا ألفاظاً ؛ وشتان بين قائل يتكلم من الطبع ، وبين سامع يفهم بالتكلف .

فقلت له : يا أبا ربيعة ، وما يمنعك الآن وقد اطرحت أثقالك وانبتت أسبابك من النساء — أن تعيش خفيف الظهر ، وتقرع للنسك والعبادة ، وتجعل قلبك كالسما انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس ؛ فإنه يقال : إن المرأة ولو كانت صالحة قانتة — فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان إليه ، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دار من الطوب والحجارة لكانت امرأته كوة يفتح الشيطان منها . ولقد كان آدم في الجنة ، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك ، فما منع ذلك أن تتعلق روح الأرض بالشيطان ، فيتعلق الشيطان بجواء ، وتتعلق هي بآدم ؛ ومكر الشيطان فصورها لها في صيغة مسألة علمية ، ومكرت حواء فوضعت فيها جاذبية اللحم والدم ، فلم تعد مسألة علم ومعرفة ، بل مسألة طبع ولجاجة . فأكل منها فبدت لها سوءاتها .

وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصيب الحياة وهمومها ، وشهواتها ومطامعها ، ومضارها ومعاييها — في معنى « بدت لها سوءاتها » ... ؟

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة في دارها ، وهو المسمى (الروب)

كلانا يا أبا ربيعةٍ مِنْ لَهِم سَيَّرَ بِالْبَاطِنِ فِي هَذَا الْوُجُودِ غَيْرُ السَّيْرِ بِالظَّاهِرِ ،
وَمِنْ لَهِم حَرَكَةُ بِالْفِكْرِ غَيْرُ الْحَرَكَةِ بِالْجِسْمِ ؛ فَتَقِيحُ بِنَا أَنْ نَتَعَلَّقَ أَذْنَى مُتَعَلِّقٍ
بَنَوَامِيسِ هَذَا الْكَوْنِ اللَّحْمِيِّ الَّذِي يُسَمَّى الْمَرْأَةَ ، فَهُوَ تَدَلٍّ وَإِسْفَافٌ مَنَا .
وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : « النَّسْلُ وَتَكَثِيرُ الْآدَمِيَّةِ » فَهَذَا إِنَّمَا كُتِبَ عَلَى إِنْسَانِ
الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ ، أَمَّا إِنْسَانُ الْقَلْبِ فَلَهُ مَعْنَاهُ وَحُكْمُ مَعْنَاهُ ؛ إِذْ يَعِيشُ بِبَاطِنِهِ ،
فَيَعِيشُ ظَاهِرُهُ فِي قَوَانِينِ هَذَا الْبَاطِنِ ، لَا فِي قَوَانِينِ ظَاهِرِ النَّاسِ . وَإِنَّهُ لَشَرٌّ
كُلِّ مَا نَقَلَّكَ إِلَى طَبْعِ أَهْلِ الْجَوَارِحِ وَشَهَوَاتِهِمْ ، فَزَيْنٌ لَكَ مَا يُزَيْنُ لَهِم ،
وَشَغْلًا بِمَا يَشْغَلُهُمْ ؛ فَهَذَا عِنْدَنَا — يَرْحَمُكَ اللَّهُ — بَابٌ كَأَنَّهُ مِنْ أَبْوَابِ
الْمَجُونِ الَّذِي يَنْقُلُ الرَّجُلَ إِلَى طَبْعِ الصَّيِّ .

فَاطِمُسُ يَا أَخِي عَلَى مَوْضِعِهَا مِنْ قَلْبِكَ ، وَأَلْقِ النُّورَ عَلَى ظِلْمِهَا ؛ فَالنُّورُ فِي
قَلْبِ الْعَابِدِ نُورُ التَّحْوِيلِ إِنْ شَاءَ ، وَنُورُ الرُّؤْيَا إِنْ شَاءَ ؛ يَرَى بِهِ الْمَادَّةَ كَمَا
يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لَا كَمَا تَكُونُ . وَأَنْتِ قَدْ كَانَتْ فِيكَ امْرَأَةٌ ، فَحَوَّلَهَا صَلَاةً ،
وَأَعْمَلَ بِنُورِكَ عَكْسَ مَا يَعْمَلُ أَهْلُ الْجَوَارِحِ بِظُلَامِهِمْ ، فَقَدْ تَكُونُ فِي أَحَدِهِمْ
الْصَّلَاةُ فَيُحَوِّلُهَا امْرَأَةً ...

قَالَ أَبُو رَبِيعَةَ : تَاللَّهِ إِنَّهُ لَرَأَى ؛ وَالْوَحْدَةُ بَعْدَ الْآنِ أَرْوَحُ قَلْبِي ، وَأَجْمَعُ
لَهْمِي ؛ وَقَدْ خَلَعَنِي اللَّهُ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، وَأَخَذَ الْقَبْرُ امْرَأَتِي وَشَهَوَاتِي مَعًا ،
فَسَأَعِيشُ مَا بَقِيَ لِي فِيمَا بَقِيَ مِنِّي . وَزَوَالُ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ هُوَ وَجُودُ شَيْءٍ آخَرَ .
وَلَقَدْ اتَّهَمْتُ بِالْمَرْأَةِ وَمَعَانِيهَا وَأَيَّامَهَا إِلَى الْقَبْرِ ، فَالْبَدْءُ الْآنَ مِنَ الْقَبْرِ وَمَعَانِيهِ وَأَيَّامِهِ .

وَتَوَاقَّفًا عَلَى أَنْ يَسِيرَا مَعًا فِي (بَاطِنِ) الْوُجُودِ ... ! وَأَنْ يَعِيشَا فِي عُمُرِهِ هُوَ
سَاعَةٌ مُعَدُّودَةُ اللَّحْظَاتِ ، وَحَيَاةٌ هِيَ فِكْرَةٌ مَرْسُومَةٌ مُصَوَّرَةٌ .
قَالَ أَبُو خَالِدٍ : وَرَأَيْتُ أَنْ أُبَيِّتَ عِنْدَهُ وَفَاءً بِحَقِّ خِدْمَتِهِ ، وَدَفْعًا لِلْوَحْشَةِ

أَنْ تُعَاوِدَهُ فَتَدْخُلَ عَلَى نَفْسِهِ بِأَفْكَارِهَا وَوَسَاوِسِهَا . وَكَانَ قَدْ غَمَرَ نَا تَعْبُ يَوْمِنَا ، وَأَعْيَا أَبُورِ بَيْعَةٍ ، وَخَذَلَتْهُ الْقُوَّةُ ؛ فَلَمَّا صَلَّيْنَا الْعِشَاءَ قَالَتْ : يَا أَبَا رُبَيْعَةَ ، أَحَبُّ لَكَ أَنْ تَنْعَسَ فَنُفِجَ نَفْسَكَ لِيَذْهَبَ مَا بَكَ ، فَإِذَا اسْتَجَمَمْتَ أَيقِظُكَ فَقَمْنَا سَائِرَ اللَّيْلِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ اضْطَجَعَ حَتَّى غَلَبَهُ النَّعَاسُ . وَجَلَسْتُ أَفْكُرُ فِي حَالِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَمَا اجْتَهَدْتُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : لَعَنَى أَغْرِيَّتُهُ بِمَا لَا قَبْلَ لَهُ بِهِ ، وَأَشْرْتُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ مَا كَانَ يَحْسُنُ بِمِثْلِهِ ، فَأَكُونَ قَدْ غَشِشْتُهُ . وَخَامَرَنِي الشُّكُّ فِي حَالِي أَنَا أَيْضًا ، وَجَعَلْتُ أَقَابِلُ بَيْنَ الرَّجُلِ مِتَزَوِّجًا عَابِدًا ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ عَابِدًا لَمْ يَتَزَوَّجْ ؛ وَأَنْظُرُ فِي ارْتِيَاضِ أَحَدِهِمَا بِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ ، وَارْتِيَاضِ الْآخَرِ بِنَفْسِهِ وَحَدِّهَا ؛ وَأَخَذْتُ أَذْهَبُ وَأُجِئُ مِنْ فِكْرٍ إِلَى فِكْرٍ ، وَقَدْ هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلِي كَأَنَّ الْمَكَانَ قَدْ نَامَ ، فَلَمْ أَلْبِثُ حَتَّى أَخَذَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَأُسْتَنْقَلْتُ كَأَنَّمَا شُدِدْتُ شَدًّا بِجِبَالٍ مِنَ النَّوْمِ لَمْ يَجِئْ مِنْ يَقْطَعُهَا .

وَرَأَيْتُ فِي نَوْمِي كَأَنَّهَا الْقِيَامَةُ وَقَدْ بُعِثَ النَّاسُ ، وَضَاقَ مِهِمُ الْحَشَرُ ، وَأَنَا فِي جُمْلَةِ الْخَلَائِقِ ، وَكَأَنَّنَا مِنَ الضَّغْطَةِ حَبٌّ مَبْثُوثٌ بَيْنَ حَجَرَيْ الرَّحَى . هَذَا وَالْمَوْقِفُ يَغْلِي بِنَا غَلْيَانِ الْقَدَرِ بِمَا فِيهَا ، وَقَدْ اشْتَدَّ الْكَرْبُ وَجَهَدْنَا الْعَطَشَ ، حَتَّى مَا مَنَّا ذَوْ كَبِدٍ إِلَّا وَكَأَنَّ الْجَحِيمَ تَنْتَفَسُ عَلَى كَبِدِهِ ، فَمَا هُوَ الْعَطَشُ بَلْ هُوَ السَّعَارُ وَاللَّهَبُ يَحْتَدِمُ بِهِمَا الْجَوْفُ وَيَتَأَجَّجُ .

فَنَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا وَلَدَانُ يَتَخَلَّوْنَ الْجَمْعَ الْحَاشِدَ ، عَلَيْهِمُ مَنَادِيلٌ مِنْ نُورٍ ، وَبِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ مِنْ ذَهَبٍ ، يَمْلَأُونَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ بِسُئَالٍ بَرُّودٍ عَذْبٍ ، رُؤْيَيْتُهُ عَطَشٌ مَعَ الْعَطَشِ ، حَتَّى لِيَتَلَوَّى مَنْ رَأَاهُ مِنَ الْأَلَمِ ، وَيَتَلَعَّلُ كَأَنَّمَا كُورِي بِهِ عَلَى أَحْشَائِهِ .

وَجَعَلَ الْوِلْدَانُ يَسْقُونَ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ ، وَيَتَجَاوِزُونَ مَنْ بَيْنَهُمَا ، وَهَمَّ كَثْرَةُ

من الناس ؛ وكأَنما يتخللون الجمعَ في البحثِ عن أناسٍ بأعيانهم ، يَنضَحون غليل
أَكبادهم بما في تلك الأباريق من رُوحِ الجنة ومائها ونسيمها .
ومرَّ بي أحدهم ، فمددتُ إليه يدي وقلت : « اسقني فقد يَبَسْتُ واحترقتُ
من العطش ! »

قال : « ومن أنت ؟ »

قلت : « أبو خالد الأحول الزاهد . . »

قال : « أَلَا في أطفال المسلمين وَلَدٌ افترطتهُ صغيراً فاحتسبته عند الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « أَلَا وَلَدٌ كَبِرَ في طاعة الله ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « أَلَا وَلَدٌ نالَتْك منه دعوةٌ صالحةٌ جزاءَ حَقِّكَ عليه في إخراجه

إلى الدنيا ؟ »

قلت : « لا . . . »

قال : « أَلَا وَلَدٌ من غير هؤلاء ولكنك تعبت في تقويمه ، وقُمتَ بحق

الله فيه ؟ »

قلت : « يرحمك الله ، إني كلما قلتُ « لا » أحسستُ « لا » هذه تمرُّ على

لساني كالمِكْوَاةِ الحامية . . . »

قال : « فنحن لا نسقي إلا آباءنا ؛ تَعَبُوا لنا في الدنيا ، فاليومَ نتعبُ لهم

في الآخرة ، وقدَّموا بين يديهم الطفولة ، وإنما قدَّموا ألسنةً طاهرةً للدفاع عنهم

في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمةُ الحسنةِ والسيئةِ . وليس هنا بعد ألسنةِ

الأنبياء أشدُّ طلاقاً من ألسنةِ الأطفال ، فما للطفل معنى من معاني آثامكم يَحْتَسِبُ

فيه لسانه أو يُكَلِّجُ به . »

قال أبو خالد : فَجُنَّ جنوني ، وجعلتُ أبحثُ في نفسي عن لفظة « ابن »
فكأنما مُسِحَتْ الحكمةُ من حِفْظِي كما مُسِحَتْ من وجودي ؛ وذكرْتُ صَلَاتِي
وصِيَامِي وعبادتي ، فما خُطِرْتُ في قلبي حتى ضحك الوليدُ ضحكاً وجدتُ في معناه
بكائي ونَدَمِي وخيبتِي .

وقال : يا ويلَكَ ! أما سمعتَ : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفِّرُها الصلاةُ
ولا الصيامُ ، ويُكفِّرُها الغمُّ بالعيال . » أتعرفُ من أنا يا أبا خالد ؟
قلت : من أنت يرحمنا الله بك ؟

قال : أنا ابنُ ذاك الرجل الفقير المُعِيل ، الذي قال لشيخك إبراهيم بن آدم
العابد الزاهد : « طُوبَى لك ! فقد تفرَّغتَ للعبادة بالغزوبة . » فقال له إبراهيم :
« لَرَوْعَةٍ تناولَكَ بسببِ العيال أفضلُ من جميع ما أنا فيه . . . » ، وقد جاهدَ
أبى جِهَادَ قابسه وعقله وبدنه ، وحَمَلَ على نفسه من مقاساة الأهل والولد حَمَلَهَا
الإنسانُ العظيم ، وفكَّرَ لغير نفسه ، واغْتَمَّ لغير نفسه ، وعَمِلَ لغير نفسه ،
وَأَمَنَ وصَبَرَ ، ووثِقَ بولاية الله حين تزَوَّجَ فقيراً ، وبِضْمَانِ الله حين أعقبَ فقيراً ؛
فهو مُجاهِدٌ في سُبُلٍ كثيرة لا في سبيل واحدة كما يُجاهِدُ الغزاة ؛ هؤلاء يستشهدون
مرة واحدة ، أمّا هو فيستشهد كلَّ يوم مرةً في همومه بنا ، واليومَ يرحمه الله
بفضل رحمته إيانا في الدنيا .

أمّا بَلَّغَكَ قولُ ابنِ المبارك وهو مع إخوانه في الغزو : « أتعلمون عملاً أفضلَ
مما نحن فيه ؟ قالوا : ما نَعْلَمُ ذلك . قال : أنا أعلم . قالوا فما هو ؟ قال : رجل
مُتَعَفِّفٌ على فقره ، ذو عائلة قد قام من الليل ، فنظر إلى صبيانه نياماً مُتَكَشِّفِينَ ،
فسترهم وغطَّاهم بثوبه ؛ فَعَمَلُهُ أفضلُ مما نحن فيه . . . »

يخلع الأبُ المسكينُ ثوبه على صِبيته لِيُدْفِنَهُم به ويتلقَّى بجلده البردَ في الليل
إن هذا البرد — يا أبا خالد — تحفظه له الجنة هنا في حرِّ هذا الموقف كأنها

مُؤْتَمَنَةً عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تُؤَدِّيَهُ . وَإِنْ ذَلِكَ الدَفْعُ الَّذِي شَمِلَ أَوْلَادَهُ يَا أَبَا خَالِدٍ —
هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين .

قال أبو خالد : وَيَهْمُ الْوَلِيدُ أَنْ يَمْضَى وَيَدَعَنِي ، فَمَا أَمْلِكُ نَفْسِي ، فَأَمْدُ يَدِي
إِلَى الْإِبْرِيقِ فَأَنْشِطُهُ مِنْ يَدِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَظْمٍ ضَخْمٍ قَدْ نَشِبَ فِي كَفِّي
وَمَا يَلِيهَا مِنْ أَسَلَةِ الذَّرَاعِ ^(١) . فغابت فيه أصابعي ، فلا أصابع لي ولا كف .
وَأَبَى الْإِبْرِيقُ أَنْ يَسْقِيَنِي وَصَارَ مُثَلَّةً بِي ، وَتَجَسَّدَتْ هَذِهِ الْجَرِيمَةُ لِتَشْهَدَ عَلَيَّ ،
فَأَخَذَنِي الْهَوْلُ وَالْفَزَعُ ، وَجَاءَ إِبْرِيقٌ مِنَ الْهَوَاءِ ، فَوَقَعَ فِي يَدِ الْوَلِيدِ ،
فَتَرَكَنِي وَمَضَى .

وقلت لنفسي : وَيَحْكُ يَا أَبَا خَالِدٍ ! مَا أَرَاكَ إِلَّا مُحَاسِبًا عَلَى حَسَنَاتِكَ كَمَا يُحَاسِبُ
الْمَذْنُوبُونَ عَلَى سَيِّئَاتِهِمْ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !
وَبَلَّغَنِي الصَّيِّحَةُ الرَّهِيمَةُ : أَيْنَ أَبُو خَالِدِ الْأَحْوَلُ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ ؟
قلت : هَآنَذَا .

قيل : طَاوُوسٌ مِنْ طَوَاوِيسِ الْجَنَّةِ قَدْ حُصِّ ^(٢) ذَيْلُهُ فِضَاعٌ أَحْسَنُ مَا فِيهِ !
أَيْنَ ذَيْلُكَ مِنْ أَوْلَادِكَ ، وَأَيْنَ مُحَاسِنُكَ فِيهِمْ ؟ أَخْلَقْتَ لَكَ الْمَرَأَةَ لَتَتَجَنَّبَهَا ،
وَجُعِلَتْ نَسْلُ أَبُوبِكَ لَتَتَبَرَّأَ أَنْتَ مِنَ النَّسْلِ ؟

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة ؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا أن
هربت منها ، وانهزمت عن ملاقاتها ؛ ثم أنت تأملُ جَائِزَةَ النُّصْرَةِ عَلَى هَزِيمَةٍ ... !
عَمِلْتَ الْفَضِيلَةَ فِي نَفْسِكَ وَنَشَأَتِكَ ، وَلَكِنَّهَا عَقِمَتْ فَلَمْ تَعْمَلْ بِكَ . لَكَ
أَلْفُ أَلْفِ رَكْعَةٍ وَمِثْلُهَا سَجَدَاتٌ مِنَ النَّوَافِلِ ، وَلَخَيْرٌ مِنْهَا كُلُّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ
خَرَجْتَ مِنْ صُلْبِكَ أَعْضَاءُ تَرَكَعَ وَتَسْجُدَ .

(١) الْأَسَلَةُ : مَا يَلِي الْكَفَّ مِنَ الذَّرَاعِ إِلَى الْقِسْمِ الْمُسْتَغْلَظِ مِنْهَا . فَالْأَسَلَةُ هِيَ الْعِظَامَةُ
الَّتِي تَشَدُّ عَلَيْهَا سَاعَةُ الْيَدِ .

(٢) حَصَّ ذَيْلَهُ : قَطَعَ وَجَدَ .

قتلت رجولتك ، ووأدت فيها النسل ، ولبثت طوالَ عمرِكَ ولداً كبيراً لم تبلغ رتبة الأب ! فلئن أتمت الشريعة ، لقد عطلت الحقيقة ، وإن
قال أبو خالد : ووقعت غنة النون الثانية في مسمعى من هول ما خفت مما بعدها كالنَّفخ في الصور ؛ فطار نومي وقتُ فزَعاً مشَّت القلب ، كمن فتح عينيه بعد غشية ، فرأى نفسه في كفنٍ في قبرٍ سُدَّ عليه . . . !
وما كدتُ أعي وأنظر حولي وقد برَّقَ الصبحُ في الدار حتى رأيتُ أبار بيعة يتقلبُ كأنما دَحرجته يد ، ثم نهض مُستطارَ القلب من فزعه وقال : أهلكتنى يا أبا خالد ، أهلكتنى والله .

قلت : ما بالك يرحمك الله !
قال : إني نمتُ على تلك النيّة التي عرفت : أن أجمعَ قلبي للعبادة ، وأخلصَ من المرأة والولد ، ومن المعانة لهما في مرّمة المعاش والتلفيق بين رغيهِ ورغيهِ ، وأن أعني نفسي من لأوائهم وضرّائهم وبلائهم ، لأفرغ إلى الله وأقبل عليه وحده . وسألتُ الله أن يخيّر لي في نومي ؛ فرأيتُ كأن أبواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالاً ينزلون ويسرون في الهواء يتبعُ بعضهم بعضاً ، أجنحةً وراء أجنحة ؛ فكلما نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه : هذا هو المشئوم !
فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !
وينظر هذا الآخر إلى ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له : هذا هو المشئوم !
فيقول الآخر : نعم هو المشئوم !

وما زالت « المشئوم ، المشئوم » حتى مرّوا ؛ لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرها ، وأنا في ذلك أخاف أن أسأهم ، هيبةً من الشؤم ، ورجاء أن يكون المشئوم إنساناً ورأى يبصرونه ولا أبصره . ثم مرّ بي آخرهم ، وكان غلاماً .

فقلت له : يا هذا ، من هو المشتموم الذى تُؤمِنُون إليه ؟

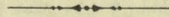
قال : أنت !

فقلت : ولم ذاك ؟

قال : كنا نرفع عمالك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله ، ثم ماتت امرأتك وتحزّنت على ما فاتك من القيام بحقّها ، فرفعنا عمالك درجةً أخرى ؛ ثم أمرنا الليلة أن نضع عمالك مع الخالفين الذين فرّوا وجبّئوا !

إن سُمِّى الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ طَيْرَانٌ إِلَى الْأَعْلَى ... وَلَكِنَّهُ
طَيْرَانٌ عَلَى أَجْنَحَةِ الشَّيَاطِينِ !

طَيْرَانٌ بِالرَّجُلِ إِلَى فُوهَةِ الْبُرْكَانِ الَّتِى فِي الْأَعْلَى !



بنته الصغيرة

فرغ أبو يحيى مالك بن دينار، زاهد البصرة وعالمها، من كتابة المصحف؛ وكان يكتب المصاحف للناس، ويعيش مما يأخذ من أجره كتابته؛ تعففاً أن يطعم إلا من كسب يده — ثم خرج من داره وجهه المسجد، فأتاه فصل بالناس صلاة العصر، وجلسوا ينتظرونه، واستوى هو قائماً، فركع وسجد ما شاء الله حتى قضى نافلته، ثم انفل من صلاته فقام إلى أسطوانته^(١) التي يستند إليها، وتحلق الناس حوله مجوعاً خلف جموع خلف جموع، يذهب فيهم البصر مرة هنا ومرة هنا من كثرتهم وامتدادهم، حتى تغطي بهم المسجد على رُحبه. ومد الإمام عينه فيهم ثم أطرق إطراقة طويلة، والناس كأن عليهم الطير مما سكنوا لهيبته، ومما عجبوا خشوعه؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندت عيناه، فما نظر إليهم حتى كأنما اطلع على أرواحهم فجر رطب من سحر ذلك الندى.

وبدر شاب حدث فساله: ما بكاء الشيخ؟ وكان قريباً يجلس من الإمام في سمت بصره^(٢)، فتأمله الشيخ طويلاً يقاب فيه الطرف كالمتعجب، ولبت لا يحببه كأنما عقد لسانه أو أخذته عن نفسه حالاً، فما ثبت شيئاً مما يرى.

وازداد الناس عجباً؛ فما جربوا على الشيخ من قبلها حصراً ولا عيباً، ولا قطعه سؤال قط، ولا تخلف قط عن جواب؛ وقالوا إن له لساناً، وما بد أن تكون من وراء حبسته شعاب في نفسه تهذر بسيلها وتحتاج؛ فما أسرع ما يلتقي السيل، فيجتمع، فيصوب إلى مجراه، فيتقاذف.

(١) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد، وهي أعمدة، كما كان بالأزهر إلى عهد قريب. (٢) أى أمامه في الخط الذي يمتد فيه البصر.

وتبسم الإمام وقال : أما إني قد ذكرتُ ذِكْرِي فبكيتُ لها ، ورأيتُ رؤيا فتبسمتُ لها ؛ أما الذكري ، فهل تعلمون أن هذا المسجد الذي يفهقُ بهذا الحشد العظيم ، وتقع فيه المدينة لكل أذان وتطير — هل تعلمون أنه خلا قطاً من الناس وقد وجبت الفريضة ؟ قالوا : ما نعلمه .

قال : فقد كان ذلك لعشرين سنة خلت في موت الحسن ^(١) ، فقد مات عشية الخميس ، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فبيع أهل البصرة كلهم جنازته واشتغلوا به ، فلم تقم صلاة العصر بهذا المسجد ، وما تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ ؛ ومثل الحسن لا تموت ساعة موته من عمرٍ من شهدها ، فذلك يومٌ عجيب قد لفَّ نهاره البصرة كلها في كفنٍ أبيض ، فما بقيت في نفس رجلٍ ولا امرأة شهوة إلى الدنيا ، وفرغ كل إنسان من باطله ، كما يفرغ من أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ؛ وظهر لهم الموت في حقيقة جديدة بالغة الروع لا يراها الأبناء في موت آبائهم وأمهاتهم ، ولا الآباء والأمهات في موت من ولدوا ، ولا الحب في موت حبيبه ، ولا الجيم في موت حميمه ؛ فإن الجميع فقدوا الواحد الذي ليس غيره في الجميع ؛ وكما يموت العزيز على أهل بيت فيكون الموت واحداً وتتعدد فيهم معانيه ، كذلك كان موت الحسن موتاً بعدد أهل البصرة !

ذاك يوم امتد فيه الموت وكبر ، وانكشفت فيه الحياة وصغرت ، وتحافت الدنيا عند أهلها ، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التي يلقي فيها الملوك والصعاليك ، والأخلاط بين هؤلاء وأولئك ، لا يصغر عنها الصغير ، ولا يكبر عنها الكبير ؛ لا بل دون ذلك ، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعرء ، تنكشف

(١) هو الحسن البصري الإمام العظيم ، وسيأتي وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفي سنة ١١٠ ، وقد توفي مالك بن دينار شيخ هذه القصة في سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة في سنة ١٣٠

للأبصار عن شَوْهَاءَ نَجَسَةٍ قَدْ أَرَمَتْ^(١) لَا تُطَاقُ عَلَى النَّظَرِ ، وَلَا عَلَى الشَّمِّ ،
وَلَا عَلَى اللَّمَسِ ؛ وَمَا تَتَفَجَّرُ إِلَّا عَنْ آفَةٍ ، وَمَا تَتَفَجَّرُ إِلَّا لِهَوَامِ الْأَرْضِ .

تلك هي الذكري ، وأما الرؤيا فقد طالعتني نفسي من وجه هذا الفتى ،
فأبصرتني حين كنتُ مثله يافعاً مُتَرَعِّعاً دَاخِلاً فِي عَصْرِ شَبَابِي ، فَكُنَّا نَمَا
اِتَّبَهْتُ عَيْنِي مِنْ هَذِهِ النَّفْسِ عَلَى فَاتِكِ خَبِيثٍ كَانَ فِي جَنَائِيهِ فِي أَغْلَالِهِ فِي سِجْنِهِ ،
وَمَاتَ طَوِيلًا ثُمَّ بُعِثَ !

إني مُخْبِرُكُمْ عَنِّي بِمَا لَمْ تُحِيطُوا بِهِ ، فَأَرْغُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَحْضِرُوهُ أَفْهَامَكُمْ ،
وَاسْتَجْمِعُوا لَهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ غَيْبَ شَيْخِكُمْ ، وَأَنَا مُحَدِّثُكُمْ بِهِ كَيْلَا يَيْأَسَ ضَعِيفٌ ،
وَلَا يَقْنَطُ يَأْسٌ ، فَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْحَسَنِينَ .

لقد كنتُ فِي صَدْرِ أَيَّامِي شُرْطِيًّا ، وَكُنْتُ فِي آفَةِ الْحَدَاثَةِ مِنْ قَبْلِهَا أَتَفَقَّى
وَأَتَشَطَّرُ ، وَكُنْتُ قَوِيًّا مَعْصُوبًا فِي مِثْلِ جَبَلَةِ الْجَبَلِ مِنْ غِلَظٍ وَشِدَّةٍ ، وَكُنْتُ
قَاسِيًّا كَأَنَّ فِي أَضْلَاعِي جَنْدَلَةً لَا قَلْبًا ، فَلَا أَتَذَمُّ وَلَا أَتَأْتِمُّ ؛ وَكُنْتُ مُدْمِنًا عَلَى
الْخَمْرِ ، لِأَنَّهَا رُوحَانِيَّةٌ مِنْ عَجَزَ أَنْ تَكُونَ فِيهِ رُوحَانِيَّةٌ ، وَكَأَنَّهَا إِلَهِيَّةٌ يُزَوِّرُهَا
الشَّيْطَانُ — لَعْنَهُ اللَّهُ — فَيَخْلُقُ بِهَا لِلنَّفْسِ مَا تَحِبُّ مِمَّا تَكْرَهُ ، وَيُثْبِتُهَا ثَوَابَ
سَاعَةٍ لَيْسَتْ فِي الزَّمَنِ بَلْ فِي خِيَالِ شَارِبِهَا . وَكَأَنَّ جَهْلَ الْعَقْلِ نَفْسَهُ فِي بَعْضِ
سَاعَاتِ الْحَيَاةِ ، هُوَ — فِي عِلْمِ الشَّيْطَانِ وَتَعْلِيمِهِ — مَعْرِفَةُ الْعَقْلِ نَفْسَهُ فِي الْحَيَاةِ !
فِينَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ أَجُولُ فِي السُّوقِ . وَالنَّاسُ يُفَوِّرُونَ فِي بَيْعِهِمْ وَشُرَائِهِمْ ،
وَأَنَا أَرْقُبُ السَّارِقَ ، وَأَعِدُّ لِلْجَانِي ، وَأَتَهَيَّاءُ لِلنِّزَاعِ — إِذْ رَأَيْتُ اثْنَيْنِ يَتَلَاَحِيَانِ ،
وَقَدْ لَبَّبَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ ؛ فَأَخَذْتُ إِلَيْهِمَا ، فَسَمِعْتُ الْمَظْلُومَ يَقُولُ لِلظَّالِمِ : لَقَدْ
سَلَبْتَنِي فَرَحَ بُنْيَاتِي ، فَسَيِّدَعُونَ اللَّهَ عَلَيْكَ فَلَا تَصِيبُ مِنْ بَعْدِهَا خَيْرًا ، فَإِنِّي

(١) أَرَمَتْ : بَدَأَتْ تَتَعَفَّنُ وَتَبْلَى

ما خرجتُ إلا اتباعاً لقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين ، فاشترى شيئاً ، فحمله إلى بيته ، فخصَّ به الإناث دون الذكور ؛ نظرَ اللهُ إليه . »

قال الشيخ : وكنت عزباً لا زوجة لي ، ولكن الآدمية انتهت في ، وطمعت في دعوة صالحة من البنيات المسكينات ، إذا أنا فرحتهن ؛ ودخلتني لمن رقة شديدة ، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضى ، وأضعفت له من ذات يدي لأزيد في فرح بناته ، وقلت له وهو ينصرف : عهدٌ بحاسبك الله عليه ، ويستوفيه لي منك ، أن تجعل بناتك يدعون لي إذا رأيت فرحهن بما تحمل إليهن ، وقل لمن : مالك بن دينار .

وبت ليأتى أثقل مفكراً في قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعانيه الكثيرة ، وحسنه على إكرام البنات ، وأن من أكرم بناته كرم على الله ، وحرصه أن ينشأن كريمات فرحات ؛ وحدثني هذا الحديث ليأتى تلك إلى الصبح ، وفكرت حينئذ في الزواج ، وعلمت أن الناس لا يزوجوني من طيباتهم ما دمت من الخبيثين ؛ فلما أصبحت غدوت إلى سوق الجوارى ، فاشتريت جارية نفيسة ، ووقعت مني أحسن موقع ، وولدت لي بنتاً فشغفت بها ، وظهرت لي فيها الإنسانية الكبيرة التي ليست في ، فرأيت بعد ما بيني وبين صورتي الأولى ؛ ورأيتهما سماوية لا تملك شيئاً وتملك أباه وأمه ، وليس لها من الدنيا إلا شيع بطنها وما أيسره ، ثم لما بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تشب عليه أكثر مما تشب على الرضاع ؛ فعلمت من ذلك أن الذي تسكتفه رحمة الله يملك بها دنيا نفسه ، فما عليه بعد ذلك أن تفوته دنيا غيره ؛ وأن الذي يجد طهارة قلبه يجد سرور قلبه ، وتكون نفسه دائماً جديدة على الدنيا ؛ وأن الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة ؛ والذي لا يبالي المم لا يبالي المهم به ؛ وأن زينة الدنيا

ومتاعها وغرورها وما تجلب من الهم — كلُّ ذلك من صِغَرِ العقل في الإيمان حين يكبر العقل في العلم !

كانت البُنَيَّةُ بدءَ حياةٍ في بيتي وبدءَ حياةٍ في نفسي ، فلما دَبَّتْ على الأرض ازدادتُ لها حُبًّا ، وألفَتْنِي وألفَتْنِي ، فَرُزِقَتْ رَوْحِي منها أَطهرَ صداقةٍ في صديق ، تتجدَّدُ للقلب كلَّ يوم ، بل كلَّ ساعة ، ولا تكونُ إلا لحضِّ سرورِ القلب دونَ مطامعِهِ ، فتُمِدُّهُ بالحياةِ نفسِها لا بأشياءِ الحياة ، فلا تزيدُ الأشياءُ في المحبة ولا تنقصُ منها ، على خلاف ما يكون في الأصدقاء بعضهم من بعض واختلافهم على المضرَّة والمنفعة .

قال الشيخ : وَجَهِدْتُ أَنْ أَتَرَكَ الخمرَ ، فلم يَأْتِ لِي ولم أَسْتَطِعْهُ ؛ إذ كُنْتُ منهمكًا على شربِها ، ولكن حبَّ ابنتي وضع في الخمرَ إثمها الذي وضعته فيها الشريعة ، فكِرِهْتُهَا كِرْهًا شديدًا ، وأصبحت كالمكرِهِ عليها ؛ ولم تُعَدْ فيها نَشْوَتُهَا ولا رِيَّهَا ؛ وكانت الصغيرةُ في تمزيقِ أُخِيَّتِهَا أبرعَ من الشيطان في حَوْكِ هذه الأخيصة ، وكأَنَّمَا جَرَّتْني يَدُهَا جَرًّا حتَّى أبعَدْتَنِي عن المنزلِ الخَمرِية التي كان الشيطانُ وضعني فيها ، فانتقلتُ من الاستهتارِ والمكابرةِ وعدمِ المبالاة إلى الندم والتَّحُوبِ والتَّائِبِ ، وكُنْتُ من بَعْدِهَا كَلِمًا وضَعْتُ المَسْكِيرَ وهَمَّتُ بِهِ ، دَبَّتْ ابنتي إلى مجلسي ؛ فَأَنْظَرُ إِلَيْهَا وَتَنْتَشِرُ عَلَيْهَا نَفْسِي مِنْ رَقَّةٍ وَرَحْمَةٍ ، فَأَرْقُبُ مَا تَصْنَعُ ، فَتَجْعِي ، فَتُجَاذِبُنِي الكَاسَ حتَّى تُهْرِقَهَا عَلَيَّ ثَوْبِي ، وَأُرَانِي لَا أَغْضِبُ ، إِذْ كَانَ هَذَا يَسْرُّهَا وَيُضْحِكُهَا ، فَأُسَرُّ لَهَا وَأُضْحِكُ .

ودام هذا مَنِي ومنها ، فَأَصْبَحْتُ فِي الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ ؛ أَشْرَبُ مَرَّةً وَأَتَرَكَ مِرَارًا ، وَجَعَلْتُ أَسْتَقِيمُ عَلَى ذَلِكَ ، إِذْ كَانَتْ النَّشْوَةُ بِابْنَتِي أَكْبَرَ مِنْ النَّشْوَةِ بِالزَّجَاجَةِ ، وَإِذْ كُنْتُ كَمَا رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي وَتَدَبَّرْتُ أَمْرِي ، أَسْتَعِيزُ

بالله أن تعقل ابنتي معنى الحز يوماً فأكون قد نجست أيامها ، ثم أتقدم إلى الله وعلى ذنوبها فوق ذنوبي ، ويترحم الناس على آبائهم وتلعنني إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وجدت في الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين .
ومضيت على ذلك وأنا أصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتي ، فلما تم لها سنتان ، ماتت !

قال الراوى : وسكت الشيخ ، فعلمت به الأبصار ، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظات من الزمن لذكر موت الطفلة ، وخامر المجلس مثل السكر بهذه الكأس المذهلة ؛ ولكن الطفلة دبّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأكدنى الحزن عليها ، ووهن جاشى ، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما أتأسى به ، فضاعف الجهلُ أحزاني ، وجعل مصيبتى مصائب . والإيمان وحده هو أكبر علوم الحياة ، يُبصّرُك إن عميت فى الحادثة ، ويهديك إن ضللت عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة ، لا عدوّها تكون المصيبة وإياها عليك ، وإذا أخرجت الليالى من الأحزان والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس أو محاصرتها ، فما يدفع المال ولا تردّ القوة ولا يمنع السلطان ، ولا يكون شىء حينئذ أضعف من قوّة القوى ، ولا أضيع من حيلة المحتال ، ولا أفقر من غنى الغنى ، ولا أجهل من علم العالم ، ويبقى الجهد والحيلة والقوّة والعلم والغنى والسلطان — للإيمان وحده ؛ فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه ، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها ، ويردّ قدر الله إلى حكمة الله ؛ فلا يلبث ما جاء أن يرجع ، وتعود النفس من الرضى بالقدر والإيمان به ، كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها .

قال الشيخ : ورجعتُ بجهلي إلى شرٍّ مما كنتُ فيه ، وكانت أحزاني أفرح
الشیطان ؛ وأراد — أخزاه الله — أن يفتنَّ في أساليب فرجه ، فلما كانت
ليلة النصف من شعبان — وكانت ليلة جمعة ، وكانت كأول نور الفجر من أنوار
رمضان — سَوَّلَ لي الشيطانُ أن أسكر سكرةً ما مثلاً ؛ فبتُّ كلميت مما
ثمَّلت ، وقذفتني أحلامٌ إلى أحلام ، ثم رأيتُ القيامة والحشر ، وقد ولدت
القبورُ من فيها ، وسيقَ الناسُ وأنا معهم ، وليس وراء ما بي من الكرب غاية ؛
وسمعتُ خلفي زفيراً كفحيح الأفعى ، فالتفتُ فإذا بتنينٍ عظيم ما يكون أعظمُ
منه ؛ طويلٌ كالنخلة السَّحوق ، أسودُّ أزرق ، يُرسل الموتَ من عينيه الجراوين
كالدَّم ، وفي فمه مثلُ الرَّماح من أنيابه ، ولجوفه حرٌّ شديدٌ لو زفر به على
الأرض ما نبتتُ في الأرض خضراء ، وقد فتَحَ فاه ونفخ جوفه وجاء مُسرِعاً
يريد أن يلتقمني ، فررتُ بين يديه هارباً فزعاً ؛ فإذا أنا بشيخٍ هَرِم يكاد
يموتُ ضِعفاً ، فعُدْتُ به وقلتُ أجزني وأغثنِي . فقال : أنا ضعيفٌ كما ترى ،
وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن مرَّ وأسرع ، ففعل الله أن يسبَّبَ لك
أسباباً للنجاة .

فولَّيتُ هارباً وأشرفتُ على النار وهي الهولُ الأكبر ، فرجعتُ أشتدُّ
هرباً والتَّنين على أثرِي ؛ ولقيتُ ذلك الشيخ مرة أخرى ، فاستجرتُ به فبكي
من الرحمة لي وقال : أنا ضعيفٌ كما ترى ، وما أقدر على هذا الجبار ، ولكن
اهرب إلى هذا الجبل ، ففعل الله يُحدثُ أمراً .

فنظرتُ فإذا جبلٌ كالدار العظيمة ، له كُوَى عليها سُتُور ، وهو يَبْرُقُ
كشُعاع الجوهر ؛ فأسرعتُ إليه والتَّنين من ورأى ، فلما شارفتُ الجبلَ فتَّحت
الكُوَى ورُفعت الستور ، وأشرفتُ على وجوه أطفالٍ كالآقار ، وقرب التَّنينُ
منِّي ، وصرتُ في هواءٍ جوفه وهو يتضرَّم عليّ ، ولم يبق إلا أن يأخذني ؛

فَتَصَاحِبُ الْأَطْفَالُ جَمِيعًا : يَا فَاطِمَةُ ! يَا فَاطِمَةُ !

قال الشيخ : فإذا ابنتي التي ماتت قد اشرفتُ علىَّ ، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت ، ثم وثبت كَرَمِيَّةُ السهم ، نجأت بين يدي ، ومدت إلي شِمَالَهَا فتعلقتُ بها ، ومدت يمينها إلى التَّيْنِ فولَّى هاربًا ، وأجلستني وأنا كالميت من الخوف والفرع ، وقعدت في حجري كما كانت تصنع في الحياة ، وضربت بيدها إلى لحيتي وقالت : يا أبت ، « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ » .

فبكيتُ وقلتُ : يا بُنَيَّةُ ، أخبريني عن هذا التَّيْنِ الذي أراد هلاكِي . قالت ذاك عملك السوء الخبيث ، أنت قويته حتى بلغ هذا الهول الهائل ، والأعمال ترجعُ هنا أجسامًا كما رأيت . قلت : فذاك الشيخُ الضعيفُ الذي استجرتُ به ولم يُجِرْنِي ؟ قالت : يا أبت ، ذاك عملك الصالح ، أنت أضعفته فضُفِّحتُ حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثَكَ من عملك السيِّء ؛ ولو لم أكن لك هنا ، ولو لم تكن اتبعت قولَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيمن فرَّحَ بناته المسكينات الضعيفات — لما كانت لك هنا شِمَالٌ تتعلقُ بها ، ويمينٌ تطرُدُ عنك .

قال الشيخ : وانتهيتُ من نومي فزعًا ألين ما أنا فيه ، ولا أراي أُستقرُّ ، كأني طريدةٌ على السيِّئ ؛ كلما هَرَبْتُ منه هَرَبْتُ به ؛ وأين المهربُ من الندم الذي كان نائمًا في القلب واستيقظ للقلب ؟

وأملتُ في رحمة الله أن أَرْجَحَ من رأس مال خاسر ، وقلت في نفسي : إن يومًا باقياً من العمر هو للمؤمن عُمرٌ ما ينبغي أن يُستهانَ به ؛ وصححتُ النِّيَّةَ على التوبة ، لأرجعَ الشبابَ إلى ذلك الشيخ الضعيف ، وأُسمِّنَ عظامه ، حتى

إذا استجرتُ به أجارني ولم يقل : « أنا ضعيف كما ترى ! » .
وسألتُ فدلَّتْ على أبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ، سيِّدِ البقيَّةِ
من التابعين ؛ وقيل لي : إنه جَمَعَ كلَّ علمٍ وفنٍّ إلى الزهد والورع والعبادة ،
وإن لسانه السَّحر ، وإن شخصه المغناطيس ، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره
إنجيلاً لم يُنزل ، وإن أمه كانت مولاةً لأم سلمة زوجِ النبي (صلى الله عليه
وسلم) ، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي ، فترضعه أم سلمة تَعَلِّه بِثَدْيِهَا
فَيَدِرُّ عِلَّتَهُ ، فكانت بينه وبين بركة النبوة صلّة .

وغدوتُ إلى المسجد والحسنُ في حلقته يقصّ ويتكلّم ، فجلست حيث انتهى
بي المجلس ، وما كان غير بعيد حتى عرّتني نَفْضَةً كنفضة الحمى ، إذ قرأ الشيخ
هذه الآية : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ
الْحَقِّ » ؛ فلو لفظنتي الأرضُ من بطنها ، وانشقت عني القبرُ بعد الموت —
ما رأيتُ الدنيا أعجب مما طالعنتني في تلك الساعة ؛ وأخذ الشيخ يفسرُ الآية ،
فصنع بي كلامه ما لو بُعث نبيٌّ من أجلى خاصةً لما صنّع أكثر منه .

وكلامُ الحسن غيرُ كلام الناس ، وغيرُ كلام العلماء ؛ فإنه يتكلّم من قلبه ومن
روحه ، ومن وجهه ولسانه ، وناهيكُم من رجل خاشع مُتَصَدِّعٍ من خشية الله ،
لم يكن يُرَى مُقْبِلًا إلا وكأنه أسيرٌ أمروا بضرب عنقه ، وإذا ذُكِرَتِ النارُ
فكأنها لم تخلق إلا له وحده ؛ رجلٌ كان في الحياة لتتكلّم الحياة بلسانه
أصدقَ كلماتها .

فصاح صائحٌ : يا أبا يحيى ، التفسيرُ التفسير ! وصاح المؤذنُ : الله أكبر .
فقطع الشيخ وقال : التفسيرُ إن شاء الله في المجلس الآتي .

بنته الصغيرة

٢

... وجاء من الغد أبو يحيى مالك بن دينار إلى المسجد ، ف صلى بالناس ، ثم تحول إلى مجلس درسه وتعكفوا حوله ؛ وكانوا إلى بقيّة خبره في لهفة كأن لها عمراً طويلاً في قلوبهم ، لا ظمّاً ليلة واحدة .

وقال منهم قائل : أيها الشيخ ، جُعِلْتُ فداك ، ما كان تأويلُ الحسن لتلك الآية من كلام الله تعالى ، وكيف رجع الكلام في نفسك مرّجع الفكر تتبّعهُ ، وأصبح الفكرُ عندك عملاً تحذو عليه ، واتصل هذا العملُ فكان ما أنت في ورعك و... ؟

فقطع الإمامُ عليه وقال : هوّن عليك يا هذا ؛ إن شيخك لأهونُ من أن تذهب في وصفه يميناً أو شمالاً ، وقد روى لنا الحسن يوماً ذلك الخبرَ الوارد فيمن يُعَذَّب في النار ألف عام من أعوام القيامة ، ثم يدركه عفوُ الله فيخرج منها ، فبكى الحسن وقال : « يا ليتني كنت ذلك الرجل ! » وهو الحسنُ يا بني ؛ هو الحسن ... !

فضجّ الناسُ وصاح منهم صائحون : يا أبا يحيى ، قتلنا يأساً . وقال الأول : إذا كان هذا فأوشكُ أن يعمّنا اليأسُ والقنوط ، فلا ينفعنا عملٌ ، ولا نأثي عملاً ينفع .

قال الشيخ : هوّتوا عليكم ، فإن للمؤمن ظنّين : ظنّاً بنفسه ، وظنّاً بربه ؛ فأما ظنّه بالنفس فينبغي أن ينزل بها دون جمحاتها ولا يفتأ ينزل ؛ فإذا رأى

لنفسه أنها لم تعمل شيئاً أوجب عليها أن تعمل ، فلا يزال دائماً يفعلها ؛ وكلما
أكثرَتْ من الخير قال لها : أَكْثَرِي . وكلما أَقَلَّتْ من الشرِّ قال لها : أَقَلِّي .
ولا يزال هذا دأبه ودأبها ما بقي ؛ وأما الظنُّ بالله فينبغي أن يعلو به فوق الفترات
والعلل والآثام ، ولا يزال يعلو ؛ فإن الله عند ظنِّ عبده به ، إن خيراً فله وإن شراً
فله . ولقد روينا هذا الخبر : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَلَ تسعاً وتسعين
نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فذُلَّ على راهبٍ فأتاه ، فقال : إنه قتل
تسعاً وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ قال : لا ! فمَتَلَهُ فكمَلَّ به مائة ! ثم سأل
عن أعلم أهل الأرض ، فذُلَّ على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس . فهل
له من توبة ؟ قال : نعم ؛ وَمَنْ يَحْوُلْ بَيْنَكَ وبين التوبة ؟ انْطَلِقْ إلى أرض كذا
وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك ،
فإنها أرضٌ سوء .

فانطلق ، حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه ملك الموت ، فاختمت فيه ملائكةُ
الرحمة وملائكةُ العذاب ؛ فقالت ملائكةُ الرحمة : جاء تائباً مُقْبِلاً بقلبه إلى الله .
وقالت ملائكةُ العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي
فجعلوه حَكماً بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيهما كان أدنى فهو له .
فقالوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكةُ الرحمة !

قال الشيخ : فهذا رجلٌ لما مشى بقلبه إلى الله حُسِبَتْ له الخطوة الواحدة ،
بل الشبر الواحد ؛ ولو أنه طَوَّفَ الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب ، لكان
كالعظام المحمولة في نعش ؛ قبرها في المشرق هو قبرها في المغرب ، وليس لها من
الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحد لا يتغير ؛ هو أنه بجملته ميّت ، وأنها
بجملتها حُفِرَة .

والإنسانُ عند الناس بهيئة وجهه وحليته التي تبدو عليه ، ولكنه عند الله

بهيمته قلبه وظنه الذى يظنُّ به ؛ وما هذا الجسمُ من القلب إلا كقشرة البيضة ^(١) مما تحتها . فيالها سخريه أن تزعم القشرة لنفسها أن بها هى الاعتبار عند الناس لا بما فيها ، إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هى ؛ ومن ثم تبعدُ فى حماقتها فتسأل : لماذا يرمينى الناس ولا يأكلوننى ... ؟

إن هذه الأخلاق الفاضلة فى هذا الإنسان لا تجد تمام معناها إلا فى حالة بعينها من أحوال القلب ، وهى حالة خشوعه على وصفها الذى شرحتة الآية الكريمة : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ »

فالأخلاق الفاضلة محدودة بالله والحق معاً ، وهى كلها فى خشوع القلب لهُذين ؛ فإن من القلب مخارج الحياة النفسية كلها .

قال الشيخ : وأنا منذ حفظتُ عن الحسن تأويل هذه الآية ، واستننتُ بها ، مضيتُ أعيشُ من الدنيا فى تاريخ قابى لافى تاريخ الدنيا ، وأدركتُ من يومئذٍ أن ليس حفظُ القرآن حفظَه فى العقل ، بل حفظَه فى العمل به ؛ فإن أنت أثبتَ الآية منه ، وكنتَ تعمل بغير معناها ، وتعيش فى غير فضيلاتها ، فهذا — ويحك — نسيانها لا حفظها . وقد كان قومنا الأولون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية ؛ فيها ورقها الأخضر وزهرها وثمرها ، وعلى ظاهرها حياة باطنها ، فلما ثبتَ الناسُ على الشكل وحده ، ولم يبالوا القلبَ وأحواله ، أصبحوا كالشجرة اليابسة ، عليها ورقها الجاف ، ليس فى بقائه ولا سقوطه طائل .

ما أصبحتُ ولا أمسيتُ منذ حفظتُ تفسير الآية إلا فى حياة منها ، وهذه الآية هى دلَّتْنى بمعانيها أن ليست الحياة الأرضية شيئاً إلا ثورة الحى على ظم

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القيقض بفتح القاف وسكون الياء ، والقشرة الداخلة الملتزقة بالياض تسمى الغرقى بكسر الغين والقاف .

نفسه ، يَسْتَكِفُّ عنها أكثر مما يَسْتَجِرُّ لها ، والناسُ من شقائهم على العكس ، يستجرون أكثر مما يستكفون ، وإنما السعيدُ مَنْ وَجَدَ كلماتٍ روحانيةً إلهيةً يعيشُ قلبه فيهن ، فذاك لا يعمل أعماله كما يأتي ويتفق ، بل يحذو على أصل ثابت في نفسه ، ويختار فيما يعمل أحسن ما يعمل ، ومن ثمَّ لا يكون جهاده مُرَاحمةً أو خضوعاً في سبيل الوجود كالحيوان ، بل في سبيل صِحَّة وجوده ؛ ولا يكون غرضه أن يُلَابِسَ الحياةَ كما تأخذه هي وتدعُّه ، بل أن يحيا في شرف الحياة على ما يأخذها هو ويدعُّها .

إن الشقاء في هذه الدنيا إنما يجرُّه على الإنسان أن يعمل في دفع الأحران عن نفسه بمقارفته الشهوات ، وبإحساسه غرور القلب ؛ وبهذا يُبعد الأحران عن نفسه ليجلبها على نفسه في صورٍ أخرى !

قال الشيخ : وكان مما حفظته من تفسير الحسن قوله :

إن كل كلمة في الآية تكاد تكون آية ، وليست الكلمة في القرآن كما تكون في غيره ، بل السَّمُوُّ فيها على الكلام ، أنها تحمل معنى ، وتوحي إلى معنى ، وتستتبع معنى ؛ وهذا ما ليس في الطاقة البشرية ، وهو الدليل على أنه « كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ » (١)

يقول الله تعالى : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ . »

« أَلَمْ يَأْنِ » هذه الكلمة حثٌّ ، وإطاعٌ ، وجدالٌ ، وحُجَّةٌ ؛ وهي في الآية

(١) طريقنا في اكتناه إيجاز القرآن ، أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة ؛ كما ترى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية ، وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت في المقالات الأخرى ؛ فالبحث في فهم القرآن يجب أن يكون في اللفظة ، ووجه اختيارها ، وسياق تركيبها ، وماتدل عليه في كل ذلك ، وما يدل كل ذلك بها . وقد بسطنا هذا في كتابنا إيجاز القرآن .

تُصرِّح أن خشوع القلب الذى تلك صفته هو كمال للإيمان ، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر ، وكيف يعرف المؤمن أنه (سيأتي) له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟ إذن فالكلمة صارخة تقول : الآن الآن قبل ألا يكون آن .
أى : البدار البدار ما دمت فى نفس من العمر ؛ فإن لحظة بعد (الآن) لا يضمها الحى . وإذا فنى وقت الإنسان انتهى زمن عمله فبقى الأبد كله على ما هو ؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذى يدرك الحقيقة ، إن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التى هى (الآن) . فانظر — ويحك — وقد جعل الأبد فى يدك ؛ انظر كيف تصنع به ؟

تلك هى حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره ، على كثرة المعانى .
ثم قال : « للذين آمنوا » وهذا كالتص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق ، فلا تقوم بهم الفضيلة ، ولا تستقيم بهم الشريعة ، وعالمهم وجاهلهم سواء ؛ لا يخشعان إلا للمادة ؛ وكأن إنسانهم إنسان ترائى ، لا يزال يضطرب على مكر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان : عيشه وموته ؛ وما تقسو الحياة قسوتها على الناس إلا بهم ، وما ترق رقتها إلا بالمؤمنين .

وجعل الخشوع للقلوب خاصة ، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم ، فهذا الأخير لا يكون خشوعاً ، بل ذلاً ، أو ضعةً ، أو رياءً ، أو نفاقاً ، أو ما كان .
أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصاً مخلصاً محض الإرادة .

واشترط « القلب » كأنه يقول : إنما القاب أساس المؤمن ، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره ، متى كان هذا القاب خاشعاً لله والحق . فإن لم يكن قلبه على تلك الحال ، نبع منه الفاسق والظالم الطاغية وكل ذى شر . ما أشبه القلب تنفرع منه معانى الخلق ، بالحبّة تنسرح منها الشجرة ؛ فخذ نفسك من قلبك كما شئت ؛ خلواً من خلواً ، ومراً من مراً .

وخشوعُ القلب لله وللحق ، معناه السموُّ فوق حب الذات ، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة ؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة ، ويجعلها في قانونين لا قانون واحد ؛ ومتى خضع القلب لله وللحق ، عَظُمَتْ فيه الصغائر من قوَّة إحساسه بها ، فيراها كبيرةً كبيرةً وإن غَمِيَ الناسُ عنها ، ويراها وهي بعيدةٌ منه بمثل عين العقاب : يكون في لُوحِ الجوّ ولا يغيب عن عينه ما في التُّرى .

وقد تخضع القلوب لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطغيان والقسوة ؛ فتقيّد خشوع القلب « بذكر الله » ، هو في نفسه نقيٌّ لعبادة الهوى ، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها . وما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إلهٌ ساعته . فيأما أحكم وأعجب قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن . » جعل نزع الإيمان موقوتاً « بالحين » الذي تُقترَفُ فيه المعصية ؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقيّ هو إله ذلك « الحين » .

والخشوعُ إما « نَزَلَ من الحق » هو في معناه نقيٌّ آخرٌ للكبرياء الإنسانية التي تُفسد على المرء كلّ حقيقة ، وتخرج به من كل قانون ؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته ، لا بمحدودها هي من الحقوق والفضائل .

ويخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية ، وإلزامها الخير والحق دون غيرها ، وقهرها للذات وشهواتها ، وجعلها الكبرياء الإنسانية كبرياءً على الدنايا والחסائس ، لا على الحقوق والفضائل ؛ وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة في النفس ، ومحو القوضى منها ، وجعل نظامها في إحساس القلب وحده ؛ فيحيي القلب في المؤمن حياة المعنى السامي ، ويكون نبضه علامة الحياة في ذاتها ، وخشوعه لله وللحق علامة الحياة في كمالها .

وقال : « ما نزل من الحق » كأنه يقول : إن هذا الحق لا يكون بطبيعته

ولا بطبيعة الإنسان أرضيًّا ، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرّره الناسُ بعضهم على بعض ، لم يجاوز في ارتفاعه رأسَ الإنسان ، وأفسدته العقول ؛ إذ كان الإنسان ظالمًا متمرّدًا بالطبيعة ، لا تحكمه من أول تاريخه إلا السماء ومعانيها ، وما كان شبيهًا بذلك مما يحبُّه من أعلى ؛ أي بالسلطان والقوة ؛ فيكون حقًّا « نازلًا » مُتدَفِّعًا كما يتصوّب الثقلُ من عالٍ ليس بينه وبين أن يتنفذَ شيء .

والخشوعُ لما نزل من الحق ينفى خشوعًا آخر هو الذي أفسد ذاتَ البين من الناس ، وهو الخشوعُ لما قام من المنفعة وانصرافُ القلب إليها بإيمان الطمع لا الحق .

وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقق العدلُ والنصفةُ بين الناس ؛ فيكون العدلُ في كل مؤمنٍ شعورًا قلبيًّا ، جاريًّا في الطبيعة لا مُتكلِّفًا من العقل ؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادةٌ ثابتة على الحق في كل طريق ، لا إرادةٌ لكل طريق ، وتستمرّ هذه الإرادةُ مُتسقةً في نظامها مع إرادة الله ، لا نافرةً منها ولا متمرّدةً عليها ؛ وهذا وذلك يُثبّت القلبَ مهما اختلفت عليه أحوالُ الدنيا ، فلا يكون من إيمانه إلا سُمُوهُ وقوَّتُهُ وثباتُهُ ، وينزل العمرُ عنده منزلةَ اللحظة الواحدة ، وما أيسرَ الصبرَ على لحظة ! ما أهونَ شرَّ « الآن » إن كان الخيرُ فيما بعده .

أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ؛ أَلَمْ يَأْنِ ...

قال الشيخ : وكان الحَسَنُ في معانيه الفاضلةِ هو هذه الآيةُ بعينها ؛ فما كانت حياته إلا إسلاميةً كهذا الكلام الأبيض المشرق الذي سمعته منه ؛ شعارُهُ أبدًا : « الآنَ قبلَ ألا يكونَ آن » وإمامُهُ : « خذْ نفسَكَ من قلبك » وطريقتهُ « شرفُ الحياة لا الحياةُ نفسها » .

وكان يرى هذه الحياةَ كوقعة الطائر ؛ هي عملُ جناحين مُستوفزين أبدًا

لعمل آخر هو الأقوى والأشدّ ، فلا ينزلان بطائرها على شيء إلا مطوّيين على
قدرة الارتفاع به ، ولا يكونان أبداً إلا هفّهما فين خفيفين على الطيران ؛ إذ كانا
في حكم الجوّ لا في حكم الأرض .

وآلة الوقوع والطيران بالإنسان شهواته ورغباته ؛ فإن حطّته شهوة لا ترفعه ،
فقد أوبقته وأهلكته وقذفت به ليؤخذ .

لقد روينا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لا يبلغ العبد أن يكون من
المتّقين حتى يدعّ مالا بأس به حذراً مما به بأس . » ، وهذا ضرب من خشوع
القلب المؤمن فيما يحلّ له : يدعّ أشياء كثيرة لا بأس عليه فيها لو أتاها ؛ ليقوى
على أن يدعّ ما فيه بأس ، فإن الذي يترك ما هو له يكون أقوى على ترك
ما ليس له .

والنفس لا بدّ راجعة يوماً إلى الآخرة ، وتاركة أداها ؛ فتقوم نظامها في
الحياة الصحيحة أن تكون كلّ يوم كأنها ذهبت إلى الآخرة وجاءت . وتلك
هي الحكمة فيما فرضته الشريعة الإسلامية من عبادة راتبة تكون جزءاً من عمل
الحياة في يومها وليلتها . فإذا لم تكن النفس في حياتها كأنها دائماً تذهب إلى
مصيرها وترجع منه ، طمسها الجسم وحبسها في إحدى الجهتين ، فلم يبق لها
فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوز النصح ، كاعتراض المقتول على قاتله : يحاول أن
يردّ السيف بكلمة ... ! وبذلك يتضاعف الجسم في قوته ، ويشدّ في صولاته ،
وينصرف في شهواته ، كأن له بطنين يجوعان معاً ... فتستهلك شهوات المرء دينه ،
وتقذف به يميناً وشمالاً ، على قصد وعلى غير قصد ، وتمضي به كما شاءت في مدرّجة
مدرّجة من الشرّ .

ومثل هذا المسرف على نفسه لا يكون تمييزه في الدين ، ولا إحساسه بالخير ،
إلا كذلك السكّير الذي زعموا أنه أراد التوبة ، وكانت له جرّتان من الخمر ،

فلما اتَّعَظَ وبلغ في النظر إلى نفسه وحظَّ إيمانه ، وأراد أن يطيعَ الله ويتوب .
نظر إلى الجرَّيين ثم قال : أتوبُ عن الشرب من هذه حتى تفرغَ هذه ... !

قال الشيخ : ثم إنى تبتُ على يد الحسن ، وأخلصتُ في التوبة وصَحَّحْتُهَا ،
وعلمتُ من فعله وقوله أن حقيقة الدِّين هي كبرياء النفس على شرِّها وظلمِها
وشهواتها ، وأن هذه الكبرياء القتالة للآثم ، هي في النفس أختُ الشجاعة القتالة
للعُدوِّ الباغي : يفخر البطلُ الشجاعُ بمبلغه من هذه ، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه
من تلك ؛ وأن خشوع القلب هو في معناه حقيقة هذه الكبرياء بعينها .
وحدثتُ الحسن يوماً حديثَ رؤيائ^(١) ، وما شبَّه لي من عملي السيِّء وعملي
الصالح ، فاستدَّمتُ عيناه ، وقال :

إن البنتَ الطاهرةَ هي جهادُ أبيها وأُمها في هذه الدنيا ، كالجهاد في سبيل
الله ، وإنها فوزٌ لهما في معركةٍ من الحياة ، يكونان هما والصبرُ والإيمانُ في
ناحية منها قَبِيلاً ، ويكون الشيطانُ والهَمُّ والحزنُ في الجهة المُنَاوِحَةِ قَبِيلاً آخر .
إن البنتَ هي أُمٌّ ودار ، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتهما وتأديتهما
وحياطتهما والصبرِ عليها واليقظة لها — كأنما يحمِلان الأحجارَ على ظَهرَيهما حجراً
حجراً ، لِيَبْتَتِيَا تلك الدارَ في يومٍ يومٍ إلى عشرين سنة أو أكثر ، ما صَحَبَتْهُ
وما بقيتُ في بيته .

فليس ينبغي أن ينظر الأبُ إلى بنته إلا على أنها بنتُهُ ، ثم أُمُّ أولادِها ، ثم
أُمُّ أحفادِها ؛ فهي بذلك أكبرُ من نفسها ، وحقُّها عليه أكبرُ من الحقِّ ، فيه
حُرْمَتها وحرمةُ الإنسانية معاً ؛ والأبُ في ذلك يُقرض الله إِحْسَاناً وحناناً
ورحمة ، فحقُّ على الله أن يُوفِّيَه من مثلهما ، وأن يُضَعِّفَ له .

(١) ذكرت الرويَا في القسم الأول من هذه المقالة .

والبنت ترى نفسها في بيت أهلها — ضعيفةً كالمقطعة وكالعالة ، وليس لها إلا الله ورحمة أبيها ؛ فإن رَحَمَها ، وأَكْرَمَها فوق الرحمة ، وسَرَّها فوق الكرامة ، وقاما بحق تَأْدِيبِها وتعليمها وتفقيها في الدين ، وحَفِظَها نفسها طاهرة كريمةً مسرورةً مؤدَّبةً — فقد وضعها بين يَدَيِ الله عملاً كاملاً من أعمالها الصالحة ، كما وضعاه بين يدي الإنسانية . فإذا صاروا إلى الله كان حقّاً لهما أن يجدا في الآخرة يميناً وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « من كان له ابنةٌ فَأَدَّبَهَا فَحَسَنَ تَأْدِيبِها ، وَغَذَّاهَا فَاحْسَنَ غِذَائِها ، وَأَسْبَغَ عَلَيْها مِنَ النِّعَةِ الَّتِي أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْهِ — كَانَتْ لَهُ مِئْمَنَةٌ وَمِيسِرَةٌ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ . »

فهذه ثلاثٌ لا بد منها معاً ، ولا تُجْزَى واحدةٌ عن واحدةٍ في ثواب البنت : تربيةٌ عقلها تربيةً إحساناً ، وتربيةٌ جسمها تربيةً إحساناً وإِطافاً ، وتربيةٌ روحها تربيةً إِكْراماً وإِطافاً وإِحساناً .

قال الشيخ : واللهُ أَرْحَمُ أَنْ تُضِيعَ عنده الرحمة ؛ واللهُ أَكْرَمُ أَنْ يُضِيعَ الإِحْسَانَ عنده ، واللهُ أَكْبَرُ ...
وهنا صاح المؤذّن : الله أَكْبَرُ .
فتبسّم الشيخ وقام إلى الصلاة .

الأجنبيّة

أَحَبَّهَا وَأَحَبَّتْهُ ، حتى ذهب بها في الحب مذهباً قالت له فيه : « لو جاءني قلبي في صورةٍ بشريّة لأراه كما أَحِسُّهُ ، لما اختار غيرَ صورتك أنت في رقتك وعطفك وحنانك . » وحتى ذهبت به في الحب مذهباً قال لها فيه : « إن الجنة لا تكون أبدعَ فناً ، ولا أحسنَ جمالاً ، ولا أكثرَ إمتاعاً — لو خلقت امرأةً يهواها رجل — إلا أن تكون هي أنت ! » فقالت له : « ويكون هو أنت ... ! » وتدلّاه فيهِ ، حتى كأنما خلّبها عقلها ووضع لها عقلاً من هواه ؛ فكانت تقول له فيما تبثّه من ذاتِ نفسها : « إن حبّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتَبَرِّئَةً من أنها إرادة ، مُقَرَّرَةً أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر ، مُذْعَنَةً أنها قد سلّمت كبرياءها لهذا الحبيب ، لتراه في قوته ذا كبرياءين . »

وافتنن بها حتى أخذت منه كلّ ما أخذ ، فملاّت نفسه بأشياء ، وملاّت عينه من أشياء ؛ فكان يقول لها في نجواه : « إني أرى الزمن قد انتسخ مما بيني وبينك ، فإنما نحن بالحب في زمنٍ من نفسينا العاشقتين ، لا يُسَمَّى الوقت ولكن يُسَمَّى السرور ؛ وإنما نعيشُ في أيامِ قلبيّةٍ ، لا تدلّ على أوقاتها الساعه بدقائقها وثوانها ، ولكن السعادةُ بمحقاتها ولذاتها . »

وتحاطباً ذلك الحبّ الفَنَى العجيب ، الذي يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يفيضُ وينسكب ، وهو مع ذلك لا يَبْرَحُ يطلبُ الزيادة ، ليتخيّل من لذتها ما يتخيّل السكّيرُ في نشوته إذا طَفَحَتِ الكأس ، فيرى بعينه أنها ستسمع لأكثر مما امتلاّت به ، فيكون له بالكأس وزاداتها ، سُكْرُ الخمرِ وسُكْرُ الوهم . تحاطباً ذلك الحبّ الفَوَّارَ في الدم ، كأن فيه من دَوْرته طبيعة الفراق والتلاق

بغير تلاق ولا فراق ؛ فيكونان معاً في مجلسهما العزليّ ، جنبه إلى جنبها وفأها إلى فيه ^(١) وكأنا هربت ثم أدركها ، وكأنا فرت ثم أمسكها . وبين القُبلة والقُبلة هجران وصلح ، وبين اللَّقمة واللَّقمة غضبٌ ورضى .

وهذا ضربٌ من الحب يكون في بعض الطبائع الشاذة المسرفة ، التي أفردت عليها الحياة إفراطها فيكلف الحيوانية بالإنسانية ، ويجعل الرجل والمرأة كـ بعض الأحماض الكيماوية مع بعضها ؛ لا تلتقي إلا لـتمازج ، ولا تـتـمازج إلا لـتـتحد ، ولا تتحد إلا لـيـتـلـع وجود هذا وجودَ ذاك .

وضرب الدهر من ضرباته في أحداث وأحداث ؛ فأبعثته وأبعثها ، وفسدت ذات بينهما ، وأدبر منها ما كان مُقبلاً ؛ فوثب كلاهما من وجود الآخر وثبة فزع هارباً على وجهه . أما هو فسخطها لعيوب نفسها ، وأما هي ... وأما هي فتكرهته لحاسن غيره !

وانسربت أيام ذلك الحب في مساريها تحت الزمن العميق الذي طوى ولا يزال يطوى ولا يبرح بعد ذلك يطوى ؛ كما يغور الماء في طباق الأرض . فأصبح الرجل المسكين وقد نزلت تلك الأيام من نفسه منزلة أقارب وأصدقاء وأحباء ماتوا بعضهم وراء بعض ، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فكروه ، فكانوا له مادة حسرة ولهفة . أما هي ... أما هي فانشق الزمن في فكرها برجة زلزلة ، وابتلع تلك الأيام ثم التأم ... !

فحدثنا « الدكتور محمد » رئيس جماعة الطلبة المصريين في مدينة ... بفرنسا ، قال : وانتهى إلى أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة ، وأنه قادم من مصر ،

(١) تأويل هذا في باب (الحال) عند ظرفاء النحويين : متلاصقين متعاقبين .

فتخَالَجَنِي الشوقُ إِلَيْهِ ، وَنَزَعَتْ إِلَى لِقَائِهِ نَفْسِي ، وما بَيْنَنَا إِلَّا مَعْرِفَتِي أَنَّهُ مِصْرِيٌّ قَدِمَ مِنْ مِصْرَ ؛ وَخِيلَ إِلَيَّ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِمَّا اهْتَبَأَنِي مِنَ الْخَيْنِ إِلَى بِلَادِي الْعَزِيزَةِ ، أَن لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ مِصْرَ إِلَّا شَارِعَانِ أَقْطَعُهُمَا فِي دَقَائِقَ ؛ خَفَفْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَى مَثْوَاهِ ، كَمَا يَصْنَعُ الطَّيْرُ إِذَا تَرَامَى إِلَى عَشِّهِ فَاثْبَدَرَهُ مِنْ قَطْرِ الْجَوْ .

قال : وَأَصْبَتْهُ وَاجِمًا يعلوه الحزن ، فَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِ ، فَمَا أَسْرَعَ مَا مَلَأَ مِنْ نَفْسِي وَمَا مَلَأَتْ مِنْ نَفْسِهِ . وَكَمَا يَمُحِي الزَّمَانُ بَيْنَ الْحَبِيبَيْنِ إِذَا التَّقْيَا بَعْدَ فَرْقَةٍ — يَتَلَاشَى الْمَسْكُونُ بَيْنَ أَهْلِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَاقَوْا فِي الْغُرْبَةِ . فَذَابَتْ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا ، كَأَن لَمْ تَكُنْ شَيْئًا ؛ وَتَجَلَّى سِحْرُ مِصْرَ فِي أَقْوَى سَطَوَاتِهِ وَأَشَدِّهَا فَاحْذَنَا كَلِمَنَا ، فَمَا اسْتَشَعَرْنَا سَاعَتَئِذٍ إِلَّا أَنَّ أَوْرُوبَا الْعَظِيمَةَ كَأَنَّمَا كَانَتْ مَرْسُومَةً عَلَى وَرْقَةٍ ، فَطَوَيْنَاهَا وَأَحْلَلْنَا مِصْرَ فِي مَحَلِّهَا .

وَطَعَنِي عَلَيْنَا نَارُ عِطْرِ الطَّرْبِ طُغْيَانًا شَدِيدًا ، فَأَرْسَلْتُ مِنْ يَجْمَعُ الْإِخْوَانَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَاخْتَرْتُ لَدُنْكَ صَدِيقًا شَاعِرَ الْفُطْرَةِ ، فَزَا بِهِ الطَّرْبُ ، فَكَانَ يَدْعُوهُمْ وَكَأَنَّهُ يُؤَدِّنُ فِيهِمْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ . وَجَاءُوا بِهَرَوَلُونِ هَرَوَلَةَ الْحَبِيبِجِ ، فَلَوْ نَطَقَتْ الْأَرْضُ الْفَرَنْسِيَّةُ الَّتِي مَشَوْا عَلَيْهَا تِلْكَ الْمَشِيَّةَ لَقَالَتْ : هَذِهِ وَطْأَةُ أَسْوَدٍ تَتَخَيَّلُ خِيَلَاءَهَا مِنْ بَغْيِ النَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ .

أَلَا مَا أَعْظَمَكَ يَا مِصْرَ ، وَمَا أَعْظَمَ تَعَمُّتَكَ فِي هَذَا السِّحْرِ الْفَاتِنِ ! أَيْنَبُحِي أَنْ يَغْتَرِبَ كُلُّ أَهْلِكَ حَتَّى يَدْرِكُوا مَعْنَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الْعَظِيمِ : « مِصْرُ كِنَانَةِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ . » فَيَعْرِفُوا أَنَّكَ مِنْ عِزَّتِكَ مَعْلَقَةٌ فِي هَذَا الْكَوْنِ تَعْلِيقَ السَّكَنَانَةِ فِي دَارِ الْبَطْلِ الْأَرْوَعِ ؟

قال « الدكتور محمد » : واجتمعنا في الدار التي أنزلُ فيها ، فراع ذلك صاحبة

مُشَوًى^(١) ، فقلت لها : إن ههنا ليلةٌ مصريةً ستحتلُّ ليلتكم هذه في مدينتكم هذه ، فلا تجزَعوا . ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهد كيف تستعِنُ الروحُ المصريةُ الاجتماعيةَ برقَّتها وظرفها وحماستها ، وكيف تفسِّرُ هذه الروحُ المصريةُ كلَّ جميلٍ من الأشياء الجميلة بشوقٍ من أشواقها الحنَّانة ، وكيف تكون هذه الروحُ في جوِّ موسيقيَّتها الطبيعية حين تُناجِي أحبَّاءها ، فيجِيءُ حديثُها بطبيعته كأنه دِيابِجَةٌ شاعريٌّ في صفائها وحلاوتها ورنينِ ألفاظها ؟

وقالت السيدة الطريفة : يا لها سعادة ! سألتُكِ زينتي ، وأُصلح من شأنِي ، وأكون بعد خمس دقائق في مصر !

قال الدكتور : وأخذنا في شأننا ، وكان معنا طالبٌ حسنُ الصوت ، فقام إلى البيانة^(٢) وغنَّى مقطوعة « طقطوقة » مصرية من هذه المقاطيع التي تَطْقُقُ فيها النفس ، فجعل يَطلُّ صوتهُ بآه ، وآه ، ودارَ اللحنُ دورةً تأوَّهَتْ فيها الكلماتُ كلها . ثم اعتَوَرَ البيانةَ طالبٌ آخرُ فما شدَّ عن هذه السنَّة ، وكان بعد الأول كالنائحة تجاوبُ النائحة ! فالت على السيدة الفرنسية وأسْرَتْ إلى : أهاتان امرأتان أم رجلان ... ؟ فقلت لها : إن هذا لحنٌ تاريخي ذو مقطوعتين ، كانت تتطَّارَحُه كيلوباترة وأنطونيو ، وأنطونيو وكيلوباترة ... فأعجبت المرأةُ أشدَّ الإعجاب ، وأكبرتُ من هذا الذوق المصريَّ أن نكرمها لوجودها في مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة ، وطربت لذلك أشدَّ الطرب ، ومَدَّ كُها غرُور المرأة ، فجعلت تستعيد : « يا لوعتي ، يا شقاي ، يا ضنِّي حالي ... » ونقول : ما كان أرقَّ كيلوباترة ! ما كان أرقَّ أنطونيو ! يا لَفْتِنَةَ الحب الماسكي ... !

قال « الدكتور محمد » : ثم خجلتُ والله من هذا الكلام الخنث ، ومن

(١) صاحبة المشوى هي ربة البيت الذي ينزل فيه الضيف ومن كان في حكمه ، يقول العربي : من كانت صاحبة مشواك ؟ فتطلق على صاحبة البنسيون .

(٢) البيانة : كلمة استعملناها في كتابنا (السحاب الأحمر) للبانو ، وتجمع على بيانات .

تلفيقى الذى لفته للمرأة الخدوعة ؛ فانتفضت انتفاضة من يملؤه الغضب ، وقد حمى دمه ، وفى يده السيف الباتر ، وأمامه العدو الوقح ؛ وثرّت إلى البيانة فأجريت عليها أصابعى ، وكان فى يديّ عشرة شياطين لا عشر أصابع ، ودوى فى المكان لحنٌ : « اسلمى يا مصر » ، وجلجل كالرعد فى قبة الدنيا ، تحت طباق الغيم ، بين شرار البرق . فكأنا تزلزل المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً ، وصرخ أجدادنا يزأرون من أعماق التاريخ : « اسلمى يا مصر . . . »^(١)

ولما قطعتُ التفثُ إليها فى كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها ، وقلت لها : هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين .

ثم راجعنا صاحبنا الضيف ، وأحقيناه بالمسألة ، فقال بعد أن دافعنا طويلاً : إنه يحسن شيئاً من الموسيقى ، وإن له لحناً سيطارحنا به لناخذه عنه . فطربنا بلحنه قبل أن نسمعه ، وقلنا له : افعل متفضلاً مشكوراً . ومازلنا حتى نهض متثاقلاً ، فجلس إلى البيانة وأطرق شيئاً ، كأنه يسوى أوتاراً فى قلبه ، ثم دقّ يتشاجى بهذا الصوت :

أضاع غدى من كان فى يده غدى وحطمتى من كان يجهد فى سبكى !
فإن كنت لا آسى لنفسى فمن إذن ؟ وإن كنت لا أبكى لنفسى فمن يبكى ؟^(٢)

قال « الدكتور محمد » : فكان الغناء يعتلج فى قلبه اعتلاجاً ، وكانت نفسه تبكى فيه بكاءها وتغص من غصتها ، وكان فى الصوت فكرراً حزيناً يستعان فى همٍّ موسيقيٍّ ؛ وخيل إلينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تطارح هذا الرجل عواطفها وأحزانها ، فاجتمع من صوتهما أكل صوت إنسانى وأجمله وأشجاء وأرقه .

(١) هذا هو النشيد الذى وضعناه على لسان سعد باشا زغلول ، وهو اليوم النشيد الوطنى لصر كلها ، يحفظه جميع الطلبة ، والكشافة ، والأندية الرياضية ، وغيرها .

(٢) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة ، وكل هذه القصة من أبطال . . . !

فأطفئنا به وقلنا له : لقد كتمتتنا نفسك حتى نَمَّ عليها ما سمعنا ، وما هذا بغناء ،
ولكنه همومٌ مُلَحَّنَةٌ تلحيناً ، فلن ندعك أو نُخَبِّرَنَّ ما كان شأنك وشأنها .
فاعتلَّ علينا ودافعنا جهده ، فقلنا له : هيهات ؛ والله لن نُفْلِتَكَ وقد صرتَ
في أيدينا ، وإنك ما تزيدُ على أن تَعِظُنَا بهذه القصة ؛ فإن أمسكتَ عنها فقد
أمسكتَ عن موعظتنا ، وإن بخلتَ فما بخلتَ بقصتك بل بعلمٍ من علم الحياة
نُفِيدُهُ منك ؛ وأنت ترانا نعيش ها هنا في اجتماعٍ فاسدٍ كله قِصَصٌ قَلْبِيَّةٌ ، بين
نساءٍ لا يَلْبَسْنَ إلا ما يُعَرِّى جِمالهن ، وفي رجالٍ أفرطت عليهم الحرية ، حتى
دخل فيها مُخَدِّعُ الزوجة . . . !

قال الدكتور : ونظرتُ فإذا الرجل كاسِفٌ قد تَغَيَّرَ لونه ، وَتَبَيَّنَ الانكسارُ
في وجهه ، فَأَلَمَّتْ بما في نفسه ، وعلمتُ أنه قد دُهِيَ في زوجةٍ من هؤلاء
الأوربيات ، اللواتي يتزوَّجن على أن يكونَ مخدَعُ المرأةِ منهن خُرّاً أن يأخذَ
وَيَدَعَ ، وَيُغَيِّرَ وَيَبْدِلَ ، وَيَقْسِمَ كلمةَ « زوج » قسمين وثلاثةً وأربعةً وما شاء ..
وكأنما مَسَسْتُ البارودَ بتلك الشرارة ، فانفجرتُ نفسُ الرجل عن قصةٍ
ما أفضَّعها !

قال : يا إخواني المصريين ، قبل أن أُنْقِضَ لكم ذلك الخبر ، أُسَدِّيكُم هذه
النصيحةَ التي لم يَصْعَمَها مؤلفٌ تاريخي لسوء الحظِّ ، إلا في الفصل الأخير من
روايةٍ شقائي :

إياكم إياكم أن تَعْتَرُوا بمعاني المرأة ، تحسبونها معاني الزوجة ؛ وفرِّقوا
بين الزوجة بخصائصها ، وبين المرأة بمعانيها ؛ فإن في كل زوجةٍ امرأة ، ولكن
ليس في كل امرأةٍ زوجة .

واعلموا أن المرأة في أوثقها وفنونها النسائية الفردية ، كهذا السحاب الملوّن

فى الشَّفَق حين يبدو ؛ له وقتٌ محدود ثم يُمَسَّحُ مَسْحًا ؛ ولكنَّ الزوجة فى نِسائيتها الاجتماعية كالشمس ؛ قد يحجبها ذلك السحاب ، بيد أن البقاء لها وحدها ، والاعتبار لها وحدها ، ولها وحدها الوقت كله .

لا تتزوجوا يا إخوانى المصريين بأجنبية ؛ إن أجنبيةً يتزوج بها مصرى ، هى مُسَدَّسٌ جِرائِمٍ فيه سِتُّ قذائف :

الأولى : بَوَارُ امرأةٍ مصريةٍ وضياعها بضائع حقها فى هذا الزوج ؛ وتلك جريمةٌ وطنية . فهذه واحدة .

والثانية : إتهام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا — فى هذا الاجتماع الشرق ، وتوهينها بها وصدعها ؛ وهى جريمةٌ أخلاقية .

والثالثة : دَسُّ العُرُوقِ الزائفةِ فى دماءنا ونسَلِنا ؛ وهى جريمةٌ اجتماعية .

والرابعة : التمكنُ للأجنبى فى بيتٍ من بيوتنا ، يملكه ويحكمه ويُصَرِّفه على ما شاء ؛ وهى جريمةٌ سياسية .

والخامسة : المُسَلِّمُ منا إيثاره غير أخته المسلمة ، ثم تحكميمه الهوى فى الدين ، ما يعجبُه وما لا يعجبُه ؛ ثم إلقاؤه السمَّ الدينى فى تَبْعِ ذرِيَّتِهِ المقبلة ، ثم صَيَّرَ وَرَثَتَهُ خِزْيًا لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهم سَبَايا ، ويجعلونهم فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد الزوجة ؛ فأخذته هى رقيقًا لها ، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد^(١) وهذه جريمةٌ دينية .

والسادسة : بعد ذلك كله ، أن هذا المسكين يُؤَثِّرُ أسفله على أعلاه ولا يُبالى فى ذلك خمسَ جِرائِمٍ فظيعة .
وهذه السادسة جريمةٌ إنسانية !

(١) يريد : بعد عشيقها .

ما كنتُ أحسبُ يا إخواني ، وقد رجعتُ بزوجتي الأوربية إلى مصر ،
أنى أحضرتُ معي من أوربا آلة تصنع أحزاني ومصائبى ! ولم يكن وَعْظَانِي أَحَدُ
بِمَا أُعْظِمُ بِهِ الْآنَ ، وَلَا تَنْبَهْتُ بِذِكْرِي إِلَى أَنَّ الزَّوْجَةَ الْأَجْنِبِيَّةَ تُثَبِّتُ لِي
غُرْبِي فِي بِلَادِي ! وَتُثَبِّتُ عَلَيَّ أَنِي غَيْرُ وَطَنِي أَوْ غَيْرُ تَأَمِّ الْوَطَنِيَّةِ ، ثُمَّ تَكُونُ
مِنِي حِمَاةً تُثَبِّتُ لِلنَّاسِ أَنِي أَحَقُّ فِيمَا اخْتَرْتُ ؛ ثُمَّ تَعُوذُ مُشْكَاةً دَوْلِيَّةً فِي بَيْتِي ،
يُزَوِّرُهَا أَبْنَاءُ جَنْسِهَا وَيَسْتَزِيرُونَهَا رَغْمَ أَنْفِي وَفِي وَجْهِ كُلِّهِ ! وَيَسْتَطِيلُونَ
بِالْحِمَاةِ ، وَيَسْتَتِرُونَ بِالْأَمْتِيَّاتِ ، وَيَرْفَعُونَ سِتَارًا عَنْ فَصْلِ ، وَيُرْخُونَ سِتَارًا
عَلَى فَصْلِ ... وَأَنَا وَحْدِي أَشْهَدُ الرِّوَايَةَ ... !

إِنَّ الشَّيْطَانَ فِي أَوْرْبَا شَيْطَانٌ عَالِمٌ مُخْتَرَعٌ . فَقَدْ زَيْنَ لِي مِنْ تِلْكَ الزَّوْجَةِ
ثَلَاثَ نِسَاءٍ مَعًا : زَوْجَةً عَقْلِيَّةً ، وَزَوْجَةً قَلْبِيَّةً ، وَزَوْجَةً نَفْسِيَّةً ؛ ثُمَّ نَفَثَ اللَّعِينُ
فِي رُوعِي أَنَّ الْمَرْأَةَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَتْ مِنْ هَؤُلَاءِ
الثَّلَاثِ وَلَا وَاحِدَةٌ . قَالَ الْخَبِيثُ : لِأَنَّهَا زَوْجَةُ الْجِسْمِ وَحْدَهُ ، فَلَا تَسْمُو إِلَى
الْعَقْلِ ، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْقَلْبِ ، وَلَا تَمْتَزِجُ بِالنَّفْسِ ؛ وَأَنَّهَا بِذَلِكَ جَاهِلَةٌ ، غَلِيظَةُ
الْحَسَنِ ، خَسِئَةُ الطَّمَعِ ، لَا تَكُونُ مَعَ الْمَصْرِيِّ إِلَّا كَمَا تَكُونُ الْأَرْضُ الْمِصْرِيَّةُ
مَعَ فَلَاحِهَا ...

لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ الْعَالِمِ الْمُخْتَرَعِ ! مَا عَلِمْتُ إِلَّا مِنْ بَعْدُ
أَنَّ هَذِهِ الشَّرْقِيَّةَ الْجَاهِلَةَ الْخَسِئَةَ الْجَافِيَّةَ ، هِيَ كَالْمُنْجَمِ الَّذِي تَبْرُهُ فِي تَرَابِهِ ، وَمَا سَهُ
فِي فَحْمِهِ ، وَجَوْهَرُهُ فِي مَعْدَنِهِ ؛ وَأَنَّ صَعُوبَتَهَا مِنْ صَعُوبَةِ الْعَقَّةِ الْمَمْتَنِعَةِ ، وَأَنَّ
خَشَوَتَهَا مِنْ خَشَوَةِ الْحُبِّ الْمَعْتَرِّ بِنَفْسِهِ ، وَأَنَّ جَفَاءَهَا مِنْ جَفَاءِ الدِّينِ الْمَتَسَامِحِ
عَلَى الْمَادَّةِ ؛ وَأَنَّهَا بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ كَانَتْ لَهَا الصَّبْرُ الَّذِي لَا يَدْخُلُهُ الْعِجْزُ ، وَكَانَتْ لَهَا
الْوَفَاءُ الَّذِي لَا تَلْجَأُ الشُّبْهَةَ ، وَكَانَتْ لَهَا الْإِيثَارُ الَّذِي لَا يُفْسِدُهُ الطَّمَعُ .
هِيَ جَاهِلَةٌ ، وَلَهَا عَقْلُ الْحَيَاةِ فِي دَارِهَا ؛ وَغَلِيظَةُ الْحَسَنِ ، وَلَهَا أَرْقُ مَا فِي الزَّوْجَةِ

الزوجة
الشرقية
الجاهلة
الخسيسة
الجافية

لزوجها وحده ؛ وخَشِينَةُ الطبع ؛ لأنها تنزّه أن تكون مملّساً ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك ... لا كامرأة الحب الأوربيّة ، التي تجعل نفسها أنثى الفن ، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرق من التفضيل والإيثار والإجلال والإباحة — فى كلمة « أنا » قبل كلمة « أنت » ... امرأة أنشأتها الحرب العظمى بأخلاقٍ مُحَرَّبَةٍ مُدَمَّرَةٍ تنفجرُ بين الوقت والوقت .

عندنا يا إخوانى تعدّد الزوجات ، يتهمونها به من عمى وجهل وسخافة . انظروا ، هل هو إلا إعلانٌ لشرعيّة الرجولة والأنوثة ، ودينية الحياة الزوجية فى أى أشكالها ؛ وهل هو إلا إعلانٌ بطوالة الرجل الشرقى الأنوف الغيور ، أن الزوجة تعدّد عند الرجل ولكن ... ولكن ليس كما يقع فى أوربا من أن الزوج تعدّد عند المرأة ... !

يتهمونها بتعدّد المرأة على أن تكونَ زوجةً لها حقوقها وواجباتها — بقوة الشرع والقانون — نافذةً مُؤدّاة ؛ ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خالصةً مخادعةً ليس لها حقّ على أحد ، ولا واجبٌ من أحد ، بل هى تتقادّفها الحياة من رجل إلى رجل ، كالسكّير يتقادّفه الشارع من جدار إلى جدار .

لعنةُ الله على شيطان المدنية العالم المخترع الخنث ، الذى يجعل المرأة الأوربيّة بعد أن يتزوجها الرجل الشرقى ، أصابع « أوتوماتيكية » ، ما أسرع ما تمتد فى نزوة من حماقتها إلى رجلها بالمسدّس ، فإذا الرصاصُ والقَتْلُ ؛ وما أسرع ما تمتد فى نزوة من عواطفها إلى عاشقها بفتح الدار ، فإذا الخيانة والعُهر ! ماذا تتوقعون يا إخوانى من تلك الرقيقة الناعمة ، المُنَانثة بكل ما فيها أنوثةً تنكفى رجلاً لا رجلاً واحداً ، وقد ضعفت روحية الأسرة فى رأيها ، وابتدأت الروحية فى مجتمعيها ابتداءً ، فأصبح عندها الزواجُ للزواج على إطلاقه ، لا لتكون امرأة واحدة لرجل واحد مقصورةً عليه ؛ وبذلك عاد الزواجُ حقّاً فى جسم

المرأة دون قلبها وروحها ؛ فإن كان الزوجُ مشمُوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رجلاً قلبها — فعليه أن يدعَ لها الحرية لتختارَ زوجَ قلبها . . . ! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعى بمنزلة المرأة مع فاسق ؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعى . . . ! وإن كان الرجل منحوساً مخيّباً ، وكان قد بلغَ إلى قلبها زمناً ثم مله قلبها — فعليه أن يدعَ لها الحرية لتتنقل وتلدّ بلذات الهوى ، ويقولَ لها : شأنكِ بمن أحببتِ ! فإن هذا المنحوس المخيّب ليس عندها إنساناً ، ولكنه رواية إنسانية انتهى الفصلُ الجميل منها بمناظره الجميلة ، وبدأ فصلٌ آخرُ بحوادثٍ غير تلك . فلمن يشهدُ الروايةَ أن يتبرّمَ ما شاء ، ويستنقل كما يشاء ، ومتى شاء انصرف من الباب . . . !

امرأةُ هذه المدنية هي امرأةُ العاطفة ؛ تتعلق باللفظ حين تُلْسِسُه العاطفةُ من زينتها ، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معاني العقل ، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة .

تقوى العاطفة فتجىء بها إلى رجل ، ثم تقوى الثانية فتذهبُ بها مع رجل آخر . . . ! وتقيّد نفسها إن شاءت ، وتُسرح نفسها إن شاءت ؛ وما بُدّ من أن تبُلّوا الحياةَ كما يبلوها الرجلُ وأن تخوضَ في مشاكلكها ؛ وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلكها . . . ! ولا مندوحةَ من أن تتولّى شأنَ نفسها بنفسها ، فإذا خاست أو غدرت فكلُّ ذلك عندها من أحكام نفسها ، وكلُّ ذلك رأيٌ وحقٌّ ، إذ كان محورُها الذى تدورُ عليه هو عاطفتها وحريةُ هذه العاطفة ، فمن هذا يقرّر لها خطتها ، ويُملى عليها واجباتها ، ويُرَوّر لها الأسماء على إرادته دون إرادتها ، فيسمى لها نكده قلبها باسم فضيلة المرأة ، وحرمانَ عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة ؟

ومنذا خوّله الحقّ أن يقرّر وأن يُملى ؟

وهذا الشرقي العتيق المأفون الذي قبلها سافرة لا تعرف رُوحها ولا جسدها
الحجاب ؛ ما باله يريد أن يضرب الحجاب على عاطقتها ، ويتركها محبوسة في
شرفه وحقوقه وواجباته ، وإن لم تكن محبوبة في الدار ؟

ما علمت يا إخواني إلا من بعد ، أن الزوجة الغربية قد تكون مع زوجها
الشرق كالسائحة مع دليلها . هيهات هيهات ، إنه إن يمسكها عليه ، ولن
يُكرِّهها على الوفاء له ، إلا أن تكون خُتالة يزهد فيها حتى ذبابُ الناس ؛
فيأسها هو يجعل هذا المسكين مطمَّعها ، وهي مع ذلك لو خلطتة بنفسها لبقيت
منها ناحية لا تختلط ، إذ ترى أُمته دون أُمها ، وجنسه دون جنسها ؛ فما تسب
أُمَّة زوجها وبلاده بأقبح من هذا !

أما والله إن الرجل الشرق حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بالألوان
الأنثى ... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته ! وقد يكون
هناك ما يشدُّ ، ولكن هذه هي القاعدة .

أما قصتي يا إخواني

قال الدكتور محمد : قد حكيتها « يرحمك الله » .

لحوم البحر

لكنما والله قد تمدد على سيف البحر في اسكندرية شيطان مارد من
شياطين ما بين الرجل والمرأة ، يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها . . .
وقد امتلأ به الزمان والمكان ؛ فهو يرعش ذلك الرمل بذلك الهواء رعدة
أعصاب حية ؛ ويرسل في الجو نفحات من جرأة الحجر في شاربها ثار فعربد ،
ويطلع الشمس للأعين في منظر حسناء عريانة ألفت ثيابها وحياءها معاً ؛
ويرخي الليل ليغطي به المغازي التي خجل النهار أن تكون فيه .

ولعمري إن لم يكن هو هذا المارد ، ما أحسبه إلا الشيطان الخبيث الذي
ابتدع فكرة عرض الآثام مكشوفة في أجسامها تحت عين التقي والفاجر ،
لتعمل عملها في الطباع والأخلاق ؛ فسوّل للنساء والرجال أن ذلك الشاطئ علاج
الملل من الحر والتعب ، حتى إذا اجتمعوا ، فتقاربوا ، فتشابكوا ، سوّل لهم الأخرى
أن الشاطئ هو كذلك علاج الملل من الفضيلة والدين !

وإن لم يكن اللعينان فهو الرجيم الثالث ، ذلك الذي تألى أن يفسد
الآداب الإنسانية كلها بفساد خلق واحد ، هو حياء المرأة ؛ فبدأ يكشفها للرجال
من وجهها ، ولكنه استمر يكشف ... وكانت تظنه نزع حجابها فإذا هو أول
عريها ... وزادت المرأة ، ولكن بما زاد فجور الرجال ؛ ونقصت ، ولكن بما
نقص فضائلهم ؛ وتغيرت الدنيا وفسدت الطباع ؛ فإذا تلك المرأة ممن يقرؤها على

تَبَدَّلَهَا بَيْنَ رَجُلَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهَا : رَجُلٍ فَجَرَ ، وَرَجُلٍ تَخَشَّتْ ...

هناك فكرة من شريعة الطبيعة هي عقل البحر في هؤلاء الناس ، وعقل هؤلاء الناس في البحر ؛ إذا أنت اعترضتها فتبينتها فتعقبتها ، رأيتها بلاغة من بلاغة الشيطان في تزيينه وتطويعه ، وأصبت فكره مستقرا فيها استقرار المعنى في عبارته ، أخذاً بمدخلها ومخرجها . وما كان الشيطان عيياً ولا غيباً ، بل هو أذكى شعراء الكون في خياله ، وأبلغهم في فطنته ، وأدقهم في منطقته ، وأقدرهم على الفتنة والسحر ؛ وبتمامه في هذا كله كان شيطانا لم تسعه الجنة إذ ليس فيها النار ، ولم ترضه الرحمة إذ ليس معها الغضب ، ولم يعجبه الخضوع الملائكي إذ ليس فيه الكبرياء ، ولم يخلص إلى الحقيقة إذ لا تحمل الحقيقة شعر أحلامه .

وما أتى الشيطان أحداً ، ولا وسوس في قلب ، ولا سَوَّلَ لنفس ، ولا أغوى من يُغويه — إلا بأسلوب شعري مُلتبسٍ دقيقٍ ، يجعل المرء يعتقد أن أطراح العقل ساعة هو عقل الساعة ، ويُفسد برهانه مهما كان قوياً ؛ إذ يرتدُّ به من النفس إلى أخيلة لا تقبل البرهانات ، ويقطع حجته مهما كانت دامغة ؛ إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق .

فكرة من شريعة الطبيعة ، ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدرى ، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدرى ؛ وما كانت الشرائع الإلهية والوضعية إلا لإقرار العقل في شريعة الطبيعة كي تكون إنسانية لإنسانها كما هي الحيوانية لحيوانها ، وليجد الإنسان ما يحفظ به نفسه من نفسه التي هي دائماً فوضى ، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائماً فوضى ...

وبالشرائع والآداب استطاع الإنسان أن يضع لكامة الطبيعة النافذة عليه

جواباً ، وأن يرى في هذه الطبيعة أثرَ جوابه ؛ فكلمتها هي : أيها الإنسان ، أنت خاضعٌ لي بالحيوانى فيك . وكلُّته هو : أيتها الطبيعة ، وأنت لي خاضعة بالإلهى فيّ .

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنية التي نظمها الشيطانُ على رمل الشاطئ في اسكندرية ؛ وقد نقلتها أترجمها فصلاً بعد فصل عن تلك الأجسام عارية وكاسية ، وعن معانيها مكشوفة ومغطاة ، وعن طباعها بريئة ومتهمة ، حتى اتَّسَقَت الترجمة على ما ترى :

قال الشيطان :

« ألا إن البهيمَةَ والعقليةَ في هذا الإنسان ؛ مجموعهما شيطانية ...
ألا وإنه ما من شيء جميلٍ أو عظيمٍ إلا وفيه معنى السخرية به .
هنا تعرّى المرأة من ثوبها ، فتتعري من فضيلتها .
هنا يخلعُ الرجلُ ثوبه ، ثم يعودُ إليه فيلبسُ فيه الأدبَ الذى خالعه ...
رؤية الرجلِ لحمَ المرأةِ المحرّمةِ نظراً بالعين والعاطفة .
يرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقرُ إلى لحم الصيد .
ونظراً المرأةِ لحمَ الرجلِ رؤيةً فكرياً فقط ...
تحوّلُ بصرها أو تخفيضه ، وهى من قلبها تنظر ...
يا لحومَ البحر ! سلخك من ثيابك جزّار ...

« يا لحومَ البحر ! سلخك جزّار من ثيابك .
جزّار لا يذبح بألم ولكن بلذّة ...
ولا يحزُّ بالسكين ولكن بالعاطفة ...
ولا يُميت الحى إلا موتاً أدبياً ...

إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء .
 فهنا تلتحم نوااميس الطبيعة ونوااميس الأخلاق .
 للطبيعة أسلحة العُرى ، والمخالطة ، والنظر ، والأنس ، والتضاحك ،
 ونزوع المعنى إلى المعنى ...

وللأخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدّى ؛ وسلاح من الحياء مكسور !
 يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار ...

« الشاطىء كبير كبير ، يسع الآلاف والآلاف .
 ولكنه للرجل والمرأة صغير صغير ، حتى لا يكون إلا خلوة ...
 وتقضى الفتاة سنتها تتعلم ، ثم تأتى هنا تتذكر جهلها وتعرف ما هو ...
 وتمضى المرأة عامها كريمة ، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللوم الطبيعي ...
 لو كانت حجاجاً صوامعاً ، للعنتها الكعبة لوجودها فى « استانلى » .
 الفتاة ترى فى الرجال العُريانيين أشباح أحلامها ، وهذا معنى من السقوط .
 والمرأة تسارقهم النظر تنويعاً لرجلها الواحد ، وهذا معنى من المواخير ...
 أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانيين ؟
 يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار ...

« هناك التربية ، وهنا إعلان الإغفال والطيش .
 وهناك الدين ، وهنا أسباب الإغراء والزلل .
 هناك تسكف الأخلاق ، وهنا طبيعة الحرية منها .
 وهناك العزيمة بالقهر يوماً بعد يوم ، وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد يوم .
 والبحر يعلم اللأى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون فى البر ...

لو درى هولاء وهؤلاء مَعْرَةَ اغْتَسَالِهِمْ مَعًا فى البحر ، لاغتسلوا من البحر
فقطرة الماء التى نجستْها الشهواتُ قد انسكبتْ فى دماهم .
وذَرَّةُ الرملِ النَجِيسَةِ فى الشاطئ ، ستكبرُ حتى تصيرَ بيتًا نجسًا لأب وأم ...
يا لحومَ البحر ! سلخك من ثيابك جزار ...

« يجيئون للشمس التى تقوى بها صفاتُ الجسم ؛
ليجدَ كلُّ من الجنسين شمسَه التى تضعفُ بها صفاتُ القلب .
يجيئون للهواء الذى تتجددُ به عناصرُ الدم ؛
ليجدوا الهواءَ الآخرَ الذى تفسدُ به معانى الدم .
يجيئون للبحر الذى يأخذون منه القوة والعافية ؛
ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية : سمكةٌ تطاردُ سمكة ...
ويقولون ليس على المصيفِ حَرَج ،
أى لأنه أعمى الأدب ، وليس على الأعمى حَرَج .
يا لحومَ البحر ! سلخك من ثيابك جزار ...

« المدارس ، والمساجد ، والبِيع ، والسكنائس ، ووزارة الداخلية ؛
هذه كلها لن تهزمَ الشاطئ .

فأمواجُ النفسِ البشرية كأمواج البحرِ الصاخب ، تهزمُ أبداً لترجعَ أبداً .
لا يهزمُ الشاطئ إلا ذلك « الجامعُ الأزهر » ، لو لم يكن قد مُسِّخَ مدرسة !
فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم ، تجعل هديرَ البحر كأنه تسبيح .
وتردُّ الأمواجُ تقيَّةً بيضاء^(١) ، كأنها عمامُ العلماء .

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ ، وأن الصواب أن يقال « بيض » ، ولنا من هذا رأى ، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه ، لغفلتهم عن السر فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد ، ومرة فى الوصف بالجمع .

وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء .
ولكنى أرى زمناً قد نَقَلَ حتى إلى المدارس رُوح « الكازينو » ... !
يا لحوم البحر ! سلخك من ثيابك جزار ... !

« هنا على رغم الآداب ، مملكة للصيف والقيظ ، سلطانها الجسمُ
المؤنثُ العارى .

أجسامٌ تعرضُ مفاَرتها عَرَضَ البضائع ؛ فالشاطىءُ حانوتٌ للزواج !
وأجسامٌ تعرضُ أوضاعها كأنها فى غُرفة نومها لا فى الشاطىء ...
وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها ، تُحيط بها معانيها ملتَمِسةٌ معانيه ؛ فالشاطىءُ
سوقٌ للرقيق ...

وأجسامٌ خَفِرَةٌ جالسةٌ للشمس والهواء ؛ فالشاطىءُ كدار الكُفْرانِ أكره^(١) .
وأجسامٌ عليلةٌ تَقْتَحِمُها الأعينُ فتزدرىها ، لأنها جعلتِ الشاطىءُ مُستشفى ... !
وأجسامٌ خليعةٌ أضافت من (استأنلى) وأخواتها إلى منارة اسكندرية ،
ومكتبة اسكندرية — مَرَبَلَة اسكندرية ...

كان جدالُ المسلمين فى الشُّفور ، فأصبح الآن فى العُرَى .
فإذا تطوّر ، فماذا بقى من تقليد أوربا إلا الجدالُ فى شرعية جمع المرأة بين
الزوج وشبهه الزوج^(٢) ؟ »

انتهى ما استطعتُ ترجمته ، بعد الرجوع فى مواضع من القصيدة إلى بعض
القواميس الحية ... إلى بعض شبان الشاطىء .

(١) إشارة إلى الآية الكريمة : « ... إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . »
(٢) يسمى هذا فى اللغة الضُّمد بفتح الضاد والميم ، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها
زوج ، ومنه قول الشاعر :
تريدين كيا تضمدينى وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد
ومن هذا يقال فى الرجل : ذاق الضماد (بكسر الضاد) أى ذاق الطعم الذى وصفه
أنا تول فرانس

قصيدة. مترجمة عن الملك :

احذرى....!

ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر) . وهذه ترجمة عن أحد الملائكة ؛
رأى جالسا تحت الليل وقد أجمعت أن أضع كلمة للمرأة الشرقية فيما تحاذرهُ
أو تتوجس منه الشر ؛ فتخايل الملك بأضوائه في الضوء ، وسنح لى بروحه ،
وبث في من سره الإلهي ؛ فجعلت أنظر في قلبي إلى فجر من هذا الشعر ينبع
كلمة كلمة ، ويشرق معنى معنى ، ويستطير جملة جملة ، حتى اجتمعت القصيدة
وكأنا سافرت في حلم من الأحلام فجئت بها .

وانطلق ذلك الملك وتركها في يدي لغة من طهارته للمرأة الشرقية
في ملائكتها :

احذرى....!

« احذرى أيتها الشرقية وبالغى في الحذر ، واجعلى أخص طباعك
الحذر وحده .

احذرى تمدن أورا أن يجعل فضيلتك ثوبا يوسع ويضيّق ؛ فلبس الفضيلة
على ذلك هو لبسها وخلعها ...

احذرى فثم الاجتماع الخبيث الذي يفرض على النساء في مجالس الرجال
أن تؤدّي أجسامهن ضريبة الفن ...

احذرى تلك الأنوثة الاجتماعية الظرفية ؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف
والرقة إلى ... إلى الفضيحة .

احذرى تلك النسائية^(١) الغزلية ؛ إنها فى جملتها ترخيص اجتماعى للحرّة
أن ... أن تُشارك البغى فى نصف عملها .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى التمدّن الذى اخترع لقتل لقب الزوجة المقدّس ، لقب « المرأة
الثانية » ...

واخترع لقتل لقب العذراء المقدّس ، لقب « نصف عذراء » ...
واخترع لقتل دينيّة معانى المرأة ، كلمة « الأدب المكشوف » ...
واتهى إلى اختراع الشرعة فى الحب ... فاكثفى الرجل بزوجة ساعة ...
وإلى اختراع استقلال المرأة ، فجاء بالذى اسمُهُ (الأب) من الشارع ، لتلقى
بالذى اسمُهُ (الابن) إلى الشارع ...
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى وأنت النّجم الذى أضاء منذ النبوة ، أن تقلدى هذه الشمعة
التي أضاءت منذ قليل .

إن المرأة الشرقية هى استمرار متصل لأداب دينها الإنسانى العظيم .
هى دائماً شديدة الحفاظ حارسة لحوزتها ؛ فإن قانون حياتها دائماً هو قانون
الأمة المقدّس .

(١) نحن نستهمل : النسائية والنسوية ، وكلاهما عندنا صحيح ، والاختيار فى كل موضع
لأفصح فى موقعه .

هى الطُّهر والعفة ، هى الوفاء والأنفة ، هى الصبر والعزيمة ، هى كلُّ فضائل الأم .

فما هو طريقها الجديد فى الحياة الفاضلة ، إلا طريقها القديم بعينه ؟
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى (ويحك) تقليد الأوربية التى تعيش فى دنيا أعصابها محكومةً بقانونِ أحلامها ...

لم تعدْ أنوثتها حالةً طبيعِيَّةً نفسِيَّةً فقط ، بل حالةً عقليَّةً أيضاً تشكُّ وتُجادل ...

أنوثةٌ تفكَّستْ فرأتِ الزواجَ نصفَ الكلمةِ فقط ... والأمُّ نصفَ المرأةِ فقط ...

ويا ويلَ المرأةِ حينَ تنفجرُ أنوثتها بالمبالغةِ العقليةِ ، فتنفجرُ بالدواهى على الفضيلة ...

إنها بذلك حرَّةٌ مساويةٌ للرجل ، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودةً بفضيلتها ...

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى خَجَلَ الأوربية المترجِّلة من الإقرار بانوثتها .

إن خَجَلَ الأنثى من أنها أنثى يجعلُ فضيلتها تحجُلُ منها ...

إنه يُسقطُ حيائها ويكسو معانيها رُجولةً غيرَ طبيعِيَّةٍ ،

إن هذه الأنثى المترجِّلة تنظرُ إلى الرجل نظرةَ رجلٍ إلى أنثى ...

والمرأةُ تعلقُ بالزواجِ درجةً إنسانيَّةً ، ولكن هذه المكذوبةُ تنحطُّ درجةً إنسانيَّةً بالزواج .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى تهوؤس الأوربية فى طلب المساواة بالرجل .

لقد ساوته فى الذهاب إلى الحلاق ، ولكن الحلاق لم يجد فى وجهها اللحية ...

إنها خلقت لتَحْيِبِ الدنيا إلى الرجل ، فكانت بمساواتها مادة تبغيض .
العجيب أن سر الحياة يأتى أبداً أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خسرته .
والأعجب أنها حين تخضع ، يرفعها هذا السر ذاته عن المساواة بالرجل إلى
السيادة عليه .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى أن تحسرى الطباع التى هى الأليق بأُمَّ أُنْجِبَت الأنبياء فى الشرق .
أُمَّ عليها طابع النفس الجميلة ، تنشر فى كل موضع جو نفسها العالية .
فلو صارت الحياة غيماً ورعداً وبرقاً ، لكانت هى فيها الشمس الطالعة .
ولو صارت الحياة قيظاً وحروراً واختناقاً ، لكانت هى فيها النسيم يتخطف .
أُمَّ لا تبلى إلا أخلاق البطولة وعزائمها ، لأن جداتها ولدن الأبطال .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى هؤلاء الشبان المتمدنين بأكثر من التمدن ...

يُبَالِغُ الخبيث فى زينته ، وما يدرى أن زينته مُعْلَنَةٌ أنه إنسان من الظاهر ...
ويبالغ فى عرض رُجولته على الفتيات ، يحاول إيقاظ المرأة الراقدة فى
العدراء المسكينة !

✓ ليس لامرأة فاضلة إلا رَجُلُها الواحد ؛ فالرجالُ جميعاً هم مصائبُها إلا واحداً .
✓ وإذا هي خالطت الرجال ، فالطبيعيُّ أنها تُخالطُ شهوات ، ويجب أن
تَحَذَرُ وتُبَالِغُ !

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى ؛ فإن فى كل امرأة طبائع شريفةً متهورة ؛ وفى الرجالِ طبائعُ
خسيسةٌ متهورة .

وحقيقةً الحجاب أنه الفصلُ بين الشرفِ فيه الميلُ إلى النزول ، وبين الخسَّةِ
فيها الميلُ إلى الصَّعود .

فيكِ طبائعُ الحبِّ ، والحنانِ ، والإيثارِ ، والإخلاصِ ، كلما كَبُرَتْ كَبُرَتْ .
طبائعُ خِطَرَةٍ ، إن عملت فى غير موضعها . . . جاءت بعكس ما تعمله
فى موضعها .

فيها كلُّ الشرفِ ما لم تنخدعْ ، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العارِ .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى كلمةً شيطانيةً تسمعيها : هى فَنِيَّةُ الجمالِ أو فَنِيَّةُ الأنوثة .
وافهميها أنتِ هكذا : واجباتُ الأنوثة وواجباتُ الجمالِ .
بكلمةٍ يكون الإحساسُ فاسداً ، وبكلمةٍ يكون شريفاً .
ولا يَتَسَقَطُ الرجلُ امرأةً إلا فى كلماتٍ مُزَيَّنَةٍ مثلها
يجب أن تَتَسَلَّحَ المرأةُ مع نظراتها ، بنظرةٍ غضبٍ ونظرةٍ احتقار .
أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« احذرى أن تُخدعى عن نفسك ؛ إن المرأة أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة .

إن الكلمة الخادعة إذ تقالُ لك ، هي أختُ الكلمة التي تقالُ ساعة إنفاذِ الحكم للمحكوم عليه بالشنق . . .

يَغْتَرُونَكَ بِكلماتِ الحب والزواج والمال ، كما يقالُ للصاعد إلى الشنقة ^(١) :
ماذا تشتهي ؟ ماذا تريد ؟

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هذه صلاةُ الثعلب حين ينظأه بالتقوى أمام الدَّجاجة . . .

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يا لحم الدَّجاجة ! بعضُ كلماتِ الثعلب هي أنيابُ الثعلب . . .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى .

« احذرى السقوط ؛ إن سقوطَ المرأة لهوُلهِ وشِدَّتِه ثلاثُ مصائبَ في مصيبة :

سقوطها هي ، وسقوطُ من أوجدوها ، وسقوطُ من تُوجدهم !

نَوَائِبُ الأسرة كلها قد يَسْتُرُها البيتُ ، إلا عارَ المرأة .

فِيَدُ العارِ تَقْلِبُ الحَيِّطَانِ كما تَقْلِبُ اليَدُ الثوبَ فتَجْعَلُ ما لا يرى هو ما يرى .

والعارُ حكمٌ يُنفِذهُ المجتمعُ كله ، فهو نَفْيٌ من الاحترام الإنساني .

أيتها الشرقية ! احذرى احذرى !

« لو كان العارُ في بئرٍ عميقةٍ لَقَابَهَا الشيطانُ مِذْنَةً ووقفَ يُؤذِّنُ عليها .

(١) كلمة « المشتقة » ليست عربية ، ولكن لها وجهاً في الاشتقاق ، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة ، وكان اسمها قديماً « الشنقة » ، ذكرها ياقوت في معجم الأدباء ، وهي أفصح وأخف ، فلعل الشنقة بعد هذا تشق المشتقة . . .

يفرحُ العينُ بفضيحةِ المرأةِ خاصَّةً ، كما يفرحُ أبٌ غنيٌّ بمولود جديد
في بيته ...

واللصُّ ، والقاتلُ ، والسكَّيرُ ، والفاسقُ ، كلُّ هؤلاء على ظاهرِ الإنسانيةِ
كالحرِّ والبرد :

أما المرأةُ حينَ تسقطُ ، فهذه من تحتِ الإنسانيةِ هي الزَّلْزَلَةُ .
ليس أقطعُ من الزَّلْزَلَةِ المُرْتَجَّةِ تَشَقُّ الأرضُ ، إلا عارَ المرأةِ حينَ
يشقُّ الأسْرَةُ .

أيُّها الشرقيَّة ! احذري احذري ! »

الجمال البائس

« وكيف يُشعَبُ صَدْعُ الحُبِّ في كِبْدِي ، كيف يُشعَبُ صَدْعُ الحُبِّ ؟
لعمري ما رأيتُ الجمالَ مرةً إلا كانَ عندي هو الألمُ في أجملِ صُورِهِ
وأبدعِها ؛ أتراني مخلوقاً مجروحاً في القلب ؟

ولا تكونُ المرأةُ جميلةً في عينيَّ ، إلا إذا أحسستُ حينَ أنظرُ إليها أن في
نفسِ شَيْئاً قد عرفها ، وأن في عينيها لَحَظَاتَ مَوْجَّهَةً إليَّ ، وإن لم تنظرْ هي إليَّ .
فإثباتُ الجمالِ نفسَه لعيني ، أن يُثَبِّتَ صداقته لروحي باللمحة التي تدلُّ
وتتكلم : تدلُّ نفسي وتتكلم في قلبي .

كنتُ أجلسُ في (اسكندرية) بين الضحَى والظهِرِ ، في مكانٍ على شاطئِ

البحر ، ومعى صديق الأستاذ (ح) من أفاضل رجال السلك السياسى ، وهو كاتبٌ من ذوى رأى ، له أدبٌ غَضٌّ ونوادرٌ وظرائفٌ ؛ وفى قلبه إيمانٌ لا أعرفُ مثله فى مثله ، قد بلغ ما شاء الله قوةً وتمكُّناً ، حتى لأحسبُ أنه رجلٌ من أولياء الله قد عُوقِبَ فحُكِمَ عليه أن يكونَ محامياً ، ثم زيد فى الحكم فجعل قاضياً ، ثم ضُوعِفَت العقوبة فجعل سياسياً . . .

وهذا المكان ينقلب فى الليل مَسْرَحًا ومَرَقَصًا وما بينهما . . . فيتغَاوَى فيه الجمال والحب ، ويعْرِضُ الشيطانُ مصنوعاتِهِ فى الهزل والرقص والغناء ^(١) ، فإذا دخلته فى النهار رأيت نورَ النهار كأنه يَغْسِلُهُ ويغسلُك معه ، فتُحَسُّ للنور هناك عملاً فى نفسك .

ويرى المكانُ صَدْرًا من النهار كأنه نائمٌ بعد سهرِ الليل ، فما تجميئه من ساعةٍ بين الصبح والظهر ، إلا وجدته ساكنًا هادئًا كالجسم المستثقل نومًا ؛ ولهذا كنتُ كثيرًا ما أكتب فيه ، بل لا أذهبُ إليه إلا للكتابة .

فإذا كان الظهرُ أقبل نساء المسرح ومعهن من يُطارِحُهُن الأناشيدَ وألحانها ، ومن يُثَقِّفُهُن فى الرقص ، ومن يُرَوِّيهنَّ ما يُمثِّلُنَّ ، إلى غير ذلك مما ابتلتهنَّ به الحياة لتُساقِطَ عليهن الليامى بالموت ليلةً بعد ليلة .

وكنَّ إذا جئنَ رأيننى على تلك الحالِ من الكتابة والتفكير ، فينصرفن إلى شأنهن ، إلا واحدةً كانت أجملهن . وأكثر هؤلاء المسكيناتِ يَظْهَرُنَ لعين المتأمل كأن المرأةَ منهن مثلُ العنزِ التى كُسِرَ أحدُ قَرنَيها ، فهى تحمل على رأسها علامةَ الضعفِ والذلةِ والنقص ، ولو أن امرأةً تبددُ حينًا فلا تكونُ شيئًا ، وتجتمعُ حينًا فتكونُ مرةً شيئًا مقلوبًا ، وأخرى شكلًا ناقصًا ، وتارةً هيئةً مُشوَّهةً ؛ لكانت هى كلَّ امرأةٍ من هؤلاء المسكينات اللواتى يمشين فى

(١) انظر مقالة (لو . . .) فى الجزء الثانى ، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه .

المسرّات إلى الخاف ، ويعشّن ولكن بمقدّمات الموت ، ويجذّن في المال معنى الفقر ، ويتلقّين الكرامة فيها الاستهزاء ، ثم لا يعرفن شابّاً ولا رجلاً إلا وقعت عليهنّ من أجله لعنة أب أو أمٍّ أو زوجة .

وتلك الواحدة التي أوّمت إليها كانت حزينّة متسلّبة^(١) فكأنما جذّبها حزنها إلى ، وكانت مفكّرة فكأنما هداها إلى فكّرُها ، وكانت جميلة فدلّها على الحب ، وما أدري والله أيّ نفسيّتنا بدأت فقات للأخرى أهلاً ...
ورأيتها لا تصرفُ نظرها عنى إلا لتردّه إلى ، ولا تردّه إلا لتصرفه ؛ ثم رأيتها قد جال بها الغزلُ جَوْلَةً في معركة ... فتشاغلَتْ عنها لا أريها أنى أنا الخصمُ الآخرُ في المعركة ...

بيدَ أنى جعلتُ آخذها في مطارحِ النظر ، وأتأملها خلُسةً بعد خلُسةٍ في ثوبها الحريريّ الأسود ، فإذا هو يشبُّ لونها^(٢) فيجعلُه يتلاّ ، ويظهرُ وجهها بلون البدر في تمّه ، ويبيديه لعينيّ أرقّ من الورد تحت نور الفجر .
ورأيتُ لها وجهاً فيه المرأة كلّها باختصار ، يُشرقُ على جسم بضّ ألين من خَمَلِ النّعام ، تعرّضُ فيه الأنوثة فنّها الكامل ؛ فلو خُلِقَ الدلالُ امرأةً لكانتها .
وتلوحُ للرأى من بعيدٍ كأنها وضعت في فمها (زَرٌّ وَرْدٍ) أحمرَ منضمّاً على نفسه : شفتان تكادُ ابتسامتهما تكون نداءً لشفّتي محبّ ظمآن ! ...

أما عيناها فما رأيتُ مثلهما عيني امرأةٍ ولا ظبيّة ؛ سوادها أشدُّ سواداً من عيون الطّباء ؛ وقد خُلِقَتَا في هيئةٍ تُثبت وجودَ السّحرِ وفِعْله في النفس ؛ فيهما القوةُ الواثقة أنّها النافذة الأمر ، يُمازجُها حنانٌ أكثرُ مما في صدر أمٍّ على

(١) يقال : تسلبت المرأة . إذا أحدث ، أى لبست ثياب الحداد .

(٢) يزيدُه ويظهره ويجعله أحفل بالجمال .

طفلها ؛ وتماّم الملاحظةُ أنهما هما ، بهذا التكحيل ، في هذه الهيئة ، في هذا الوجهِ القمريّ .

يا خالقَ هاتينِ العينين ! سُبْحَانَكَ سُبْحَانَكَ !

قال الراوى :

وأَتَغافلُ عنها أياما ؛ وطال ذلك منى وشقَّ عليها ، وكأني صَغَرْتُ إليها نفسَها ، وأرهقتها بمعنى الخضوع ، بيدَ أن كبرياءَها التي أَبَتْ لها أن تُقدِّمَ ، أَبَتْ عليها كذلك أن تنهزم .

وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما اسْتَنَشَى العطرَ يكونُ مُتَصَوِّعًا في الهواء : لا أنا أستطيعُ أن أَمْسَهُ ولا أحدٌ يستطيعُ أن يقولَ أَخَذْتُ منى . ثم لا تدفعُنِي إليه إلا فِطْرَةُ الشَّعْرِ والإحساسِ الرُّوحانيّ ، دون فِطْرَةِ الشَّرِّ والحيوانية^(١) ومتى أَحسستُ جمالَ المرأةِ أَحسستُ فيه بمعنى أكبرَ من المرأةِ ، أكبرَ منها ؛ غيرَ أنه هو منها .

قال الراوى :

فإني جالسٌ ذاتَ يومٍ وقد أَقْبَلْتُ على شأني من الكتابةِ ، وبإزائي فتى رَيِّقُ الشبابِ ، في العُمُرِ الذى تَرى فيه الأعينُ بالحماسةِ والعاطفةِ ، أكثرَ مما ترى بالعقلِ والبصيرةِ ، ناعمٌ أَمْلَدُ تمَّ شبابهُ ولم تَمِّ قُوتهُ ، كأنما نكصَتِ الرجولةُ عنه إذ وافته فلم تجده رجلا . . . أو تلك هى شيمةُ أهلِ الظَّرْفِ والقَصْفِ من شبانِ اليومِ : ترى الواحدَ منهم فتعرفُ المُضْجِجَ فى ثيابه أكثرَ مما تعرفه فى جسمه ، وتأتى الطبيعةُ عليه أن يكونَ أنثى فيجَاهِدُ ليكونَ ضَرْبًا من الأنثى . . ! إني جالسٌ إذ وافَتِ الحُسْناءُ فأومأتُ إلى الفتى بتحيّتها ، ثم ذهبتُ فاعتَكَتِ المِنْصَةَ

(١) بسطنا هذا المعنى فى المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ، فلم تتوسع فيه هنا .

مع الباقيات ، ورقصت فأحسنت ما شاءت ، وكأن في رقصها تعبيراً عن أهواء
ونزعاتٍ تريدُ إثارتَهَا في رجلٍ ما . . . فقلتُ لصاحبنا الأستاذ (ح) : إن كلمة
الرقص إنما هي استعارةٌ على مثل هذا ، كما يستعِرْنَ كلمةَ الحب لجمع المال ؛
ولا رقصَ ولا حبَّ إلا فُجُورٌ وطمع .

ثم إنها فرغت من شأنها فَرَّتْ تَهَادَى حتى جاءت فجلستُ إلى الفتى . . .
فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمَّ بما في نفسها : أترأها جعلته هُنا مَحَطَّةً . . . ؟
قال الراوى : أما أنا فقلتُ في نفسى لقد جاء الموضوع . . . وإني لفي حاجةٍ
أشدَّ الحاجةِ إلى مقالةٍ من المكحولات ، فتفرَّغتُ لها أنظرُ ماذا تصنع ، وأنا أعلمُ
أن مثلَ هذه قليلاً ما يكونُ لها فكرٌ أو فلسفة ؛ غير أن الفكر والفلسفةَ والمعانيَ
كلها تكون في نظرها وابتساماتها وعلى جسمها كله .

وكان فتاها قد وَضَعَ طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهدٍ رَجَعَ حَكْمُ
الطربوش فيه على رأس الشاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة . . .
فأسفر ذلك من طربوشه ، وأسفرت هذه من نقابها — قال الراوى : فما جلستُ
إلى الفتى حتى أدنتُ رأسها من الطربوش ، فاستنامتُ إليه ، فألصقت به خدَّها . . .
ثم التفتتُ إلينا التفاتةَ الخِشْفِ المذعورِ استرَوْحِ السَّبْعِ^(١) ووجدتُ مقدماته
في الهواء ، ثم أرخت عينيها في حياءٍ لا يَسْتَحْيِ . . .
وأنشأتُ تتكلم وهي في ذلك تُسَارِقُنَا النظرَ ، كأن في ناحيتنا بعضَ
معانى كلامها . . .

ثم لا أدري ما الذى تَصَاحَكْتُ له ، غير أن ضحكها انشَقَّتْ نصفين ، رأينا
نحن أجملهما في ثغرها . . .

(١) الخشف : ولد الغزال ، يطلق على الذكر والأنثى . واسترَوْح السبع : أى وجد ريحه
في الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان .

ثم ترعرعت في كرسيتها كأنما تهتم أن تنقلب ، لتتد إليها يد فتمسكها
ان تنقلب ...

ثم تساندت على نفسها ، كالمریضة النائمة تتناهض من فراشها فيكاد يئن
بعضها من بعضها ، وقامت فمشت ، فحاذتنا ، وتجاوزتنا غير بعيد ، ثم رجعت إلى
موضعها متكسرة متخاذلة كأن فيها قوة تعلن أنها انتهت ...

قال الراوى :

ونظرت إليها نظرة حزن ؛ فتغصبت واغتاظت ، وشاجرت هذه النظرة
من عينيها الدجاجوين بنظرات متهمكة ، لا أدري أهي توبخنا بها ، أم تهمننا بأننا
أخذنا من حسنها مجاناً ... ؟

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجهر بالكلام لينبغها :

أما ترى أن الدنيا قد انتكست في انتكاسها ، وأن الدهر قد فسد في
فساده ، وأن البلاء قد ضوعف على الناس ، وأن بقية من الخير كانت في الشر
القديم فانترعت ؟

قال : وهل كان في الشر القديم بقية خير وليس مثلها في الشر الحديث ؟
قلت : ههنا في هذا المسرح قيان لو كانت إحداهن ... في الزمن القديم ،
لتنافس في شرائها الملوك والأمراء وسراة الناس وأعيانهم ، فكان لها في عهارة
الزمن صون وكرامة ، وتنقلب في القصور فتجعل لها القصور حرمة تمنعها ابتذال
فنها لكل من يدفع خمسة قروش ، حتى لرذال الناس وغوغائهم وسفلتهم ؛
ثم هي حين يذبر شبابها تكون في دار مولاه حاملة على كرم يحملها ، وعلى
مروءة تعيش بها .

وقديماً أخذت سلامة الزرقاء في قبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم ، تبلغ

ألقى جنيهه . فهل تأخذ القيمة من هؤلاء إلا دَخِينَةً^(١) بمليمين ... ؟
قال الأستاذ (ح) : ما أبعدك يا أخي عن (بورصة) القُبلة وأسعارها ...
ولكن ما خبر اللؤلؤتين ؟
قال الراوى :

كانت سَلَامَةٌ هذه جارية لابن رامين^(٢) ، وكانت من الجمال بحيث قيل
في وصفها : كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفها ؛ فاستأذن عليها في
مجلس غنائها الصَّير في الملقب بالماجن ، فلما أذنت له ، دخل فأقعى بين يديها ، ثم
أدخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين ، وقال : انظرى يا زرقاء جعلت فداك . ثم
حلف أنه نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بذاك ؟ قال :
أردت أن تعلمى ...

ثم غنت صوتاً وقالت : يا ماجن هبهما لى ويحك . قال : إن شئت والله
فعلت . قالت : قد شئت . قال : واليمين التى حلفت بها لازمة لى إن أخذتهما
إلا بشفتيك من شفتى

قال الراوى :
ورأيتهما قد أذنت لى ، وأنصت لكلامى ، وكأنا كانت تسمعنى أعذر
إليها ، واستيقنت أن لى بى إلا الحزن عليها والرائء لها ، فبدت أشد حياء
من العذراء فى أيام الخدر
ثم قلت : نعم كان ذلك الزمن سفيهاً ، ولكنها سفاهة فن ... لا سفاهة
عربدة وتصلحك كما هى اليوم .

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة ، وجمعها الدخان .

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) ، كما اشترى
جارية أخرى يقال لها ريحة ، بمائة ألف درهم .

فنظرت إلى نظرة لن أنساها ؛ نظرة كأنها تدمع ، نظرة تقول بها : ألسْتُ
إنسانة ؟ فلم أملك أن قلت لها : تعالى تعالى .
وجاءت أحلى من الأمل المعترضِ سَنَحَتْ به الفرصة ، ولكن ماذا قلتُ
لها وماذا قالت ؟ ٥

الجمال البائس

٢

جاءت أحلى من الأمل المعترضِ سَنَحَتْ به فرصة ؛ وعلى أنها لم تخطُ إلينا
إلا خطوةً وتَمَامَها ، فقد كانت تجدُ في نفسها ما تجده لو أنها سافرت من أرضِ
إلى أرضٍ ، ونقلها البُعدُ النازِحُ من أُمَّةٍ إلى أمةٍ .

يا عجباً ! إن جلوسَ إنسانٍ إلى إنسانٍ بإرائهِ ، قد يكونُ أحياناً سفرًا طويلاً
في عالمِ النفس ؛ فهذه الحسناءُ تعيشُ في دنيا فارغةٍ من خلالِ كثيرة : كالتقوى ،
والحياء ، والكرامة ، وسموُّ الروح ، وغيرها ؛ فإذا عَرَضَ لها من يُشعرُها بعضَ
هذه الخلال ، وَينْتَرِعُها من دنيا اضطرارها وأخلاقِ عيشها ولو ساعةً —
فما تكونُ قد وجدتُ شخصاً ، بل كَشَفَتْ عالماً تدخُلُه بنفسٍ غيرِ النفسِ التي
تدبّرُها في عالمِ رزقِها ...

ولا أعجب من سحر الحب في هذا المعنى ؛ فإن العاشقَ ليكونُ حبيبهُ إلى
جانبهِ ، ثم لا يُحسُّ إلا أنه طوى الأرضَ والسمواتِ ودخلَ جنةَ الخلدِ
في قبلة

جلست إلينا كما تجلسُ المرأةُ الكريمةُ الخَفِرَةُ : تُعطيك وجهها وتبتعدُ
عنك بسائرِها ، وتُريك الغُصْنَ وتُخبأُ عنك أزهاره . فرأيناها لم تستقبل الرجلَ
منا بالأُنثى منها كما اعتادت ؛ بل استقبلتْ واجِباً برعاية ، وتلطَّفاً بِمَحَنان ، وأدباً
من فنِّ بآدبٍ من فنِّ آخر ؛ وكان هذا عجباً منها ؛ فكلامها في ذلك الأستاذ
(ح) فقالت : أمّا واحدةٌ فإننا نَتَّبِعُ دائماً حُبَّةَ من نَجَالِسِهِمْ ، وهذه هي القاعدة .
وأما الثانيةُ ، فإننا لا نَجِدُ الرجلَ إلا في النَّدْرَةِ ؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين
يَتَسَوَّمُونَ بِسِيَا الرجال ، كَحِيلَةِ المَحْتالِ على غَفْلَةِ المَغْفَلِ ؛ وهم معنا كالقُدْرَةِ
بالثَمَنِ على ما يشتريه الثمن ؛ ليسوا علينا إلا قَهْراً من القَهْرِ ؛ ولسنا عليهم إلا سَلْباً
من السَّلْبِ ، مادةٌ مع مادة ، وشرٌّ على شر ؛ أما الإنسانيَّةُ منا ومنهم فقد ذَهَبَتْ
أو هي ذاهبة .

قال (ح) : ولكن ...

فلم تدعه يَسْتَدْرِكْ ، بل قالت : إنَّ « لكن » هذه غائبةُ الآن ... فلا
تُجِىءْ في كلامنا . أتريد دليلاً على هذا الانقلاب ؟ إن كل إنسانٍ يعلم أن الخطَّ
المستقيم هو أقربُ مَسَافَةٍ بين نُقْطَتَيْنِ ؛ ولكنَّ كلَّ امرأةٍ منا تعلم أن الخطَّ
المَعُوجَّ هو وحده أقربُ مَسَافَةٍ بينها وبين الرجل ...

قالت : فإذا وَجَدَتْ إِحْدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها ... رَدَّتْها أخلاقُه
إلى المرأةِ التي كانت فيها من قبل ، وزادتها طَبِيعَتُها الزَّهْوُ بهذا الرجل النادر ،
فتكونُ معه في حالةٍ كَحَالَةِ أَكْلِ امرأةٍ ، يَبْدُو أنه كَأَلِ الحُلْمِ الذي يَسْتَيْقِظُ وَشَيْكاً ؛
فإن الرجلَ الكاملَ يَكمُلُ بأشياءَ ، منها وأَسْفَا ... ! منها ابتعادهُ عنا .

ثم قالت : وصاحبك هذا منذُ رَأَيْتَهُ ، رَأَيْتَهُ كالكتاب يشغلُ قارئه عن
معاني نفسه بِمعانيه هو

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه ، ففتى كان الكتابُ عند هذه كتاباً يشغلُ بمعانيه ؟
غيرَ أنى رأيتها قد تكلمتُ واحتفلتُ ، وأحسنتُ وأصابتُ ؛ فتركتها تتحدث
مع الأستاذ (ح) ، وغبتُ عنهما غيبةً ففكر ؛ وأنا إذا فكرتُ انطبق على قولهم :
خَلَّ رَجُلًا وَشَأْنَهُ . فلا يتصلُ بى شىءٌ مما حولى . وكان كلامُها يسطعُ لى كالمصباح
الكهربائى المتوقد ، فقدّمها فكرُها إلى غيرَ ما قدّمها إلى نفسها ، ورأيتُ لها
صورتين فى وقتٍ معاً ، إحداها تعتذرُ من الأخرى

وكنتُ قبل ذلك بساعة قد كتبتُ فى تذكرة خواطرى هذه الكلمة التى
استوحيتها منها ؛ لأضعها فى مقالةٍ عنها وعن أمثالها ، وهى :

« إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشريعتها ، فهل بقى منها إلا الأنثى
مجردة تجرّدها الحيوانى المتكشّف ، المتعرض للقوة التى تناله أو ترغبُ فيه ؟
وهل تعملُ هذه المرأة عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى ؟

» وما الذى استرعاها الاجتماعُ حينئذٍ فترعاه منه وتحفظه له ، إلا ما استرعى
أهلُ المالِ أهلَ السرقة ؟ إن الليلَ ينطوى على آفتين : أولئك اللصوصِ ،
وهؤلاء النساء .

» وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مُشوّهةً ما دامت رذائلها دائماً وراءَ
عينها ، وما دام بإزاء عينها دائماً الأُمّهاتُ والمُحصناتُ من النساء ، وليس
شأنها من شأنهن ؟ إن خيالها يُحرزُ فى وعيه صورتها الماضية من قبل أن تزلّ ،
فاذا خلّت إلى نفسها كانت فيها اثنتان ، إحداها تلعنُ الأخرى ، فترى نفسها من
ذلك على ما ترى .

» وهى حين تطالعُ مرآتها لتتبرّجَ وتحفّلَ فى زينتها ، تنظرُ إلى خيالها فى
المرآة بأهواء الرجال لا بعينى نفسها ، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة ؛ فلا تُعنى بأن
تظهرَ جميلةً كالمرأة ، بل مُثمرةً كالتاجر وتكسبُها بجمالها يكونُ أولَ

ما تفكر فيه ؛ ومن ذلك لا يكون سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسب منه ؛ بخلاف الطبع الذى فى المرأة ، فان سرورها بمسحة الجمال عليها هو أول فكرها وآخره .

« إن الساقطة لا تنظر فى المرأة — أكثر ما تنظر — إلا ابتغاء أن تتعهد من جمالها ومن جسمها مواقع نظرات الفجور وأسباب الفتنة ، وما يستهوى الرجل وما يفسد العفة عليه ؛ فكأن الساقطة وخيالها فى المرأة ، رجل فاسق ينظر إلى امرأة ، لا امرأة تنظر إلى نفسها ... »

ذهبت أفكر فى هذه الكلمة التى كتبتها قبل ساعة ، ولم أستطع أن ألبس فى هذه القضية وجه القاضى ؛ فدخلت رقة شديدة لهذا الجمال الفاتن ، الذى أراه يبتسم وحوله الأقدار العابسة ؛ ويلهو وبين يديه أيام الدموع ؛ ويجتهد فى اجتذاب الرجال والشبان إلى نفسه ، والوقت آت بالرجال والشبان الذين سيجتهدون فى طرده عن أنفسهم .

وتغشاني الحزن ، ورأت هى ذلك وعرفته ؛ فأخرجت منديلها المعطر ومسحت وجهها به ، ثم هزته فى الهواء ، فاذا الهواء منديل معطر آخر مسحت به وجهى ...

وقال الأستاذ (ح) : آه من العطر ! إن منه نوعا لا أستشيه مرة إلا ردتى إلى حيث كنت من عشرين سنة خلت ، كأنما هو مسجل بزمانه ومكانه فى دماغى ...

فضحكت هى وقالت : إن عطرنا نحن النساء ليس عطرا بل هو شعور نشبه فى شعور آخر ...

فقلت أنا : لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهاً غير هذا . قالت : وما هو ؟

قلت : إن المرأة المعطرة المتزيّنة ، هي امرأةٌ مُسلّحةٌ بأسلحتها . أفى ذلك ريب ؟

قالت : لا .

قلت : فلماذا لا يُسمّى هذا العِطرُ بالغازاتِ الخائقةِ الغرامية ... ؟
فضحكتُ فنوناً ؛ ثم قالت : وتسمّى (البودرة) بالديناميتِ الغرامى .
ونقلنى ذلك إلى نفسى مرة أخرى ، فأطرقتُ إطراقةً ؛ فقالت : ما بك ؟
قلت : بى كلمةُ الأستاذ (ح) ، إنها ألهمتْ فى قلبى حجرةً كانت خادمة .
قالت : أو حرّاً كَتَ نقطةَ عِطرٍ كانت ساكنة ... !

فقلت : إن الحبَّ يضعُ روحانيتها فى كلِّ أشيائه ، وهو يغيّرُ الحالةَ النفسيةَ للإنسان ، فتتغيّرُ بذلك الحالةُ العقليةُ للأشياء فى وَهْمِ الحب . (فعِطرُ كذا)
مثلاً ... هو نوعٌ شَدِيثٌ من العِطر ، طيّبُ الشِّيم ، عاصِفُ النَّشوة ، حادُّ الرائحة ؛
لكأنه يَنشُرُ فى الجوِّ روضةً قد مُلئتْ بأزهاره تَشْمُ ولا تُرى ؟ وإنه ليجعلُ
الزمنَ نفسه عبقّاً بريحه ، وإنه ليُفَعِّمُ كلَّ ما حوله طيباً ، وإنه ليسحرُ النفسَ
فيتحوّلُ فيها ...

وهنا ضحكتُ وقطعتُ على الكلامِ قائلة : يظهرُ لى أن (عِطر كذا) هاجِرٌ
أو مخاصِمٌ ...

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتشقتْ أَرْجَهُ مرةً إلا حسبته يَفْخُ
من الجنة .

فما أسرعَ ما تلاشى من وجهها الضحكُ وهيئته ، وجاءت دمةٌ وهيئتها .
ولحتُ فى وجهها معنىً بكيتُ له بكاءً قلبى .

جمالها ، فتنّتها ، سحرُها ، حديثُها ، لهوُها ؛ آه حين لا يبقى لهذا كله عينٌ
ولا أثر ، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذُنُوبٌ ، وذُنُوبٌ ، وذُنُوبٌ !

وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ، ألا نُوحِشَها من إنسانيتنا ، وأن نبُلَّ شوقها إلى ما حُرِمَتْه من قدرها قدرَ إنسانةٍ فيما نَتَعَاطاهُ بيننا . والمرأة من هذا النوع إذا طَمَعَتْ فيما هو أعلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع — طمعت في الاحترام من رجلٍ شريفٍ متعففٍ ، ولو احترامَ نظرةٍ ، أو كلمةٍ . تَقْنَعُ بأقلِّ ذلك وترضى به ؛ فالقليلُ مما لا يدركُ قليله ، هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذي يُنالُ كثيره .

ومثلُ هذه المرأة ، لا تدرى أنت : أطافت بالذنب أم طاف الذنبُ بها ؟ فاحترامُها عندنا ليس احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوَجُومِ أمام المصيبةِ في لحظةٍ من لحظات رَهْبَةِ القدرِ وخُشُوعِ الإيمان .

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفي نفسها التندُّمُ والحسرةُ واللهفُ مما هي فيه ، وهذا هو جانبُهن الإنسانيُّ الذي يُنظرُ إليه من النفس الرقيقة بلهفةٍ أخرى ، وحسرةٍ أخرى ، وندمٍ آخر . كم يَرَحِمُ الإنسانُ تلكَ الزوجةَ الكارِهةَ المرغمةَ على أن تُعاشرَ من تسكره ، فلا يزالُ يغلي دُمها بوساوسٍ وآلامٍ من البغض لا تنقطع ! ومِ يَرِثِي الإنسانُ للزوجةِ الغيورِ ، يغلي دُمها أيضاً ولكن بوساوسٍ وآلامٍ من الحب ! ألا فاعلم أن كلَّ امرأةٍ من مثل هذه الحسناء تحمل على قلبها مثلَهم مائةَ زوجةٍ كارِهةٍ مرغمةٍ مستعبدةٍ ، يُخَالِطُه مثلُهم مائةَ زوجةٍ غيورٍ مكابدةٍ منافسةٍ ؛ ولقد تكون المرأةُ منهن في العشرين من سنّها وهي مما يكابدُ قلبُها في السبعين من عُمرِ قلبها أو أكثر .

وهذه التي جاءتنا إنما جاءتنا في ساعةٍ منا نحن لا منها هي ، ولم تكن معنا لا في زمانها ولا في مكانها ولا في أسبابها ، وقد فتحت الباب الذي كان مغلقاً في قلبها على الخُفْرِ والحياء ، وحوّلت جمالها من جمالٍ طابَعُه الرذيلةُ ، إلى جمالٍ طابَعُه الفنُّ ، وأشعرت أفراسها التي اعتادتها رُوحَ الحزنِ من أجلنا ، فأدخلت

بذلك على أحزانها التي اعتادتها رُوحَ الفرح بنا .
من ذا الذي يعرف أن أدبه يكونُ إحساناً على نفسٍ مثلِ هذه ثم
لا يحسن به ؟ (١)

تتجددُ الحياةُ متى وجد المرءُ حالةً نفسيةً تكونُ جديدةً في سرورها . وهذه
المرأةُ المسكينةُ التي لا يعينها من الرجلِ من هو ؟ ولكن كم هو ... ؟ لم ترَ فينا
نحن الرجل الذي هو « كم » ، بل الذي هو « من » . وقد كانت من نفسها الأولى
على بُعدِ قصبي كالذي يمدُّ يده في بئرٍ عميقةٍ ليتناول شيئاً قد سقط منه ؛ فلما
جلستُ إلينا ، اتصلتُ بتلك النفسِ من قُرب ؛ إذ وجدتُ في زمنها الساعةَ التي
تصلحُ جسراً على الزمن .

قال الراوى :

كذلك رأيتها جديدةً بعد قليل ، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟
قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التي جاءت من هذه . إن
قلبها ينشرُ الآن حولها نوراً كالصباح إذا أضيء ، وأراها كالزهرة التي
تفتحتُ ؛ هي هي التي كانت ، ولكنها بغيرِ ما كانت .

فقلت هي : إني أحسبك تحبني ؛ بل أراك تحبني ؛ بل أنت تحبني ...
لم يخفَ على منذُ رأيتهُ ورأيتنى .

قلت : هيبه صحيحاً ، فكيف عرفته ولم أصانعك ، ولم أتملق لك ، ولم أزد
على أن أجيء إلى هنا لأكتب ؟

(١) في كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الريطة) ، كتبناه في مثل موضوع
(الجمال البائس) ، غير أنه بمنى آخر ومعان أخرى . والريطة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة
Maitresse يريد بها الأوروبيون المرأة البغي ترتبط بأجر في دار الرجل لتحل محل الزوجة ..

قالت : عرفته من أنك لم تصانعي ، ولم تملق لي ، ولم تزد على أن تحبني
إلى هنا لتكتب ...

قلت : ويحك ، لو كحلت عين (المكرسكوب) لكنت عينك . وضحكنا
جميعاً ؛ ثم أقبلت على الأستاذ (ح) فقلت له : إن القضايا إذا كثرت ورودها على
القاضي جعلت له عيناً باحثة .

قال الراوى :

وأنظر إليها ، فإذا وجهها القمريُّ الأزهرُ قد شَرِقَ لونه ، وظهر فيه من الحياء
ما يظهر مثله على وجه العذراء المخدرة إذا أنت مستسها بريية^(١) ؛ فما شككتُ
أنها الساعة امرأةٌ جديدة قد اصطَلَحَ وجهها وحياؤها ، وهما أبداً متعاديان في كل
امرأة مكشوفة العفة ...

ودهمتُ أستدرِكُ وأتاوَل ، فقلتُ لها : ما ذلك أردتُ ، ولا حَدَسْتُ على
هذا الظن ، وإنما أنا مُشْفِقٌ عليك متألمٌ بك ، وهل يعرِضُ لك إلا الطبقة
النظيفة ... من المُجَرِّمين والخُبَّاء وأهل الشرِّ ؛ أولئك الذين أعاليهم في دور
الخلاعة والمسارح ، وأسافلهم في دور القضاء والسجون ؟

فقالت : أعترفُ بأنك لم تحسن قلب الثوب ، فظهر لكل عين أنه مقلوب ؛
لكنك تحبني ... وهذا كافٍ أن ينهَضَ منه عُذْر !

قال الأستاذ (ح) : إنه يحبك ، ولكن أتعرفين كيف حبه ؟ هذا بابٌ
يضعُ عليه دائماً عدَّة من الأقفال .

قالت : فما أيسرَ أن تجد المرأةَ عدَّة من المفاتيح ...

قال : ولكنه عاشقٌ يُنيرُ العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحبيبته تحت

(١) أى لأنها ظنت أنه يقول إنها اعتادت الرجال .

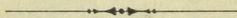
أعين الناس : ما تطمعُ إلا أن تراه ، وما يطمعُ إلا أن يراها ، ولا شيء غير ذلك ؛ ثم لا يزالُ حسنُها عليه ولا يزالُ هواه إليها ، وليس إلا هذا .

قالت : إن هذا لعجيب .

قال : والذي هو أعجبُ أن ليس في حبه شيءُ نهائي ، فلا هجرٌ ولا وصلٌ ؛ ينسأكِ بعد ساعة ، ولكنك أبداً باقيةٌ بكلِّ جمالكِ في نفسه . والصغائرُ التي تبكي الناسَ وتلذعُ في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً في همهم ويطفئوها ويتموها منها ككلِّ شهواتِ الحب — تبكيه هو أيضاً وتعتلجُ في قلبه ، ولكنها تظلُّ عنده صغائرَ ولا يعرفها إلا صغائرُ ؛ وهذا هو تجبُّرُه على جَبَّارِ الحب .

قال الراوى :

ونظرتُ إليها ونظرتُ ، وعاتبْتُ نفسُ نفساً في أعينِهما ، وسألتُ السائلةَ وأجابتُ المَجيبةَ ، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالتُ ؟ ...



الجمال البائس

٣

قال الراوى :

نظرتُ إليها ونظرتُ : أما هي ، فرَنتُ إلى في سكون ، وكانت نظرتها
مُعَانَبَةً طَوِيلَةً فيها التَّمَلُّقُ والتَّوَجُّعُ ، وفيها الانكِسارُ والفُتُورُ ، وفيها الاسترخاءُ
والدلال .

وَبَيْنَا كان طَرَفُها ساجياً فاتراً كأنه ينظرُ أحلامه ، إذ حَدَدَتْهُ إلى فجأةً
ونظرتُ نظرةً مَذْهُوشَ ، فَبَدَتْ عيناها فِرْعَتَيْنِ ولكن في وجهٍ مطمئن .
ثم لم تكذبْ تفعلُ حتى ضَيَّقَتْ أَجْفانها وحدَّقتْ النظرَ مُتَلَأَثًا بمعانيه ،
فَبَدَتْ عيناها ضاحكتين ولكن في وجهٍ متألم .

ثم ابتسمتْ بوجهها وعينها معاً ، وأتمتْ بذلك أجملَ أساليبِ المرأةِ الجميلةِ
المحبوبةِ في اعتراضها على من تحبه ، وجدالها مع فكره ، وكسْرِ حُجَّتِهِ في
كبريائه ، وانتزاعِ الفكرةِ المستقلةِ من نفسه .

وأما أنا ؛ فكانَ نظري إليها ساكناً متألماً يَقِرُّ أنه عَجَزَ عن جوابِ
عينها ، وسيدتي عاجزاً عن جوابِ عينها . . .

إن وجهها هو الابتسامُ وروحُ الابتسام ، وجسمها هو الإغراء وروحُ
الإغراء ، وفتنُها هو الفتنةُ وروحُ الفتنة ؛ وهى بهذا كله ، هى الحبُّ وروحُ
الحب ؛ غير أن فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ،

وإغراءها جريمةً لجسمها ، وقتها رذيلةً في جمالها ؛ وهى بهذا كله ، هى الشقاء
ورُوحُ الشقاء .

أَمَا أَنِي أُحِبُّ فَنَعَمْ وَنَعِيمًا ، بل أراه حبًّا فائقًا كبدى ، وليس يخلو فؤادى
أبدًا من سَوَالِفِ حُبِّ مَضَى ؛ وأما أَنِي أُسْتَرْذِلُ في الحب وأمتنُ فضيلتى
وأُنْزِلُ بها ، فلا وأبدا .

إن ذلك الحبَّ هو عندى عملٌ فَنِيٌّ من أعمال النفس ، ولكن الفضيلةُ
هى النفسُ ذاتها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ في زمنى ؛ أما الفضيلةُ فهى زمنى كله ؛
وذلك الجمالُ هو قوَّةٌ من جاذبيةِ الأرضِ في مدَّتِها القصيرة ، ولكن الفضيلةُ جاذبيةُ
السَّمَاءِ في خلودها الأبدى .

على أنه لا مُنَافَرَةَ بين الحب والفضيلة في رأيي ، فإن أقوى الحب وأملأه
بفلسفة الفرح والحزن ، لا يكون إلا في النفس الفاضلة المتورِّعة عن مُقَارَفَةِ الإثم .
وههنا يتحولُ الحبُّ إلى مَلَكَ سَامِيَةٍ في إدراكِ معانى الجمال ، فيكونُ الوجهُ
المعشوقُ مصدرَ وحيٍ للنفسِ العاشقة ؛ وبهذا الوحي والاستمدادِ منه ينزلُ الحبُّ
من المحبوب منزلةً من يرتفعُ بِالْأَدَمِيَّةِ إلى الملائكية^(١) ، ليتلقى النورَ منها فنًا بعد
فن ، والفرحَ معنىً بعد معنى ، والحزنَ السماوىَ فضيلةً بعد فضيلة .

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسِيَّةٌ لا تُسَاعِدُ بعضَ العقولِ المهيَّأة للإلهام ، كي
تُحِيطَ بأفراح الحياة وأحزانها ، فتُبَدِّعَ للدنيا صورةً من صُورِ التعبيرِ الجميلةِ التى
تُثيرُ أشواقَ النفسِ ؛ كأنَّ كلَّ محبٍ وحببيته من هؤلاء الملهمين ، هما صورةٌ
جديدةٌ من آدمٍ وحواء ، فى حالةٍ جديدةٍ من معنى تركِ الجنة ، لإيجادِ الصورةِ
الجديدةِ من الفرح الأَرْضِى والحزن السماوى .

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة فى علم الصرف ، ونرى أن
مخالفة القاعدة هى القاعدة فى هذه اللفظة وفى ألفاظ أخرى .

والخطرُ في الحب ألا يكون فيه خطر ... فهو حينئذٍ نداء الجنس ، لا يكون إلا دينياً ساقطاً مبذولاً ، فلا قيمة له ولا وحى فيه ؛ إذ يكونُ اجتيالاً من عمل الغريزة جاءت فيه لابسَةٌ ثوبها النورانيٌّ من شوق الروح لتخدع النفس الأخرى فيتصلَ بينهما ، حتى إذا اتَّصلَ بينهما خاعت الغريزةُ هذا الثوب واستعلنت أنها الغريزةُ ، فأنحصرَ الحبُّ في حيوانيته ، وبطأت أسواقه الخياليةُ أجمع .

قال الراوى :

وعرفت الحسناء هذا كله من عرضها نظرةً وتلقّيتها نظرةً غيرها ، فقالت للأستاذ (ح) : أمّا أن يكونَ مع أثر الشعر والفكر في الجمال ودعوى الحب ، أثرُ الزهد في الجسم الجليلِ وأدعاءُ الفضيلة — فإنَّ بعيداً أن يجتمعا .
قال (ح) : وأين تُبعدينه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إني لأعرف مَنْ هو أعجبُ من هذا !

قالت : وماذا بقى من العجب فتعرفه ؟

قال : أعرف رجلاً متزوجاً ، أحبَّ أشدَّ الحب وأمضه ، حتى استهانَ وتدلّه ، فكان مع هذا لا يكتبُ رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذنَ فيها زوجته ، كيلا يعتدى على شيء من حقها . وزوجته كانت أعرفَ بقلبه وبحبِّ هذا القلب ، وهى كانت أعلمُ أن حبّه وسُلوانه إنما هما طريقتان في الأخذِ والتركِ بين قلبه وبين المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجهالها ، وتارةً من سبيل الطبيعة ومحاسنها .
فنهذت وقالت : يا عجبا ! وفي الدنيا مثلُ هذا الزوج الطاهر ، وفي الدنيا مثلُ هذه الزوجةِ السكرية ؟

ثم إنها وَجَّهَتْ هُنيئَةً تتجمعُ في نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استدّمتْ ،

ثم أرسلت عينها تبكي ؛ فبدرت أنا أرفه عنها حتى كففت من دمعها ،
وكان (ح) قد وخزها في قلبها وخزة أليمة بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجة
الطاهرة ، ثم الطاهرة حتى في وسوسة شيطان الغيرة . ارتفع ثلاث مرات
بالزوجة ، لترى هذه المسكينة أنها سافلة ثلاث مرات ؛ وكأنه بهذا لم يكلمها ،
بل رسم لها صورتها في عيشها المخزى وقال لها : انظري

وياما كان أجملها يترقرق الدمع في عينها الفاتنتين الكحيلتين ، فيئث
منهما حزناً يخيل لمن رآه ، أنه من أجملها سيحزن الوجود كله !
ليس البكاء من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ،
بل هو فن الحزن يضع جمالا جديداً في فن الحسن . وأكاد أعجب كيف وجد
الدمع مكاناً بين المعاني الضاحكة في وجهها ، لو لم يكن هذا الدمع قد جاء
ليظهر على وجهها الفن الآخر من جمال المعاني الباكية .

وسألتها : ما الذي خامر قلبك من كلام الأستاذ (ح) فأباك ، وأنت
كما أرى يتألق النور على جدران المكان الذي تحلين به ، فيظهر المكان وكأنه
يضحك لك ؟

فتشكت لحظة ثم قالت : أبك ما تقول أم أنت تهكم بي ؟
قلت : كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق : الجمال ، والحب ،
والألم الإنساني ؟

قالت : لا تثريب عليك ^(١) ، ولكن صوّرت لي ببلاغتك كيف أحبيتك
وأنت غير متحبيب إليّ ، وكيف جادلت نفسك فيك ودأورتها عنك ، وكما

(١) أي لا عتب عليك .

عنمتُ انحلَّ عِزِّي ؟ فهذا ما لا أكاد أعرفُ كيف وقع ، ولكنه وقع .
هذه قطرةٌ من الماء الصافي العذب ، فضع عليها (المكرسكوب) ياسيدى ، وقل لى
ماذا ترى ؟

قلت : إنك تُخرجين من السؤال سؤالاً . فما الذى خامرَ قلبك من كلام
(ح) فبكيتَ له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرةٌ من الماء ، بل تلك دمعَةٌ من دموعى ، فضع
عليها المكرسكوب ياسيدى .
قال الراوى :

وكانت حزينَةً كأنها لم تسكتْ عن البكاء إلا بوجهها ، وبقيتْ روحُها
تبكى فى داخلها . فأراد الأستاذ (ح) أن يستدرِكَ لغَطَتِهِ الأولى فقال : إنك
الآن تسألينه حقًّا من حقوقك عليه ، فكل امرأةٍ يحبها هى عروسٌ قلمه ولها على
هذا القلم حقُّ النفقة

فضحكتُ نوعاً ظريفاً من الضحك الفاتر ، كأنما ابتكره ثغرها الجميل لساعةٍ
حزنها ؛ ونظرتُ إلىَّ فقلتُ : إن كان الأمرُ من نفقة العروس على القلم فما أشبه
هذا (بلاشئ) جُحا .

فضحكتُ أظرفَ من قبل ، وخُيِّلَ إلىَّ أن ثغرها انطبقَ بعد اقتراره عى
قبليَّةِ أفلتتُ منه فأمسكها من آخرها ...
ثم قالت : ما هو (لاشئ) جُحا ؟

قلت : زعموا أن جُحا ذهبَ يَحْتَطِبُ ، وحملَ فوقَ ما يُطِيقُ ، فبهِطَ له الحِمْلُ
وبلغَ به المشقَّةُ ، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبلهً فاستعانَ به ، فقال الرجلُ :
كم تُعطينى إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لاشئ) . قال : رضيت .
ثم حمل الأبلهُ وانطلقَ معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطنى أجرى . قال

جحا : لقد أخذته . واختلفا : هذا يقول أعطني ، وهذا يقول أخذت : فلبَّيه الرجل ^(١) ومضى يرفعه إلى القاضي ، وكانت بالقاضي لُوثَةٌ ، وعلى وجهه رَوْءَةٌ الحُمُق ^(٢) تُخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه ، فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت في الحبس أو تُعْطِيهِ (اللاشيء) ...

قال جُحا في نفسه : لقد احتجَّتْ لعقلي بين هذين الأبلهين ؛ ثم إنه أدخل يده في جيبه وأخرجها مُطْبَقَةً ، وقال للرجل : تقدَّم وافتح يدي . فتقدم وفتحها . قال جُحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لا شيء) .

فقال له جُحا : خذ (لاشيئَكَ) وامضِ فقد برَّئت ذمتي . قالوا : فذهب الرجل يحتجُّ ، فقال له القاضي : مه ! أنت أقررت أنك رأيت في يده (لا شيء) ، وهو أجرك ؛ فخذ ولا تطمع في أزيد من حقك ! ...

وضحكت وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضيةٌ أن أكون عروسَ القلم ، فليُجَرِّ على القلمُ نفقتي ، وليصورْ لي كيف أحببتُ ، وكيف آمَرتُ نفسي وجادلْتُها ؟ قلت : لا أتكلَّمُ عنكِ أنتِ ولا أَسْتَطِيعُهُ . بيِّدْ أني لو صَنَفْتُ رِوَايَةً يكونُ فيها هذا الموقفُ ، لوضَعْتُ على لسانِ العاشقةِ هذا الكلامَ تُحدِّثُ به نفسها .

تقول : كيف كنتُ وكيف صرت ؟ لقد رأيتُني أعاشِرُ مائةَ رجلٍ فأخالطُهُم في شَتَّى أحوالهم ، وأُصرفُهُم في هوائى ، وكلُّهم يَجْهَدُ جُهدَهُ في استماتتى ، وكلُّهم أهلُ مودةٍ وبَذَلٍ ، وما منهم إلا جميلٌ مُخلصٌ ، قد أُنِقَ وتَجَمَّلَ وراعَ حسنُهُ ؛ كأنما هَرَبَ إلىَّ في ثيابِ عُرْسِهِ ليلةَ زفافِهِ ، وتركَ من أجلى عروساً تبكى وتَصيح

(١) أخذ بتلاييه .

(٢) اللوثة (بضم اللام) : مس من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحق ، وروءة الحق : علاماته ، وهى معروفة فى علم الفراسة .

بويلها . نعم أنا مع ذلك مُغلقة القلب دونهم جميعاً : أضدُّهم المودة والصُّحبة ،
وأكذبهم الحبَّ والهوى ؛ فلستُ أحبهم إلا بما أنالُ منهم ، ولستُ أُتجَبَّبُ
إليهم إلا ما أنوِّلهم منى ، وهم بين عقلٍ وحيلى رجالٍ لا عقولَ لهم ، وأنا بين
أهوائهم وحمقاتهم امرأةٌ لا ذات لها .

ثم أرى بغتةً رجلاً فرداً فلا أكاد أنظر إليه وينظرُ إلىَّ حتى يَضَعَ فى قاي
مسئلةً تحتاجُ إلى الحلِّ ...

وأرتاعُ لذلك فأحاولُ تناسيه والإغضاء عنه ، فتكجُ المسئلةُ فى طلبِ حلِّها ،
وتشغلُ خاطرى ، وتمتدُّ فى قلبى ؛ وهو هو المسئلةُ ...

فأفزعُ لذلك وأهتمُّ له ، وأجهدُ جهدى أن أكونَ مرةً حازمةً بصيرةً ، كرجالِ
المال فى حق الثروة عليهم ؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً ، كرجالِ الحرب فى واجبها عندهم ؛
ومرةً خبيثةً مُنكرةً ، كرجالِ السياسة فى عملها بهم ؛ ولكنى أرى المسئلةُ تلينُ
لى وتتشكَّلُ معى وتحتملُ هذه الوجوه كلها ، لتبقى حيثُ هى فى قاي ؛ فانه هو
هو المسئلةُ ...

وأغتمُّ لذلك غمًّا شديداً ، وأرانى سأسقُطُ بعد سقوطى الأول وأقبحَ منه ؛
إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخِداع ، وهذا يُفسدُه الإخلاص ؛ وبالنكر ، وهذا يعطلُّه
الوفاء ؛ وبالنسيان ، وهذا يُبطله الحب ؛ وإذ عواطفنا كلها متجرِّدة لِعرضٍ واحدٍ ،
هو كسبُ المالِ وجمعه وأدخاره ؛ وفضيلتنا عمليةٌ لا تتخيَّل ، حسابيةٌ لا تختلُّ ؛
فيستوى عندنا الرجلُ بلغ جماله القمر فى سمانه ، والرجلُ بلغت دمايته الذبابُ
فى أقداره ؛ والحبُّ معنا هو : كم فى كم ويبقى ماذا ... أو كما يقول أهلُ السياسة :
هو « النقطة العملية فى المسئلة » . ولكن المسئلةُ التى فى قاي لا ترى هذا حلاً
لها ؛ لأنه هو هو المسئلةُ ...

فيزيدُ بى الكربُ ، ويشتدُّ على البلاء ، وأحتملُ لقاي وأدبرُ فى خنته ،

وأذهبُ أَقْنَعَهُ أَنْ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ شَرِيفًا لَمْ يُحِبَّ الْمَرْأَةَ السَّاقِطَةَ ، إِذَا يُعَابُ بِصُحْبَتِهَا وَالْاِخْتِلَافِ إِلَيْهَا ، فَإِذَا كَانَ سَاقِطًا لَمْ تُحِبَّهُ هِيَ ، فَإِنَّمَا هُوَ صَيْدُهَا وَفَرِيسَتُهَا ، وَمَوْضِعُ تَقَمُّطِهَا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ ؛ وَأُسْرِفُ عَلَى قَلْبِي فِي الْمَلَامَةِ وَالْتَعْذِيلِ فَأَقُولُ لَهُ : وَيْحَكَ يَا قَلْبِي ! إِنْ الْمَرْأَةَ مِنَّا إِذَا تَفَتَّحَ قَلْبُهَا لِحَبِيبٍ ، تَفَتَّحَ كَالْجُرْحِ لِيَنْزِفَ دِمَاءَهُ لَا غَيْرَ . فَيَقْتَنَعُ الْقَلْبُ وَيُجْمَعُ عَلَى أَنْ يَنْسَى ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْ طَلَبِهِ الْحُبِّ ؛ وَأَرَى الْمَسْئَلَةَ قَدْ بَطَلَتْ وَكَانَ بُطْلَانُهَا أَحْسَنَ حَلٍّ لَهَا ، وَأَنَا مُوَادِعَةٌ مَطْمَئِنَّةٌ ، فَيَأْتِي هُوَ فِي نَوْمِي وَيَدْخُلُ فِي قَلْبِي ، وَيُعِيدُ الْمَسْئَلَةَ إِلَى وَضْعِهَا الْأَوَّلِ ، فَمَا أَسْتَيْقِظُ إِلَّا رَأَيْتُهُ هُوَ هُوَ الْمَسْئَلَةُ . . .

فَأَتَنَا هِيَ فِي الْخَوْفِ عَلَى نَفْسِي مِنْ هَذَا الْحُبِّ ، وَأَرَاهُ سَجَنَهَا وَعِقَابَهَا ، وَقَهَرَهَا وَإِذْلَالَهَا ، فَأَقُولُ لَهَا : وَيْلَكَ يَا نَفْسِي ! إِنَّمَا هُمُكَ فِي الْحَيَاةِ وَسَائِلُ الْفَوْزِ وَالْغَلَبِ ، فَأَنْتِ بِهَذَا عَدُوَّةٌ مَسْمُوءَةٌ فِي غَفْلَةِ الرِّجَالِ صَدِيقَةٌ ، وَقَدْ وُضِعَتْ فِي مَوْضِعٍ تَعِيشِينَ فِيهِ بِإِهَانَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ ، يَسْمُونَهَا فِي نَذَالَتِهِمْ بِالْحُبِّ ؛ فَأَنْتِ عَدُوَّةٌ الرِّجَالِ بِمَعْنَى مِنَ الدَّهَاءِ وَالْخُبْثِ ، وَعَدُوَّةُ الزَّوْجَاتِ بِمَعْنَى مِنَ الْحَقْدِ وَالضَّغِينَةِ ، وَعَدُوَّةُ الْبَغَايَا أَيْضًا بِمَعْنَى مِنَ الْمَغَالِبَةِ وَالْمُنَافَسَةِ ، وَكُلُّ مَا يَسْتَطِيعُ الدَّهَاءُ أَنْ يَعْمَلَ فَهُوَ الَّذِي عَلَى أَنَا أَنْ أَعْمَلَهُ ، فَمَاذَا أَصْنَعُ وَأَنَا أَحِبُّ ؟ وَكَيْفَ أُنْجِ وَأَنَا أَحِبُّ ؟ وَلَكِنَّ النَّفْسَ تَجِيبُنِي عَلَى كُلِّ هَذَا بِأَنْ هَذَا كُلُّهُ بَعِيدٌ عَنِ الْمَسْئَلَةِ مَا دَامَ هُوَ هُوَ الْمَسْئَلَةُ . . .

قال الراوى :

وكانت كالذاهلة مما سمعت ، ثم قالت : ألك شيطانٌ في قلبي ؟ فهذا كله هو الذى حدث في سبعة أيام .

قال (ح) : ولكن كيف يقع هذا الحب ؟ وهبَكَ صَنَّفَتْ تِلْكَ الرِّوَايَةَ ، وَوَضَعَتْ عَلَى لِسَانِ الْعَاشِقَةِ ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فَمَاذَا كُنْتَ تُنْطِقُهَا فِي وَصْفِ حُبِّهَا

وما اجتذبتها من رجل فاز بقلبها ولم يداورها ، بعد مائة رجلٍ كلَّهم داورها ولم
يفزُ منهم أحدٌ ؟ أتكون في وجه هذا الرجلِ أنوارُ كَتَبَاشِيرِ الصبحِ تدلُّ على
النهارِ الكامنِ فيه ؟

قالت هي : نعم نعم . بماذا كنتَ تنطقها ؟
قلتُ : كنتُ أضعُ في لسانها هذا الكلامَ تُجيبُ به عاذلةً تَعْدُّها :
تقول : لا أدري كيف أحببته ، ولكنَّ هذه الشخصية البارزة منه جذبتني
إليه ، وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مُفْعَمًا بالمغناطيس مَصْدَرُهُ هو ، ومعناه هو ،
ولا شيء فيه إلا هو .

عرَضَتْه لي شخصيته ظاهراً لأن جوابَ شخصيته فيَّ ، وأصبح في عينيَّ
كبيراً لأن جوابَ شخصيتي فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيد كلَّ
يوم ظهوراً ، وتزيدني كل يوم بَصَراً ، وأعطاها حقه في السكالِ عندي حقه في الحب
منى ؛ وبتلك الشخصية التي جوابها في نفسي ، أصبح ضرورةً من ضرورات نفسي .

قال الراوى :
ولما رأيتها في جَوِّ نَسِيمِهِ وعاصِفَتِهِ ، أردتها على قِصَّتِها وشأنها ، فإذا
قلتُ لها وماذا قالت ؟ ...

الجمال البائس

٤

قلتُ لها : إن قلبي وقلبك يتجاليان^(١) في هذه الساعة ويتباكيان ؛
أتدريين ماذا يقول لك قلبي ؟

إنه ليقولُ عني : أعزَّزْ عليَّ بأن تكوني ههنا ، وأن تتألفَ منك هذه
القصةُ التي تبدأُ بالوصمة وتنتهي بالاستخذاء ، فتطلقُ المرأةُ في متآلفها ومهاوئها
ليبلغَ بها القدرُ ما هو بالغ ؛ وليس إلا الضرورةُ وسطوتُها بها ، والإذلالُ ومهانتُها
لها ، والاجتماعُ وتهكُّمُها عليها ، والابتذالُ واستعبادُ إياها ؛ ومهما يأتِ في القصةِ
من معنَى فليس فيها معنى الشرف ؛ ومهما يكنُ من مَوْقِفٍ فليس فيها موقفُ
الحياء ؛ ومهما يحجرُ من كلامٍ فليس فيها كلمةُ الزوجة . وأعزَّزْ عليَّ بأن أرى
المصباحَ الجميلَ المشبوبَ الذي وُضِعَ ليضيءَ ما حوله ، قد انقلبَ فجعلَ يحرقُ
ما حوله ؛ وكان يتلألُ ويتوقدُ ، فارتدَّتْ تسعَّرَ ويتصمَّرُ ويحجى على ما يتصلُّ به ،
وسقطَ بذلك سقطةً حمراء ...

أفتدريين ماذا يقول لي قلبك ؟

إنه يقولُ عنك : يا بؤسنا من نساء ! لقد وُضِعْنَا وضِعاً مقلوباً ، فلا تستقيمُ
الإنسانيةُ معنا أبداً ، وكلُّ شَيْءٍ منقلبٌ لنا متنكِّرٌ ؛ والشفقةُ علينا تنقلبُ من
تلقاء نفسها تهكِّمنا بنا ؛ فنبكي من شفقةِ بعضِ الناس ، كما نبكي من ازدراءِ بعضِ
الناس . يا بؤسنا من نساء !

(١) أى يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح .

قالت : صدقتَ ، وكذلك تنقلبُ أسبابُ الحياةِ معنا أسباباً للمرضِ والموتِ ؛
فاليقظةُ ليس لها عندنا النهارُ بل الليلُ ، والصَّحوُ لا يكونُ فينا بالوعى بل
بالسكرِ ، والراحةُ لا تكونُ لنا في السكونِ والافتراقِ ، بل في الاجتماعِ والتبدُّلِ ؛
وماذا يرَدُّ العيشُ على امرأةٍ من واجباتها السهرُ ، والسكرُ والعريضةُ ، والتبدُّلُ ،
وتدريبُ الطباعِ بالوقاحةِ ، وتَضَرُّيَةُ النفسِ على الاستغواءِ ، والتصدُّى بالجمالِ
للكسبِ من رذائلِ الفساقِ وأمراضِهِمْ ، والتعرضُ لمعروفِهِمْ بأساليبِ آخرُها
الهوانُ والمذلةُ ، واستباحَتُهُمْ بأساليبِ أولُها الخداعُ والمكرُ ؟

إن حياةَ هذه هي واجباتُها ، لا يكونُ البكاءُ والهمُّ إلا من طبيعةٍ من
يحياها ، وكثيراً ما نعالج الضحكَ لنفتحَ لأنفسنا طُرُقاً تتَّهَرَّبُ فيها معاني البكاءِ ؛
فإذا أثقلنا الهمَّ وجلَّ عن الضحكِ وعجزنا عن تكافٍ السرورِ ، ختلنا العقلَ
نفسه بالخرِّ ؛ فما تسكرُ المرأةُ منا للسكرِ أو النشوةِ ، بل للنسيانِ ، وللقُدرةِ على
العَرَاحِ والضحكِ ، ولإمدادِ محاسنها بالأخلاقِ الفاجرةِ ، من الطَّيشِ والخلاعةِ
والسَّفهِ وهذيانِ الجمالِ الذي هو شعرُهُ البليغُ ... عند بُلغاءِ الفساقِ .

قال الاستاذ (ح) : أهذا وحاضرُ الغادةِ منكن هو الشبابُ والصَّبِيُّ والجمالُ
واقبالُ العيشِ ، فكيف بها فيما تَسْتَقْبِلُ ؟

قالت : إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُهُ على أنفسنا ، وليس من امرأةٍ في
هذه الصناعةِ إلا وهي مُعِدَّةٌ لمستقبلِها : إما نوعاً من الانتحارِ ، وإما ضرراً من
ضُرُوبِ الاحتمالِ للذلِّ والخسْفِ ؛ وليس مستقبلُنا هذا إلا كمستقبلِ الثمارِ النَّضرةِ
إذا بقيتْ بعد أوانِها ، فهو الأيامُ العَفِنَةُ بطبيعةٍ ما مضى ... بلى إن مستقبلَ المرأةِ
البنَى هو عقابُ الشرِّ .

قال (ح) : هذا كلامٌ ينبغي أن تعلمه الزوجاتُ ؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تَتَبَرَّمُ

بزوجها وتَصْجَر وتَعْتَم ، وتزعمُ أنها مُعَذِّبَةٌ ؛ فتَتَسَخَّطُ الحَيَاةَ ، وتندبُ نفسها ؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحدٍ ، تألفه ، فتعتاده ، فترزقُ من اعتياده الصبرَ عليه ، فيسكنُ بهذا نِفَارُهَا ؛ وتلك نعمةٌ واجبُها أن تحمدَ اللهَ عليها ، مادام في النساءِ مثلُ الشَّهيداتِ ، تتعذبُ الواحدةُ منهن فَنُونًا من العذابِ بمائة رجل ، وبألف رجل ، وهم مع ذلك يَبْتَلُونَ رُوحَهَا بعددِهم من الذنوب والآثام .
وقد تستنقلُ الزوجةُ واجباتِها بين الزوج والنسلِ والدار ، فتغتاضُ وتشكو من هذه الرِّجْرةِ اليوميةِ في الحياة ؛ ثم لا تعلم أن نساءَ غيرها قد انقلبتْ بهن الحَيَاةُ في مثل الخسفِ بالأرض .

وقد تجزعُ للمستقبل وتُنسى أنها في أمانٍ شَرَفِها ، ثم لا تعلم أن نساءَ يَتَرَقَّبْنَ هذا الآتِي كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة ، من يومٍ فيه الشرطَةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراءَ هذا كله .

فقلتُ : وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العزاءُ كلُّ العزاءِ للزوجاتِ ، وهي أن الزوجةَ امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتِها ، والأخرى لا تشعرُ إلا بضياع ذاتِها .
والزوجةُ امرأةٌ تجدُ الأشياءَ التي تَتَوَزَّعُ حُبُّها وحنانُ قلبِها ، فلا يزال قلبُها إنسانِيًّا على طبيعته ، يَفِيضُ بالحب ، ويستمدُّ من الحب ؛ والأخرى لا تجدُ من هذا شيئًا ، فتتقلبُ وحشيَّةَ القلب ، يفيضُ قلبُها برذائل ، ويستمدُّ من رذائل ؛ إذ كان لا يجدُ شيئًا مما هيأته الطبيعةُ لِمَتَعاقَ به من الزوج والدار والنسل .
والزوجةُ امرأةٌ هي امرأةٌ خالصةُ الإنسانية ، أما الأخرى فن امرأةٌ ومن حيوانٍ ومن مادةٍ مُهْلِكَةٍ .

وتَمَامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طَبِيعِيًّا مُسْتَقَرًّا في قانونه إلا للزوجاتِ وحدهن ؛ فهو نِعْمَتُهُنَّ الكبرى ، وثوابُ مستقبَلهن وماضِيهن ، وبرَ كَتَبُنَّ على الدنيا ؛ ومهما تسكن الزوجةُ شَقِيَّةً بزوجها ، فإن زوجَها قد أولدها سعادَتَها ،

وهذه وحدها مزيةٌ ونعمة ؛ أما أولئك فليس لهم عاقبة ^(١) ؛ إذ النسلُ قلبُ
الحاتهن كلها ؛ وهو غنىٌ إنسانىٌ ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ؛ وهو رحمة ،
ولكنها لا تكون إلا لعنةً عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعةُ في
موضع حبِّ الولد الجديد من قلوبهن ، حبَّ الرجل الجديد ، فكانت هذه
نقمةً أخرى .

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثانى بعد الأول ،
أو الثالث بعد الثانى ، أو الرابع بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديدُ عليهن هو الواحدُ بعد الواحدِ إلى آخر العدد ، ولكنه
الرجلُ الذى يكون وحده بالعدد جميعاً ؛ إذ هو عندهن يُشبه الزوجَ فى الاختصاص
وفى شرف الحب ، فهو الحبيبُ الشريف الذى تتعلَّقُهُ إحداهن وتريد أن تكونَ
معه شريفة ؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدته منهن لا تجده إلا لتعانيَ
ألم فقده .

يا عجباً ! كلُّ شىء فى الحياة يُلقى شيئاً من الهم أو النكدِ أو البؤسِ على
هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعةَ كلها ترجمهن بالحجارة ...

قالت هى : وليست الحجارةُ هى الحجارةُ فقط ، بل منها ألفاظُ تُرجمُ بها
المسكينةُ كألفاظك هذه ... وكتسمية الناس لها « بالساقطة » ؛ فهذه الكلمة
وحدها صخرةٌ لا حجر .

ثم تنهدتْ وقالت : مَنْ عسى يعرفُ خطرَ الأسرة والنسلِ والفضيلةِ كما
تعرفها المرأة التى فقدتها ؟ إننا نُحسُّها بطبيعة المرأة ، ثم بالحزنِ إليها ، ثم بالحسرةِ
على فقدها ، ثم برويتها فى غيرنا ؛ نعرفها أربعة أنواعٍ من المعرفة إذا عرفتها

(١) يقال ليس له عاقبة ، أى ليس له نسل وعقب .

الزوجة نوعاً واحداً . ولكن هل ينصفنا الرجال وهم يتدافعوننا ؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا ؟

قلت : ولكن الأسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحمة خديها ، بل على أخلاقها وطباعها ؛ فهذا هو السبب في بقاء المرأة الساقطة حيث ارتطمت ؛ وهي متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل .

ومن ثم كانت الزلة الأولى ممتدة متسحبة إلى الآخر ؛ إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي ، أما في اعتبار غيرها فهي تاريخ للنسل ، إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب كله فلا يؤثق به .

وهذه الزلة الأولى هي بدء الانهيار في طباع رقيقة متداخلة متسائدة ، لا يُمهما إلا تماسكهما مجملته ؛ وما لم تماسك إلا بجملته فأول السقوط فيه هو استمرار السقوط فيه ؛ ولهذا لا يعرف الناس جريمة واحدة تعد سلسلة جرائم لا تنتهي ، إلا سقطة المرأة ؛ فهي جريمة مجنونة كالإعصار الثائر يلغها لها ؛ إذ تتناول المرأة في ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترتقى إلى مستقبلها ونسلها ؛ فيهتكها الناس هي وسائر أهلها ، من جاءت منهم ومن جاءوا منها . والمرأة التي لا يحميها الشرف لا يحميها شيء ، وكل شريفة تعرف أن لها حياتين إحداها العفة ، وكما تدافع عن حياتها الهلاك ، تدافع السقوط عن عفتها ؛ إذ هو هلاك حقيقتها الاجتماعية ؛ وكل عاقلة تعرف أن لها عقليْن تحتمي بأحدهما من نزوات الآخر ، وما عقلاها الثاني إلا شرف عرضها .

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هي الحقيقة ، فما تسامح الرجال في شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل ، فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عَفُوا تَعَفَّ نَسَاؤُكُمْ . » فإن عَفَاَ المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ، ما لم تهَيِّأَ لها الوسائل والأحوال التي تُعِينُ نفسها على ذلك ؛ وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمها ، تشدُّدُ الرجال في قانون العِرض والشرف . فإذا تراخى الرجال ضَعُفَت الوسائل ، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعف تنبثق حرية المرأة متوجِّهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر ، على ما تكون أحوالها وأسبابها في الحياة . وهذه الحرية في المدنية الأوروبية قد عَوَّدَت الرجال أن يُغضوا ويتَسَمَّحوا ، قهَافَتِ النساءَ عندهم ، تنالُ كلُّ منهن حَكَمَ قابِها ويَخضعُ الرجل

على أن هذا الذي يسميه القومُ حرية المرأة ، ليس حريةً إلا في التسمية ، أما في المعنى فهو كما ترى :

إما شُرُودُ المرأة في التماسِ الرِّزْقِ حين لم تجد الزوج الذي يَعُولُها أو يَكفِيها ويُقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثلُ هذه هي حُرَّةٌ حرية الشكْدِ في عيشها ؛ وليس بها الحرية ، بل هي مستعبدةٌ للعملِ شرًّا ما تُستَعْبَدُ امرأة .

وإما انطلاقُ المرأة في عِبائِها وشهواتِها مُستجيبةً ، بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع في الرجال ، بمقدار ما يشتره المال ، أو تُعِينُ عليه القوة ، أو يسوِّغُه الطيش ، أو يجلبه التهتك ، أو تدعو إليه الفنون ؛ فمثلُ هذه هي حُرَّةٌ حرية سقوطِها ؛ وما بها الحرية ، بل يستعبدُها التمتع .

والثالثة حرية المرأة في انسلاخِها من الدين وفضائله ، فإن هذه المدنية قد نسخت حرامَ الأديان وحلالها بحرامٍ قانونيٍّ وحلالٍ قانونيٍّ ، فلا مَسْقَطةَ للمرأة ولا غَضاضةَ عليها قانوناً ... فيما كان يُعَدُّ من قبلُ خِزياً أَقْبَحَ الخِزْيِ وعاراً أشدَّ العار ؛ فمثلُ هذه هي حُرَّةٌ حرية فسادِها ، وليس بها الحرية ، ولكن تستعبدُها الفوضى .

والرابعة عَطْرُ سَةِ الْمَرْأَةِ الْمُتَعَلِّمَةِ ، وَكِبَرُ يَأْوُهَا عَلَى الْأُنُوَّةِ وَالذِّكُورَةِ مَعًا ؛ فَتَرَى أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَبْلُغْ بَعْدُ أَنْ يَكُونَ الزَّوْجَ النَّاعِمَ كَقَفَّازِ الْحَرِيرِ فِي يَدِهَا ، وَلَا الزَّوْجَ الْمُؤَنَّثَ الَّذِي يَقُولُ لَهَا نَحْنُ امْرَأَتَانِ ... فَهِيَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مُطْلَقَةٌ مُخَلَّاةٌ كَيْلَا يَكُونَ عَلَيْهَا سُلْطَانٌ وَلَا إِعْرَةَ ؛ فَتُثَلُّ هَذِهِ حُرَّةٌ بِانْقِلَابِ طَبِيعَتِهَا وَزَيْغِهَا ، وَهِيَ مُسْتَعْبِدَةٌ لِهَوَسِهَا وَشَذُوذِهَا وَضَلَالَتِهَا .

حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَوَّلُهَا مَا شَتَّتَ مِنْ أَوْصَافٍ وَأَسْمَاءَ ، وَلَكِنْ آخِرُهَا دَائِمًا إِمَّا ضِيَاعُ الْمَرْأَةِ وَإِمَّا فَسَادُ الْمَرْأَةِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى التَّوَاءِ الطَّبِيعَةِ فِي الْمَدِينَةِ ، اسْتَوَاءُ الطَّبِيعَةِ فِي الْبَادِيَةِ ؛ فَالرِّجَالُ هُنَاكَ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ، وَالنِّسَاءُ بِهَذَا قَوَّامَاتٌ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ ؛ إِذْ يَنْتَقِمُونَ الْعَنْكَرَ انْتِقَامًا بَنُورٍ دَمًا ؛ وَبِهَذِهِ الْوَحْشِيَّةِ يَقَرَّرُونَ شَرَفَ الْعِرْضِ فِي الطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَيَجْعَلُونَهُ فِيهَا كَالْفَرِيزَةِ ، فَيُحَاجِرُونَ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ أَوَّلَ شَيْءٍ بِالضَّمِيرِ الشَّرِيفِ الَّذِي يَجِدُ وَسَائِلَهُ قَائِمَةً مِنْ حَوْلِهِ .

قال الراوى :

وغطت وجهها بيديها وقالت : إنك لا تزال ترجم بالحجارة ... إن فيك متوحشاً .

قلت بل متوحشة ...

إنك أنتِ قد تكلمتِ فيَّ ، فجمالك الذى يضع الإنسان في ساعة مجنونة ليمنعه بطيشها ، قد وضعنا نحن في ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلتُ جمالكَ ، فقد قلتُ وحيك ، إذا لا جمالَ عندي إلا ما فيه وحي .

أما قلتِ : إنك لو خيَّرتِ في وجودك لما اخترتِ إلا أن تسكوني رجلاً نابغةً يكتبُ ويفكر ويتلقى الوحى من الوجوه الجميلة ؟

فدقت صدرها بيدها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفكرت لحظة
وقالت : إذا كنت أنت تزعم أنني قلته ، فأظن أنني قاته ...
قال (ح) : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هي شيئاً من هذا ؟ أربع
غلطاتٍ شنيعةٍ من فساد الذوق .

قالت : بل قل : أربع غلطاتٍ جميلة من فنّ الذوق ؛ إن الرجل الظريف
القويّ الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدثت المرأة ...

قال (ح) : لتضحك منه ؟

قالت : لا ، بل لتضحك له ...

قلت : فلي إليك رجاء .

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل .

فماذا قلت لها وماذا قالت ؟ ...

الجمال البائس

٥

قلتُ لها : إن كلمة الكفر لا تكون كفرَةً إذا أُكْرِهَ عليها من أُكْرِهَ
 وقلبه مطمئنٌ بالإيمان ، وكلمة الفجور أهونُ منها وأخفُ وزناً وشأناً ، ثم لا تكونُ
 إلا فاجرةً أبداً ، إذ لا إكراه على هذه الدّعة إكراهاً لا خيارَ فيه . وما أولُ
 الدّعة إلا أن تمدّ المرأةُ طرفَها من غير حياء ، كما يمدُّ اللصُّ يده من غير أمانة .
 ومن اضطرَّ إلى الكفر استطاع أن ينجأً بحُرابِ المسجد في أعماقه فيصلّي
 ثمة ، ولكن الفجور لا يتركُ في النفس موضعاً لدينٍ ولا إيمانٍ ؛ إذ هو دائبٌ
 في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلا ضابط ، فيجعلُ المرأةَ تحيا بعيدةً
 عن ضميرها ، فيضعُفُ منها أولُ ما يضعُفُ آثار الآداب والأخلاق ، فيهلكُ
 فيها أولُ ما يهلكُ إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورها بمجد هذا المعنى .
 فإذا انتهت المرأةُ إلى هذا ، لم يكن لها مبدأ ولا عقيدة إلا أن على غيرها
 أن يتحمّلَ عواقبَ أعمالها ، وهذه بعينها هي حالة الجنون جنون عقله ؛
 أفلا تكون المرأةُ حينئذٍ مجنونةً جنونَ جسمها ... ؟

فساءها ذلك وبان فيها ، ولكنها أمسكتُ على ما في نفسها ؛ والمرأةُ من
 هؤلاء لا يمشي أمرها في الناس ولا يتصلُ عيشها ، إلا إذا كثرتُ طباعها كثرةً
 ثيابها ، فهي تحلَعُ وتلبسُ من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل ؛
 فينبعثُ منها الغضبُ وهي في أنعم الرضى ، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ ،

وكان لم تغضب ولم ترض لأنها ليست لأحدٍ ولا لنفسها .
وتسائر غضبها ثم قالت : كان كلامك أن لك رجاءً إلى ، فأنا أحب ...
أحب أن أعلم .

قلت : وأنا كذلك أحب ... أحب أن أعلم .
فضحكت وسررت عنها ، وثبتت على شفقتها ابتساماً لوجاء ملك من السماء
ليضع في ثغرها ابتساماً أجمل منها ، لما وجد أجمل منها .
ثم قالت : تحب أن تعلم ماذا ؟

قلت : أحب أن أعلم منك قصة هذه الحياة ما كان أولها ؟
قالت : لقد قضيت من حكمك فينا ، ولكنك أخطأت ، فلكل ليلٍ مُظلمٍ
كوكبه ؛ والكوكب الوقاد المعلق فوق ليل المرأة منا هو إيمانها ؛ نعم إنه ليس
كإيمان الناس في واجباته ، لكنه كإيمان الناس في تعزيتيه ، والله ربنا وربكم !
قلت : لو أطيع الله بمعصيته لاستقام لك هذا ؛ وإنما أنت تصفين الإيمان
الأول الذي كان عملاً ، فصار ذكرى ، فصارت الذكرى أملاً ، فظننت الأمل
هو الإيمان .

قالت : ثم إننا جميعاً مكرهات على هذه الحياة ، فما نحن إلا صرعى المصادمة
بين الإرادة الإنسانية وبين القدر .

قلت : ولكن لم تهف واحدة منكن في غلظتها الأولى وهي مستكرهة
على غلظة ؛ بل وهي راغبة في لذة ، أو مبادرة لشهوة ، أو طالبة لمنفعة .

قالت : هذا أحد الوجهين ؛ أما الآخر فالتماس الرزق وصلاح العيش ؛
فالرجل مع الرجل ، رأس ماله قوته ، وعمله بقوته ؛ ولكن المرأة مع الرجل
رأس مالها أنوثتها ، وعمل أنوثتها . وفي الوجه الأول — وجه اللذة والمنفعة — تحتال
كلمة الفجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة ، منها الحب والزواج والسعادة ،

فتستسلم المرأة مضطرةً ليقع شيء من هذا . وفي الوجه الثاني — وجه الرزق والعيش —
تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعفة بكلمات رهيبة قاتلة ،
منها الجوع والفقر والشقاء ، فتسقط المرأة مضطرةً خيفةً أن يقع شيء من هذا ؛
وفي أحد الوجهين يكون الرجل هو الفاجر لفساد آدابه ، وفي الوجه الآخر يكون
الفاجر هو المجتمع لفساد مبادئه .

قلت : أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه المدينة ، لم تقع أبداً إلا في
موضع غلطة من غلطات القوانين ؛ وآفة هذه القوانين إنها لم تُسنَّ لمنع الجريمة
أن تقع ، ولكن للعقاب عليها بعد وقوعها ؛ وبهذا عجزت عن صيانة المرأة
وحفظها ، وتركته لقانون الغريزة الوحشية في هؤلاء الوحوش الأدميين ، الذين
يأخذهم الشعار من هذه الرائحة التي لا يعرفونها إلا في اثنين : المرأة الجميلة والذهب .
فما ألجأت امرأة حاجتها أو فقرها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً ، إلا ضرب به ذلك
الشعار ؛ فان استخفت بنزواته وتعسرت عليه ، طردها إلى الموت ، ومنعها أن
تعيش من قبله ؛ وإن صلحت له وتيسرت ، آواها هي وطرد شرفها ...

وبخلاف ذلك الدين ؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها ، فهو
في أمر المرأة يلزم الرجل واجبات ، ويلزم المجتمع واجبات غيرها ، ويلزم
الحكومة واجبات أخرى :

أما الرجل فينبغي له أن يتزوج ، ويتحصن ، ويغار على المرأة ، ويعمل
لها ؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدب ، ويستقيم ، ويعين الفرد على واجبات
الفضيلة ، ويتدأجج ويشد بعضه بعضاً ؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمي المرأة ،
فتعاقب على إسقاطها عقاب الموت والألم والتشهير ؛ لتقيم من الثلاثة حُرّاً
جبارةً ، من لا يخش الله خشياً ؛ فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضع
غلطة تسقط فيه المرأة .

قال الأستاذ (ح) : صدقت ، فالحقيقة التي لا مرءاء فيها ، أن فكرة الفجور
فكرة قانونية ؛ وما دام القانون هو أباحها بشروط ، فهو هو الذي قررها في المجتمع
بهذه الشروط ؛ ومن هذا التقرير يُقدّم عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة
واطمئنان ؛ ومن ثم تأتي الجرأة على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون ،
ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطة بأخر معانيها وأقبح معانيها .

وتقرير سيادة المرأة في الاجتماع الأوربي ، وتقديّمها على الرجال ، والتأدّب
معه ؛ كل ذلك يجعل جرأة السفهاء عليها جرأة متأدّبة ، حتى كأن المتحكّك
منهم في امرأة يقول لها : من فضلك كوني ساقطة ... أما هنا جرأة السفهاء
جرأة ووقاحة معاً ، وذلك هو سرّها .

القانون كأنما يقول للرجال : احتالوا على رضى النساء ، فإن رضى الجريمة
فلا جريمة ؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براعة الرجل الفاسق إنما هي في الحيلة على
المرأة وإيقاظ الفطرة في نفسها ، بأساليب من الملق والرياء والمسكر ، تتركها عاجزة
لا تملك إلا أن تدعّن وترضى ؛ وبهذا ينصرف كل فاجر إلى إبداع هذه
الأساليب التي تُطلق تلك الفطرة من حيائها ، وتخرجها من عفتها ، « تطبيقاً
للقانون » ...

ولا سيادة في اجتماعنا للمرأة ، ولكن القانون جعلها سيادة نفسها ،
وجعلها فوق الآداب كلّها ، وفوق عقوبة القانون نفسه إذا رضيت ؛ إذا
رضيت ماذا ... ؟

قلت : فإذا كان القانون هنا في مسئلتنا هذه يعدل بالظلم ، ويحمي الفضيلة
باطلاق حرية الرذيلة ؛ فهو إنما يُفسد الدين ، ويصرف الناس عن خوف الله
إلى خوف ما يخاف من الحكومة وحدها ؛ وبهذا لا يكون عمله إلا في تصحيح

الظاهر من الرجل والمرأة ، ويدعُ الباطن يُسرُّ ما شاء من خُبته وحيلته وفساده ؛ فكأنه ليس قانوناً إلا لتنظيم التفق وإحكام الخديعة ؛ فلا جرم كان قانوناً لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها ؛ فإذا أخذت المرأة مُلاينةً ورضى فهذا خبْرٌ قانونيٌ ... وإن كانت الملاينة هي عمل الحيلة والتدبير ، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكر ، وإن ضاعت المرأة وسقطت ، وذهب شرفها باطلاً ، وأحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً . أما إذا أخذت المرأة مُسكارهً وغضباً ، فهذه هي الجريمة في القانون ؛ ويسمى القانون جريمة الاعتداء على العرض ، وهي بأن تُسمى جريمة العجز عن إرضاء المرأة ، أحق وأولى . على أن المسكينة لم تؤخذ في الحالتين إلا غضباً ، ولكن اختلفت طريقة الرجل الغاصب ؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأد بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة ، هي إخراجها من شرفها ، وجردانها حقوق إنسانيتها في الأسرة ، وطردُها وراء حدود الاعتبار الاجتماعي ، وتركها ثمة مُحللةً لمجاري أمورها ، فلا يتيسر لها العيش إلا من مثل ذلك الرجل الفاجر ، فلا تكون لها بيئةٌ إلا من أمثاله وأمثاله ، كما يجتمع في الموضع الواحد ، أهلُ المصير الواحد ، على طريقة القطيع في الجزيرة ...

فقلت هي : الحق أن هذه الجريمة أولها الحب ؛ وهي لا تقع إلا من بين نقيضين يجتمعان في المرأة معاً : كبرُ حبها إلى ما يفوت العقل ، وصغرُ عقلها إلى ما ينزل عن الحب . والمرأة تظلُّ هادئةً ساكنةً رزينةً ، حتى تصادفها اللحاظُ النارية من العين المقدرة ، لها فلا يكون إلا أن تملأها ناراً ولهباً ؛ ولتكن المرأة من هي كائنةً ، فانها حينئذٍ كستودع البارود ، يهولُ عظمه وكبره ، وهو لا شيء إذا اتصلت به تلك الشرارة المهاجمة .

ولست حراسة المرأة شيئاً يُؤبه له أو يُعتد به أو يسمّى حراسة ، إلا إذا

كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار؛ فيستوى في وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة، والفرغ من الحريق الأعظم؛ فيجتأ لاثنيهما بوسائل واحدة في قدر واحد واعتبار واحد.

وإذا تركت المرأة لنفسها تحرشها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها، فقد تركت لنفسه مستودع البارود تحرسه جدرانها الأربعة القوية...

والرجال يعلمون أن المرأة مظاهر طبيعية، من الخيلاء والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهاة بالعفة؛ ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يعلمون كذلك، أن هذا الظاهر مخلوق مع المرأة كجلد جسمها الناعم، وأن تحته أشياء غير هذه تعمل عملها وتصنع البارود النسائي الذي سينفجر...

قلت: إذا كان هذا فقبح الله هذه الحرية التي يريدونها للمرأة. هل تعيش المرأة إلا في انتظار الكلمة التي تحكمها باطف، وفي انتظار صاحب هذه الكلمة؟

قالت: إن هذا حق لا ريب فيه، وأوسع النساء حرية أضيعةن في الناس؛ وهل كل مومس في حريتها في نفسها؟

ولكن يا شومها على الدنيا! إنها هي بعينها كما قلت أنت: حرية المخلوق الذي يُترك حراً كالشريد، لتجرب فيه الحياة تجاربها المؤلمة. وماذا في يد المرأة من حرية هي حرية القدر فيها؟

قلت: ولهذا لا أرجع عن رأيي أبداً: وهو أنه لا حرية المرأة في أمة من الأمم، إلا إذا شعر كل رجل في هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها، بحيث لو أهينت واحدة نار الكل فاستقادوا لها، كأن كرامات الرجال أجمعين قد أهينت في هذه الواحدة؛ يومئذ تصبح المرأة حرة، لا بحريتها هي، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال...

فضحكت وقالت : (يومئذٍ) ! هذا اسمُ زمانٍ أو اسمُ مكانٍ ... ؟

قال الأستاذ (ح) : ولكننا أبعدنا عن قصة هذه الحياة ، ما كان أولها ؟
قالت : إن الشبان والرجال علمُ يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه ؛
ويجب أن يقرَّ في ذهن كل فتاة ، أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ،
ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كالحل الذي يتباع منه منديلاً من الحرير
أو زجاجة من العطر ، فيه إكرامها وخدمتها .

وأساس الفضيلة في الأنوثة الحياء ؛ فيجب أن تعلم الفتاة أن الأنثى متى
خرجت من حياؤها وتهجمت ، أى توقَّحت ، أى تبدَّلت ، استوى عندها أن
تذهب يميناً أو تذهب شمالاً ، وتهيات لكل منهما ولأيهما اتفق : وصاحباتُ
اليمن في كنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة ، وصاحباتُ الشمال ما صاحباتُ
الشمال ... ؟

قلت : هذا هذا ؛ إنه الحياء ، الحياء لا غيره ؛ فهل هو إلا وسيلة أعانت
الطبيعةُ بها المرأة لتسمو على غريزتها متى وجب أن تسمو ، فلا تلقى رجلاً إلا وفي
دمها حارسٌ لا يغفل . وهل هو إلا سلبُ جمعته الطبيعة إلى ذلك الإيجاب
الذي لو انطلق وحده في نفس المرأة لاندفعت في التبرج والإغراء وعرض أسرار
أنوثتها في المعرض العام ... ؟

قالت : ذاك أردت ، فكلُّ ما تراه من أساليب التجميل والزينة على
وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق ، فلا تعدَّنه من فرط الجمال ، بل من
قلة الحياء .

واعلم أن المرأة لا تخضع حقَّ الخضوع في نفسها إلا لشيئين : حياؤها
وغريزتها .

قلت : يا عجباً ! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية : « تجوعُ الحرّةُ ولا تأكلُ بشديها . » فإن اختَضَعَتِ المرأةُ للحياءِ كَفَتْ غريزَتَها
قالت : وجعلها الحياءُ صادقةً في نفسها وفي ضميرها ، فكانت هي المرأةُ الحقيقيةُ الجديرةُ بالزوج والنسلِ وتوريثِ الأخلاقِ الكريمة وحفظِها الإنسانية .
قلت : ومن هذا يكون الإسرافُ في الأنوثةِ والتبرجِ أمام الرجالِ كذباً من ضمير المرأة .

قالت : ومن أخلاقها أيضاً ؛ ألا ترى أن أشدَّ الإسرافِ في هذه الأنوثةِ وفي هذا التبرجِ لا يكون إلا في المرأةِ العامة . . . ؟
قلت : والمرأةُ العامةُ امرأةٌ تجاريَّةُ القلبِ . فكأن المسرفةَ في أنوثتها وتبرُّجِها ، هذه سبيلُها ، فهي لا تؤمِّنُ على نفسها .
قالت : قد تؤمِّنُ على نفسها ، ولكنها أبداً مُومِسُ الفكرِ في الرجالِ ، فيوشِكُ ألا تؤمِّنُ ؛ وهي رَهَنٌ بأحوالها وبما يقع لها ، فقد يتقدم إليها الجريُّ وقد لا يتقدم ، ولكنها بذلك كأنها مُعلنةٌ عن نفسها أنها « مستعدةٌ ألا تؤمِّنُ » . . .

قال (ح) : لكن يقال إن المرأة قد تتبرجُ وتثأثُ لترى نفسها جميلةً فاتنةً ، فيعجبُها حسنُها ، فيسرُّها إعجابُها .

قالت : هذا كالتقول إن أستاذ الرقص الذي رأيتُه هنا ، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجلٌ إلى راقصةٍ تتأوَّدُ وتهتَرُ وتترجِّجُ . إن هذا الرقاصَ فيه الحركةُ الفنيَّةُ كما هي حركةٌ ليس غير ؛ فهو كالميزانِ أو القياسِ أو أيِّ آلاتِ الضبط ؛ أما فتنةُ الحركةِ وسحرُها ومعناها من المرأةِ الفاتنةِ في وهم الرجلِ المفتونِ بها ؛ فهذا كله لا يكونُ منه شيءٌ في أستاذ الرقص ، وإن كان أستاذَ الرقص .

إن أجملَ امرأةٍ تبصُقُ بغميها على وجهها في المرأةِ ، إذا مُحِيَ الرجلُ من

ذهنها ، أو لم يُطالَ بعَيْنِيهِ من وراء عَيْنِيهَا ، أو لم تكن ممثلةً الحواسِّ به ،
أو باعجابِهِ ، أو بالرغبةِ في إعجابِهِ ؛ فهما يكنُ من جمال هذه فإنها لا ترى وجهها
حينئذٍ إلا كالدنيا إذا خلتُ من العدل ...

قلت : ولكننا أبعدنا عن « قصة هذه الحياة ما كان أولها ! »
قالت : سأفعل ذلك لموضعك عندي : إن قصتي في الفصل الأول منها هي
قصةُ جمالي ؛ وفي الفصل الثاني هي قصةُ مرض العذراء ؛ وفي الفصل الثالث
هي قصةُ الغفلة والتهاونِ في الحراسة ؛ وفي الفصل الرابع هي قصةُ اخداع الطبيعةِ
النسوية المبنية على الرقة وإيجادِ الحب وتلقيهِ والرغبة في تنويعهِ أنواعاً للأهل
والزوج والولد ؛ ثم في الفصل الخامس هي قصةُ لؤم الرجل : كان محباً شريفاً
يُقَسِّمُ بالله جَهْدَ أَيْمانِهِ ، فإذا هو كالمزور والمحتالِ واللص وأمثالهم ممن لا يُعرَفون
إلا بعد وقوع الجريمة .

ثم سكنتُ هُنَيْمَةً ، فكان سكوتها يُتِمُّ كلامها ...

وقال (ح) : فما هو مَرَضُ العذراء الذي كان منه الفصلُ الثاني في الرواية ؟
قالت : كلُّ عذراء فهي مريضةٌ إلى أن تتزوج ؛ فيجب أن يُعَلِّمَهَا أهلها
أن العلاجَ قد يكون مسموماً ؛ وينبغي أن يحوِّطوها بقريب من العناية التي
يُحَاطُ المريضُ بها ، فلا يُجْعَلُ ما حوله إلا ملائماً له ، ويُمنَعُ أشياء وإن أحبَّها
ورَغِبَ فيها ، ويُسَكَّرُ على أشياء وإن عافها وصَدَفَ عنها .

قال (ح) : فيكون القانونُ الاجتماعيُّ تصديقاً للقانون الدينيِّ من أن
الذكورة هي في نفسها عداوةٌ للأنوثة ، وأن كلَّ رجلٍ ليس ذارحِمٍ محَرَّمٍ^(١)
يجبُ أن يكون مرفوضاً إلا في الحالة الواحدة المشروعة ، وهي الزواج .

(١) يقال ذو رحم محرم : أي لا يحل للمرأة ، كأيها وأخيها الخ .

قالت : فتكون المشكلة الاجتماعية هي : من ذا يُرغم الذكورة على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضعف الأنوثة ؟

قال : ولكن إذا كان سقوط الفتاة هو جنائية « الزواج المزور » ، فما عسى أن يكون سقوط بعض المتزوجات ؟

قالت : هو جنائية « الزواج المنقح » ... تريد أنفسهن الخبيثة تنقيح الزواج ؛ والمومسات أشرفُ منهن ، إذ لا يعتدين على حق ولا يخنن أمانة .

ورف على وجهها في هذه اللحظة شعاع من الشمس كان على جبينها كصفاء اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كإشراق الياقوت ؛ ورأى أتامله ، فقالت : أنا مُنتشبة بحظي في هذه الساعات ؛ وهذا الشعاع إنما جاء ليختم نورها .

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيقي من حياتها ... وهو رجلٌ يتحفظها ؛ فلما أخذته عينها ابتسمت له ابتساماً من الذل ، لو لم تجعله هي ابتساماً لكان دموعاً ؛ ثم وقفت وما تماسك من الهم ، كأنها تمثال « للجمال البائس » ؛ ثم حيت وسمت وودعت ؛ وبعد « واوات » أخرى ... مشت ساكنة ومرآها يضيح ويبكي .

فوداعاً يا أوهام الذكاء التي تلمس الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها !

ووداعاً يا أحلام الفكر التي تضع مع كل شيء شيئاً يغيّره !

ووداعاً يا حُبها

عربة اللقطاء ...

جلستُ على ساحل الشاطبي في (اسكندرية) أتأملُ البحر ، وقد ارتفع الضحى ، ولكنَّ النهارَ لَدُنَّ ناعمٍ رطيبٍ كأنَّ الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظهر . وجاءت عربةُ اللُّقْطَاءِ فأشرفتُ على الساحلِ ، وكأنَّها في منظرها غَمَامَةٌ تتحرك ، إذ تعلوها ظِلَّةٌ كبيرة في لون الغيم . وهي كعربات النقل ، غير أنها مُسَوَّرَةٌ بألواحٍ من الخشب كجوانب النعش تُمسِكُ مَنْ فيها من الصِّغارِ أن يتدخروا منها إذ هي تدرجُ وتتقلقل .

ووقفتُ في الشارع لثُنْزِلَ ركبها إلى شاطئ البحر ؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سَفِيحٍ ولَقِيْطٍ وَمَنْبُودٍ ، وقد انكشوا وتضاعفوا إذ لا يمكن أن تَمُطَّ العربةُ فتسعهُم ، ولكن يمكن أن يُكَبَسُوا ويتداخلوا حتى يَشْغَلَ الثلاثةُ أو الأربعةُ منهم حيزَ اثنين . ومنَ منهم إذا تألَّم سيذهبُ فيشكو لأبيه ... ؟ وترى هؤلاء المساكينَ خَلِيْطاً مُلتَبِساً يُشْعِرُكَ اجتماعهم أنهم صَيْدٌ في شَبَكَةٍ لا أطفالٍ في عربةٍ ، ويدلُّكَ منظرهم البائسُ الدليلُ أنهم ليسوا أولادَ أمهاتٍ وآباء ، ولكنهم كانوا وساوسَ آباء وأمهات ...

هذه العربةُ يجرُّها جوادان أحدهما أَدُمُ والآخر كُمَيْتٌ ^(١) . فلما وقفتُ لَوَيْ الأَدُمُ عُنْقَهُ والتفتَ ينظر : أَيْفَرِغُونَ العربةَ أم يزيدون عليها ... ؟ أما الكُمَيْتُ فخرَّكَ رأسه وعلَّكَ لجامه كأنه يقولُ لصاحبه : إن الفكرَ في تخفيف

(١) الأَدُمُ : الأسود . والكُمَيْت : الأحمر .

العَبءُ الذی تَحْمِلُهُ یَجْعَلُهُ أَثْقَلَ عَلَیْكَ مِمَّا هُوَ ، إِذْ یُضِیفُ إِلَیْهِ الْهَمَّ ، وَالْهَمُّ أَثْقَلُ مَا حَمَلَتْ نَفْسٌ ؛ فَمَا دَمْتَ فِی الْعَمَلِ فَلَا تَتَوَهَّنِ الرَّاحَةَ ، فَإِنْ هَذَا یُوهِنُ الْقُوَّةَ ، وَیَحْذُلُ النِّشَاطَ ، وَیَجْلِبُ السَّأْمَ ؛ وَإِنَّمَا رُوحُ الْعَمَلِ الصَّبْرُ ، وَإِنَّمَا رُوحُ الصَّبْرِ الْعِزْمُ .

وَرَأَى الْأَدَهْمُ يُنْزِلُونَ اللَّقْطَاءَ ، فَاسْتَخَفَّ الطَّرِبَ ، وَحَرَّكَ رَأْسَهُ كَأَنَّمَا یَسْخَرُ بِالْكُمِیَّةِ وَفِلْسَفَتِهِ ، وَكَأَنَّمَا یَقُولُ لَهُ : إِنَّمَا هُوَ النَّزْوَعُ إِلَى الْحَرِیَّةِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ فِی ذَاتِهَا ، فَلْتَكُنْ لَكَ فِی ذَاتِكَ ، وَإِذَا تَعَذَّرَتِ اللَّذَّةُ عَلَیْكَ ، فَاحْتَفِظْ بِخَيَالِهَا ، فَإِنَّهُ وَصَلَتْكَ بِهَا إِلَى أَنْ تُمَكِّنَ وَتَسَهِّلَ ؛ وَلَا تَجْعَلَنَّ كُلَّ طَبَاعِكَ طَبَاعًا عَامِلَةً كَادِحَةً ، وَإِلَّا فَأَنْتَ أَدَاةٌ لَیْسَ فِیْهَا إِلَّا الْحَیَاةُ كَمَا تَرِیدُكَ ، وَلَیْكَ لَكَ طَبْعٌ شَاعَرَ مَعَ هَذِهِ الطَّبَاعِ الْعَامِلَةِ ، فَتَكُونُ لَكَ الْحَیَاةُ كَمَا تَرِیدُكَ وَكََمَا تَرِیدُهَا .

إِنْ الدُّنْيَا شَیْءٌ وَاحِدٌ فِی الْوَاقِعِ ؛ وَلَكِنْ هَذَا الشَّیْءُ الْوَاحِدُ هُوَ فِی كُلِّ خِیَالٍ دُنْيَا وَحْدَهَا .

وَفِی الْعَرَبَةِ امْرَأَتَانِ تَقُومَانِ عَلَى اللَّقْطَاءِ ؛ وَكِلْتَاھُمَا تَزْوِیْرٌ لِلْأُمِّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ الْمَسَاكِينِ ؛ فَلَمَّا سَكَنَتِ الْعَرَبَةُ انْحَدَرَتْ مِنْھُمَا وَاحِدَةٌ وَقَامَتِ الْأُخْرَى تَنَاوَلُهَا الصَّغَارُ قَائِلَةً : وَاحِدٌ ، اِثْنَانِ ، ثَلَاثَةٌ ، أَرْبَعَةٌ ... إِلَى أَنْ تَمَّ الْعَدَدُ وَخَلَا قَفْصُ الدَّجَاجِ مِنَ الدَّجَاجِ ! ...

وَمَشَى الْأَطْفَالُ بِوَجْهِهِ يَتِیمَةً ، یَقْرَأُ مِنْ یَقْرَأُ فِیْهَا أَنَّهَا مُسْتَسْلِمَةٌ ، مُسْتَكِیْمَةٌ ، مُعْتَرِفَةٌ أَنْ لَا حَقَّ لَهَا فِی شَیْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، إِلَّا هَذَا الْإِحْسَانَ الْبَخْسَ الْقَلِیلَ .

جَاءُوا بِهِمْ لَیَنْظُرُوا الطَّبِیْعَةَ وَالْبَحَرَ وَالشَّمْسَ ، فَغَفَلَ الصَّغَارُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ وَصَرَفُوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى الْأَطْفَالِ الذِّیْنِ لَهُمْ آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ ...

واكْبِدِي ! أَضْنَى الْأَسَى كَبِدِي ؛ فَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي بَعْدَ انْفِسَاحِهِ ، وَنَالَنِي
وَجَعُ الْفِكْرِ فِي هَوْلَاءِ النَّعْسَاءِ ، وَعَرَّتَنِي مِنْهُنَّ عِلَّةٌ كَدَسَ الْحَمَى فِي الدَّمِ ؛ وَانْقَلَبْتُ
إِلَى مَثْوَايَ ، وَالْعَرَبَةُ وَأَهْلُهَا وَمَكَانُهَا وَزَمَانُهَا فِي رَأْسِي .

فَلَمَّا طَافَ بَنِي النَّوْمِ طَافَ كُلُّ ذَلِكَ بِي ، فَرَأَيْتُنِي فِي مَوْضِعِي ذَاكَ ، وَأَبْصَرْتُ
الْعَرَبَةَ قَدْ وَقَفَتْ ، وَتَحَاوَرَ الْأَدْهُمُ وَالْكُمَيْتُ ؛ فَلَمَّا أَفْرَغُوها وَشَعَرَ الْجَوَادَانِ
بِخَفَّتِهَا التَّفَتُّ مَعًا ، ثُمَّ جَعَا رَأْسِيهِمَا يَتَحَدَّثَانِ !

قَالَ الْكُمَيْتُ : كُنْتُ قَبْلَ هَذَا أَجْرُ عَرَبَةٍ الْكَلَابِ الَّتِي يَقْتُلُهَا الشَّرُّطَةُ
بِالْشَّمِّ ، فَأَخَذَ الْمَوْتَ لِهَذِهِ الْكَلَابِ الْمُسْكِينَةِ ، ثُمَّ أَرْجَعُ بِهَا مَوْتِي ؛ وَكُنْتُ
أَذْهَبُ وَأُجِئُ فِي كُلِّ مَرَادٍ وَمُضْطَرَبٍ مِنْ شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَزَقَّتْهَا وَسَكَّيْهَا ،
وَلَا أَشْعُرُ بَغِيرِ الثَّقَلِ الَّذِي أَجْرُهُ ؛ فَلَمَّا ابْتَلَيْتُ بَعَرَبَةَ هَوْلَاءِ الصِّغَارِ الَّذِينَ يَسْمُونَهُمْ
الْقَطَاءَ ، أَحْسَسْتُ ثِقَلًا آخَرَ وَقَعَ فِي نَفْسِي وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ ؟ وَلَكِنْ يُحْيِلُ
إِلَى أَنْ ظَلَّ كُلُّ طِفْلٍ مِنْهُمْ يُثْقِلُ وَحْدَهُ عَرَبَةً .

قَالَ الْأَدْهُمُ : وَأَنَا فَقَدْ كُنْتُ أَجْرُ عَرَبَةِ الْقُمَامَةِ وَالْأَقْدَارِ ، وَمَا كَانَ أَقْدَرَهَا
وَأَنْتَنَهَا ، وَلَكِنَّهَا عَلَى نَفْسِي كَانَتْ أَطْهَرَ مِنْ هَوْلَاءِ وَأَنْظَفَ ؛ كُنْتُ أَجْدُرُ بِحَبْلِهَا
الْخَبِيثَةِ مَا دُمْتُ أَجْرُهَا ؛ فَإِذَا أَنَا تَرَكْتُ الْعَرَبَةَ اسْتَرْوَحْتُ النَّسِيمَ وَاسْتَطَعَمْتُ
الْجَوْ ، أَمَّا الْآنَ فَالْرِيحُ الْخَبِيثَةُ فِي الزَّمَنِ نَفْسِهِ ، كَأَنَّ هَذَا الزَّمَانَ قَدْ أَرْوَحَ وَأَنْتَنَ
مِنْذُ قُرْنَتْ بِهِ هَوْلَاءُ وَعَمَبَتَهُمْ .

قَالَ الْكُمَيْتُ : إِنْ ابْنُ الْحَيَوَانِ يَسْتَقْبِلُ الْوُجُودَ بِأَمِهِ ، إِذَا يَكُونُ وَرَاءَهَا
كَالْقِطْعَةِ الْمُنْمِئَةِ لَهَا ، وَلَا يَقْبَلُ أُمَّهُ إِلَّا هَذَا ، وَلَا يَصْرُفُهَا عَنْهُ صَارِفٌ ، فَتَرْغُمُ
الْوُجُودَ عَلَى أَنْ يَقْبَلَ ابْنَهَا ، وَعَلَى أَنْ يُعْطِيَهِ قَوَانِينَهُ ؛ أَمَّا هَوْلَاءُ الْأَطْفَالِ فَقَدْ
طَرَدَهُمُ الْوُجُودُ مِنْهُ كَمَا طَرَدَ اللَّهُ آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَقَدْ هُدِيَتْ الْآنَ
إِلَى أَنَّ هَذَا هُوَ سِرُّ مَا نَشْعُرُ بِهِ ؛ فَلَسْنَا نَجْرُ لِلنَّاسِ وَلَكِنْ لِلشَّيَاطِينِ ...

وهنا وقف على حُوذَى العربِ صديقٌ من أصدقائه فقال : مَنْ هؤُلاءِ يا أبا علي ؟

قال الحوذى : هؤُلاءِ هؤُلاءِ يا أبا هاشم .

قال أبو هاشم : سبحانَ الله ، أما تتركُ طبعك في النكته يا شيخ ؟

قال الحوذى : وهل أعرفُهم أنا ؟ هم بضاعةُ العربِ والسلام : اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كلُّ ما أسمع .

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطاً عليهم ، كأنهم أولادُ أعدائك ؟

قال الحوذى : ليت شعري من يدرى أى رجلٍ سيخرج من هذا الطفل ، وأية امرأةٍ ستكون من هذه الطفلة ؟

انظر كيف تعلقت هذه البنتُ وعمرها سنتان ، في عُنقِ هذا الولد الذى كان من سنتين ابنَ سنتين ^(١) ... لا أرانى أحملُ في عربتى أطفالاً كالأطفال الذين تحملُهم العربات إلى أبوابِ دُورهم ؛ فإن هؤُلاءِ اللقطاءُ يُحملون إلى بابِ الملجأ ، وهو بابُ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها ، فلا يُرسل إلا إليها .

أنا والله يا أبا هاشم ، ضيقُ الصدر ، كسفُ البال من هذه المهنة ؛ ويحيل إلى أنى لا أحملُ في عربتى إلا الجنونَ والفُجورَ والسرقةَ والقتلَ والدَّعارةَ والسكرَ وعواصفَ وزوابعَ ...

قال أبو هاشم : ولكن هؤُلاءِ الأطفالُ مساكين ، ولا ذنبَ لهم .

قال الحوذى : نعم لا ذنبَ لهم ، غير أنهم هم في أنفسهم ذنوب ؛ إن كلَّ واحدٍ من هؤُلاءِ إن هو إلا جريمةٌ تُثبتُ امتدادَ الإثمِ والشر في الدنيا ؛ ولدتهم أمهاتهم لَعْنَةُ ^(٢) .

(١) تعبير بالنكته على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على) ، والمراد أنه ابن

أربع سنوات .

(٢) ولدته لعية : أى من سفاح . وضده لرشدة بفتح الراء .

فقطع صاحبه عليه وقال : وهل ولدتهم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن ؟
قال : نعم ، إنه عمل واحد ، غير أن أحواله في الجهتين مختلفة لا تتسكفا ؛
وهل تستوى حال من يشتري المتاع ، ومن يسرق المتاع ؟

ههنا باعث من الشهوة قد عجز أن يسمو سموه — وما سموه إلا الزواج —
فتسفل وانحط ، ورجع فسقا ، وعاد أوله على آخره : كان أوله جرماً فلا يزال
إلى آخره جرماً ، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره ؛ فلما حملت المرأة وفاءت
إلى أمرها ، وذهب عنها جنون الرجل والرجل معاً ؛ انطوت للرجال على النار
والحد والضعينة ؛ فلا يكون ابن العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً .

✓ والأمهات يُعَدُّن لأجتهن الثياب والأكسية قبل أن يولدوا ، ويهيئن
لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً في الحياة ، فيكسبنهم في بطونهن شعور الفرح
والابتهاج وارتقَاب الحياة الهنيئة والرغبة في السمو بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء
يُعَدُّن لهم الشوارع والأزقة منذ البدء ، ولا تترقب إحداهن طول أشهر حملها
أن يجيئها الوليد ، بل أن يتركها حيّاً أو مقتولاً ؛ فيورثنهم بذلك وهم أجنة شعور
اللَهْف والحسرة والبُغْض والمقت ، ويطبعنهم على فكرة الخطيئة والرغبة في القتل ،
فلا يكون ابن العار إلا ابن هذه الرذائل أيضاً .

وتظلّ الفاسقة مدة حملها تسعة أشهر في إحساس خائف ، مترقب ، منفرد
بنفسه ، منعزل عن الإنسانية ، ناغم ، متبرّم ، متسّر ، منافق ؛ فلو كان
السفّيح من أبوين كريمين لجاء ثعباناً آدمياً فيه سُوء من هذا الإحساس العنيف .
ومتى أَلْقَتِ الفاسقة ذاك بطنها ^(١) قطعته لتوّه من روابط أهله وزمّنه وتاريخه
ورمت به ليموت ؛ فإن هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهو موت
آخر شرّ من ذاك ؛ ومهما يتولّه الناس والحسنون ، فلا يزال أوله يعود على آخره ؛

(١) أي وضعت وولدت ، وهو تعبير عربي بليغ .

مما في دمه وطباعه الموروثة ؛ ولا يبرح جريمةً ممتدةً متطاولة ، ولا ينفك قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ ، وفيها خطيئةٌ ولعنةٌ .

فهؤلاء كما رأيت أولادُ الجرأة على الله ، والتمسدى على الناس ، والاستخفاف بالشرائع ، والاستهزاء بالفضائل ؛ وهم البغض الخارج من الحب ، والوقاحة الآتية من الخجل ، والاستهتار المنبعث من الندامة ؛ وكلٌّ منهم مسألة شرّ تطلب حلّها أو تعقيدّها من الدنيا ، وفيهم دماءٌ فوّارة تجمعُ سموها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنةً فسنة .

قال أبو هاشم : ألا لعنة الله على ذلك الرجل الفاسق الذي اغترّ تلك المرأة فاستزلّها وهوّرها في هذه الممّواة . أكان حقّ الشهوة عليه أعظم من حق هذا الآدمي . أما كان ينبغي أن يكون هذا الآخر هو الأول في الاعتبار ، فيعلم أن هذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبه ، وهو البلاغ إلى ما يحاوله منها ؛ فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالثٌ يراها ... فلعلهما يستحيان .

قال الحوذى الفيلسوف : لعنة الله على ذلك الرجل ، ولعنات الله كلّها ، ولعنات الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التي انقادت له واغترت به . إن الرجل ليس شيئاً في هذه الجريمة ، فقد كانت بصقة واحدة تغرقه ، وكانت صفة واحدة تهزمه ، وكان مع المرأة الحكومة والشرائع والفضائل ، ومعها جهنمٌ أيضاً .

ألم تعلم الحقاء أن الرجل الذي ليس زوجها لها ليس رجلاً معها ، وأن الشرعية لو أيقنت أنه رجلٌ لما حرّمت عليها أن تخالطه ؟ إنه ليس الرجل هو الذي ساور هذه المرأة ، بل هي مادة الحياة التي رأت في المرأة مُستودعها ، فتريد أن تقحم إلى مقرّها عنوةً أو خداعاً أو رضاً أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد ، ولا شيء إلا أن توجد ؛ فلا تعرف خيراً ولا شرّاً ، ولا فضيلةً ولا رذيلةً .

لأيّهما يجب التحصين : اللصاعة المنقضة ، أم المكان الذي يُخشى أن تنقضَ عليه ؟ لقد أجابت الشريعة الإسلامية : حصّنوا المكان . ولكن المدنية أجابت : حصّنوا الصاعة ... !

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان ، فقالت الكبرى منهما : يا حَسْرَتاً على هؤلاء الصغار المساكين ! إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة ، أى فى سرورهم وأفراحهم ؛ وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أى فى وجودهم فقط .

وكبرُ الأطفال يكون منه إدخالهم فى نظام الدنيا ، وكبرُ هؤلاء إخراجهم من « الملجأ » وهو كلُّ النظام فى دنياهم ، ليس بعده إلا التشريد والفقْرُ وابتداء القصة المحزنة .

فقالت الصغرى : ولم لا يفرحون كأولاد الناس ، أليست الطبيعة لهم جميعاً ، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنكِ يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتكِ حياةً بعد ، ولم تجاوبى بقلبك القلب الصغير الذى كان تحت قلبكِ تسعة أشهر ؛ وإنما أنتِ مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ .

✓ لقد ولدتُ يا ابنتى خمسة أطفال ، وبالعينِ البليغة التى أنظرُ بها إليهم أنظر إلى هؤلاء ؛ فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الإنسانى : يعبَسُ لهم حتى الجوّ ، ويُظلم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صِغره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره .

يألفنى على عودٍ أخضرٍ ناعمٍ رَيَّانٍ كان للشَّمَرِ فقيل له : كن للحطب !

الفرحُ يا ابنتي هو شعورُ الحَيِّ بأنه حيٌّ كما يهوى ، ورؤيته نفسه على ما يشاء في الحياة الخاصة به . وهؤلاء اللقطاء في حياة عامّة قد نُزِتَ منها الأمُّ والأبُّ والدارُ ، فليس لهم ماضٍ كالأطفال ، وكأنهم يبدؤون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات .

قالت الصغيرة : ولكنهم أطفال .

قالت تلك : نعم يا ابنتي هم أطفال ، غير أنهم طردوا من حقوق الطفولة كما طردوا من حقوق الأهل . وحسبك بشقاء الطفل الذي لم يعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتله ، ولا من شفقتها إلا أنها طرحتَه في الطريق .

إن الطبيعة كلّها عاجزة أن تعطي أحدهم مكاناً كالموضع الذي كان يتبوّؤهُ بين أمه وأبيه .

ليس الأطفالُ يا ابنتي إلا صوراً مُبهمةً صغيرةً من كلِّ جمالِ العالم ، تفسّرها أعينُ ذويهم بكلِّ التفاسير القلبية الجميلة ؛ فابنُ أينَ العيونُ أتى فيها تفسيرُ هذه الصور اللقطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين على أولئك الرجال الأندال الطغام الذين أولدوا النساء هؤلاء المنبوذين ! يزعمون لأنفسهم الرجولة ، فهذه هي رجولتهم بين أيدينا ، هذه هي شهامتهم ، هذه هي عقولهم ، هذه هي آدابهم ... ! عجباً ، إن سيئات اللصوص والقتلة كلّها ينسى ويتلاشى ، ولكن سيئات العشاق والمحبين تعيش وتكبر ...

أكان ذنبُ المرأة أنها صادقة فصدّقت ، وأنها مُخْلِصة فأخلصت ، وأنها رقيقة فلانت ، وأنها مُحسنة فرحمت ، وأنها سليمة القلب فأنخدعت ؟ واكبدى للمسكينة ! هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التي خلقت لها ؟ هل انخدعت إلا الأم التي فيها ؟ وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأب الذي فيه ؟

واكبدي لمن تَفَجَّعَ بالنكبة الواحدة ثلاثَ فجائعَ : في كرامتها التي ابتُذِلَتْ ،
وفي الحبيب الذي تبرأ منها ، وفي طفلها الذي قطعته يديها من قلبها وتركتَهُ لما
كُتِبَ عليه . . . !

إن هذا لا يُعوِّضُهُ في الطبيعة إلا أن يكونَ لكل رجل من أولئك الأندال
ثلاثَ أرواح ، فيُقتَلُ ثلاثَ مرات : واحدةً بالشنق ، والثانيةً بالحرق ، والثالثةً
بالرَّجْم بالحجارة .

وكان اللقطاء قد تَبَعَثُوا على الساحلِ جماعاتٍ وَشَتَّى ، فوقف أحدهم على
طفل صغير يلعبُ بما بين يديه ، وأُمُّهُ على كُتْبٍ منه ، وهي تتلَوَّى بالحرَمِ تتلوَّى
فيه أصابعها .

فنظر الطفلُ إلى اللقيطِ وأومأً إلى جماعته ثم قال له : أأنتم جميعاً أولادُ هاتين
المرأتين أم إحداها ؟

قال اللقيط : هما المراقبتان ؛ وأنتَ أفليستَ هذه التي معك مُراقبة ؟

قال الطفل : ما معنى مُراقبة ؟ هذه ماما !

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مُراقبة .

قال الطفل : وكلكم أهلُ دارٍ واحدة ؟

قال : نحن في الملبأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا .

فقال الطفل : وهل تبكي في الملبأ إذا أردتَ شيئاً ليعطوك ؛ ثم تغضبُ إذا

أعطوك ليزيدوك ؟ وهل يسكتونك بالقرش والحلوى ؟ والقبلة على هذا الخد وعلى

هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهبُ معكم إلى الملبأ ؛ فإن أبي قد ضربني

اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لا تعطيني شيئاً إذا بكيت ، ولا تزيدني إذا

غضبت ، ولا

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رَقم عشرة ... فَلَوى اللقيطُ المسكينُ
وجهه ، وانصاعَ وأدبر .
« ومشى الأطفالُ بوجوهٍ يَتِيمةٍ ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمةٌ ،
مستكينَةٌ ، معترِفةٌ أن لا حقَّ لها في شيء من هذا العالم إلا هذا الإحسانُ
البخس القليل » ...

الله أكبر !

جلستُ وقد مضى هَزِيعٌ من الليل ، أهتَيْ في نفسي بِناءِ قصةٍ أُديرها
على فَنَى كما أَحَبَّ ... خبيثٍ دَاِعِرٍ ، وفتاةٍ كما أَحَبَّتْ ... عذراءٌ مُمَاجِنَةٌ ؛
كَلَاهَا قد دَرَسَ وتَخَرَّجَ في ثلاثةِ مَعَاهِدَ : المدرسةِ ، والرواياتِ الغراميةِ ،
والسِّمَا . وهو مصريٌّ مُسلمٌ ، وهى مصريةٌ مَسِيحِيَّةٌ . ولَفَتْنِي هَنَاتٌ وَسِيئَاتٌ
لا يَتَنَزَّهُ ولا يَتَوَرَّعُ ؛ وهو مِن شَبَابِهِ كالماءِ يَغْلِي ، وَمِنَ أَنَاقَتِهِ بِمِثْلِ لم يَبْقَ
إِلَّا أَنْ تَلَحَّقه تاءُ التَّأْنِيثِ ... وقد تَشَعَّبَتْ به فنونُ هذه المَدِينَةِ ، فَرَفَعَ اللهُ يَدَهُ
عن قلبه لا يُبَالِي في أَى أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ ؛ وهو طَلَبُ نِسَاءٍ ، دَابُّهُ التَّجَوُّالُ في
طُرُقِهِنَّ ، يَتَّبِعُهُنَّ ويتعرضُ لهنَّ ، وقد أَلْفَتَهُ الطَّرِيقُ حتى لو تَكَلَّمَتْ لَقَالَتْ :
هذا ضَرَبٌ عَجِيبٌ من عَرَبَاتِ الكَنَسِ ... !

وللفتاة تَبَرُّجٌ وتهتُكٌ ، يَعْجَبُ بِهَا الْعَبْتُ نَفْسُهُ ، وقد أَخْرَجَتْهَا فنونُ
هذا التَّأْنِيثِ الأوربِيِّ القائم على فلسفة الغريزة ، وما يُسَمُّونه « الأدب المكشوف »
كما يُصَوِّرُهُ أولئك الكُتَّابُ الذين نَقَلُوا إلى الإنسانية فلسفة الشهوات الحرة
عن البهائم الحرة ... فهى تَبَرُّزُ حين تَخْرُجُ من بيتها ، لا إلى الطريق ،

ولكن إلى نظرات الرجال ؛ وتظهر حين تظهر ، مُصَوَّرة لا بتلوين نفسها
 مما يجوز وما لا يجوز ، ولكن بتلوين مرآتها مما يُعجب وما لا يُعجب .
 وَكَلَّا اثنيهما لا يُقيم وزناً للدين ، والمسلم والمسيحيُّ منهما هو الاسمُ
 وحده ؛ إذ كان من وَضَعَ الوالدين (رحمهما الله !) ؛ والدينُ حُرِّيَّة القيد لحرية
 الحرية ؛ فأت بعد أن تُقَيَّدَ رذائلُك وضرأوتُك وشرُك وحيوانيتُك — أنت
 من بعد هذا حرٌّ ما وَسَعَتْكَ الأرضُ والسماءُ والفكر ؛ لأنك من بعد هذا
 مُكَمَّلٌ للانسانية ، مستقيمٌ على طريقتهما ؛ ولكن هَبْ حِمَاراً تَقْلَسَفَ وأراد أن
 يكونَ حرّاً بعقله الحماري ؛ أى تقرير المذهب الفلسفي الحماري في الأدب ...
 فهذا إنما ينبغي إطلاقَ حرِيته ، أى تسليطَ حِمَارِيَّتِهِ الكاملة على كل ما يتصل
 به من الوجود .

وَتَمْضَى قصتي في أساليبَ مختلفة تَمْتَحِنُ بها فنونُ هذه الفتاة شهواتِ
 هذا الفتى ، فلا يزال يمشى من حيث لا يصل ، ولا تزال تمنعه من حيث لا تردُّه ؛
 وما ذلك من فضيلة ولا امتناع ، ولكنها غريزة الأنوثة في الاستمتاع بساطناتها ،
 وإثباتها للرجل أن المرأة هي قوَّة الانتظار ، وقوَّة الصبر ؛ وأن هذه التي تحمل
 جنينها تسعة أشهر في جوفها ، تُسِكُّ رغبته في نفسها مدَّة حملٍ فكريٍّ إذا هي
 أرادت الحياة لرغبتها ، ليكونَ لوقوعها وتحققها مثلُ الميلاد الفرح .

ولكنَّ الميلادَ في قصتي لا يكونَ لرذيلة هذه الفتاة ، بل لفضيلتها ؛ فإن
 المرأة في رأيي — ولو كانت حياتها محدودة من جهاتها الأربع بكبائر الإثم
 والفاحشة — لا يزال فيها من وراء هذه الحدود كلها قلبٌ طبيعته الامومة ،
 أى الاتصالُ بمصدر الخلق ، أى كلُّ فضائل العقيدة والدين ؛ وما هو إلا أن
 يتنبه هذا القلبُ بمحادثٍ يتصلُّ به فيبلغُ منه ، حتى تتحوَّلَ المرأَةُ تحوُّلَ الأرضِ
 من فصلها المتشعِّرِ الجذِبِ ، إلى فصلها النَّضِرِ الأخضرِ .

ففي قصتي تَدْعِنُ الفتاة لصاحبها في يومٍ قد اعترتها فيه مخافةٌ ، ونزلَ بها همٌّ ،
وكادتها الحياةُ مِنْ كَيْدِهَا ؛ فكانت ضعيفةَ النفسِ بما طرأ عليها من هذه الحالة .
وتخلو بالفتى وفكرُها منصرفٌ إلى مصدر الغيب ، مؤمِّلٌ في رحمة القدر ؛
ويخلبُها الشابُّ خلابةَ رُغُونَتِهِ وَحَبِّهِ ولسانه ، فيعطِها الألفاظَ كلها فارغةً من
المعاني ، ويُقرِّبُ بالزواج وهو مُنْطَوٍ على الطلاق بعد ساعة ؛ فإذا أوشكتِ الفتاة
أن تُصرَعَ تلك الصَّرعَةَ دَوَى في الجوّ صوتُ المؤذِّن : « الله أكبر ! »

وتُلسَعُ الفتاةُ في قلبها ، وتتصلُّ بهذا القلبِ رُوحانيَّةُ الكلمة ، فتقعُ الحياةُ
السمويةُ في الحياة الأرضية ، وتنبيه العذراء إلى أن الله يشهدُ عارَها ، ويفجّوها
أنها مُقَدِّمةٌ على أن تُفسدَ من نفسها ما لا يُصاحبه الاستحياءُ فضلاً عن الممكن ،
وترنو بعينِ الفتاة الطاهرة من نفسها إلى جسمٍ بَغِيٍّ ليست هي تلك التي هي ؛
وتنظر بعين الزوجة من صاحبها إلى فاسقٍ ليس هو ذاك الذي هو ؛ ويحكى لها
المكانُ في قلبها المفطورِ على الأمومة — حكايةً تُثورُ منها وتشمُزُ ؛ ويصرُخُ
الطفلُ المسكينُ صرَّخته في أذنها قبل أن يُولدَ ويلقى في الشارع ... !

الله أكبر ! صوتٌ رهيبٌ ليس من لغةٍ صاحبها ولا من صوته ولا من
خِستِهِ ، كما تَقْرُعُ السماءُ فيه مِلءَ سحابةٍ على رِجْسِ قلبها فتُنْقِيه حتى ليس
به ذرَّةٌ من دَنَسِهِ الذي رَكِبَهُ الساعة . كان لصاحبها في حِسِّ أعصابها ذلك
الصوتُ الأسودُ ، المنطفيُّ ، المبهَمُ ، المتلَجَلِجُ مما فيه من قوَّةِ شهواته ؛ وكان
للمؤذِّن صوتٌ آخرٌ في رُوحها ؛ صوتٌ أحمرُّ ، مشتعِلٌ كعمَّعةِ الحريق ، مُجَلِّلٌ
كالرعد ، واضحٌ كالْحَقِيقَةِ فيه قوَّةُ الله !

سمعتُ صوتَ السَّلسلةِ وَقَعَقَتِها تَلَوَى وتشدُّ عليها ، ثم سمعتُ صوتَ السَّلسلةِ
بعينها يُكسِرُ حديدُها ويتحطَّمُ .

كانت طهارتها تحتنقُ فنفذتُ إليها النَّسَمَاتِ ؛ وطارَتِ الحامَةُ حين دعاها

صوتُ الجوّ ، بعد أن كانت أُسْفَتْ حين دعاها صوتُ الأرض . طارت الحمامة ، لأن الطبيعة التفتت فيها لفتةً أخرى .

ويكرّر المؤذن في ختام أذانه : « الله أكبرُ الله أكبرُ ! » فإذا ...

وتبدّلَ خاطري ، فوقفتُ في بناء القصة عند هذا الحد ، ولم أدِر كيف يكون جوابُ « إذا ... » فتركتُ فكري يعمل عمله كما تلهمه الواعية الباطنة ، ونمت ... ورأيتُ في نومي أني أدخل المسجد لصلاة العيد وهو يعجّ بتكبير المصّابين : « الله أكبرُ الله أكبرُ ! » ولهم هديرٌ كهدير البحر في تلاطمه . وأرى المسجد قد غصّ بالناس فاتصلوا وتلاحموا ؛ تجد الصفّ منهم على استوائه كما تجد السطر في الكتاب : ممدوداً محتبباً ينظمه وضعٌ واحد ، وأراهم يتابعوا صفّاً وراء صفّ ، وتسقاً على نسق ، فالمسجد بهم كالسنبلة ملئت حبّاً ما بين أولها وآخرها ؛ كل حبة هي في لفٍّ من أهلها وشملها ، فليس فيهن على السكثرة حبة واحدة تميّزها السنبلة فضل تمييز ، لافي الأعلى ولا في الأسفل .

وأقف متحيراً متلذّداً ألتفتُ ههنا وههنا ، لا أدري كيف أخلصُ إلى موضع أجلس فيه ؛ ثم أمضي أخطي الرقاب أطمعُ في فرجة أفتحها وما تنفرج ، حتى أنتهى إلى الصفّ الأول ؛ وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادناً يملأ موضع رجليين ، وقد نفّح منه ريحُ المسك ، وهو في ثياب من سندس خضر ؛ فلما حاذيته جمع نفسه وانكس ، فكأنما هو يطوى طياً ، ورأيتُ مكاناً وسعني فحططتُ فيه إلى جانبه ، وأنا أعجبُ للرجل كيف ضاق ولم أضيق عليه ، وأين ذهب نصفُه الضخم وقد كان بعضه على بعضه زيماً على زيم^(١) وامتلاءً على امتلاء .

وجعلتُ أحسُّ عليه ظني ، فوقع في نفسي أنه ملكٌ من ملائكة الله قد

(١) أي كتلا على كتل ، والزيم المتفرق من اللحم .

تمثل في الصورة الآدمية فاكتتم فيها لأمر من الأمر .

وضج الناس : « الله أكبر الله أكبر ! » في صوتٍ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، غير أن الناس مما ألفوا الكلمة ومما جهلوا من معناها — لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام ؛ أما الذي إلى جانبي فكان ينتفض لها انتفاضةً رجَّتني معه رجًّا ، إذ كنت ملتصقًا به مُناكبًا له ؛ وكأنَّ المسجدَ في نقْضه إيانا كان قطارًا يجري بنا في سرعة السحاب ، فكلُّ ما فيه يرتج ويهتز . ورأيتُ صاحبي يذهل عن نفسه ، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة ، كأن هناك مصباحًا لا يزال ينطفئ ويشتعِل ؛ فقطعتُ الرأي أنه من الملائكة .

ثم أُقيمت الصلاة وكبر الإمام وكبر أهل المسجد ، وكنتُ قرأتُ أن بعضهم صلى خلف رجلٍ من عطاء النفوس الذين يعرفون الله حقَّ معرفته ؛ قال : فلما كبر قال : « الله ... » ثم بهتَ وبقي كأنه جسدٌ ليس به رُوح من إجلاله لله تعالى ؛ ثم قال : « أكبر » يعزِم بها عزَمًا ، فظننتُ أن قلبي قد انقطع من هيبة تكبيره .

قلتُ أنا : أمَّا الذي إلى جانبي ، فلما كبر مدَّ صوته مدًّا ينبثق من رُوحه ويستطير ، فلو كان الصوتُ نورًا لَمَلَأ ما بين الفجر والضُحى .

وعرفتُ والله من معنى المسجد ما لم أعرف ، حتى كأني لم أدخله من قبل ، فكان هذا الجالسُ إلى جانبي كضوء المصباح في المصباح ؛ فانكشف لي المسجدُ في نوره الروحيِّ عن معانٍ أدخلتني من الدنيا في دُنْيَا على حِدة . فما المسجدُ بناء ولا مكانًا كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيحٌ للعالم الذي يَوجُ من حَوَله ويضطرب ؛ فإن في الحياة أسبابَ الزَّيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكَيد ونحوها ، وهذه كلها يحوها المسجدُ إذ يجمع الناسَ مرارًا في كلِّ يوم

على سلامة الصدر ، وبراءة القلب ، وروحانية النفس ؛ ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزّهة مُسَبَّغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يُسمّى الوضوء ، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد . ثم يستوى الجميع في هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفاً واحداً ، ويخشعون خشوعاً واحداً ، ويكونون جميعاً في نفسية واحدة ؛ وليس هذا وحده ، بل يَخِرُّون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله ؛ فليس لرأسٍ على رأسٍ ارتفاع ، ولا لوجهٍ على وجهٍ تمييز ؛ ومن ثمّ فليس لذاتٍ على ذاتٍ سلطان . وهل تحقّق الإنسانية وحدثها في الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمري أين يجد العالم صوابه إلا ههنا ؟

فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصحّحة لكل ما يزيغ به الاجتماع . هو فكرٌ واحدٌ لكلّ الرؤوس ؛ ومن ثمّ فهو حلٌّ واحدٌ لكلّ المشاكل ، وكما يشقّ النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم ، يُقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانها لا تدخله .

وما حركة في الصلاة إلا أولها « الله أكبر » وآخرها « الله أكبر » ؛ ففي ركعتين من كلّ صلاة إحدى عشرة تكبيرة يُجهرُ المصلّون بها بلسان واحد ؛ وكأنني لم أظن لهذا من قبل ، فأى زمام سياسي للجواهر وروحانياتها أشدّ وأوثق من زمام هذه الكلمة التي هي أكبر ما في الكلام الإنساني ؟

ولما قُضِيَت الصلاة سلّمتُ على الملك وسلّم عليّ ، ورأيتُه مقبلاً محتفياً ، ورأيتني أثيراً في نفسه ، وجالت في رأسي الخواطر فتذكرتُ القصة التي أريد أن أكتبها ؛ وأنّ المؤدّن يكرر في خاتمة أذانه : « الله أكبر الله أكبر » فإذا

وقلت : لَأَسْأَلَنَّه ، وما أعظم أن يكونَ في مقاتلي أسطُرٍ يُؤمِّمها مَلَكٌ من الملائكة ! ولم أكد أرفعُ وجهي إليه حتى قال :

« ... فإذا لَطَمَتان على وجه الشيطان ، فَوَلَّى مُدْبِرًا ولم يُعَقِّبْ ؛ ووضعت الكلمة الإلهية معناها في موضعه من قلب الفتاة ، فَلَأَيًّا بِلَايٍ ما نَجَتْ .

إن الدينَ في نفس المرأة شعورٌ رقيق ، ولكنه هو الفولاذُ السميكَ الصُّلبُ الذي تُصَفِّحُ به أخلاقها المدافعة .

اللهُ أَكْبَرُ ! أتدري ماذا تقول الملائكةُ إذا سمعت التكبير ؟ إنها تُنْشِدُ هذا النشيد :

بَيْنَ الوَقْتِ والوَقْتِ من اليومِ تَدُقُّ ساعةُ الإسلامِ بهذا الرنين : اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ ، كما تَدُقُّ الساعةُ في موضعٍ لِيَتَكَلَّمَ الوَقْتُ بِرَينِها .

اللهُ أَكْبَرُ ! بَيْنَ ساعاتٍ وساعاتٍ من اليومِ تُرْسِلُ الحياةُ في هذه الكلمة نداءها تهتِفُ : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ ! إن كنتَ أَصَبْتَ في الساعاتِ التي مضتْ ، فاجتهدْ للساعاتِ التي تتلو ؛ وإن كنتَ أَخْطَأْتَ ، فَكفِّرْ وَأَمْحُ ساعةً بساعةٍ ؛ الزمنُ يحو الزمنَ ، والعملُ يُغَيِّرُ العملَ ، ودقيقةٌ باقيةٌ في العمرِ هي أملٌ كبيرٌ في رحمة الله .

بين ساعاتٍ وساعاتٍ ، يتناولُ المؤمنُ ميزانَ نفسه حينَ يسمع : اللهُ أَكْبَرُ ، ليعرفَ الصِّحَّةَ والمرَضَ من نَيْتِهِ ؛ كما يَضَعُ الطبيبُ لمريضه بين ساعاتٍ وساعاتٍ ميزانَ الحرارة .

اليومُ الواحدُ في طبيعة هذه الأرض عُمرٌ طويلٌ للشرِّ ، تتكاد كلُّ دقيقةٍ

كل هذه
الشيء
هو السر

بِشَرِّهَا تَكُونُ يَوْمًا مَخْتَوْمًا بِلَيْلٍ أَسْوَدَ ؛ فَيَجِبُ أَنْ تَقْسِمَ الْإِنْسَانِيَّةُ يَوْمَهَا بِعَدَدِ قَارَاتِ الدُّنْيَا الْخَمْسِ ، لِأَنَّ يَوْمَ الْأَرْضِ صَوْرَةٌ مِنَ الْأَرْضِ ؛ وَعِنْدَ كُلِّ قَسَمٍ : مِنَ الْفَجْرِ ، وَالظُّهْرِ ، وَالْعَصْرِ ، وَالْمَغْرَبِ ، وَالْعِشَاءِ — تَصِيحُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمُؤْمِنَةُ مُنَبِّهَةً نَفْسَهَا : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ !

بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ مِنَ الْيَوْمِ يَعْرِضُ كُلُّ مُؤْمِنٍ حَسَابَهُ ، فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَيَرْفَعُهُ إِلَيْهِ . وَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ لَا يَزَالُ يَنْتَظِرُ طَوْلَ عُمْرِهِ فِيمَا بَيْنَ سَاعَاتٍ وَسَاعَاتٍ — اللَّهُ أَكْبَرُ . . . ؟

بَيْنَ الْوَقْتِ وَالْوَقْتِ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ تُدَوِّي كَلِمَةُ الرُّوحِ : اللَّهُ أَكْبَرُ . وَيُجِيبُهَا النَّاسُ : اللَّهُ أَكْبَرُ . لِيَعْتَادَ الْجَاهِيرُ كَيْفَ يُقَادُّونَ إِلَى الْخَيْرِ بِسَهُولَةٍ ، وَكَيْفَ يَحَقِّقُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ مَعْنَى اجْتِمَاعِ أَهْلِ الْبَيْتِ الْوَاحِدِ ؛ فَتَكُونُ الِاسْتِجَابَةُ إِلَى كُلِّ نِدَاءٍ اجْتِمَاعِيٍّ مَغْرُوسَةً فِي طَبِيعَتِهِمْ بِغَيْرِ اسْتِكْرَاهٍ .

النَّفْسُ أُسْمِي مِنَ الْمَادَّةِ الدِّينِيَّةِ ، وَأَقْوَى مِنَ الزَّمَنِ الْخَرَّبِ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا تَشْمُرُ نَفْسُهُ مِنَ الدَّاءِ بِأَنْفَةِ طَبِيعِيَّةٍ ، وَتَحْمِلُ هُمُومَ الْحَيَاةِ بِقُوَّةٍ ثَابِتَةٍ . لَا تَضْطَرُّوا ؛ هَذَا هُوَ النِّظَامُ . لَا تَنْحَرِفُوا ؛ هَذَا هُوَ النَّهْجُ . لَا تَتَرَجَعُوا ؛ هَذَا هُوَ النِّدَاءُ . لَنْ يَكْبَرَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مَا دَامَتْ كَلِمَتُكُمْ : اللَّهُ أَكْبَرُ . . . !

في اللهب ولا تحترق

أفي الممكن هذا ؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ الدَّلِّ ، مُفَاكِهَةٌ مُدَاعِبَةٌ ، تُجِي لَيْلَهَا رَاقِصَةً مَغْنِيَةً ؛ حَتَّى إِذَا
اعْتَدَلَ اللَّيْلُ لِيَمْضَى ، وَاتَّبَعَهُ الْفَجْرُ لِيُقْبِلَ — انْكَفَأَتْ إِلَى دَارِهَا فَانْصَتَتْ وَشَيْهَا ،
وَخَرَجَتْ مِنْ زَيْنَتِهَا ، وَخَلَعَتْ رُوحًا وَلَبَسَتْ رُوحًا ، وَقَالَتْ : اللَّهُمَّ إِلَيْكَ ،
وَلَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ . ثُمَّ ذَهَبَتْ فَتَوَضَّأَتْ وَأَفَاضَتْ النُّورَ عَلَيْهَا ، وَقَامَتْ بَيْنَ
يَدَي رِبِّهَا تَصَلِّي ... !

هِيَ حَسَنَاءُ فَاتِنَةٌ ، لَوْ سَطَعَ نُورُ الْقَمَرِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ لَسَطَعَ مِنْ وَجْهِهَا .
وَمَا تَرَاهَا فِي يَوْمٍ إِلَّا ظَهَرَتْ لَكَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَتْ ، حَتَّى لَتَنْظُنَّ أَنَّ الشَّمْسَ
تَزِيدُ وَجْهَهَا فِي كُلِّ نَهَارٍ شُعَاعَةً سَاحِرَةً ، وَأَنَّ كُلَّ فَجْرٍ يَتْرَكُ لَهَا فِي الصَّبْحِ بَرِيقًا
وَنَضْرَةً مِنْ قَطَرَاتِ النَّدى .

وَتَحْسَبُ أَنَّ لَهَا دَمًا يَطْعَمُ فِيمَا يَطْعَمُ أَنْوَارَ الْكُوكَبِ ، وَيَشْرَبُ فِيمَا يَشْرَبُ
نَسَمَاتِ اللَّيْلِ .

وَإِذَا كَانَتْ فِي وَشْيِهَا وَنَطَارِيفِهَا وَأَصْبَاغِهَا وَحِلَالِهَا لَمْ تَجِدْهَا امْرَأَةً ، وَلَكِنْ
خَجَرَةً فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ ؛ فَلَهَا نُورٌ وَبَصِيصٌ وَلَهَبٌ ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْإِحْرَاقِ ... إِنْ
الَّذِي وَضَعَ عَلَى كُلِّ جَمَالٍ سَاحِرٍ فِي الطَّبِيعَةِ خَاتَمَ رَهْبَةٍ ، وَضَعَ عَلَى جَمَالِهَا
خَاتَمَ قُرْصِ الشَّمْسِ .

فَإِذَا رَأَيْتَهَا بِتِلْكَ الزَّيْنَةِ فِي رَقِصِهَا وَتَثْنِيَّهَا ، قُلْتَ : هَذِهِ رَوْضَةٌ مُفْتَتَّةٌ

اشتَهتُ أن تكونَ امرأةَ فكانت ، وهذا الرقصُ هو فنُّ النسيم على أعضائها .
وهي متى نفذت إلى البقعة المجدبة من نفسك أنشأت في نفسك الربيع
ساعة أو بعض ساعة .

وتنسجم أنغامُ الموسيقى في رشاقتها نغمةً إلى حركة ؛ لأن جسمها الفاتن
الجميل هو نفسه أنغام صامته تُسمع وتُرى في وقتٍ معاً .
وتنسكبُ روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى ، لتُخرجَ لك بظرفها
صراحةَ الفن من إبهامين ، كلاهما يُعاون الآخر .

وهي في رقصها إنما تفسر بحركاتِ أعضائها أشواقَ الحياة وأفراحها وأحزانها ،
وتزيد في لغة الطبيعة لغةَ جسم المرأة .

وكان الليل والنهار في قلبها ؛ فهي تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة .
وهي إلى القصر ، غير أنك إذا تأملت جمالها وتماها ، حسبتها طالت لساعاتها .
وإلى النحافة ، غير أنك تنظر فإذا هي رابيةٌ كأن بعضها كان مختبئاً
في بعض .

✓ ويخيل إليك أحياناً في فنٍّ من فنون رقصها أن جسمها يتشاءب برعشة
من الطرب ، فإذا جسمك يهتز بجواب هذه الرعشة ، لا يملك إلا أن يتشاءب ...
ويُجنّ رقصها أحياناً ، ولكن لتحقيق مجنون الحركة أن العقل الموسيقي
يُصرف كل أعضاء جسمها .

ومهما يكن طيشُ الفنِّ في تأوُّدها ولفقتها ونظرتها وابتسامها وضحكها —
ففي وجهها دائماً علامةٌ وقارٍ عابسةٌ تقول للناس : افهموني .

ولما رأيتها شَهدَ قلبي لها بأن على وجهها مع نور الجمال نورَ الوضوء ؛ وأنها
مُتحرِّرةٌ ممتنعةٌ في حصنٍ من قلبها المؤمن ، يبسط الأمن والسلامة على ظاهرها ؛

وأن لها عينا عذراء لا تحاول التعبير ، لا سؤالاً ولا جواباً ولا اعتراضاً بينهما ؛
وأن قوة جمالها تستظهر بقوة نفسها ، فيكون ما في جمالها شيئاً غير ما في النساء —
شيئاً عبقرياً بالغ القوة ، يكف الدواعي ، ويحسم الخواطر ، ويرغم الإعجاب أن
يكون ذهولاً وحيرة ، ويكره الحب أن يرجع مهابة واحتشاماً .

والرواية كلها في باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها ، وما وجهها
إلا الشاشة البيضاء لهذه « السيا » ، وهل يكون على الوجه إلا أخيلة القلب
أو الفكر ؟

وعندى أن المرأة إذا كان لها رأى ديني ترجع إليه ، وكان أمرها مجتمعاً
في هذا الرأى ، وكانت أخلاقها محشودة له ، متحفلة به — فتلك هي الياقوتة
التي ترمي في اللهب ولا تحترق ، وتظل مع كل تجربة على أول مجاهدتها ؛
إذ يكون لها في طبيعة تركيبها الياقوتي ما تهزم به طبيعة التركيب الناري .
وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعة ياقوتية ، هي فطرتها الدينية
التي فيها : إن بقيت لها هذه بقيت معها تلك ؛ ولكنها حين تنخلع من هذه
الفطرة تحذلها الفطرة والطبيعة معاً ؛ فيجعل الله عقابها في عملها ، ويكفلها إلى
نفسها ؛ فإذا هي مقبلة على أغلاطها ومساوئها بطرق عقلية إن كانت عالمة ،
وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة . وما بُدَّ أن تستسر بطباع إما فاسدة
وإما فيها قوة الاستحالة إلى الفساد ؛ ويرجع ضميرها الخالي محالاً أن يمتلئ من
ظاهرها ، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها ، وتصبح المرأة بعد ذلك
في حكم أسباب حياتها ، مُصرِّفة بهذه الأسباب ، خاضعة لما يصرِّفها ؛ ويذهب
الدين وينزل في مكانه الشيطان ؛ ويزول الاستقرار ويحل في محله الاضطراب ،
وتنطفئ الأشعة التي كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم ، فإذا الغيوم ملتهف
بعضها على بعض ؛ وتحذل القوة السامية التي كانت تنصر المرأة على ضعفها

فتنصرُّها بذلك على أقوى الرجال ؛ فإذا المرأة من الضعف إلى تَهافت ، تغلبها الكلمة الرقيقة ، وتغترُّها الحيلة الواهنة ، وتوافقُ انخداعها كلُّ رغبةٍ مزينة ، ويستذلها طمعها قبل أن يستذلها الطامعُ فيها ؛ ولتكنْ بعد ذلك مَنْ هي كائنة أصلاً وحسباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعلماً وفلسفة ، فلو أنها امرأةٌ من « الأسمت المسَّاح » لتفتَّتْ بالطبيعة التي في داخلها ، مادامت الطبيعة متوجهةً إلى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تهديم وأن تنهدم .

لقد رَقَّ الدينُ في نساءنا ورجالنا . فهل كانت علامةُ ذلك إلا أن كلمة : « حرام ، وحلال » قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى « لائق ، وغير لائق » ثم نزلت عند كثير من الشبان والفتيات إلى « معاقبٍ عليه قانوناً ، ومباح قانوناً ... » ثم انحطت آخرأ عند السواد والدَّهماء إلى « ممكن ، وغير ممكن » ؟

قالت الياقوتة ، أعنى الراقصة :

— أخذني أبي من عهد الطفولة بالصلاة ، وأثبت في نفسي أن الصلاة لا تصحُّ بالأعضاء إن لم يكن الفكرُ نفسه طاهراً يصلى لله مع الجسم ، فإن كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزد المرء من رُوح الصلاة إلا بعداً . وقرَّ هذا في نفسي واعتدته ، إذ كنتُ أتعبَّد على مذهب الإمام الشافعي (رضي الله عنه) ، فأصحح الفكرَ ، وأستحضرُ النيةَ في قلبي ، وأنحصرُ بكلِّي في هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول : « الله أكبر » ؛ وبذلك أصبح فكري قادراً على أن يخلَع الدنيا متى شاء ويلبسها ، وأن يخرجَ منها ثم يعودَ إليها ؛ ونشأت فيه القوة المصَّمة التي تجعله قادراً على أن ينصرفَ بي عما يُفسدُ رُوح الصلاة في نفسي ، وهي سرُّ الدين وعماده .

ويا لها حكمةً أَنْ فرضَ الله علينا هذه الصلوات بين ساعاتٍ وساعات ،
لتبقى الروح أبداً إما متصلةً أو مهيأةً لتتصل . ولن يعجزَ أضعفُ الناس مع روح
الدين أَنْ يملكَ نفسه بضع ساعات ، متى هو أقرَّ اليقينَ في نفسه أنه متوجهٌ بعدها
إلى ربه ، يخاف أن يقفَ بين يديه مخطئاً أو آثماً ؛ ثم هو إذا ملكَ نفسه إلى
هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى ، وأنها بضع ساعات كذلك ،
فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها في عمرٍ على صيغةٍ واحدة لا يتبدل ولا يتغير ،
كأنه بجملته — مهما طال — عملُ بضع ساعات .

قالت الياقوتة : ورأيتُ أبي يصلي ، وكذلك رأيتُ أمي ، فلا تكادُ تُلِمُّ
بى فكرة آتمة إلا انتصبا أُمحى ، فأكره أن أَسْتَلِمَ إليهما فأكونَ الفاسدةَ وهما
الصالحان ، واللئيمة وهما الكريمان ؛ فدُمى نفسه — ببركة الدين — يحرسُنِي كما ترى .
قلتُ : فهذا الرقص ... ؟

قالت : نعم ، إنه قُضِيَ عَلَى أَنْ أكونَ راقصةً ، وأن أَلتَسَ العيشَ من
أسهلِ ثلاثِ طُرُقٍ وألِينها وأبعدها عن الفساد ، وإن كان الفساد ظاهرها ؛
أريد : الرقص ، أو الخدمةَ في بيت ، أو العملَ في السوق . وأنا مُطِيقَةُ حُرَيَّتِي
في الأولى ، ولكنى لن أملكها في الأخيرتين مادام عَلَى هذا الميسم من الحسن ؛
وكم من امرأة متحجبة وهى عاريةُ الروح ، وكم من سافرة وروحها متحجبة ؛
إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه ؛ وليس السؤال ما سألت ، بل يجب أن يكون
وضعه هكذا : هل ما ترى هو فى ثيابي فقط ، أو هو فى ثيابي ونفسي ؟

ها أنت ذا تَعْلُغُ نظرَكَ فى عَيْنِي إلى المعانى البعيدة ، فهل ترى عَيْنِي راقصة ؟
قلت : لا والله ، ما أرى عَيْنِي راقصةً ، ولكن عَيْنِي مُجَاهِدٌ فى سبيل
الله ... ! فاستضحكت وقالت : بل قل : عَيْنِي مُجَاهِدٌ يهزم كلَّ يوم شيطاناً
أو شياطين .

إني لأرقصُ وأغنى ، ولكن أتدري ما الذى يُحْرِزُنِي من العاقبة ، ويحميني من وباء هذا الجمهور المريضِ النفس ؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ولا بروح المسرح ، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيعين إليها ؛ فهيهات بعد ذلك هيهات ! ومن هذا لا أحس بقلوبهم ولا بشهواتهم ، وما أنا بينهم إلا كالتي تؤدى عملا فنيًا على ملاء من الأساتذة المتحنيين ، والنظارَةُ يحكمون لها أو عليها ؛ فهى فى فكرة الامتحان ، وهم لأنفسهم فيما شاءوا ...

ولست أنكر أن أكثرهم ، بل جميعهم ، يخطئ فى طريقة تناوله السيال الكهربائى المنبعث من نفسى ، ولكن لا علىَّ ، فهذا السيالُ نفسه ينبعث مثله من الزهر ، ومن القمر والكواكب ، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق ، ومن كل جميل فى الطبيعة ، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها ذكرياتٌ قديمة ، أو نبَّهت ببعض معانيها بعض معانيه ؟

قالت الياقوتة : فأنا كما ترى ؛ أضطربُ وجوهاً من الاضطراب فى جذب الناس ودفعهم معاً . وإذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها ، سلمت من أن يغلبها الرجلُ على فضيلتها . وفى النساء حواسٌ مغناطيسية كاشفةٌ منبهةٌ خلقت فيهن كالأقوية الطبيعية ، لتسلمَ بها المرأة من أن تُحطَر عفتها اغرض ، أو تُغرَّر بنفسها لإنسان ؛ فإنك لتكلم المرأة ، وتزين لها ما تزين ، وهى شاعرة بما فى نفسك ، وكأنها ترى ما فى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينها ، وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفك يشفُّ ويفضح ، لافى قلب من لحم ودم تحفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم .

وليس يُبطل هداية هذه الحاسة فى المرأة إلا طمعها المادى فى المال والمتاع والزينة ؛ فإن هذا الطمع هو القوة التى يغلبُ بها الرجلُ المرأة ، فبنفسها غلبها ! وإذا تبدَّل طمعُ امرأةٍ فى رجل فهى مُومس ، وإن كانت عذراء فى خدرها .

ويا عجباً ! إن وجود الطبيعة في النفس غير الشعور بها ؛ فليس يُشعر المرأة بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة ؛ فكان الحكمة قد وقّتها وعرضتها في وقتٍ معاً ، لتكون هي الواقية أو المَخطِرة لنفسها ، فبعملها تُجْزَى ، ومن عملها ما تضحك وتبكي .

قالت الياقوتة : ولذا أخذتُ نفسي ألا أطمع في شيء من أشياء الناس ، وسخوتُ عن كل مافي أيديهم ؛ فما يتكرمون على إلا بهلاكى ، وحسبى أن يبقى لعيني قلبي ضوءها المبصر . وأنا أعتمدُ على شهامة الرجل ، فإن لم أجدها علمتُ أنى بإزاء حيوانٍ إنسانى ، فأتحدّره حدري من مُصيبةٍ مقبلة . وإذا جاءني وقحٌ خلق الله وجهه الحسن مسبّةً له ، أو خلقه هو مسبّةً لوجهه القبيح ، ذكرتُ أنى بعد ساعة أو ساعاتٍ أقوم إلى الصلاة ، فلا يزداد منى إلا بعداً وإن كان بإزائى ، فأغلظُ له وأسخطُ ، وأظهر الغضب وأضعفه صفعتي .

قلت : وما صفعتك ؟

قالت : إنها صفعة لا تضربُ الوجهَ ولكن تُنجله .

قلت : وما هي ؟

قالت الياقوتة : هي هذه الكلمة ؛ أما تعرفُ يا سيدي أنى أصلي وأقولُ « الله أكبر » فهل أنت أكبر ... ؟ أقيم لك البرهان على صغارك وحقارتك ، أنا نادى الشرطى ... ؟ !

تُحْتَنَقُ بالرقص وتُنْتَشِ بِالصلاة ، وفي كل يوم تُحْتَنَقُ وتُنْتَشِ .

ولكنى لا أزال أقول :

أفى الممكن هذا ؟

أفى المترادف شرعاً : رَقَصَتْ وَصَلَّتْ ... ؟

المشكلة



قالت لى صاحبة « الجمال البائس ^(١) » فيما قالت : إن المرأة الجميلة تخاطبُ
في الرجل الواحد ثلاثة : الرجل ، وشيطانه ، وحيوانه . فأما الشيطان فهو معنا وإن
لم نكن معه . . . وأما الحيوان فله في أيدينا مقادة من الغباوة ، ومقادة من
الغريزة ، إذا شمس في واحدة أصحَبَ في الأخرى وانقاد ؛ ولكن المشكلة هي
الرجل تكون فيه رجولة .

نعم إن المشكلة التي أعصَلَتْ على الفساد هي في الرجل القوى الرجولة يعرف
حقيقة وجوده وشرف منزلته ، ولهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يكون بين
الوقت والوقت في اليوم الواحد خارجاً من صلاة .
وإنما الرجولة في خلال ثلاث : عمل الرجل على أن يكون في موضعه من
الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه ؛ وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق
من أجره العظيم ؛ والثالثة : قدرته على العمل والقبول إلى النهاية .
ولن تقوم هذه الخلل إلا بثلاث أخرى : الإدراك الصحيح للغاية من هذه
الحياة ؛ وجعل ما يحبه الإنسان وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية ؛
والثالثة القدرة على استخراج معاني السرور من معاني الألم فيما أحبَّ وكره .
على السواء .

فالرجولة على ذلك هي إفراغ النفس في أسلوب قوي جزل من الحياة ،

(١) مرت مقالات (الجمال البائس) في هذا الجزء .

مُتَسَاوِقٍ فِي نَمَطِ الْجَمَاعِ ، بَلِيغٍ بِمَعَانِي الدِّينِ ، مُصْقُولٍ بِجَمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ ، مُسْتَرْسِلٍ بِبَلَاغَةٍ وَقُوَّةٍ وَجَمَالٍ إِلَى غَايَتِهِ السَّامِيَةِ .

ولهذه الحكمة أَسْقَطَتِ الْأَدْيَانُ مِنْ فُضَائِلِهَا مَبْدَأَ إِرْضَاءِ النَّفْسِ فِي هَوَاهَا ، فَلَا مَعَامَلَةَ بِهِ مَعَ اللَّهِ إِلَّا فِي إِثْمٍ أَوْ شَرٍّ ؛ وَأَسْقَطَهُ النَّاسُ مِنْ قَوَاعِدِ مَعَامَلَتِهِمْ بَعْضَهُمْ مَعَ بَعْضٍ ، فَلَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا الْغَشُّ وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ ، وَكُلُّ خَارِجٍ عَلَى شَرِيعَةٍ أَوْ فَضِيلَةٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ جَمَاعِيَةٍ ، فَإِنَّمَا يَنْزِعُ إِلَى ذَلِكَ إِرْضَاءُ لِنَفْسِهِ وَإِثَارًا لَهَا وَمَوَاقِفَةٌ لِحُبَّتِهَا وَتَوْفِيَةٌ لِحُظَاهَا ؛ وَعَمَلُهُ هَذَا هُوَ الَّذِي يُلَبِّسُهُ الْوَصْفَ الْجَمَاعِيَّ السَّاقِطَ وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ فِي اللُّغَةِ ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يُرْضِي نَفْسَهُ أَنْ يَسْرِقَ لِيَفْتَنِي ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَفْسَهُ رِضَاهَا فَهُوَ اللَّصُّ ؛ وَكَالتَّاجِرِ فِي إِرْضَاءِ طَمَعِهِ هُوَ الْغَاشُّ ، وَكَالْجُنْدِيِّ فِي إِرْضَاءِ جُبْنِهِ هُوَ الْخَائِنُ ، وَكَالشَّابِّ فِي إِرْضَاءِ رَذِيلَتِهِ هُوَ الْفَاسِقُ ، وَهَلُمَّ جَرًّا وَهَلُمَّ جَرَّ جَرَّةً . . .

وَأَمَّا بَعْدُ ، فَالْقِصَّةُ فِي هَذِهِ الْفَلَسَافَةِ قِصَّةُ رَجُلٍ فَاضِلٍ مَهْذَبٍ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ وَالشَّيْبَابِ وَالْمَالِ ، ثُمَّ امْتَحَنَتْهُ الْحَيَاةُ بِمَشْكَالَةٍ ذَهَبَ فِيهَا نَوْمُ لَيْلِهِ وَهَدُوءُ نَهَارِهِ حَتَّى كَسَفَتْ بَالَهُ ، وَفَرَّقَتْ رَأْيَهُ ، وَكَابَدَ فِيهَا الْمَوْتَ الَّذِي لَيْسَ بِالْمَوْتِ ، وَعَاشَ بِالْحَيَاةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِالْحَيَاةِ .

قَالَ : فَقَدْتُ أُمِّي وَأَنَا غِلَامٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ الْقَلْبُ إِلَى الْأُمِّ ، فَخَشِيَ عَلَيَّ أَيْ أَنْ أَسْتَكِينَ لَدَلَّةَ فَقْدِهَا فَيَكُونُ فِي نَشَاقِي الذَّلُّ وَالضَّرَاعَةُ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ أَنْ أَحْسَنَ فَقْدَهَا إِحْسَاسَ الطِّفْلِ تَمُوتُ أُمُّهُ فَيَحْمِلُ فِي ضِيَاعِهَا مِثْلَ حَزْنِهَا لَوْ ضَاعَ هُوَ مِنْهَا ؛ فَعَلَمَنِي هَذَا الْأَبُ الشَّفِيقُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا فَقَدَ أُمَّهُ كَانَ شَأْنُهُ غَيْرَ شَأْنِ الصَّبِيِّ ، لِأَنَّهُ لَهُ قُوَّةٌ وَكِبَرِيَاءٌ ؛ وَأَلْقَى فِي رُوعِي أَنِّي رَجُلٌ مِثْلُهُ ، وَأَنَّ أُمَّهُ قَدْ مَاتَتْ عَنْهُ صَغِيرًا فَكَانَ رَجُلًا مِثْلِي الْآنَ . . .

وكان من بعدها إذا دعاني قال : أيها الرجل . وإذا أعطاني شيئاً قال : خذ يا رجل . وإذا سألتني عن شأنى قال : كيف الرجل ؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً ، حتى توهمتُ أن معى رجلاً فى عقلى خلقتَه هذه الكلمة . وتساءلُ الرجل بشيئين : اللحية فى وجهه ، والزوجة فى داره ، فتجىء الزوجة بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاها قوةً له ، أو وقاراً أو جمالاً ، أو تكون كلتاها خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين فى الوجه والحياة ...

أما اللحية لى أنا أيُّها الرجل الصغير فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجىء بها ، ولكن الأخرى فى يده وحيلته ؛ فجاءنى ذاتَ نهارٍ وقال لى : أيها الرجل ! إن فلانة مُسمَّاة عليك^(١) منذُ اليوم فهى امرأتك فاذهب لترى فيك رجلاً . وفلانة هذه طفلةٌ من ذواتِ القُرْبى ، فأفرحنى ذلك وأبهجنى ؛ وقالت للرجل الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجاً أيُّها الرجل ...

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هو غرورى يومئذٍ وكبريائى ، فكنتُ أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقة بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غرورى ذو لحيةٍ طويلة ...

ونشأتُ على ذلك : ضابَّ الرأى مُعتدّاً بنفسى ، إذا هممتُ مضيت ، وإذا مضيتُ لا ألوى ، وما هو إلا أن يخطر لى الخاطر فأركبُ رأسى فيه ، ولأنَّ تُكسَرَ لى يدٌ أو رجلٌ أهونُ على من أن يكسَرَ لى رأىٌ أو حُكْمٌ ؛ وأكسبني ذلك خيالاً أكذبَ خيالٍ وأبعده ، يخطئ على الدنيا خلطاً فيدعنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشرَ رقماً لنصفِ اليوم الواحد ، فيطالعُها اثنى عشرَ شهراً للسنة ...

(١) هذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد : « مخطوبة فلان » .

وترامت حريقى بهذا الخيال فجاوزت حدودها المعقولة ، وبهذه الحرية الحمقاء
وذلك الخيال الفاسد ، كذبت على الفسكرة والطبيعة .

ولست جميل الطاعة إذا طالعت وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقد أن الخطأ
فى المرأة ... إذ هى لا تظهر الرجل الوضى الجميل الذى فى عقلى ؛ ولست نابغة ،
ولكن الرجل الذى فى عقلى رجل عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجل متزوج ؛
فيجب على أنا الطفل أن أكون رزينا رزينا كوالد عشرة أولاد فى المدارس
العليا ...

وذهبت بكل ذلك أرى فلانة زوجتى ، فأغلقت الباب فى وجهى واختبأت
منى ، فقلت فى نفسى : أيها الرجل ، إن هذا نُشُوزٌ وعِصْيَانٌ ، لا طاعةٌ وحُب .
وساءنى ذلك وغمّنى وكبر على ، فأضمرت لها الغدر ، فثبتت بذلك فى ذهنى صورة
(الباب المغلق) ، وكأنه طلاق بيننا لا باب ...

قال : ثم شبَّ الرجل فكان بطبيعة مافى نفسه كالزوج الذى يترقب زوجته
الغائبة غيبة طويلة : كل أيامه ظمًا على ظمًا ، وكل يوم يمر به هو زيادة سنة
فى عمر شيطانه ... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية ، وأصبح رجل كُتِبَ
وعُلِمَ وفكرٍ وخيال ؛ فعرضت له فتاة كاللواتى يعرضن للطلبة فى المدارس العليا ،
ما منهن على صاحبها إلا كالخبيثة فى امتحان ... يبدأن (الرجل) لم يعرف
من هذه الفتاة إلا أوائل المرأة ... ولم يكده يستشرف لآواخرها حتى سُميت
على غيره ، فخطبت ، فزفت ؛ زفت بعد نصف زوج إلى زوج

وعرف الرجل من الفلسفة التى درستها أنه يجب أن يكون حرًا بأكثر
مما يستطيع ، وبأكثر من هذا الأكثر ... فقالها بلء فيه ، وقال للحرية :
أنا لك وأنت لى .

قالها للحرية ، فما أسرع ما ردت عليه الحرية بفتاةٍ أخرى ...

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات ، فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعة أبوابٍ مغلقة ؛ ولكنها مع ذلك مسماةً له ، يقول أهلُ وأهلُها : (فلان وفلانة) . وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياء والصَّيانة ؛ وليست الفتاة من ورائه إلا العفاف المنتظر ؛ وليس الفتى إلا ابن الأب الذي سمى الفتاة له وجبَّسها على اسمه ؛ وليست القُرْبى إلا شريعةً واجبة الحق نافذة الحكم .

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغ من حرية المرء في هذا العصر فالشرف مُقيّد .

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغي أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معاني الفاحشة .

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هي لبناء الأسرة ؛ فإن بلغ وجهها الغاية من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجه ذو سُلْطَةٍ وحقوقٍ (رسميّة) في الاحترام ؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ، ولا تقوم إلا على ذلك .

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرة الخالصة الحبّ لزوجها ، إنما هي معاملةٌ بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه في كرامةٍ أو مهانةٍ ، وضع نفسه عند الله في مثل هذا الموضع .

وعند أهل العقل والرأى ، أن كلّ زوجة فاضلة ، هي جميلةٌ جمال الحق ؛ فإن لم تُوجِب الحبّ ، وَجَبَتْ لها المودة والرحمة .

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هي إنسانيته ومروءته ؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة .

أما عند الشيطان (لعنه الله) فشروطُ الزوجةِ الكاملةِ ما تشترطه الغريزة :
الحب ، الحب ، الحب !

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأةً تكون كما أشتهى جمالاً ، وكما
يشتهى فكري علماً ، كنتُ أنا المتزوج وحدي وبقي فكري عزباً
وقد عرفتُ التي تصلح لي بجمالها وفكرها معاً ، وتبوءتُ في قلبي وأقتُ في
قلبيها ؛ ثم داخلتُ أهلها ، فخلطوني بأنفسهم ، وقالوا : شابٌ وعزبٌ . . . ومتعلم
وسري . . . فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلقٌ) ، حتى لو شئتُ أن أصل إلى كريمتهم
في حرامٍ وصلت ، ولكني رجلٌ يحملُ أمانةَ الرجولة . . .

أما الفتاةُ فلست أدري والله : أفيها جاذبيةٌ نجم ، أم جاذبيةُ امرأة ! وهل
هي أنثى في جمالها ، أو هي الجمالُ السماويُّ أتي ينقحُ الفنونَ الأرضيةَ لأهلِ الفن ؟
إذا التقينا قالت لي بعينيها : هأندي قد أرخيتُ لك الزَّمامَ ، فهل تستطيع
فراراً مني ؟ وملتصقٌ فتقول لي بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل في المكان
مكانٌ إلا هنا ؟ ونفترق فتحضرُ لي الزمنَ كله في كلمةٍ حين تقول : غداً نلتقي . . .
كلامها كلامٌ متأدب ، ولكنه في الوقت نفسه طريقةٌ من الخلاعة ،
تلفئتُ إلى فيها الخلو ؛ والحركة على جسمها حركةٌ مُستَحْيَةٌ ، ولكنها في الوقت
عينه كالتعبيرِ الفنيِّ المتجسِّمِ في التمثالِ العاري .

إنها والله قد جعلت شيطاني هو عقلي ؛ أما هذا العقلُ الذي ينصحُ ويعظُ
ويقول : هذا خيرٌ وهذا شرٌّ . فهو الشيطانُ الذي يجب أن أتبرأ منه . . .

قال : وألمَّ الأبُ بقصةِ فتاه ، ويحسبها نزوةً من الشباب يُحمدُها الزواج ،
فيقول في نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن ،

فتكون كل امرأة غير الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْن فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنسانى ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة — ويقرر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين و بَصَرٍ ، فلا ينظر النظرة الخيالية التى لا تقنع بامرأة واحدة ، بل لا تزال تلتمس محاسن الجنس ومفاتنه ، وهى النظرة التى لا يقوم بها إلا بناء الشعر دون بناء الأسرة ، ولا تصلحُ عليها المرأة تلد أولاداً لزوجها ، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها .

ثم احتاط فى رأيه ، فقدّر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحوراً ، ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ، ويحارب أهله وربه من أجل امرأة ، بيّد أنه قال : إنه هو والده ، وهو ربّه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخلقُ والشهامةُ والنّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهترّة ، حين تجمع كل معانى الفساد والإباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية) . وقال : إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العرض ، لم يكن فيها شيء من هذا ، ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدينه وأجدُرُّ أن يكون مُبرّأً من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحسب والكمال ، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخلاق ، بل محلّه فى باب الشهوات وحدها .

ثم جزمَ الأبُ أن الولد الذى يحبى من عاشقين ، حرّى أن يرث فى أعصابه جنون اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهمية ؛ ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة فى أولها ؛ ولهذا يكثر الضعف العصبى فى

هذه المدنية الأوربية وينتشر بها الفساد ، فلا يأتي جيلٌ إلا وهو أشد ميلاً إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه .

ولم يكد ينتهى الأبُ إلى حيث انتهى الرأى به ، حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيم للزفاف ويتعجل لابنه المطيع ... نكبة ستجىء فى احتفالٍ عظيم ...

قال الشاب : وجنّ جنونى ؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يُلقى منه ، فلبأتُ إلى عمى أستدفعُ به النكبة ، وأتأيدُ بمكانه عند أبى ؛ وبثنتُ حزنى وأفضيتُ إليه بشأنى ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كلَّ شىء إلا شيئاً ينتهى بى إلى تلك الفتاة ، أو ينتهى بها إلى ؛ وما أنكر أنها من ذواتِ القربى ، وأن فى احتملى إياها واجباً ورجولة ، وفى سترى لها ثواباً ومروءة ، وخاصة فى هذا الزمن الكاسد الذى بلغت فيه العذارى سنَّ الجدّات ... ولكن القلبَ العاشقَ كافرٌ بالواجب والرجولة ، والثوابِ والمروءة ، وبالأثم والأب ؛ فهو يملكُ النعمةَ ويريد أن يملكَ التمتعَ بها ؛ وكلُّ من اعترضه دونها كان عنده كاللص ...

قال : قبح الله حبا يجعلُ أباك فى قلبك نصّاً أو كاللص .

قلت : ولكنى حرّ أختارُ من أشاء لنفسى ...

قال : إن كنتَ حرّاً كما تزعم ، فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها ؟

ألا تكون حرّاً إلا فىنا نحن وفى هدمِ أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواج إلا بمن ...

فقطع على وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنتَ نجاراً أو حداداً أو حوزياً ، لأدركتَ بطبيعة الحياة أن الذين يتخضعون للحب وللمرأة هذه الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطان أن يقضى فى قلوبهم كلَّ أوقات فراغه ... أما العاملون فى الدين ، والمغامرون فى الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ،

والطامعون في السكال الإنساني ، فهؤلاء جميعاً في شغلٍ شاغلٍ عن تربية أولادهم ، وعن البكاء للمرأة والبكاء على المرأة ؛ ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛ وغرضهم منها أجل وأسمى ؛ وقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي النساء . » أي انظروا إليهن من جانب تقوى الله ؛ فإن المرأة تُقدِّم من رَجُلها على قلب فيه الحبُّ والكراهة وما بينهما ، ولا تدري أيُّ ذلك هو حظُّها ؛ ولو أن كلَّ من أحب امرأةً نبذ زوجةً ، لخربت الدنيا وفسد الرجال والنساء جميعاً . وهذه يا بنيَّ أوهامٌ وقتها وعملٌ أسبابها ، وسيمضي الوقتُ وتتغيَّر الأسباب ، وربما كان الناضجُ اليوم هو المتعفنُّ غداً ، وربما كان الفجُّ هو الناضجُ بعد ؟ وهبك لا تحب ذاتَ رَحِمِكَ ثم أكرمتها وأحسنْتَ إليها وسترتها ، أفيكونُ عندك أجملُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكونَ لها هذا الشعورُ في نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يا بنيَّ إن لم يكن حُبًّا فيه الشهوةُ ، فهو حبٌّ إنسانيٌّ فيه المجد .

ووقعت المشكلة وزُفَّت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(رجاء إلى القراء) : هذه القصة واقعة ، وقد بنى الرجل بامرأته ، وهو في الشهر الذي لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس (شهر العسل) . فإذا يرى له القاريُّ من الرأى ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أ كفافها في عين الرجل ؟

المشكلة

٢

لما فرغتُ من مقالات (الجنون)^(١) وأرسلتُ الأخيرة منها ، قلتُ في نفسي :
هذا الآخرُ هو الآخرُ من الجنون وجنونه ، ومن الفكر في تخليطه ونوادره ؛ غيرَ
أنه عاد إلىَّ أخلاطاً وأضعافاً فكأنِّي رأيته في النوم يقول لي : اكتب مقالا في
السياسة . قلت : مالي والسياسة وأنا « موظف » في الحكومة ، وقد أخذتُ
الحكومة ميثاقَ الموظفين : لما عَرَفُوا من تقدِّ أو غميرة لي كُتْمَنَهُ ولا يُبَيِّنُونَهُ ؟
فقال : هذه ليست مشكلة ، وليس هذا يصلحُ عذراً ، والمخرجُ سهلٌ والتدبيرُ
يسيرٌ والحلُّ ممكن . قلت : فما هو ؟

قال : اكتب ما شئتُ في سياسة الحكومة ، ثم اجعل توقعك في آخر
المقال هكذا : « مصطفى صادق الرافعي ؛ غير موظف بالحكومة »
فهذه طريقة من طرق المجانين في حل المشاكل المعقدة ، لا يكون الحل إلا
عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذر الإمكان ، وهي بعينها طريقة ذلك الطائر
الأبله الذي يرى الصائد فيغمضُ عينه ويلوى عنقه ويخبأ رأسه في جناحه ظناً
عند نفسه أنه إذا لم يرِ الصائد لم يره الصائد ، وإذا توهم أنه اختفى تحقق أنه
اختفى ؛ وما عمله ذاك إلا كقولهِ للصياد : إني غيرُ موجود هنا ... على قياسِ
« غير موظف » ...

(١) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القراء في آخره ، انتظرنا
مدة ، وكتبنا في هذه المدة مقالات (الجنون) فانظرها في الجزء الثاني .

وقد كنت استفتيت القراء في (المشكلة) ، وكيف يتقى صاحبها على نفسه ، وكيف تصنع صاحبها ؛ فتلقيت كتباً كثيرة أهدت إلى عقولاً مختلفة ؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقى إلى منها — كتاب مجنون « نابغة » ك نابغة القرن العشرين ، بعث به من القاهرة ، وسمى نفسه فيه (المصالح المنتظر) وهذه عبارته بحرفها و رسمها كما كتبت وكما تقرأ ؛ فإن نشر هذا النص كما هو ، يكون أيضاً نصاً على ذلك العقل كيف هو

قال : « إن هذا الكون تعبت فيه آراء المصلحين ، وكتب الأنبياء زهاء قرون عديدة ، ودأبنا نرى الطبيعة تنصهر . ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه ، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته ، إلا الإنسان . ولقد تفنن المشرعون في أسماء : العادات والتقاليد والحمية والشرف والعرض ، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة فما بالك بسلطان الروح ؟ ورأيت لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ويتمتع بالحلب الواحد المقدر له ، ما دام قلبه اصطفاها وروحه تهواها ؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأى داع من دواعي الانفصال . (كذا) .

وهذا ليس مجرد رأى مجرب ، وإنما هو رأى أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن . . . ! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه ، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه في مجلة (الرسالة) ، وهذا رأى سيعمل به ، وصاحب هذا الرأى سيخزل في الدنيا ، وسيضع الأسس والقوانين التي تصلح لبنى الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال .

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون ، وليتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه . وإلى الملتقى في ميدان الجهاد

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة « غير موظف » ... فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فإذا هو غير متزوج ، وإذا هو يتقلب فيما شاء ؛ وتسال الكاتب ثم ماذا ؟ فيقول لك : ثم الجحيم ...
وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين ، فقد نهتمنا عبارة « أكبر عقل أنجسته الطبيعة حتى الآن » إلى أن في الكلام إشارة من قوة خفية في الغيب ، فقرأناه على وحي هذه الإشارة وهديها ، فإذا ترجمة لغية الغيب فيه :

« ويحك يا صاحب المشكلة ، إذا أردت أن تكون مجنوناً أو كافراً بالله وبالأخرة فهذا هو الرأي . كن حيواناً تنتصر فيه الطبيعة والسلام ! »

تلك إحدى عجائب المقادير في أول كتاب أُلقي إلى ؛ أما العجيبة الثانية فإن آخر كتاب تلقينته كان من صاحبة المشكلة نفسها ؛ وهو كتاب آية في الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس في أسرارها ، يَمُورُ مَوْرَ الضباب الرقيق من ورائه الأشعة ، فهو يَجْبُجُ جمالاً لِيُظْهِرَ منه جمالاً آخر ؛ وكأنه يعرض بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصور ، ويأتي بكلام يُقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءةً غيرها ؛ ولفظها سهلٌ سهلٌ ، قريبٌ قريبٌ ، حتى كأن وجهها هو يُحدِّثُك لا لفظها ؛ ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها ، وهو قلبٌ سليمٌ مُقْفَلٌ على خاوطره وأحزانه ، مُسْتَرَسِلٌ إلى الإيمان بما كُتِبَ عليه استرساله إلى الإيمان بما كُتِبَ له ، فما به غرورٌ ولا كبرياء ولا حقدٌ ولا غضبٌ ، ولا يَكْرُمُهُ ما هو فيه .

ومن نكده الدنيا أن مثل هذا القلب لا يُخْلَقُ بفضائله إلا ليعاقب على فضائله ؛ فنظرة الناس عقابٌ لرقته ، وغدرهم نكابةٌ لوفائه ، وتهوُّرهم ردٌّ على

أَنَاتِه ، وُحْمُهُمْ تَكْدِيرُ لِسُكُونِهِ ، وَكَذِبُهُمْ تَكْذِيبٌ لِلصِّدْقِ فِيهِ .
وما أرى هذا القلبَ مأخوذاً بحبِّ ذلك الشاب ولا مُسْتَهَاماً به لذاته ،
وإنما هو يتعلَّقُ صُوراً عقليةً جميلةً كان من عجائب الاتفاق أن عَرَضَتْ له في
هذا الشاب أولُ ما عَرَضَتْ على مقدارٍ ما ؛ وسيكونُ من عجائب الاتفاق أيضاً
أن يزولَ هذا الحب زوالَ الواحدِ إذا وُجِدَت العشرة ، وزوالُ العشرة إذا
وُجِدَت المائة ، وزوالُ المائة إذا وُجِدَ الألف .

وبعد هذا كله فصاحبةُ المشكلة في كتابها كأنما تكتبُ في نقد الحكومة
على طريقة جعل التوقيع : « فلان غير موظف بالحكومة » وهى فيما
كتبت كالنهر الذى يتحدَّر بين شاطئيه مُدَّعياً أَنه هاربٌ من الشاطئين مع أَنه
بينهما يجرى : تحبُّ صاحبها وتلقاه ؛ ثم هى عند نفسها غيرُ جانيةٍ عليه ولا على
زوجته فليت شعري عنها ، ما عسى أن تكونَ الجنايةُ بعد زواج الرجل غيرَ
هذا الحب وهذا اللقاء ؟

ونحن معها كأرسطاطليس مع صديقه الظالم حين قال له : هَبْنَا نَقْدِرُ على
مُحَابَاتِكَ فى ألاَّ نقولَ إنك ظالم ؛ هل تقدرُ أنت على ألاَّ تعلمَ أنك ظالم ؟
ورأيها فى (المشكلة) أن ليس من أَحَدٍ يستطيعُ حلَّها إلا صاحبها ،
ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقةٍ من طريقتين : فإما أن تكونَ ضحيةً أبيها وأبيه
— تعنى زوجته — ضحيته هو أيضاً ، ويستهدف لما يذله من أهله وأهلها ، فيكونُ
البلاء عن يمينه وشماله ، ويكابِدُ من نفسه ومنهم ما إنَّ أَقْلَهُ لَيَذْهَبُ براحتهِ
وينغصُ عليه الحب والعيش ، (قالت) : وإما أن يضحَّى بقلبه وعقله وبى
وهذا كلام كأنها تقول فيه : إن أحداً لا يستطيع حلَّ المشكلة إلا صاحبها ،
غير مستطيعٍ حلَّها إلا بجنايةٍ يذهبُ فيها نعيمه ، أو مجنونٍ يذهب فيه عقله .
فإن حلَّها بعد ذلك فهو أحد اثنين : إما أحمقٌ أو مجنونٌ ما منهما بد

ولسان الغيب ناطقٌ في كلامها بأن أحسن حل للمشكلة هو أن تبقى بلا حل ،
فإن بعض الشر أهون من بعض .

والعجيبة الثالثة أن « نابغة القرن العشرين ^(١) » جاء زائراً بعد أن قرأ
مقالات (الجنون) ، فرأى بين يدي هذه الكتب التي تلقيتها وأنا أعرضها وأنظر
فيها لأتخير منها ، فسأل خبثته الخبر ؛ فقال : إن صاحب هذه المشكلة مجنون ...
لو امتحنوه في الجغرافيا وقالوا له : ما هي أشهر صناعة في باريس ؟ لأجابهم :
أشهر ما تعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتى ...

قلت : فكيف يرتد هذا المجنون عاقلاً ؟ وما علاجه عندك ؟

قال : وجهه في طلب (ا . ش) ليجيء ، فلما جاء قال له اكتب :
« نابغة القرن العشرين » مجلسه للإفتاء في حل المشكلة فأفتى مرتجلاً :

« إن منطق الأشياء وعقلية الأشياء صريحان في أن مشكلة الحب التي يعسر
حلها ويتعذر مجاز العقل فيها ، ليست هي مشكلة هذا العاشق أكرهه على
الزواج بامرأة يحملها القلب أو لا يحملها ، وإنما تلك هي مشكلة أمبراطور الحبشة
يريدون إرغامه أن يتزوج إيطاليا ، ويذهبون يزفونها إليه بالدبابات والرشاشات
والغازات السامة .

« ولوم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذي يعمل عمل العقل ،
إذن لكانت مجاري عقله مطردة في رأسه ، فانحلت مشكلته بأسباب تأتي من
ذات نفسها أو ذات نفسه ؛ غير أن في رأسه عقل بطنه لا عقل الرأس ، كذلك
الشرير البخيل الذي طبخ قدراً وقعد هو وامرأته يأكلان ، فقال : ما أطيب
هذه القدر لولا الزحام ... قالت امرأته : أي زحام ههنا ؟ إنما أنا وأنت . قال :
كنت أحب أن أكون أنا والقدر فقط ... »

(١) هو لقب المجنون ، فانظر مقالاته في الجزء الثاني .

« فعقلُ النِّهَمِ في رأسِ هذا كعقلِ الشهوةِ في رأسِ ذاك ؛ كلاهما فاسدُ التقدير لا يعملُ أعمالَ العقولِ السليمة ؛ ويريد أحدهما أن تبطلَ الزوجةُ من أجلِ رطلٍ من اللحم ، ويريد الآخرُ مثلَ ذلك في رطلٍ من الحب ... »
 « وإذا فسدَ العقلُ هذا الفسادَ ابتلى صاحبه بالمشاكلِ الصبائيةِ المضحكةِ : لا تكونُ من شيءٍ كبير ، ولا يكونُ منها شيءٌ كبير ؛ وهى عند صاحبها لو وزنتُ كانت قناطرَ من التعقيد ؛ ولو كياتُ بلغت أَرادبَ من الحيرة ؛ ولو قيستُ امتدَّت إلى فراسخٍ من الغموض .

« هاتان المرأتان : (الحبيبة والزوجة) ، إما أن تكونا جميعاً امرأتين ، فالمعنى واحدٌ فلا مشكلة ؛ وإما ألا تكونا امرأتين ، فالمعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة ؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قردة أو هريرة ، وههنا المشكلة . (حاشية : الهردة من أوضاع نابغة القرن العشرين في اللغة ، ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسي ولا البهائم ...)

« فإن زعم العاشق أن زوجته قردة فهو كاذب ، وإن زعم أنها الهردة فهو كَذِب ؛ والمشكلة هنا مشكلةُ كل المجانين ، ففي محله موضعُ أفرطٍ عليه الشعورُ فأفسده ، وأوقع بفساده الخطأ في الرأي ، وابتلاه من هذا الخطأ بالعمى عن الحقيقة ، وجعل زوجته المسكينة هى مَعْرَضَ هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد ؛ ولا عيبَ فيها ، لأنها من زوجها كالحقيقة التى يتخبطُ فيها المجنونُ مدةَ جنونه ، فتكونُ حَجَلِي هَذْيَانِهِ ومَعْرِضَ حَمَاقَتِهِ ، وهى الحقيقة غير أنه هو المجنون . »
 « فإن كانت هذه الحقيقةُ مسئلةً حسابيةً استمرَّ المجنونُ مدةَ جنونه يقول للناس : خمسون وخمسون ثلاثة عشر ، ولا يصدّق أبداً أنها مائة كاملة ؛ وإن كانت مسئلةً علميةً قضى المجنون أيامه يُشْغِلُ الترابَ ليجمعه باروداً ينفجر ويتفرّق ، ولا يدخلُ في عقله أبداً أن هذا ترابٌ منطْفِئٌ بالطبيعة ؛ وإن كانت

مسئلةٌ قلبية استمر المجنون يُزعم أن زوجته قردة أو هرّدة ، ولا يشعر أبداً أنها امرأة .

« فإن صح أن هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يُربط في المارستان ، ثم يجيء أهله كل يوم بزوجه فيسألونه : أهذه امرأة أم قردة أم هرّدة ؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة ، ويعرفها امرأته ، فيقال له حينئذ : إن كنت رجلاً فتخلّق بأخلاق الرجال .

« أما إن كان الرجل عاقلاً مميّزاً صحيح التفكير ولكنه مريضٌ مرض الحب ، فلا يرى (النابغة) أشقى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطبّ بهذه الأشفيّة واحداً بعد واحد حتى يذهب سقامه بواحدٍ منها أو بها كلّها :

« الدواء الأول : أن يجمع فكره قبل نومه فيحضره في زوجته ، ثم لا يزال يقول : زوجتي ، زوجتي . حتى ينام . فإن لم يذهب مابه في أيام قليلة فالدواء الثاني .

« الدواء الثاني : أن يتجرّع شربةً من زيت الخروع كل أسبوع ... ويتوهم كلّ مرة أنه يتجرّعها من يد حبيبته ، فإن لم يشف هذا فالدواء الثالث .

« الدواء الثالث : أن يذهب فيبيت ليلةً في المقابر ، ثم ينظر نظره في أي المرأتين يريد أن يلتقي الله بها و برضاها عنه و بشوابه فيها : وأيتهما هي موضع ذلك عند الله تعالى ، فإن لم يبصر رُشده بعد هذا فالدواء الرابع .

« الدواء الرابع : أن يخرج في (مظاهرة) ... فإذا فُتّت له عينٌ أو كُسرَتْ له يدٌ أو رِجلٌ ، ثم لم تحلّ حبيبته المشكّلة بنفسها ... فالدواء الخامس .

« الدواء الخامس : أن يصنع صنيع المبتلى بالحشيش والسكرابين ، فيذهب فيسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده فينسى هذا الترف العقلي ، ثم ليعرف من أعمال السجن جدّ الحياة وهزلها ، فإن لم ينزع عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس .

« الدواء السادس : أنه كلما تحرك دمه وشاعت فيه حرارة الحب ، لا يذهب إلى من يحبها ، ولا يتوخى ناحيتها ، بل يذهب من فورهِ إلى حِجَّامٍ يحجمهُ ... ليطفئ عنه الدم بإخراج الدم ؛ وهذه هي الطريقة التي يصلحُ بها مجانينُ العشاق ، ولو تبدَّلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحرَ الحب .

قال « نابغة القرن العشرين » : « فإن بطلت هذه الأشفية الستة ، وبقي الرجلُ جُمُوحاً لا يُردُّ عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع .

« الدواء السابع : أن يُضربَ صاحبُ المشكلة خمسين قناةً يُصكُّ بها ^(١) واقعةً منه حيث تقع من رأسه وصدره وظهره وأطرافه ، حتى ينهشمَ عظمه ، وينقصَ صلْبُهُ ، وينشُدَّ رأسُهُ ، ويتفرسَ جلده ؛ ثم تُطلى جراحُهُ وكُسُورُهُ بالأظلية والمراهم ، وتوضعُ له الأضمدةُ والعصائب ، ويُترك حتى يبرأ على ذلك : أعرجٌ مُتَحَلِّلاً مبعثرَ الخلق مكسورَ الأعلى والأسفل ، فإن في ذلك شفاءهُ التامُ من داء الحب إن شاء الله »

قلنا : فإن لم يشفه ذلك ولم يصرف عنه غائلةُ الحب ؟

قال : فإن لم يشفه ذلك فالدواء الثامن .

الدواء الثامن : أن يُعادَ علاجُهُ بالدواء السابع

(١) القنات : هي العصا الغليظة التي يقال لها « الشومة » . والصك خاص في ضرب الرأس ، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة في هذا العلاج ... فقد جاز استعمال الصك في الجسم كله كما رأيت .

المشكلة

٣

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل
الرأى الواحد ، من وجوب إمساك الزوجة والاقبال عليها . وإرسال « تلك »
والانصراف عنها ، وأن يكون للرجل في ذلك عزم لا يتقلقل ومضاء لا ينثنى ،
وأن يصبر للنفرة حتى يستأنس منها فإنها ستتحول ، ويجعل الأنأة بإزاء الضجر
فإنها تصلحه ، والمروءة بإزاء السكره فإنها تحمله ، وليترك الأيام تعمل عملها فإنه
الآن يعترض هذا العمل ويعطله ، وإن الأيام إذا عمت فستغير وتبدل ؛
ولا يستقل القليل تكون الأيام معه ، ولا يستكثر الكثير تكون الأيام عليه .
والعديد الأ كبر من كتبوا إلى ، يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيان
الذى وضعناه على لسانه في المقال الأول ، ويحاسبونه به ، ويقيمون منه الحجة عليه ،
ويقولون له : أنت اعترفت ، وأنت أنكرت ، وأنت رددت على نفسك ، وأنت
نصبت الميزان فكيف لا تقبل الوزن به ؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا
نحن ، وأن ذلك أسلوب من القول أدركناه ونحلناه ذلك الشاب ، ليكون فيه
الاعتراض وجوابه ، والخطأ والرد عليه ؛ ولنظروا به الرجل كالأبله في حيرته
ومشكلته ، تنفيراً لغيره عن مثل موقفه ، ثم لنحرك به العليل الباطنة في نفسه هو ،
فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا قرأ قصة نفسه
قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل ، وتلمح ما خفي عليه فيما ظهر له ،
واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق ، وعرف كيف يخص بين الواجب

والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاج الماء والخمر . وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدة منحلة في لسان صاحبها ، وبقى أن يُدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي .

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ، ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فيما أُلهموا من هذه الدعوة ، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجُنَّ مجنونين : أحدهما في الداخل من عقله ، والثاني في الخارج منه ؛ فأصبح لا يبالي بالإثم والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الخطوة والسرور عند الأخرى ؛ فتعدى طوره مع المراتين جميعاً ، وظلم الزوجة بأن استلب حقتها فيه ، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية .

وقد تمنى أحدُ القراء من فلسطين^(١) أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب ، ويضعه موضع صاحب المشكلة ، ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرفه على ما يشاء ، ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب . وهذا رأيٌ خفيفٌ جيد ، فإن العاشق الذي يتلعب الحب به ويصدّه عن زوجته ، لا يكون رجلاً صحيحَ الرجولة ، بل هو أسخفُ الأمثلة في الأزواج ، بل هو مجرمٌ أخلاقى ينصبُّ لزوجه من نفسه مثالَ العاهر الفاسق ، ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدرى أو لا يدرى ؛ بل هو غبيٌّ ، إذ لا يعرف أن انفرد زوجته وتراجعها إلى نفسها الحزينة يُنشئ في نفسها الحزين إلى رجل آخر ؛ بل هو مغفلٌ ، إذ لا يدرك أن شريعة السنِّ بالسنِّ والعينِ بالعينِ ، هي بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل

(١) هذه الآراء التي سنقلها قد تصرفنا في جميعها بالعبرة ، ولكننا لم نخرج عما يرى إليه صاحب الرأي وما أقام رأيه عليه .

والمرأة التي تجد من زوجها الكراهية لا تعرفها أنها الكراهة إلا أول
أول؛ ثم تنظر فإذا الكراهة هي احتقارها وإهانتها في أخص خصائصها النسوية،
ثم تنظر فإذا هي إثارة كبريائها وتحديها، ثم تنظر فإذا هي دفع غيرتها أن تعمل
على إثبات أنها جديرة بالحب، وأنها قادرة على النعمة والمجازاة؛ ثم تنظر فإذا
برهان كل ذلك لا يجيء من عقل ولا منطق ولا فضيلة، وإنما يأتي من
رجل..... رجل يحقق لها هي أن زوجها مغفل وأنها جديرة بالحب.

وكان هذا المعنى هو الذي أشارت إليه الأديمة (ف. ز) وإن كانت لم
تبسطه، فقد قالت: «إن صاحب هذه المشكلة غبي، ولا يكون إلا رجلاً مريضاً
النفس مريض الخلق، وما رأيت مثله رجلاً أبعد من الرجل... ومثل هذا هو
في نفسه مشكلة فكيف تحل مشكلته؟ إنه من ناحية زوجته مغفل، لا وصف
له عندها إلا هذا؛ ومن جهة حبيبته خائن، والخيانة أول أوصافه عندها.
« وهذا الزوج يُسمم الآن أخلاق زوجته ويُفسد طباعها، وينشئ لها قصة
في أولها غباوته وإثمه، وسيتركها تُسم الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكون آخرها.
وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلمات يعتقدن أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً،
هم كاذبون في ادعاء الحب، فليس منهم إلا الغواية؛ أو هم محبون يكذب الأمل
بهم على النساء، فليس منهم إلا الخيبة.

قالت: «وخير ما تفعله صاحبة المشكلة أن تصنع ما صنعتته أخرى لها مثل
قصتها: فهذه حين علمت بزواج صاحبها قذفت به من طريق آمالها إلى الطريق
الذي جاء منه، وأنزلته من درجة أنه كل الناس إلى منزلة أنه ككل الناس،
ونبتت حزمها وعزيمتها وكبرياءها، فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن
يكون سبباً لشقاء أو حيرة أو هم، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب الذي

تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجها ، فإذا مشت فيه امرأة إلى غير زوج ، انحرف بها من هنا ، واعوجَّ لها من هنا ، فلم ينته بها في الغاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غبارُه ، وما غبارُ هذا الطريق إلا سواد وجه المرأة

« وقد جهد الرجلُ بصاحبه أن تتخذَه صديقاً ، فأبت أن تتقبَّل منه برهان خيبتها . . . وأظهرت له جفوةً فيها احتقار ، وأعلمته أن نكثَ العهد لا يخرج منه عهد ، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمها وروحها ومعناها ، فإما أن تكون حينئذ أسقط ما في الحب ، أو أ كذب ما في الصداقة .

ثم قالت الأديبة : « وهى كانت تحبه ، بل كانت مُستَهامةً به ، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب ، لا تريد في الحبيب رجلاً هو رجلُ الحيلة عليها فتخدع به ، ولا رجلُ العار فتُسبُّ به ؛ وفي طهارة المرأة جزاءُ نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التحمُّن ؛ وهذا القلبُ الطاهرُ إذا فقد الحبَّ لم يفقد الطمأنينة ، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس ، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال ، والصبرُ للمجاهدة .

قالت : « فعلى صاحبة المشكلة التى عرفت كيف تحب وتُحِبُّ ، أن تعرف الآن كيف تحتقر وتزدرى » .

وللأديبة (ف.ع) رأى جَزَلٌ مُسدَّدٌ ؛ قالت : « إنها هى قد كانت يوماً بالوضع الذى فيه صاحبةُ المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنفتحت أن تكون لصّة قلوب ، وقالت في نفسها : إذا لم يُقدَّر لى ، فإن الله هو الذى أراد ، وإني أستحى من الله أن أحاربه في هذه الزوجة المسكينة ! ولئن كنتُ قادرةً على الفوز ، إن انتصارى عليها عند حبيبي هو انتصارها علىَّ عند ربى ، فلا أخسر هذا الحبَّ لأُراجح الله برأس مال عزيز خسرته من أجله ، ولا أبق على أخلاق الرجل ليبقى رجلاً

لامراته ، فما يسرنى أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب ، ولا معنى لحب
سيمكون فيه اللؤم بل سيمكون الألام اللؤم :

قالت : «وعلمت أن الله (تعالى) قد جعلنى أنا السعادة والشقاء فى هذا الوضع
ليرى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتى أو حقتى ،
وصحّ عندى أن حسن المداخلة فى هذه المشكلة هو الحل الحقيقى للمشكلة .

قالت : « فتغيرت لصاحبى تغيراً صناعياً ، وكانت نيتى له هى أكبر أعوانى
عليه ، فما لبث هذا الانقلاب أن صار طبيعياً بعد قليل ؛ وكنت أستمّد من
قلب امرأتى إذا اختاننى الضعف أو نالنى الجزع ، فأشعر أن لى قوة قلبين .
وزدت على ذلك النصح لصاحبى نصحاً مُيسراً قائماً على الإقناع وإثارة النخوة
فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وترققت فى التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزة
الوفاء لا تكون بالخيانة ، ويثبت له أنه إذا طلق زوجته من أجلى فما يصنع
أكثر من أن يقيم البرهان على أنه لا يصلح لى زوجاً ؛ ثم دلّته برفق على أن
خير ما يصنع وخير ما هو صانع لإرضائى أن يقلدنى فى الإيثار وكرم النفس ،
ويحتدبنى فى الخير والفضيلة ، وأن يعتقد أن دموع المظلومين هى فى أعينهم
دموع ، ولكنها فى يد الله صواعق يضرب بها الظالم .

قالت : « وبهذا وبعد هذا انقلب حبى لى إكباراً وإعظاما ، وسما فوق أن
يكون حبا كالحب ؛ وصار يجذبنى فى ذات نفسه وفى ضميره كالتو بيخ له كلما أراد
بامراته سوءاً أو حاول أن يعصّ منها فى نفسه . واعتاد أن يُكرمها فأكرمها ،
وصلحت له نيته فاتصل بينهما السبب ، وكبرت هذه النية الطيبة فصارت ودّاً ،
وكبر هذا الودّ فعاد حبّاً ، وقامت حياتهما على الأساس الذى وضعته أنا بيدي ،
أنا بيدي

أما أنا...؟»

وكتب فاضل من حلوان : « إن له صديقاً ابتلى بمثل هذه المشكلة فركب رأسه فما رده شيء عن الزواج بحبيبته ، وزُفَّ إليها كأنه ملكٌ يدخل إلى قصر خياله ؛ وكان أهله يعدلونه ويلومونه ويخلصون له النصيح ويجهدون في أمره جهدهم ، إذ يرون بأعينهم ما لا يرى بعينه ، فكان النصيح ينتهي إليه فيظنّه غشاً وتلبساً ، وكان اللوم يبلغه فيراه ظمأً وتحاملاً ، وكان قلبه يُترجم له كلّ كلمة في حبيبته بمعنى منها هي لا من الحقائق ، إذ غلبت على عقله فيها يعقل ، وذهبت بقلبه فيها يحس ، واستبدت بإرادته فلها ينقاد ؛ وعادت خواطره وأفكاره تدور عليها كالحواشي على العبارة المغلقة في كتاب ؛ واستقرت له فيها قوة من الحب ، أمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كُن ... »

« ثم مضت الليلة بعد الليلة ، وجاء اليوم بعد اليوم ، والموج يأخذ من الساحل الذرة بعد الذرة والساحل لا يشعر ، إلى أن تصرمت أشهر قليلة ، فلم تلبث الطبيعة التي ألقت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والمملكة ، وقصة التاج والعرش ، وحديث الدنيا ومُلك الدنيا — لم تلبث أن انتقلت على فجأة فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهمك ، وكشفت عن غرضها الخفيّ وحلّت العقدة الروائية . »

قال : « ففرغ قلب المرأة من الحب ، وطمى إلى الشكر والنشوة مرة أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة وبرَدَ قلب الرجل ، وكان الشيطان الذي يتسعر فيه ناراً شيطاناً خبيثاً ، فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض » وجدت الحياة وهزل الشيطان ، فاستحَقَّ الرجل نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة ، واستجهلت المرأة عقلها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً ، وأنكرها إنكاراً أوْله اللاملة ، وأنكرته إنكاراً آخر أوله التبرُّم ؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذي مضى !

« وضربت الحياة ضربةً أو ضربتين فإذا أُبْنِيَةُ الْخَيَالِ كُلُّهَا هَدَمَ هَدَمٌ ، وإذا الطبيعة مؤلفة الرواية قد ختمت روايتها وقوّضت المسرح ، وإذا الأحلام مفسّرة بالعكس : فالحب تأويله البغض ، واللذة تفسيرها الألم ، و « البودرة » معناها الجير وتغيّر كلُّ ما بينهما إلا الشيطان الذى بينهما ، فهو الذى زوج وهو بعينه الذى طلق »

وكتب أديب من بغداد يقول : « إنه كان فى هذا الموضع القلق موضع صاحب المشكلة ، وإن ذات قُرباه التى سُمِّيتُ عليه كانت مُلَفَّفةً له فى حُجَبٍ عِدَّةٍ لا فى حجاب واحد ، وقد وُصِفَتْ له باللغة . . . وفى اللغة : ما أَحْسَنَ وما أَجَلْ وما أَظرف ، وكأنها ظُبِّيٌّ يَتَلَفَّتْ ، وكأنها عُصْنٌ يَمِيلُ ، وكأن سُنَّةَ وَجْهِهَا الْبَدْرُ ! قال : « وشُبِّهَتْ له بكل أدوات التشبيه ، وجاءوا فى أوصافها بمذاهب الاستعارة والحجاز ، فأخذها قصيدةً قبل أن يأخذها امرأة ؛ وكان لم ير منها شيئاً ، وكانت لغة ذوى قرابته وقرابتها كلغة التجارة فى السنة حُذَّاق السانسة : ما بهم إلا تَنْفِيْقُ السَّلْعَةِ ثم يَحْلُون بين المشتري وحظّه .

قال : « فرسخ كلامهم فى قلبى ، فعقدتُ عليها ، ثم أَعْرَسْتُ بها ، ونظرتُ فإذا هى ليست فى الكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما ثم تعرفتُ فإذا هى تكبرنى بخمس عشرة سنة ورأيتُ انّضاعَ حالها عندى فأشفقتُ عليها ، وبتُّ الليلة الأولى مُقْبِلاً على نفسى أوامرها وأناجيها ، وأنظر فى أى موضع رَأَيْتُ أنا ؛ وتأمّلتُ القصة ، فإذا امرأة بين رحمة الله ورحمى ، فقلتُ : إن أنا نزعْتُ رحمى عنها لِيُوشِكَنَّ اللهُ أن ينزع رحمته عني ، وما بيني وبينه إلا أعمالى ؛ وقلتُ : يا نفسى ، إنها إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله . وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام

وذنوبٍ وغلطاتٍ ، فلا تجعل هذه المرأة حسنتي عنده ، وما على من عمرٍ سيمضي وتبقى منه هذه الحسنة خالدةً مخلدةً .

« إنها كانت حاجة النفس إلى المتاع فانقلبت حاجة إلى الثواب ، وكانت شهوة فرجعت حكمة ، وكنت أريد أن أبلغ ما أحب فساأبلغ ما يجب . ثم قلت : اللهم إن هذه امرأة تنتظرها السنة الناس إما بالخير إذا أمسكتها ، وإما بالشر إذا طلقها ، وقد احتمت بي ؛ اللهم ساء كفيها كل هذا لوجهك الكريم !

قال : « ورأيتني أكون الأم الناس لو أني كسفتها للناس وقلت انظروا ... فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أرضاها ، وجعلت أمسحها وألايتها في القول ، وعدلت عن حظ نفسي إلى حظ نفسها ^(١) ، واستظهرت بقوله تعالى : « وعسى أن تسكرها شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ؛ واعتقدت الآية الكريمة أصح اعتقاد وأتمه ، وقلت اللهم اجعلها من تفسيرها .

قال : « فلم تمض أشهر حتى ظهر الحمل عليها ، فألقى الله في نفسي من الفرح ما لا تعدله الدنيا بخدافيرها ، وأحسست لها الحب الذي لا يقال فيه جميل ولا قبيح ، لأنه من ناحية النفس الجديدة التي في نفسها (الطفل) . وجعلت أرى لها في قلبي كل يوم مداخل ومخارج دونها العشق في كل مداخله ومخارجه ، وصار الجنين الذي في بطنها يتلأل نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها رجاً من الزمن فيه الأمل الخلو المتنظر .

قال : « وجاءها المخاض ، وطرقت بعلام ؛ وسمعت الأصوات ترتفع من حُجرتها : ولد ! ولد ! بشرُوا أباه . فوالله لكان ساعة من ساعات الخلد وقعت في زمني أنا من دون الخلق جميعاً وجاءتني بكل نعيم الجنة ؛ وما كان مُلكُ العالم — لو ملكته — مستطيعاً أن يهيني ما وهبتني امرأتى من فرح تلك

(١) استوفينا بيان هذه المعاني في مقالة (قبح جميل) .

الساعة ؛ إنه فرحُ إلهيُّ أحسست بقلبي أن فيه سلامَ الله ورحمته وبركته .
ومن يومئذٍ نطقَ لسانُ جهالها في صوتِ هذا الطفل . ثم جاء أخوه في العام الثاني ،
ثم جاء أخوها في العام الثالث ؛ وعرفتُ بركة الإحسان من اللطف الرباني في
حوادث كثيرة ، وتنفستُ على أنفاسُ الجنة وفسرتُ الآيةَ الكريمةَ نفسها
بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرُها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح .

ويرى صديقنا الأستاذ (م . ح . ج) أن صاحبَ المشكلة في مشكلةٍ من
رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألفَ روح لما استطاع أن يعاشرَ زوجته بوحدة
منها ، إذ هي كلها أرواحُ صيبانية تبكي على قطعةٍ من الحلوى ممثلة في الحبيبة ...
ولو عرف هذا الرجلُ فلسفةَ الحب والكره ، لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه
الطفلي في هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصلَ بين الحب والكره
متزوعٌ من نفسه ، إذ الفاصلُ في الرجل هو الحزم الذي يُوضع بين ما يجب
وما لا يجب .

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة فكلُّ حل لمشكلته هو مشكلةٌ جديدة ،
ومثله بلاءٌ على الزوجة والحبيبة معاً ، وكلتاها بلاءٌ عليه ، وهو بهذه وهذه
كمحكوم عليه أن يشقَّ بامرأة لا بمشقة ...

هذا عندي ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثبت أنه أحدهما ؛ فإن كان
طفلاً فمن السخرية به أن يكون متزوجاً ، وإن كان رجلاً فليحلَّ هو المشكلة
بنفسه ، وحلها أيسرُ شيء : حلها تغييرُ حالته العقلية .

ونحن نعتذر للباقيين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان
الغرضُ من الاستفتاء أن نظفرَ بالأحوال التي تشبه هذه الحادثة ، لا بالآراء
والمواعظ والنصائح . أما رأينا في البقية الآتية .

المشكلة

٤

صاحب هذه المشكلة رجل أعورُ العقل . . . يرى عقله من ناحية واحدة ، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته ؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً في إشكالها ، ولوجد في ناحيتها الأخرى خطأ لنفسه قد أصابه ، ومذهباً في السلامة لم يخطئه ؛ وكان في هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به ، وكان يصبح أشقى الخلق لو رماه الله في الجهة التي أنقذه منها ، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثاني .

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التي بنيت بها ، كانت هي التي أكرهت على الرضى بك ، ومثلت على ذلك من أيها ، ثم كنت أنت لها عاشقاً ، وبها صباً ، وفيها متدلاً ؛ ثم كانت هي تمس رجلاً غيرك ، وتصبو إليه ، وتفتن به ، وقد احترقت عشقاً له ؛ فإذا جُلّوها عليك رأيتك البغيض المقيت ، ورأتك الدميم الكريه ، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل ؛ وتمد لها يدك فتتحامها تحاميهما الجذوم أو الأبرص ، وتسكها فتحم برّداً من ثقل كلامك ، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حباين من مشمقين ، وتتجسب إليها فإذا أنت أسمعج خلق الله عندها ، إذ تحاول في ندالة أن تحل منها محل حبيبها ؛ وتقبل عليها بوجهك فتراه من تقدرها إياك ، واشمئزها منك ، وجه الذبابة مكبراً بفضاعة وشناعة في قدر صورة وجه الرجل ، ليتجاوز حد القبح

إلى حدِّ الغثَاثة ، إلى حدِّ انقلابِ النفسِ من رؤيته ، إلى حدِّ القَيْءِ إذا دنأ وجهك من وجهها...؟!

ماذا أنت قائل يا صاحب المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك (الرجل الثاني) لا المرأة الثانية ؟ ألسْتَ الآن في رحمة من الله بك ، وفي نعمةٍ كفتْ عنك مُصيبة ، وفي موقفٍ بين الرحمة والنعمة يقتضيك أن ترقبَ في حكمك على هذه الزوجة المسكينة حكمَ الله عليك ؟

تقول : الحب والخيال والفن . وتذهبُ في مذاهبها ؛ غيرَ أن « المشكلة » قد دلت على أنك بعيدٌ من فهم هذه الحقائق ، ولو أنت فهمتها لما كانت لك مشكلة ، ولا حسبتَ نفسك منحوسَ الحظ محروماً ، ولا جهلتَ أن في داخل العين من كل ذي فنٍّ عيناٌ خاصةً بالأحلام كيلا تعمى عينه عن الحقائق .

الحب لفظٌ وهى موضوع على أضداد مختلفة : على بُرْكانٍ وروضة ، وعلى سماءٍ وأرض ، وعلى بكاءٍ وضحك ، وعلى هموم كثيرةٍ كلها هموم ، وعلى أفراحٍ قليلةٍ ليست كلها أفراحاً ؛ وهو خِداعٌ من النفس يضع كلَّ ذكائه في المحبوب ، ويجعلُ كلَّ بلاهته في الحب ، فلا يكونُ المحبوبُ عند محبه إلا شخصاً خيالياً ذا صفة واحدةٍ هى الكمال المطلق ، فكأنه فوق البشرية في وجودٍ تامٍّ الجمال ولا عيبَ فيه ، والناسُ من بعده موجودون في العيوب والحاسن .

وذلك وهم لا تقومُ عليه الحياة ولا تصلحُ به ، فإنما تقومُ الحياةُ على الروح العملية التى تضعُ في كل شىء معناه الصحيح الثابت ؛ فالحبُّ على هذا شىء غيرُ الزواج ، وبينهما مثلٌ ما بين الاضطراب والنظام ؛ ويجب أن يفهم هذا الحبُّ على النحو الذى يجعله حبا لا غير ، فقد يكون أقوى حب بين اثنين إذا تحاببا هو أضعف زواجٍ بينهما إذا تزوجا .

وذو الفن لا يُفِيدُ من هذا الحب فائدته الصحيحة إلا إذا جعله تحت عقله لا فوق عقله ، فيكون في حبه عاقلاً بجنونٍ لطيف ... ويترك العاطفة تدخلُ في التفكير وتضعُ فيه جمالها وثورتها وقوتها ؛ ومن ثمَّ يرى مجاهدةً اللذة في الحب هي أسمى لذاته الفكرية ، ويعرفُ بها في نفسه ضرباً إلهياً من السَّكينة يؤليه القدرة على أن يقهر الطبيعة الإنسانية ويصرِّفها ويُدعِ منها عمله الفنى العجيب . وهذا الضربُ من السمو لا يبلغه إلا الفكرُ القويُّ الذى فاز على شهواته وكبَحَها وتحَمَّلها تغلَّى فيه غليانَ الماء في المرَجَل ليخرجُ منها ألطفُ ما فيها ، ويحوِّلها حركةً في الروح تنشأ منها حياةٌ هذه المعانى الفنية ؛ وما أشبه ذا الفن بالشجرة الحية : إن لم تضبطْ ما في داخلها أصحَّ الضبط ، لم يكن في ظاهرها إلا أضعفُ عملها .

ومثلُ هذا الفكرِ العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة ، وهو في قوته يجمعُ بين كرامة هذه وقُدسيَّة هذه ، لأن إحداها تُوازنُ الأخرى ، وتُعَدُّها في الطبع ، وتحفف من طغيانها على الغريزة ، وتُسيكُ القلب أن يتبدَّد في جوِّه الخيالى .

والرجلُ الكاملُ المُفكرُ المُتخيِّلُ إذا كان زوجاً وعَشِيقاً ، أو كان عاشقاً وتزوَّجَ بغير من يهواها ، استطاع أن يبتدعَ لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يمجده العاشق ولا يناله المتزوج ؛ وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتثال حمداً على هيئة واحدة ، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سرُّ من أسرار الإبداع في التثال ، إذ تلك هيئة استقرار الأسمى في سموه ؛ فإن الزوجة أمومةٌ على قاعدتها ، وحياةٌ على قاعدتها ؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها ، وهى معانٍ شاردةٌ لا تستقرُّ ، وزائلةٌ لا تثبت ، وفنها كله في أن تبقى حيث هى كما هى ، فجمالها يحيا كلَّ يوم حياةً

جديدة ما دامت فنّا محضاً ، وما دام سرُّ أنوثتها في حجابها .

ومتى تزوج الرجل بمن يحبها انتهك له حجاب أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر ، وعادت له غير من كانت ، وعاد لها غير من كان ؛ وهذا التحول في كل منهما هو زوال كلٍّ منهما من خيال صاحبه ؛ فليس يصالح الحبُّ أساساً للسعادة في الزواج ، بل أحرَّ به إذا كان وجداً واحترافاً أن يكون أساساً للشؤم فيه ؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعيّن لهما درجةً من درجة في الشغف والصبابة والخيال ، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد ، فإن لم يكن الزوج في هذه الحالة رجلاً تامَّ الرجولة ، أفسدت الحياة عليه وعلى زوجته صبيانيةً روحه فالتس في الزوجة ما لم يعد فيها ، فإذا انكشف له فراغها ذهب يلتئم في غيرها ، وكان بلاءً عليها وعلى نفسه وعلى أولاده قبل أن يولدوا ؛ إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها ، ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسي ؛ وما المرأة إلا حسنها وشعورها^(١) .

فالشأن هو في تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وفحولتها ، إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه . وما من رجل قوى الرجولة إلا وأساسه ديانته وكرامته ؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع في مثل هذه المشكلة ثم تظلم به الزوجة أو يحيف عليها أو يفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العشرة ، بله أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصيبة) فيجأفها ويبالغ في إعفائها ويشفي غيظه بإذلالها واحتقارها .

(١) هذا كله من بعض الحكمة في أن الإسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد ، إذ لا يعرف الدين الإسلامي من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبنى بما بينهما ، وتضان بما يصونها . وقد أشرنا إلى حكمة أخرى في المقالة الأولى من المشكلة .

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك فى بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك ؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءة ونذالة فى معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها ؟

إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة ؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير ، بل يكدّ ويعمل ويصبر على ما يعانیه من ذلك ؛ ومن كان محباً لا يستزّل المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق ؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها ؛ وإنما الإنسان من أظهر فى كل ذلك ونحو ذلك أثره الإنسانى لا أثره الوحشى ، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لا بقاعدة الفرد . وإنما الدين فى السمو على أهواء النفس ؛ ولا يتسأى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بانزالتها على حكم القاعدة العامة ، فمن هناك يتسأى ، ومن هناك يبدو علوه فيما يبلغ إليه

وإذا حلّ اللصُّ مشكلته على قاعدته هو فقد حلّها ، ولكنه حلّ يجعله هو بمجملته مشكلة للناس جميعاً ، حتى ليرى الشرع فى نظراته إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التى خلقت له فيأمر بقطعها .

وعلى هذه القاعدة فالجنس البشرى كله ينزل منزلة الأب فى مناصرته لزوجة صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها ، ما دام قد وقع عليها الظلم من صاحبها ، وهذا هو حكمها فى الضمير الإنسانى الأكبر ، وإن خالف ضمير زوجها العدوِّ الثائر الذى قطعها من مصادر نفسه ومواردها . أما حكم الحبيبة فى هذا الضمير الإنسانى فهو أنها فى هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحّاذة رجال

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذذ بها من الوقْدَةِ التي في قلبه ؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون ، وحزن الحكيم غير حزن الطائش ؛ والقلب الإنساني يكاد يكون آلة مخلوقة مع الإنسان لإصلاح ديناه أو إفسادها ؛ فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه ، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيد فيه ، ولا يُخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان . وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي ، أو أصاب ما لا يشتهي ، استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً . يُوجدُه الغنى عن ذلك المحبوب المعلوم ، أو يوجدُه الصبر عن هذا الموجود المسكروه ؛ فتتوازن الأحوال في نفسه وتعتدل للمعاني على فكره وقلبه ؛ وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن^(١) . وما هو فكرُ الحكماء إلا أن يكون مصنعاً ترسلُ إليه المعاني بصورة فيها الفوضى والنقص والألم ، لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية .

يعشق الرجلُ العاثرُ المتزوج ، فإذا الساعة التي أوْبَقَتْه في المشكلة قد جاءت معها بطريقة حلها : فإما ضَرَبَ امرأته بالطلاق ، وإما أهْلَكَهَا باتخاذ الضرة عليها ، وإما عذَّبَهَا بالخيانة والفجور ، لأن بعضَ العبث من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبثُ الطبيعة بهذا الجاهل في غيره ، كأن هذه الطبيعة تطلقُ مدافعها الضخمة على الإنسانية من هذه النفوس الفارغة . . . وليس أسهلُ على الذكر من الحيوان أن يحلَّ مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحلِّ هذا العاثر ، فهو ظافر بالأنثى أو مقتولٌ دونها مادام مطلقاً مخليً بينه وبينها ؛ والحقيقة هنا حقيقته هو ، والسكون كله ليس إلا منفعةً شهوانية ؛ وأسمى فضائله ألا يعجزَ عن نيل هذه المنفعة .

(١) استوفينا هذه المعاني في كثير مما كتبنا ، وبعضها في مقالات (الجمال البائس) . . .

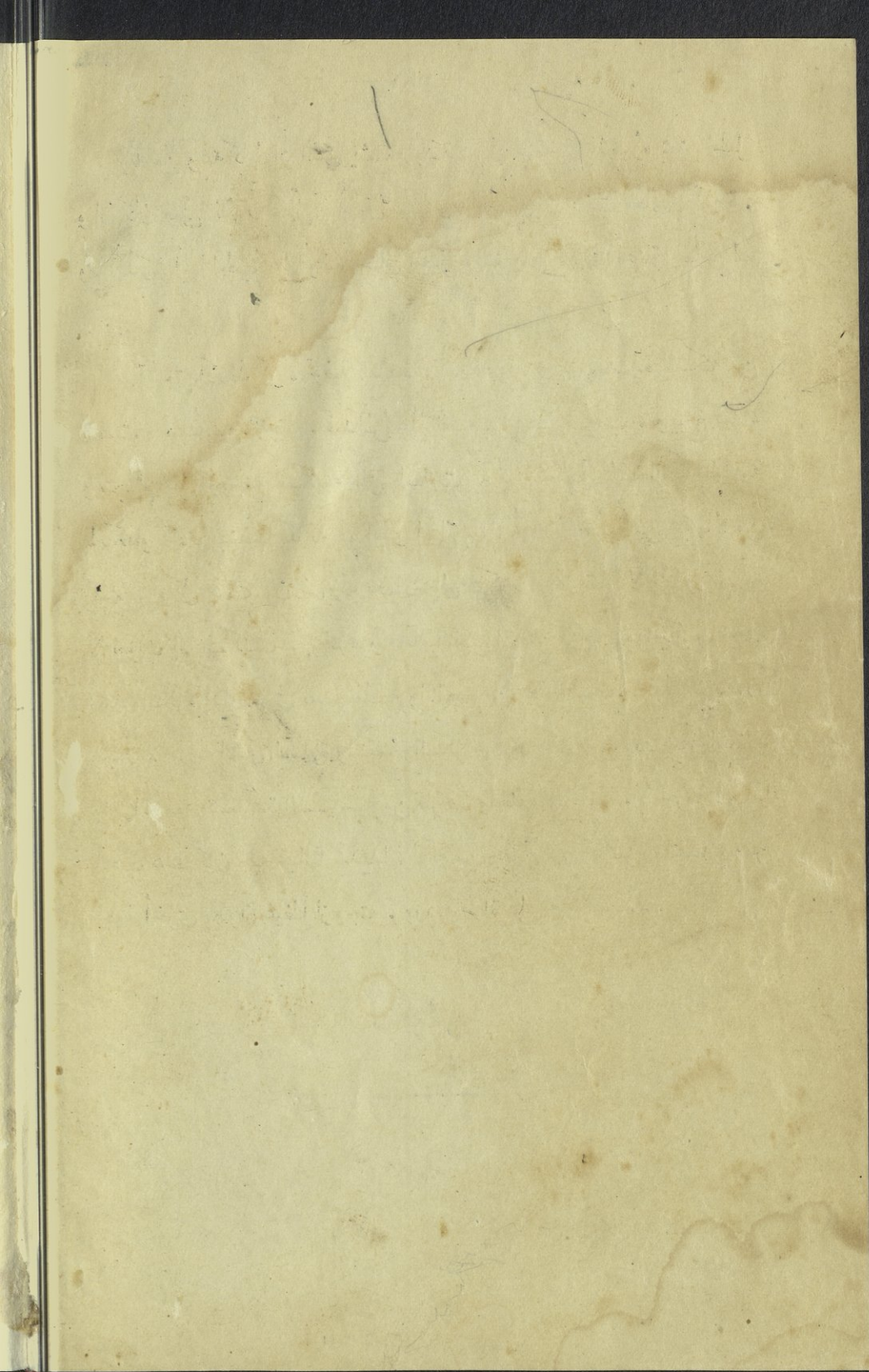
ثم يعشق الرجلُ الحكيمُ المتزوج فإذا لمشكلته وجهٌ آخر ، إذ كان من أصعب الصعب وجودُ رجلٍ يحل هذه المشكلة برجولة ، فإن فيها كرامةَ الزوجة وواجبَ الدين وفيها حق المروءة ، وفيها مع ذلك عبثُ الطبيعة وخداعها وهزلها الذي هو أشدُّ الجِدِّ بينها وبين الغريزة ؛ وبهذا كله تنقلب المشكلة إلى معركة نفسية لا يحسُّها إلا الظفر ، ولا يُعِينُ عليها إلا الصبر ، ولا يُفلح في سياستها إلا تحملُ آلامها ؛ فإذا رزق العاشقُ صبراً وقوةً على الاحتمال فقد هانَ الباقي وتيسرت لذَّةُ الظفر الحاسم ، وإن لم يكن هو الظفر بالحبيبة ؛ فإن في نفس الإنسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينةً للذة الواحدة ، وموقعٌ أرفعُ من موقع ، وأثرٌ أبهجُ من أثر ؛ وألذُّ من الظفر بالحبيبة نفسها عند الرجل الحكيم الظفرُ بمعانيها ، وأكرمُ منها على نفسه كرامَةُ نفسه . وإذا انتصر الدين والفضيلةُ والكرامةُ والعقلُ والفن ، لم يبق لخيمة الحب كبيرُ معنى ولا عظيمُ أثر ، ويتوغلَّ العاشقُ في حبه وقد لبستَه حالةٌ أخرى كما يكظمُ الرجلُ الخليمُ على الغيظ : فذلك يحب ولا يطيش ، وهذا يغتاظ ولا يغضب . والبطلُ الشديدُ البأس لا ينبغُ إلا من الشدائد القوية ، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة ، والتقيُّ الفاضل لا يُعرفُ إلا بين الأهواء المستحكمة . ولعمري إذا لم يستطع الحكيمُ أن ينتصرَ على شهوة من شهوات نفسه ، أو يُبطل حاجةً من حاجاتها ، فماذا فيه من الحكمة ، وماذا فيه من النفس ؟

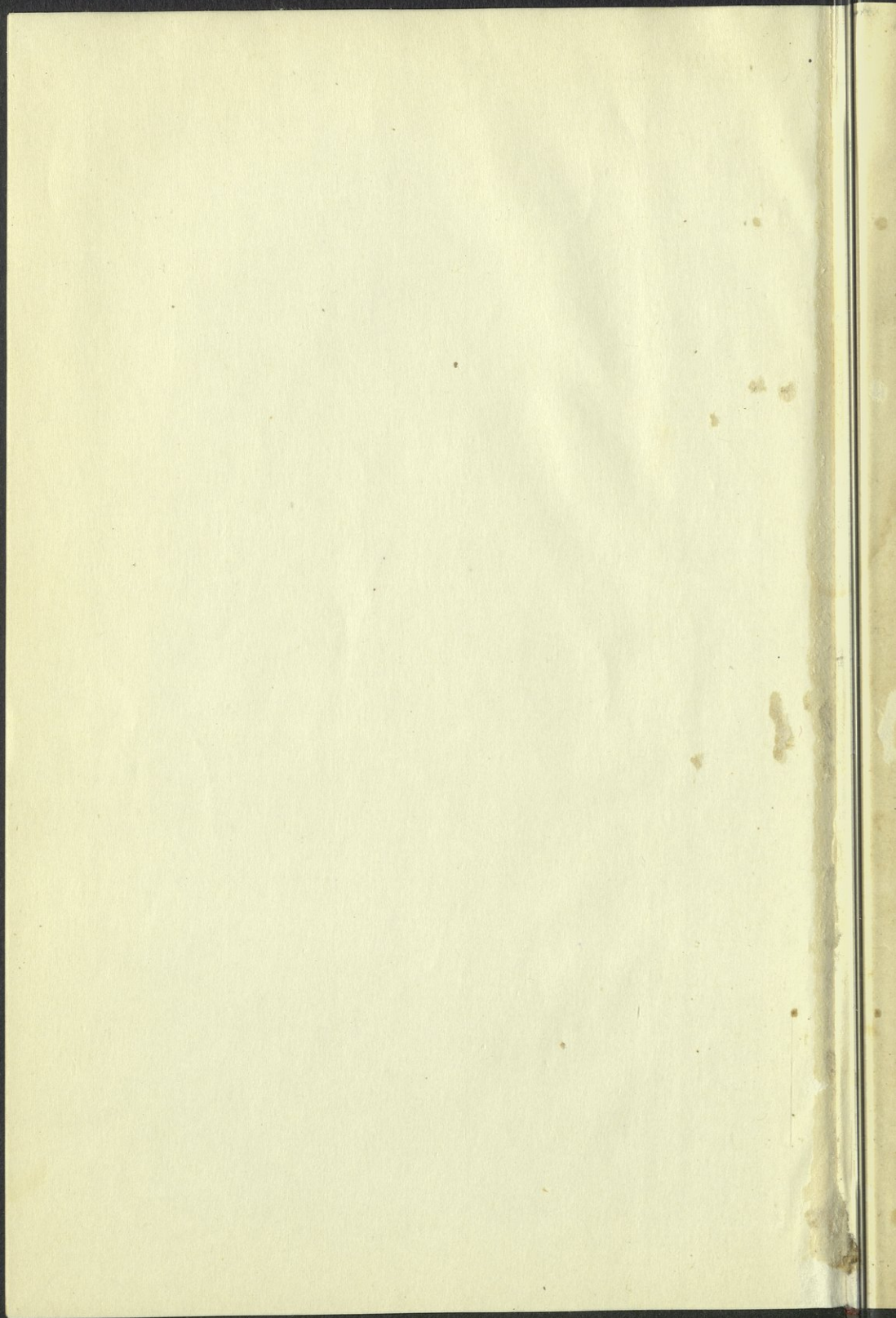
وما عقد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيته ، إلا أنه بخياله الفاسد قد أفسد القوة المصلحة فيه ، فهو لم يتزوج امرأته كلها . . . وكأنه لا يراها أنثى كالنساء ، ولا يُبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين : محبوبةً ومكروهةً ؛ وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله ؛ فلو تعلم كيف يراها لراها ، ولو تعودها لأحبها .

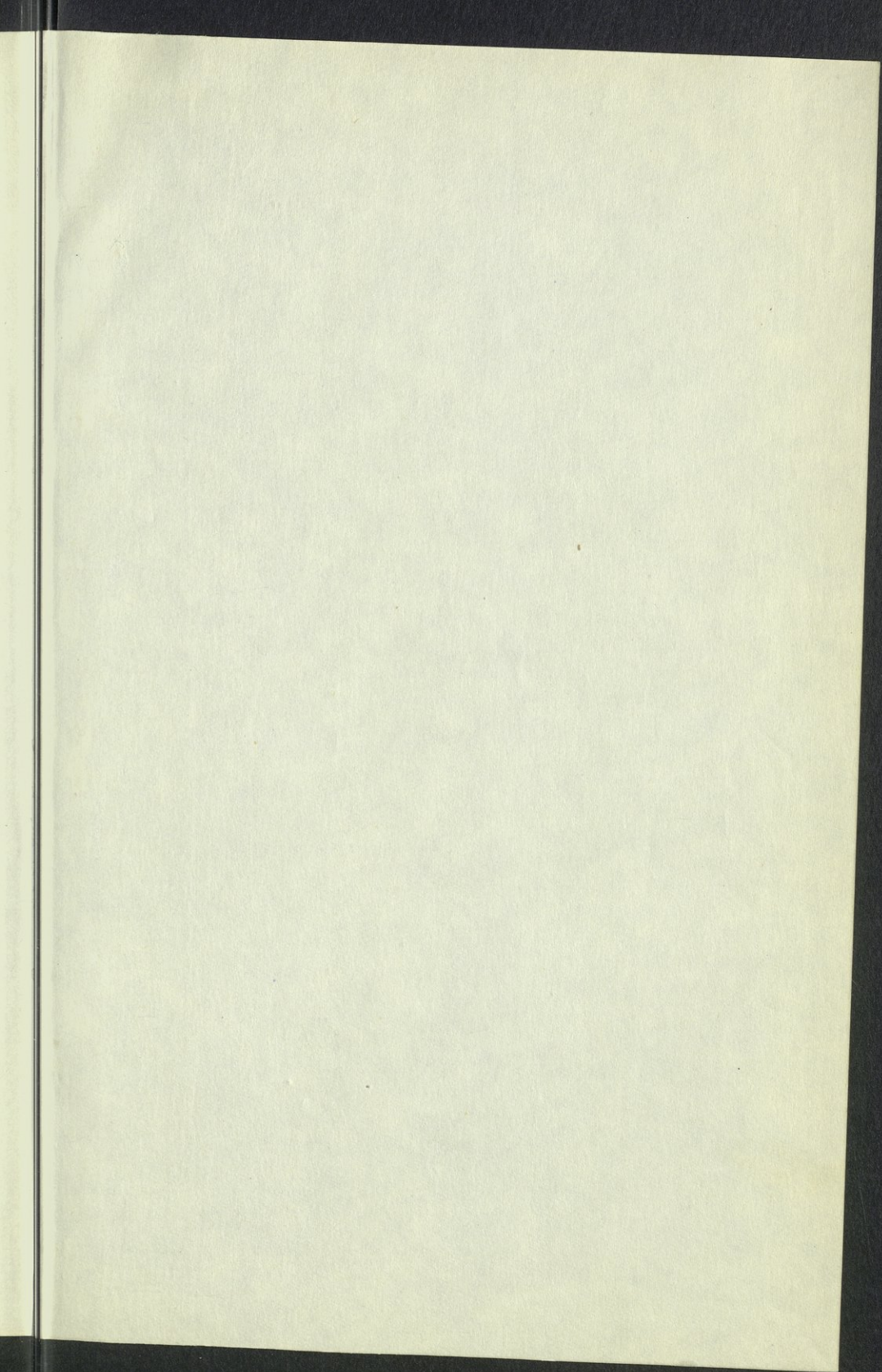
إنه من وهمه كالجواد الذى يشعر بالمقادة فى عنقه ؛ فشعوره بمعنى الحب .
وإن كان معنى ضئيلاً عطل فيه كل معانى قوته ، وإن كانت معانى كثيرة .
وما أقدرك أيها الحب على وضع حبال الخيل والبغال والحمير فى أعناق الناس !

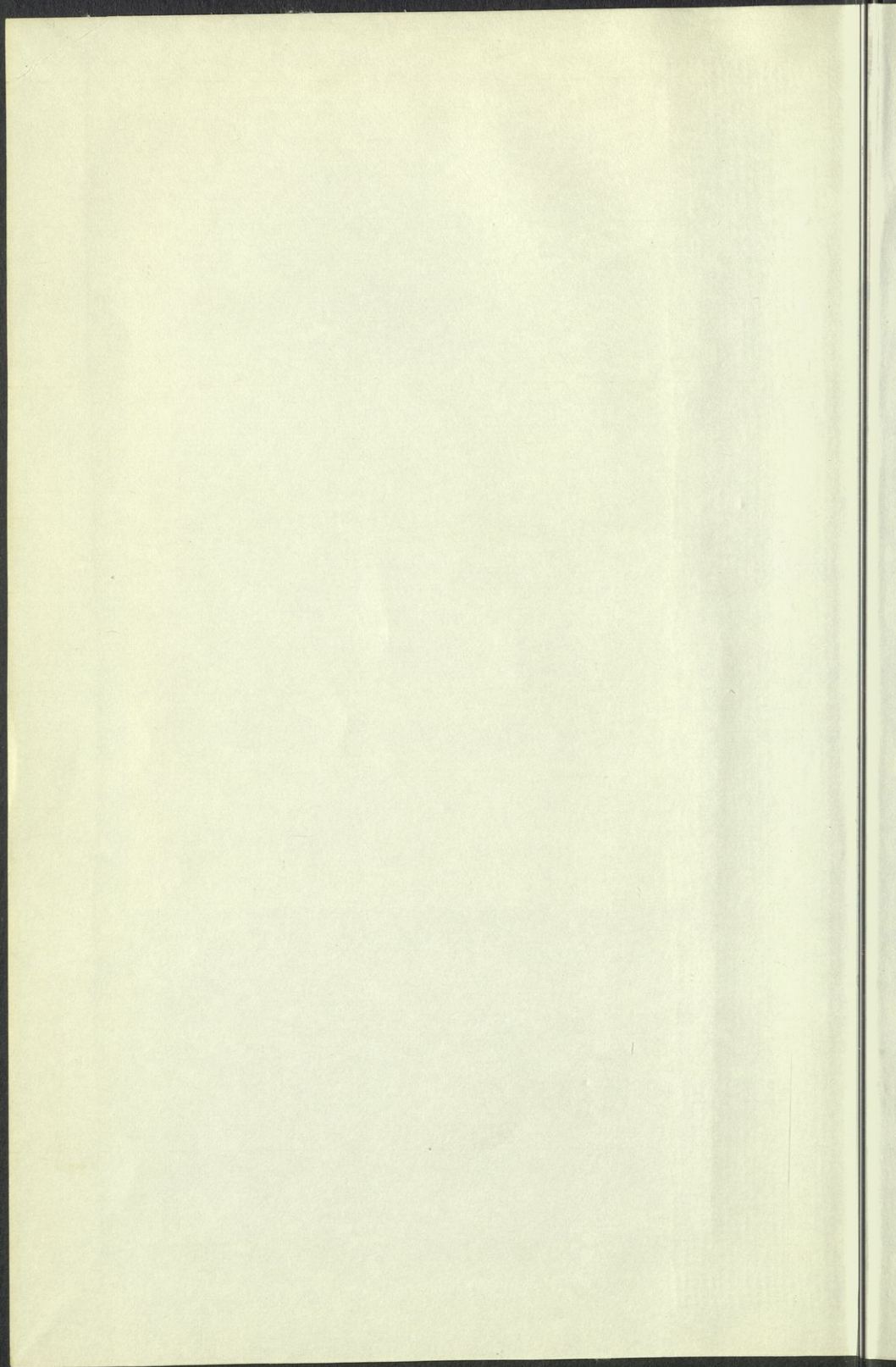
وقد بقى أن نذكر ، توفيةً للفائدة ، أنه قد يقع فى مثل هذه المشكلة من
نقصت فحولته من الرجال ، فيدلس على نفسه بمثل هذا الحب ، ويبالغ فيه ،
ويتجرم على زوجته المسكينة التى ابتليت به ، ويختلق لها العلل الواهية
المكذوبة ، ويُبغضها كأنه هو الذى ابتلى بها ، وكأن المصيبة من قبلها لا من
قبله ؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكره ، فلم تعد إلا صوراً خياليةً
لا تعرف إلا الكذب . وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته
أشد الكره إذا شعر فى نفسه بالمهانة والنقص من عجزه عنها . . . فهذا لا يكون
رجلاً لامرأته إلا فى العداوة والنقمة والكرهية وما كان من باب شفاء الغيظ ،
وامراته معه كالمعاهدة السياسية من طرف واحد : لا قيمة ولا حرمة ؛ وإذا
أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً ، لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه ، ومن
جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته ، ورداً بامرأة على امرأة

٥٨
١٠٠
—
٥٨









DATE DUE

11 APR 2001 Circulation Dept. 5	24 APR 2001 Circulation Dept. 5
1 MAR 2005 Circulation Dept. 5	
31 MAR 2006 Circulation Dept. 5	
JAFET LIB. 7 AUG 2017 Circulation Dept. 5	

A. U.

الرافعي، مصطفى، صادة،
وحي القلم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039149



